

المقاومة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإنجاز

مازن قمصية

مواطن: المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية

رام الله - فلسطين

٢٠١١

Popular Resistance in Palestine: A History of Hope and Empowerment

Mazin Qumsiyeh

© Copyright: MUWATIN - The Palestinian
Institute for the Study of Democracy
P.O.Box: 1845 Ramallah, Palestine

2011

ISBN 978-9950-312-65-4

جميع الحقوق محفوظة
مواطن، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية
ص.ب ١٨٤٥، رام الله، فلسطين
هاتف: ١١٠٨ ٢٢٩٥ ٠٠٩٧٠، فاكس: ٢٨٥ ٠٢٩٦ ٠٠٩٧٠
www.muwatin.org
٢٠١١

تصميم وتنفيذ مؤسسة ناديا للطباعة والنشر والإعلان والتوزيع
رام الله - هاتف ٠٩١٩ ٢٩٦ - ٠٢

ما يرد في هذا الكتاب من آراء وأفكار يعبر عن وجهة نظر المؤلف ولا يعكس
بالضرورة موقف مواطن - المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية.

إفرا،

إلى الشهداء الذين سَطَّروا بدمائهم سطور العزّة والكرامة،
إلى اللاجئين الذين يتشبثون بحق العودة المقدس (وإنّهم لعائدون)،
إلى كل الذين يعانون ويقاومون لتحقيق العدل والحرية،
إلى الشعوب العربية المقاومة.

المحتويات

٧	شكر وتقدير
٩	الفصل الأول مقدمة
١٩	الفصل الثاني ما نريد: التعددية، العدالة، حقوق الإنسان
٢٧	الفصل الثالث منطق المقاومة الشعبية
٣٩	الفصل الرابع السياق المحلي للمقاومة الشعبية
٤٥	الفصل الخامس المقاومة الشعبية خلال فترة الحكم العثماني
٦١	الفصل السادس وعد بلفور، البراق، وحشد الصهاينة (١٩١٧-١٩٣٥)
١٢٥	الفصل السابع الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩
١٤١	الفصل الثامن ١٩٣٩-١٩٤٨: فترة الدمار حتى النكبة
١٥١	الفصل التاسع من النكبة وحتى النكسة ١٩٤٨-١٩٦٧
١٦٥	الفصل العاشر مقاومة للإضطهاد تحت دولة واحدة ١٩٦٧-١٩٨٦

١٩٥	الفصل الحادي عشر إنتفاضة الحجارة ١٩٨٧-١٩٩٣
٢٢٧	الفصل الثاني عشر مدريد وأوسلو وإنتفاضة الأقصى
٢٧٣	الفصل الثالث عشر حملات المقاطعة وسحب الإستثمارات وفرض العقوبات
٣٠١	الفصل الرابع عشر الإستنتاجات والنظرة الى المستقبل
٣٧٣	ملحق مجموعات المقاومة الشعبية المحلية

شكر وتقدير

لم يُعد هذا الكتاب لكي يكون كتالوجاً شاملاً للمقاومة في فلسطين، فهذا مشروع مستحيل، ويحتاج إلى مجلدات كثيرة. ولكن قمت بذكر أمثلة بارزة تركز على الدروس المستفادة من المقاومة وربطها بعضها البعض بنظرة مستقبلية. أمّا بالنسبة للمئات أو الآلاف من الأسماء الذين لهم إسهامات أو أدوار ما، والذين لم ترد أسماءهم في هذا الكتاب، فإنني أمل أن يقوم هؤلاء الأشخاص بالكتابة لنا لبناء موقع الإنترنت، واختيار بعضها لطبعة منقّحة في المستقبل.

يضم هذا الكتاب أربعة عشر فصلاً. يعرض الفصل الأول مقدمة في قضايا هيكلية والتعريف بالمقاومة الشعبية. ويوضح الفصل الثاني أن المقاومة الفلسطينية الشعبية منذ نشأتها كانت حول الحرية والعودة وإنشاء مجتمع ديمقراطي مع الاحترام والمساواة لجميع السكان (اليهود، والمسيحيين، والمسلمين، ... الخ). وأتعمّق في الفصل الثالث في: ماذا ولماذا المقاومة الشعبية. وفي الفصل الرابع، أتحدث عن المقاومة الشعبية بالمفهوم المحلي، وكيف اعتمدت على ثروة من التقاليد الدينية والحياتية الفلسطينية، تشمل التسامح والاحترام ووضع حدود لما هو مقبول وما هو غير مسموح في أي صراع. يلي هذه الفصول التحضيرية (١-٤) الفصل الخامس إلى الفصل الثاني عشر لنراجع بالتفصيل المقاومة الشعبية الفلسطينية منذ نشأة الفكرة السياسية الصهيونية في منتصف القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا.

نستطلع في الفصل الخامس طبيعة المقاومة الشعبية خلال حكم الإمبراطورية العثمانية منذ الإشارات الأولى للصهيونية السياسية

في أربعينيات القرن التاسع عشر وحتى العام ١٩١٧. يروي الفصل السادس تنامي المقاومة التي تلت وعد وكامبون والاحتلال البريطاني الذي أدى إلى حدوث هبة ١٩٢٠، و ثم هبة البراق العام ١٩٢٩ وما تبعها لغاية العام ١٩٣٥. أمّا انتفاضة العام ١٩٣٦-١٩٣٩ فتحتاج فصلاً منفصلاً وهو الفصل السابع، حيث أدخلت بريطانيا العنف المنهجي في المعادلة، وأصبح المزيج من العنف واللاعنف عنصراً أساسياً في الخطاب الفلسطيني. بعد الدمار الذي حصل نهاية العام ١٩٣٩، تواصلت أعمال المقاومة المدنية خلال سنوات الحرب العالمية الثانية والسنوات الثلاث التي تلت تلك الحرب (الفصل الثامن من هذا الكتاب).

يذكر الفصل التاسع أمثلة عن المقاومة الشعبية في الفترة من نكبة العام ١٩٤٨ إلى نكسة العام ١٩٦٧. ثم قامت إسرائيل باحتلال ما تبقى من فلسطين، وبدأ عصر الدولة الواحدة العنصرية مرة أخرى، الذي كان يشابه المقاومة في جميع أنحاء فلسطين في العهد البريطاني (الفصل العاشر). ونُحَصِّص الفصل الحادي عشر للحديث عن انتفاضة الحجارة (العام ١٩٨٧-١٩٩١). ينتهي التحليل التاريخي بفترة سنوات مدريد وأوسلو وانتفاضة الأقصى (الفصل الثاني عشر)، وإستراتيجيات المقاطعة وسحب الاستثمار وفرض العقوبات على إسرائيل (الفصل الثالث عشر). ويُخْتَتَم الكتاب بفصل يلخّص الدروس المستفادة من أكثر من ١٣٠ عاماً من النضال ويتطلع إلى المستقبل.

لقد تم تزويدنا بالصور والكتب والموارد وغيرها من المواد من قبل الجمعية الأكاديمية الفلسطينية لدراسة الشؤون الدولية (باسيا)، ومؤسسة هولي لاند ترست، والمركز الفلسطيني للتقارب بين الشعوب، ومعهد الأبحاث التطبيقية في القدس، ومركز وئام، ومركز تراثنا في جامعة بيت لحم، وآخرين. أشكر: منال صافي، ريم هلال، سحر قمصية، جورج نمر رشماوي، غسان أنضوني، جاد اسحق، مبارك عوض، جيسي تشانغ، لبنى مصاروة. أخصُّ بالشكر الأستاذ الفاضل ميخائيل رشماوي لتفقيح النسخة العربية. أنا مدين لجميع هؤلاء الذين تم ذكرهم وإلى مئات الأشخاص الآخرين الذين قدموا المعلومات والمساعدة التقنية. لا يمكن لهذا الكتاب أن يكتمل دون هذه المساعدة. ولكن إذا وردت بعض الأخطاء أو أغفلت بعض الأمور فمسؤوليتها على المؤلف.

الفصل الأول

المقدمة

كثيراً ما يُناقش موضوع المقاومة الشعبية، ويسأل الكثيرون عن سبب انحياز وسائل الإعلام عن عنف المقاومة المسلحة ويتناسون عنف الاحتلال. تشير أسئلة الحضور والصحافيين في الغرب إلى وجود نقص في المعرفة في مجال المقاومة الشعبية. ولكن النقص أيضاً موجود فينا وبيننا، فقد لا يعرف حتى النشطاء أنّ أعمالهم تشكل شكلاً من أشكال المقاومة المدنية. فعلى سبيل المثال، التقيت بشاب كان يقوم بإنتاج أفلام وثائقية عن فلسطين من أجل مساعدة شباب آخرين. أثار دهشتي عندما قال إنه يحب "أن يشارك بمقاومة شعبية"، فأخبرته بأنه يقاوم بعمله الإنتاجي هذا. إن قصصاً مثل قصص هذا الشاب تشير لماذا من الضروري بالنسبة لنا أن نفهم تاريخ المقاومة وأشكالها من أجل السلام والحرية في فلسطين.

جيسي جاكسون الأب كتب مرة رسالة مفتوحة إلى ياسر عرفات يحث فيها على إستراتيجية اللاعنّف من أجل تحقيق "الدولة".^١ وفي خطاب وجهه إلى العالم الإسلامي من القاهرة، طلب الرئيس باراك أوباما من الفلسطينيين النضال من أجل إقامة الدولة "بالطرق السلمية".^٢ بغض النظر عن حسن النية أو سوءها، فإنّ كليهما فشل في تفهم طبيعة الكفاح ضد الاستعمار، وكأنّ القضية هي العنف الفلسطيني. كلاهما تجاهل التاريخ الفلسطيني الغني بالنضال الشعبي، وماذا نريد كفلسطينيين. نحن نريد الحرية والعودة وليس مجرد علم دولة على جزء صغير من بلادنا. جاكسون وأوباما كانا أكثر تفهماً نسبياً من الآخرين في الغرب.

هناك خُطب وتحاليل أكثر تعصبية وحتى عنصرية من القوى اليمينية من أمثال ريتشارد (ديك) تشيني، أو توني بليز، وبين الليبراليين الجدد ذوي الميول الصهيونية. نحن أيضاً نرى جهلاً تاماً عند أولئك الذين في الغرب والذين يؤيدون دولة يهودية نشأت بالعنف في أرض كان فيها أقل من ٧٪ يهود قبل العام ١٩١٧. فهل من المنطقي من قبل الأجانب الذين لا خبرة لهم في ما شاهدناه، أن يطلبوا منا الانسياق إلى اللاعن في كفاحنا ضد الاستعمار ونظام الفصل العنصري. لماذا تجاهلوا المقاومة الشعبية التي أنجزها المواطنون والدوليون لإحداث تغيير حقيقي على مدى عقود؟

الحركة الصهيونية وضعت لنفسها هدفاً ومهمةً صعبةً جداً: تحويل جزء مركزي من العالم العربي من مجتمع متعدد العرقية والديانات إلى دولة يهودية. لتحقيق هذا، فإنهم احتاجوا إلى: (١) الحصول على الدعم من قوى عالمية. (٢) إقناع اليهود وتنظيمهم وتهيئتهم للعمل بهذا الاتجاه. (٣) سحق أية مقاومة من قبل الناس المحليين. وجود عدد من الصهاينة في مناصب رئيسية في البلدان الغربية، وتجنيد الصهاينة لعملائهم لتغيير آراء اليهود والعالم، كانا أسهل من سحق المقاومة الوطنية، حيث أن الفلسطينيين نهضوا من تحت رماد كل هجمة للانخراط في أشكال جديدة من المقاومة الشعبية.

بعد ما يقرب من ١٣٠ عاماً على قيام الصهيونية السياسية، من الصعب الآن أن نفكر في وضع الفلسطينيين دون أن نبحث في المقاومة الفلسطينية. العديد من الكتب كتبت بلغات غربية دعماً لرؤية الصهيونية للتاريخ.^٢ أقل من الكتب والإصدارات كتبت في الأحداث نفسها من وجهة نظر فلسطينية.^٣ المؤرخون في بعض الأحيان فندوا بعض الأساطير عن الأحداث التاريخية، ولكن بعد سنوات عديدة، وأحياناً بعد عقود من هذه الأحداث. وبعض هذا مثلاً مع المؤرخين الإسرائيليين الجدد (آفي شلايم، وإيلان بابيه، وتوم سيفيف، وسيمحاً فلابان، وهليل كوهين) حول النزوح الجماعي للفلسطينيين قبل تأسيس إسرائيل وأثناءها وبعدها، والذي توضّح لهم الآن أنه تهجير قسري عنصري.

هنالك طبعاً آلاف الكتب تبحث في التاريخ. معظمها يوضّح الإجراءات التي تتخذها الحكومات والزعامات في حالات النزاع. وقليل من الكتب

تتحدث عن العدالة وحقوق الإنسان والقانون الدولي. وهناك قلة في المواد المنشورة التي تتحدث عن التاريخ الغني والإنجازات المذهلة للمقاومة الفلسطينية وهي المقاومة الشعبية، وفيها قصص ذات عبرة عن الناس العاديين الذين يعيشون ويتكيفون ويكافحون. بعض الكتب التي كتبت من قبل الغربيين حاولت أن تسلط الضوء على أشكال المقاومة، ولكنها كانت غير كافية، لعدم معرفة الكاتب اللغة المحلية، والاعتماد على مصادر منشورة أو مقابلات مع نخبة من الفلسطينيين.

لأعطي تأكيداً على ما أقول، أورد بعض الأمثلة. يوهان غالتونغ في كتاب **اللاعنف وإسرائيل/فلسطين**،^٥ قدم عملاً عادلاً بين بعض جوانب فترة ١٩٨٧-١٩٨٩، لكنه عانى من نقص في فهم القوى السياسية وتحليل الأسباب التي أدت إلى الأحداث التي وصفها في كتابه. انتفاضة العام ١٩٨٧ أيضاً درست في كتب مثل **القوة الأقوى: قرن من المقاومة اللاعنفية** لبيتر أكرمان وباك دوفال، والمصاحبة ببرنامج تلفزيوني ولكن مرة أخرى فإنها تحدثت بطرق وصفية غير عميقة.^٦ مثال آخر هو عمل ماري إليزابيث كينج بعنوان **ثورة هادئة: الانتفاضة الفلسطينية الأولى والمقاومة اللاعنفية**،^٧ الذي كان يستند إلى مقابلات مع أفراد عرّفوا أنفسهم بأنهم من قادة النضال المدني الفلسطيني، ووضعت إطاراً للمناقشة حول فترة المقاومة الفلسطينية للاستعمار الصهيوني بعد العام ١٩٨٧. كان هناك تقويم سلبي نشر في مجلة **الدراسات الفلسطينية** عن كتابها: "إنها تبالغ في قضيتها، من خلال السماح بمنهجيتها لوصف واقع معقد ... لوضع انتفاضة شعبية تتميز بمزيج من قوة العصيان المدني ورمي الحجارة".^٨ ولكن برأيي، إن كتاب **ثورة هادئة** لا يزال أفضل كتاب بالإنجليزية عن المقاومة الشعبية الفلسطينية حتى هذا اليوم. كتب المستشرقون مثل هيربرت آدم وكوليا مودلي وغيرهما من الغربيين الذين يزورون المنطقة لفترات صغيرة، كتابات تذهب في الاتجاه الآخر،^٩ وأخرى نعتبرها سلبية.^{١٠} بعض الكتاب مع عطفهم معنا تصبح كتاباتهم رومانسية وتبسيطاً للوضع الفلسطيني وبعيدة عن الواقع.^{١١} جميع هذه الكتب تعاني من أن أصحابها لا يستطيعون قراءة العربية.

نجد اليوم الكثير من السلبية والأحاديث عن القتل والحرمان الاقتصادي والتعذيب والسجن وهدم البيوت ومصادرة الأراضي والفساد

والانقسامات والحرمان من الحقوق الأساسية، مثل الحق في حرية التنقل، والحق في العودة ... الخ. هنالك آلاف الكتب ومعظم حديث الناس هو عن هذه المواضيع. ولكن أنا أعتقد أننا بحاجة لذكر قصص من النجاحات والإنجازات الإيجابية في المقاومة التي توفر حوافز لمزيد من النشاط. هدفنا في هذا الكتاب توثيق وتحليل نضال الفلسطينيين العاديين، الذين أجبروا على العيش في أوقات غير عادية. منذ تأسيس فكر سياسي يسمى الصهيونية قبل أكثر من ١٣٠ سنة، والفلسطينيون يقاومون بشرف وبتضحيات بطولية وملهمة لشعوب أخرى.

كُتب عن فترة واحدة في تاريخنا: "المقاومة اللاعنفة تتطلب قادة أقوياء. في الأيام الأولى للاحتلال العام ١٩٦٧ وجدنا فائضاً منها في حركة اللاعنف الفلسطينية. نشأت ديناميكية العمل التطوعي ديمقراطياً بتوجيه من المجالس البلدية المنتخبة. وخلقت هذه الحركة فرصاً للعمل الشعبي كبناء المدارس وإنشاء نوادي الشباب وإنشاء المكتبات العامة.."^{١٢} ونجد في كتاب محمد عمر حمادة (١٩٨٥) بعنوان **أعلام فلسطينية: منذ القرن السابع الميلادي إلى القرن العشرين**، أمثلة لمئات القادة الفلسطينيين البارزين والمتقنين الذين قادوا وضحووا. ولكن من الصعب على الناس تتبع السير الذاتية في هذا الكتاب.^{١٣} لذلك، قمت في هذا الكتاب بعرض أمثلة على مدى ١٣٠ عاماً من تاريخ المقاومة الشعبية الغنية في فلسطين ضد الصهيونية. وأستعرض الأمثلة في فترات تاريخية مختلفة تليها مناقشة العبر والاتجاهات والتوجهات.

العنف واللاعنف

كان القرن العشرون القرن الأكثر دموية في تاريخ البشرية. وكان أيضاً قرناً حافلاً بأمثلة مشرّفة من أشكال المقاومة الشعبية.^{١٤} كتب التاريخ في المدارس الثانوية في معظم بلدان العالم تكرّس اهتمامها على الحروب والمعارك.^{١٥} والقوانين والمؤسسات في معظم البلدان تركز على العنف، فهناك وزارات حرب (بعضها يسمى وزارات "دفاع") وليس وزارات سلام أو مقاومة شعبية. حتى لغتنا العامية تطوّرت من الحروب والصراعات. لفهم المقاومة الشعبية ومفاهيم اللاعنف، يجب علينا كأفراد أن ندرسها. طبعا يجب أن نعرف بعض الشيء عن العنف كي نفهم اللاعنف.

العنف ببساطة يهدف إلى إيذاء الآخرين على افتراض أن هذا يساعد على تحقيق نتيجة أو هدف. لكن العديد من الناس عندما يواجهون بقائمة من الأمثلة لسلوك يؤذي الآخرين قد لا يصنفونها بالعنف. حتى الإعدام من قبل الدولة يعتبره الكثير عقوبة وليس عنفاً. لا نجد في كتب التاريخ وصفاً للمجتمع الذي يستعمل العنف تحت راية القانون بأنه مجتمع عنيف.^{١٦}

هناك مدرستان بشأن العنف، واحدة تقترح أنه مبرمج في جيناتنا الوراثية، وأخرى تفترض أننا نتعلمه.^{١٧} إنني كعالم أحياء درست التطور وعلم الوراثة وبعد أن نظرت في التفاصيل، وجدت أن الجواب يكمن في الوسط: إن تاريخ تطور الإنسان قدّم لنا غرائز لأعمال العنف وغرائز التعاون والمحبة. إن الطبيعة أعطتنا (أو الخالق أعطانا) القدرة الفكرية للاختيار والأدوات اللازمة للتأقلم والمعيشة في ظل التحديات المتغيرة.

إن مبادئ المقاومة الشعبية أكثر تماسكاً من المقاومة المسلحة. على سبيل المثال، نجد تناقضاً بين الأفكار التي تشرّع العنف من الدولة وتحرمه في الوقت نفسه من جانب الجهات غير الحكومية. احتكار الدولة لاستخدام العنف واضح مثلاً أن الدول القوية مثل الولايات المتحدة وإسرائيل تشنّ أعمال الحرب (دون وصفها بأنها حرب) باسم "القانون" أو "الأمن".^{١٨} إضفاء الشرعية على أعمال العنف أساسه أن الغاية تبرّر الوسيلة المستخدمة. عندما يعتبر أشخاص أن الغاية جيدة، فمن الصعب إقناعهم بخطأ الوسيلة. وبما أن أي صراع يشمل أهدافاً متضاربة، فكل طرف سيصف العنف الآخر بأنه غير شرعي. المعيار الرئيسي هو أنه وسيلة مفيدة لأنها تعمل للمساعدة على تحقيق الأهداف المنشودة. وهنا يتركز معظم النقاش: قضية ذات فائدة أم لا. العنف يحافظ على منطق المتناقضات ومنطق خاسر-رابح، وهو في معظم الأحيان يصل إلى خاسر-خاسر.

المقاومة تركز على تغيير ميزان القوى والتحرر. هذا التحرر يمكن أن يحصل بمزيج من الأعمال العنيفة وغير العنيفة. قد يجادل البعض مثلاً أن الثورة الجزائرية نجحت بمقاومة عنيفة، والثورة الهندية بمقاومة لاعنفية. ولكن لا يمكن الحكم على نجاح أية طريقة كفاحية في أية ثورة.

أقرب ما يمكننا فعله هو ربما تقدير عدد الأشخاص الذين قُتلوا وهم يقاومون بعنف، مقابل أولئك الذين لقوا مصرعهم وهم يقاومون دون عنف. على سبيل المثال، غالباً ما يبادر المستعمرون بإطلاق النار على المدنيين، ويزعمون أنهم تعرضوا لإطلاق نيران من هذا الاتجاه. ونحن نعرف أن الإسرائيليين لهم عملاء في مظاهرات سلمية، وقد قاموا برمي الحجارة أو حتى إطلاق الرصاص لخلق حجة لدى الطرف الإسرائيلي للرد على المتظاهرين السلميين بقسوة.^{١٩}

هناك فكرة خاطئة، أن لدينا الخيار للعمل باستخدام أساليب أخلاقية غير فعالة (مثلاً المقاومة السلمية الشعبية)، أو أساليب غير أخلاقية لكن فعالة (مثلاً التمرد المسلح). ولكن هذا في جوهره موقف متناقض مع التاريخ والأفكار الإنسانية المتطورة.^{٢٠} غالباً ما ننسى أن الناس في جنوب إفريقيا خاضوا صراعاً عنيفاً وحركة قتال فدائية بقسوة من أجل التحرير من نظام الفصل العنصري، بالإضافة إلى حركة مقاومة سلمية شعبية واسعة وفعالة. بعض الأفراد الذين يؤمنون إيماناً قوياً بأعمال العنف، يميلون إلى التقليل من أدوار لأشخاص مثل ديزموند توتو، والمهاتما غاندي، ومارتن لوثر كينغ. يجادل البعض بأن التحرر لا يمكن أن ينجح دون مقاومة عنيفة، في حين يرى آخرون أنها لن تنجح دون مقاومة غير عنيفة. وهنا يُطرح السؤال موضع النقاش: ما هو الأسلوب الأمثل للمقاومة لنجاح أية ثورة؟ كل أشكال النضال حتى الآن عبارة عن خليط متنوع من المقاومة العنيفة وغير العنيفة. هل يمكننا حقاً أن نعرف بالضبط ما هي نقطة التحول التي كانت في كل حالة؟ هل يمكننا حقاً أن نقول إننا نعرف ما الذي كان سيحدث لحركة الحقوق المدنية في أمريكا دون "الشرطي الطيب" مارتن لوثر كينغ، أو "الشرطي السيئ" مالكوم إكس؟ عندما يتغير المجتمع، فإن مؤرخيه يكتبون ما يحلو لهم عن مالكوم إكس، أو كريزي هورس، أو جبرونيمو، أو مارتن لوثر كينغ. ماذا كان يمكن أن يحدث في جنوب إفريقيا دون مقاومة ديزموند توتو الشعبية، أو كفاح نيلسون مانديلا العنيف؟ هل بالإمكان أن نتخيل ما يمكن أن يحدث دون أن يكون التنوع داخل الشعب الظالم أو المظلوم؟ هل كان الرئيس جونسون في أمريكا -التي يحكمها البيض- هو الأهم لاكتساب الحقوق المدنية أو الحركة الشعبية التي شملت أمثال روزا باركس؟ هل تفعل الجماعات الإسرائيلية المناهضة للاحتلال -مثل

اللجنة الإسرائيلية ضد هدم المنازل و"بتسليم" - تغييراً؟ أعتقد أن الإجابة واضحة. وأعتقد أن تجربة سجن ستانفورد توضح أن البشر يتأثرون بالظروف. في هذه التجربة، قسّم الباحث طلاب جامعة ستانفورد للعب دور السجناء أو حراس السجن. هذه التجربة كان لا بد من إلغائها في غضون أيام قليلة، لأن ما يقرب من ثلث "حراس السجن" بدأوا بالاستبداد/التصرفات المسيئة، وكثير من "السجناء" بدأت تظهر عليهم بوادر اضطرابات نفسية.^{٢١}

وليام ج. طومسون اقترح التسلسل الهرمي للعنف من البسيط إلى عنف الدولة، ممثلاً باستعمال الجيوش، وأكد على نقطة تعتبر بديهية ولكن جوهرية: العنف يولد العنف.^{٢٢}

يُستخدم العنف في بعض الأحيان؛ سواء من طرف القوي أو طرف الضعيف، للوصول إلى نتيجة، فيقال إن الغاية تبرّر الوسيلة. فمن الواضح أن الكل يتفق أنه إذا كان الهدف سيئاً، فلا تبرير للعنف من جانب مشروعية الوسائل. ولكن هنالك خيار نبذ العنف نهائياً، والنظر في إمكانية وجود استجابة شعبية فعّالة غير عنيفة. نقاط الضعف والقوة موجودة في كل من هذه المواقف. إننا يجب أن نذكر الحقائق، وهي أن إمكانات تحقيق التقدم في الحصول على الحرية حصلت تاريخياً بأمثلة قوية استعملت فيها المقاومة الشعبية (مثلاً الهند ودول أوروبا الشرقية). إن المستعمرين دائماً يستخدمون العنف لأنه السبيل الوحيد لإجبار الناس على ترك أراضيهم، بينما الشعب المستعمر يمكن أن يختار وسائل مختلفة للمقاومة. فالدول المعتدية تتعرّز فقط بحروب تُشنّ وعنّف ممنهج لقمع مقاومة ضحاياها.^{٢٣} في وضعنا المحلي، الكل الآن يعرف أن الحركة الصهيونية بُنيت على العنف ضد الفلسطينيين. ومنذ تأسيسها، فإن إسرائيل تحتكر استخدام سلطة وقوة الدولة ضد الشعب الفلسطيني. واستخدام السلاح من جانب الفلسطينيين كان مبرراً لتدمير الفلسطينيين وأراضيهم ومنازلهم وفرصة لنمو المستوطنات الاستعمارية على أراضيهم عن طريق استخدام العنف بحجة الأمن باستثناءات نادرة. بعض الفلسطينيين يقولون إن إخلاء إسرائيل لقطاع غزة حصل تحت نيران المقاومة، لكن إسرائيل، شأنها شأن أية سلطة، تحسب المخاطر والمكاسب في أي عمل.

هناك حجج قوية لكل الأفكار بالنسبة إلى الطرق المختلفة لمقاومة محتلين مُستعمرين. وحتى في حالة خسارة المعركة، فإن التساؤلات موجودة. هل كانت مقاومة الأمريكيين الأصليين للغزو الأوروبي عذراً للمحتل أن يروج فكرة همجية الهنود الحمر وثم يبيدهم؟ هل أدت إلى تسارع الاستعمار والخسارات اللاحقة؟ إحدى نتائج الدراسات العلمية تشير إلى أنه من المستحيل تكوين سياسة للعنف أو سواها، وإنما يسير الأشخاص بأساليب تنبع من ضمائرهم وخلفياتهم. مثلاً الدراسات النفسية لمنفذي عمليات التفجير الانتحارية تبين أنها ليست لعقائد قومية أو دينية، بل بشكل كبير للانتقام الشخصي (بيت هدم، أذى لأقارب أو سلب أرض أو شغل).^{٢٤} صحيح أن عقائد مثل الإمبريالية، أو الصهيونية، أو النازية حملت نحو العنف، ولكن يبقى قراراً شخصياً. وإنني أرى أن بعض الناس الذين يشتركون في العنف قد يقررون التخلي عن العنف دون التخلي عن أيديولوجية تبعوها، وهذا صحيح سواء بالنسبة لأعمال العنف التي تُعتبر مشروعة بموجب القانون الدولي (الدفاع عن النفس، مقاومة الاستعمار والاحتلال)، وكذلك التي تعتبر غير شرعية (إرهاب الدولة، احتلال، تطهير عرقي، ... الخ).

المقاومة العنيفة أيضاً عادة تنشد قيادات سيئة بعد نجاحها. إن المقاومة العنيفة من طرف الخاضعين لاحتلال تقوم في سرية تحت تهديد مستمر من عمليات التصفية من قبل المحتلين/ المستعمرين. بالتالي، فمن الطبيعي أن مثل هذه المقاومة تتطلب قيادات قوية. والقيادة في هذه الحالات لا يُعقل أن تحدث عن طريق التصويت الشعبي والهيكل الديمقراطي في المؤسسات بسبب حرب العصابات. ومهارات إدارة هذه العمليات مختلفة جداً عن تلك المهارات اللازمة لإدارة المؤسسات الحكومية من خلال الوسائل الديمقراطية. وبالعكس، فإن المقاومة الشعبية من الممكن أن تنتخب القيادة بتصويت ديمقراطي، وهؤلاء القادة عادة لا يمكن أن يسيروا دون شعبٍ مقتنع، ولهذا تكون المقاومة بالتشاور على نطاقٍ أوسع. هذا أيضاً يحبط غرور القيادة، وتكون مدة القيادة محدودة، ويعتبر القائد هامشياً بالمقارنة مع حياة الشعب ونضاله.^{٢٥}

إن المقاومة بوسائل عنيفة تكون أكثر تقييداً واحتمالات الفشل فيها أكبر من المقاومة الشعبية، لأنها تتطلب المزيد من الدعم اللوجستي

(الأسلحة، ... الخ)، والسريّة، ودعم خارجي، وأكثر من ذلك بكثير. وعندما تفشل المقاومة العنيفة، تترك وراءها دماراً أكثر من فشل الأشكال غير العنيفة من النواحي الاجتماعية والاقتصادية والأرواح المفقودة ... الخ.^{٢٦} هذا لا يعني أنّ المقاومة الشعبية أكثر أماناً. على العكس من ذلك يمكن أن تكون المقاومة الشعبية في كثير من الحالات أكثر خطورة من المقاومة المسلحة، فليس لدينا سوى أجسادنا واستعدادها للمعاناة. المطران منيب يونان يفسّر مفهوم الاستعداد للمعاناة من أجل قضية المقاومة:

”الكنيسة بحاجة للاهوت الشهادة. إنه مفهوم يُساء فهمه، ويُساء استخدامه ... ماذا يعني أن يكون الإنسان شهيداً، بمعنى بسيط ما يعني لا يزيد على أن يكون شاهداً وهذا معنى martyr في اليونانية كما بالعربية. وهذا يعني حياة للشهادة في الكلام، وأيضاً من خلال الأفعال. أما العنصر الثالث فهو المعاناة. الشهادة ما يعبر عنه الإنسان، والإيمان يجعل المرء عرضة للمعاناة في هذا العالم، وهذا يعني تعريض نفسك والمخاطرة حتى بالحياة لهدف سام ...“^{٢٧}

الاصطلاحات

الأشخاص الذين يشاركون في الثورات ضد الظلم دائماً متنوعون: البعض يدعم المقاومة المسلحة، والبعض يدعم المقاومة الشعبية، والبعض يدعم الخيارين. ليس هناك تقسيم واضح بين تلك المجموعات الثلاث نظراً للتداخل الكبير والتقسيمات الفرعية. هناك دائماً نقاش بين أولئك الذين يؤيدون المقاومة المسلحة حول أي نوع من العنف له ما يبرّره في الدفاع عن قضية عادلة، وبين أولئك الذين يؤيدون المقاومة اللاعنفية، وهناك جدل حول ماهية اللاعنف. هناك السلبي والإيجابي من أشكال المقاومة الشعبية. في أشكال إلحاق الضرر للاعنف هناك أيضاً تساؤلات حول ما هي الوسائل التي لا تنحدر إلى مقاومة عنيفة. مثلاً هل أن إلحاق الضرر بالملكات يعتبر عنفاً أم لا؟

في اللغة الانجليزية، فإنّ التفريق أكثر دقة بين مصطلح مقاومة لاعنفية (nonviolence)، ومصطلح مقاومة عنيفة (violence). بالعربية هو وصف ضعيف وحتى (سلبي) للأفعال القوية والمعقدة للمقاومة الشعبية

التي لا تقع ضمن المقاومة المسلحة. خالد القشطيني يفسّر لماذا الكثير يرفض مصطلح "المقاومة اللاعنفة"، وهو يفضل مفهوم الجهاد المدني:

"اللاعنف ليس الترجمة الدقيقة لمصطلح غاندي (احمسا) باللغة الأردنية. لتجنّب هذا الاختلاف، اتفقنا على "المقاومة الشعبية" أو "النضال المدني"، وأنا أحبّذ "الجهاد المدني"، لأعطيه لوناً إسلامياً. كتاب آخرون الآن يستخدمون هذا المصطلح، والزعيم السوداني ورئيس الوزراء السابق الصادق المهدي، اعتمد هذا المصطلح لمفهوم اللاعنف. المصطلح مستوحى من الحديث الشريف، حيث أنّ النبي محمد (ص) وضّح كلما عاد من معركة: "نعود من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر"، بمعنى من العمل العسكري إلى العمل المدني. هناك سوء فهم لمصطلح "الجهاد"، فهو لا يعني "الحرب المقدسة"، ولكن ممارسة جهد".^{٢٨}

المصطلح الذي يستخدم عادة في فلسطين وفي هذا الكتاب هو المقاومة الشعبية، وهو مصطلح أكثر إيجابية ودقة من مفهوم اللاعنف. كلمة (شعبية) مفهومة من قبل الفلسطينيين، حيث تشير إلى نوع مقاومة المشاركة فيها مفتوحة لأعداد كبيرة من الشعب. من ناحية أخرى، لدينا المصطلح "ثورة شعبية"، ولكنه أكثر غموضاً. عندما سألت ٢٠ فلسطينياً في شوارع بيت لحم ما الفرق بين ثورة شعبية ومقاومة شعبية اقترح ١٤ منهم العنف كسمة أكثر للمصطلح السابق من هذا الأخير.

هناك أيضاً مفهوم الصمود الذي يصعب ترجمته للغات غربية. الكلمة تعطينا كعرب صوراً تعكس البقاء في الأرض والمثابرة والنجاح في مواجهة العقبات الصعبة وأفكاراً أخرى إيجابية. إنها ليست مجرد الصبر في مواجهة الشدائد، بل نشاطات وأشكال للمقاومة الشعبية. الفكرة الصهيونية السياسية تتألف من تشكيل دولة أغليبتها يهود في أراض أغليبتها الكبيرة من غير اليهود. مئات من الأعمال العادية والدينية التي نقوم بها كل يوم في فلسطين هي من أعمال "الصمود"، وهي السبب الرئيسي لوجود ٥ ملايين فلسطيني في فلسطين حالياً. إن المقاومة الشعبية بما فيها الصمود، كانت الشوكة المؤثرة في تعطيل البرنامج الصهيوني عبر التاريخ، كما سنرى في الفصول القادمة. وستكون جوهر بناء مجتمع فلسطيني حرّ وتعدديّ ومشرف.

الفصل الثاني

ما نريد: التعددية، العدالة، حقوق الإنسان

ماهية الصراع

إنَّ المسبَّبات الكامنة وراء الصراع في فلسطين ليست معقَّدة، على الرغم من أنَّ العديد من وسائل الإعلام وأعيان السياسة يريدون منا أن نعتقد أنَّها كذلك. فلسطين كانت مأهولة من قبل مجموعة متنوِّعة من الكنعانيين، الذين اعتمدوا الديانات التوحيدية (اليهودية، والمسيحية، والإسلام) في أوقات مختلفة، ونشروا هذه الأديان في أنحاء العالم. واليهود بحكم طبيعة حياتهم لم يندمجوا في المجتمعات الأوروبية، وتعرَّضوا للتمييز لاسيَّما في القرن التاسع عشر، لأنَّه كان قرن تحلل الإمبراطوريات وبناء الدول القومية العرقية (Ethnocentric Nation States). ويهود كثيرون ردُّوا على التمييز عن طريق تعزيز الروح الإنسانية والاستيعاب والتعايش. أقلية من اليهود الغربيين الأوروبيين (معظمهم من الخازار الذين اعتنقوا اليهودية في أوروبا) حُرِّضوا ودُعِموا من قبل القوى الاستعمارية في ذلك الوقت، وبالدرجة الأولى فرنسا وإنجلترا، وطرحوا برنامجاً يُدعى الصهيونية، خلقت هذه الأقلية لنفسها قومية متعصِّبة وقامت بتعزيزها زاعمة أنها ردُّ طبيعيٌّ على العداء لليهودية، مع الدعم المبدئي للحكومة البريطانية ولاحقاً الحلفاء، وقام الصهاينة بتخطيط وتنفيذ إستراتيجية لإقامة دولة يهودية في فلسطين على حساب المواطنين المسيحيين والمسلمين. على مدى عقود كثيرة، تحوَّلت المنطقة من غالبية مسلمين ومسيحيين فلسطينيين إلى غالبية من اليهود من كل أنحاء العالم تحت مظلة دولة

تُدعى "دولة يهودية" (هي في الواقع صهيونية). ومع أنها مزدهرة اقتصادياً، لكنها غير مستقرة وتحتاج إلى الحروب للبقاء. وكانت العملية مخططة ومنظمة جيداً، حيث نشأت دولة تقوم بالتطهير العرقي، وكانت النتيجة أن نشأ أكبر تجمع متبقي من اللاجئين في العالم إلى الآن، حيث أن ثلثي الأحد عشر مليون فلسطيني اليوم، هم لاجئون أو نازحون عن ديارهم. وتفاصيل كيف حدث هذا بالطبع متنازع عليها، ولكن النتيجة أو جوهر ما حدث واضح للجميع.

هناك يهود أصليون استمروا في العيش في فلسطين عبر القرون. عددهم قليل، لأن الأغلبية اعتنقوا ديانات أخرى. وهناك بعض اليهود الأوروبيين وغيرهم من اليهود غير الأصليين جاؤوا للعيش في فلسطين، وبخاصة في القرن التاسع عشر. البعض كانوا هاربين من الاضطهاد، والبعض جاؤوا لأسباب دينية. المسيحيون الأثيوبيون والبهائيون الفارسيون والدروز وغيرهم انتقلوا من المناطق القريبة. كما جاءت موجة كبيرة من المهاجرين الأرمن إلى فلسطين خلال المجازر والفظائع التي ارتكبت في أوائل القرن العشرين. كل هذه الجماعات كانت موضع ترحيب في فلسطين. مثلاً هناك الحي الأرمني في القدس القديمة، ولكن البرنامج السياسي الصهيوني خطط لإقامة دولة قومية يهودية في فلسطين، وبالتالي كان هذا هدفاً مختلفاً عن كل من المهاجرين من مختلف الأديان.

نشأت الأفكار السياسية الصهيونية في منتصف القرن التاسع عشر ووجدت لها أرضاً خصبة في إنجلترا، وتحققت في العام ١٨٧٨ مع تأسيس الاتحاد الأوروبي الإشكنازي لأول مستعمرة في فلسطين سُميت بتاح تيكفا (الحق من البداية). وكما هو متوقع بما في ذلك من قبل القادة الصهاينة، كان الفلسطينيون غير راضين عن اتجاه هذه الحركة السياسية، وبدأوا بمقاومتها. ومنذ أن أنشئت، فإن المقاومة الفلسطينية للصهيونية لم تكن أبداً مقاومة لليهودية أو للمهاجرين غير الصهاينة، فلسطين لديها الكثير من أتباع الديانات المختلفة ومن المهاجرين. واليهود كانوا دائماً جزءاً من نسيج المجتمع الفلسطيني تماماً مثل المسيحيين والدروز والمسلمين، بل كانت المقاومة ضد الأفكار الصهيونية والنزعة الاستيطانية التي كانت قد برزت للوجود بإنشاء أول مستعمرة. ومطالب الذين شاركوا في المقاومة الشعبية في فلسطين كانت ولا تزال مطالب العدالة وحق تقرير المصير.

كان عدد السكان اليهود في فلسطين نحو ٦٠ ألفاً العام ١٩١٧ عشية وعد بلفور، وأصبح اليوم خمسة ملايين. كنسبة مئوية انتقل من ٨٪ إلى ٥٠٪، ملكية الأراضي في السنوات الـ ٦٢ الماضية تم تغييرها من ٩٣٪ للمسلمين والمسيحيين إلى أغلبية مسيطر عليها من قبل "الصندوق القومي اليهودي" وأراضي السلطة الإسرائيلية. وبالتالي هُجر سكان ٥٣٠ قرية وبلدة بين عامين ١٩٤٧ و ١٩٥٠. وتم الاستيلاء على معظم الأراضي الفلسطينية المتبقية في العقود الستة التي تلت تلك النكبة، أو بالأحرى حقبة التطهير العرقي.^١

لم يختلف تطوّر أساليب وإستراتيجيات المقاومة في فلسطين كثيراً عن غيرها من الصراعات التي يواجهها السكان الأصليون للمستوطنات الاستعمارية في مناطق أخرى من العالم. وهناك العديد من الدراسات المقارنة التي نشرت عن نضالات الفلسطينيين والأمريكيين الأصليين والإفريقيين في ظل نظام الفصل العنصري، والجزائريين تحت الحكم الفرنسي، والفيتناميين وغيرهم.^٢ وفي حين أنّ كل حالة تاريخية فريدة من نوعها هناك بعض التشابه. أولاً، وقبل كل شيء، وعندما يُكتب التاريخ بصورة موضوعية في كل هذه الصراعات، لا يوجد أبداً أي سؤال عن الحق الطبيعي لشعب مُحتل/مُستعمر للدفاع عن نفسه، والقيام بأعمال المقاومة القوية ضد الذين يضطهدونهم.

إنّ قادة مشهورين في المقاومة الشعبية دولياً أبدوا آراءهم في إسرائيل. مارتن لوتر كينغ الابن أورد في رسالة حول الهجوم الثلاثي (فرنسا وبريطانيا وإسرائيل) على مصر: "إنني أواكب الوضع السائد في مصر، وكما تعلمون هذه هي واحدة من أهم القضايا في العالم اليوم. وستحدّد ما إذا كنا سنعيش في سلام، أو ما إذا كنا سوف نموت في حرب. بطبيعة الحال تعاطفي مع مصر، وليس مع القوى الإمبريالية الاستعمارية الغربية".^٣

موهاننداس (المهاتما) كانت له آراء أقوى كونه أقرب إلى الصراع:

"تعاطفي كله مع اليهود. لقد عرفتهم معرفة وثيقة في جنوب إفريقيا. البعض منهم أصبح رفقاء لي مدى الحياة. من خلال هؤلاء الأصدقاء تعلمت الكثير عن تاريخهم الطويل من الاضطهاد. كانوا

المنبوذين في المسيحية. التشابه بين المعاملة التي يلقونها من جانب المسيحيين ومعاملة المنبوذين من قبل الهندوس قريب جداً. قد تم التدرّج بالتعليمات الدينية في كلتا الحالتين لتبرير المعاملة اللاإنسانية التي عوملوا بها. ولذا، وعدا عن الصداقات، فهناك سبب عالمي وعادي لتعاطفي مع اليهود. لكن تعاطفي لم يعميني عن مقتضيات العدالة. التوق لوطن قومي لليهود لا يجذبني كثيراً. لقد نُظر إلى الكتاب المقدس وشدة شوق اليهود للعودة إلى فلسطين كأسباب لهذا البرنامج. لماذا لا يجعلون هذا البلد منزلهم حيث يعيشون ويكسبون رزقهم مثل غيرهم من شعوب الأرض؟ لكن فلسطين ملك للعرب كما أنّ إنجلترا تنتمي إلى الإنجليز، أو فرنسا إلى الفرنسيين. إنه خطأ ولاإنساني فرض اليهود على العرب. ما يجري في فلسطين اليوم لا يمكن تبريره بأي نوع من السلوك الأخلاقي. الانتداب ليس له عذر غير (نتيجة) الحرب الأخيرة. ومن المؤكد أنها ستكون جريمة ضد الإنسانية أن يُقمع العرب الفخورون ليتم إعادة فلسطين لليهود جزئياً أو كلياً كوطنهم القومي. الطريقة الأنبل هي الإصرار على معاملة عادلة لليهود في مكان ولادتهم وحياتهم. اليهود المولدون في فرنسا هم فرنسيون، تحديداً في المنطق نفسه كالمسيحيين المولودين في فرنسا هم فرنسيون. إذا اعتبر أنه ليس لليهود وطن غير فلسطين فهل سوف تستهويهم فكرة إجبارهم على ترك الأجزاء الأخرى من العالم التي يستقرون بها؟ أم أنهم يريدون موطناً مزدوجاً حيث يمكنهم البقاء كما يشاؤون؟ هذه الصرخة من أجل وطن قومي تقدم مبرراً لطرد الألمان لليهود ... والآن كلمة لليهود في فلسطين. لا يساورني شك أنهم ذاهبون بطريقة خاطئة. فلسطين في المفهوم التوراتي ليست قطعة جغرافية. ولكن في قلوبهم. إذا كانوا يريدون أن ينظروا إلى فلسطين الجغرافية كوطنهم القومي، فإنّ من الخطأ أن يدخلوها بقوة البنادق البريطانية. الأفعال الدينية لا يمكن القيام بها بمساعدة الحربة أو القنبلة. يستطيعون الاستقرار في فلسطين فقط من خلال حسن النية من العرب. ينبغي أن يسعوا إلى تحويل القلب العربي ...”؛

هذه الصيغة قد تكون موقفاً صحيحاً في العام ١٩٣٨. لكن نحن الآن بعد سبعين سنة من تاريخ مؤلم جداً وحقائق جديدة. علينا أن نخطّ لمستقبل يأخذ بالاعتبار أن فلسطين يسكنها حالياً الملايين من اليهود والمسيحيين والمسلمين. تغيير الوضع لدولة للجميع لن يترتب عليه بالضرورة إرجاع كل الحقوق، ولكن يجب أن تتضمن على الأقل عدالة

تصالحية جزئية. كما ذكرت من بين الأحد عشر مليون فلسطيني في العالم سبعة ملايين منا لاجئون أو نازحون. ما تبقى منا يعيش حالياً إما مواطناً من الدرجة العاشرة وإما تحت الاحتلال دون مواطنة على ما تبقى لنا، والذي يتقلص (حالياً ٨,٣٪ من أرض فلسطين التاريخية). لذا يجب الإقرار بحقوقنا المشروعة واستعادة أغليبيتها.

الجنرال الإسرائيلي ورئيس هيئة الأركان رفائيل إيتان قال ذات مرة: "عندما نحصل على الأرض، لن يتبقى لدى العرب سوى الركض في دوائر كصراصير دائخة داخل زجاجة".^٥ ولكن "الصراصير" أثبتت أنها قادرة على أن تفعل الكثير، فها نحن هنا بعد ١٣٠ سنة، و ٥٠٪ من الفلسطينيين ما زالوا يعيشون بين نهر الأردن والبحر الأبيض المتوسط (أي في وطنهم التاريخي). نحن هنا بعد ١٣٠ عاماً مع أغلبية كبيرة من الناس في ما سُمي أرض إسرائيل (في المنطقة الجغرافية نفسها) يرفضون الصهيونية. إنَّ معاداة الصهيونية هي النزعة السائدة الآن، وليس فقط بين ١,٥ مليون من الفلسطينيين الذين يعيشون داخل إسرائيل، بل بين ملايين المتضامنين، وأيضاً على نطاق واسع في قطاعات من المجتمع اليهودي الإسرائيلي. نصف مليون إسرائيلي اختاروا ترك البلاد والعيش في الدول الغربية (أوروبا وأمريكا الشمالية). بالتالي تظل المشكلة: الصهيونية تتطلب أكبر منطقة جغرافية (للدولة اليهودية) مع الحد الأدنى من الديموغرافيا (من الفلسطينيين المسيحيين والمسلمين الذين يعيشون في الأراضي المطموع بها). والحل المقدم لدولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة هو ضرب من الوهم؛ سراب يُروج لتأجيل يوم الحساب الذي لا مفرّ منه. استمرار إسرائيل في خلق وقائع على الأرض في أشكال الاستيطان الاستعماري في الأراضي الفلسطينية ما هو إلا تأكيد للواقع، وإنَّ الحل الوحيد الممكن هو تغيير الدولة العنصرية لدولة ديمقراطية. البعض في إسرائيل منخرطون بشكل إيجابي في هذه المناقشة على سبيل المثال عن طريق التشكيك في النشيد الوطني، الذي يعبر عن تشوّق اليهود إلى أرض اليهود. فكيف يمكن أن يقبل ١,٥ مليون فلسطيني بهذا النشيد أو هذا العلم أو الرموز الوطنية اليهودية لدولة إسرائيل. الانشقاق اليوم لا يزال كما كان منذ عقود: ليس شقاقاً بين الدول أو بين الناس، بل بين الأيديولوجيات (الانفصالية في مقابل الاندماج، الفصل العنصري الصهيوني مقابل ديمقراطية تعددية).

مستقبل الصراع

هناك الكثير مما يدعو للتفاؤل بالمستقبل. كره "الآخرين" قد يحشد مؤيدين، ولكنه لا يبني سلطة دائمة فالأيديولوجية الفاشية والنازية استخدمتا الكراهية لبناء هيكل مؤقت لقوة دولة بدت قوية، ولكن المستقبل كان محسوما. نورمان فنكلستين وثق في كتابه **صناعة المحرقة** كيف يؤدى استخدام الصهاينة محرقة الحرب العالمية الثانية لبناء الكراهية للآخرين (المسلمين والعرب)، ولجلب الدعم المالي والسياسي لمفاهيم عنصرية ضد الفلسطينيين الأصليين. وإن الكلمات والأفعال الضارة الصادرة من إيلي ويزل، ودانيال بايبس، وتشارلز كراوثرام، وآخرين، لها تأثير ضار وسيئ على الآخرين، وفي حين أنها قد تجلب بعض الدعم المالي والسياسي لعدد قليل، ولكن المكاسب التي تجلبها على دعاتها وقتية، ولا بد أن يؤدى ذلك إلى رد فعل وعنق ومستقبل تنهار فيه هذه الأفكار الهدامة.

من المرجح أن القرن الحادي والعشرين سيشهد الصراع على أشده بين النزعة الديمقراطية المحلية مع العولمة الإنسانية وبين النزعة للعولمة العسكرية / الهيمنة الصناعية التي تحتاج إلى النزعات القومية المتعصبة. وأعتقد أن الأول سوف يفوز في نهاية المطاف، لأن الناس يدركون أنه إذا فاز الأخير لن يكون هناك بشر للاحتفال بهذا الفوز. هنا في فلسطين، يمكن أن يتحقق السلام على أساس القانون الدولي والمبادئ الأساسية لحقوق الإنسان. البعض يعتقد أن "خارطة الطريق للسلام" ٢٠٠٢، قد توصل إلى دولتين. إن خارطة الطريق لها بعض العناصر الجيدة (على سبيل المثال تطلب من إسرائيل تجميد كافة النشاطات الاستيطانية بما فيها النمو الطبيعي في جميع الأراضي المحتلة). ولكن من الجدير بالملاحظة أنه على الرغم من طول الخارطة (٢٢١٨ كلمة)، لم تشر إلى القانون الدولي وحقوق الإنسان. علاوة على ذلك، فإن إسرائيل لديها رابع أو خامس أقوى جيش في العالم مع مئات من الأسلحة النووية والكيميائية والبيولوجية وغيرها، في حين أن الفلسطينيين شعب مضطهد مع القليل من الموارد تحت تصرفهم. "المفاوضات" في مثل هذه الحالة من المتوقع أن لا تسفر عن أي حل عادل. خارطة الطريق الحقيقية للسلام يمكن أن تقوم ببساطة على أساس الإعلان العالمي لحقوق الإنسان.

لقد قامت منظمة العفو الدولية بوضع عشرة مبادئ لإحلال سلام دائم على أساس حقوق الإنسان:^٦

١. لكل فرد الحق في الحياة والحرية والأمان على شخصه ...
٢. لا ينبغي لأحد أن يتعرض للتعذيب ولا للمعاملة أو العقوبة القاسية أو اللاإنسانية أو المهينة ...
٣. لا ينبغي لأحد أن يتعرض للاعتقال والاحتجاز التعسفيين ...
٤. لكل فرد الحق في محاكمة عادلة ...
٥. جميع الأشخاص أحرار ومتساوون في الكرامة والحقوق ...
٦. لكل فرد الحق في حرية التنقل ...
٧. لكل فرد الحق في العودة إلى بلده ...
٨. لكل فرد الحق في حرية الفكر والرأي والتعبير ...
٩. للمرأة الحق في المساواة الكاملة ...
١٠. ينبغي ألا يكون هناك إفلات من العقاب على انتهاكات حقوق الإنسان ...

ويقدم ميثاق المؤتمر الوطني الإفريقي نموذجاً جيداً للنداء العالمي الذي يمكن أن يُحتذى به في التعامل مع قضية فلسطين.^٧ الجمع بين حقوق الإنسان مع الكفاح ضد الفصل العنصري يوفر أفضل خارطة طريق للسلام، بل من المستحيل أن نتصور سلاماً من شأنه أن يبقى دون حقوق.^٨ والهيكل المشوّه عن طريق الاتفاقات الموقعة بين إسرائيل ومنظمة التحرير الفلسطينية في أوسلو وجنيف وما وراءها، يتجاهل حقوق الإنسان الأساسية، بما في ذلك تلك الواردة في اتفاقيات جنيف الرابعة (حقوق اللاجئين، والأنشطة الاستيطانية غير القانونية، والعقاب الجماعي). ومن الضروري لنجاح اتفاقيات السلام في المستقبل ضمان احترام حقوق الإنسان والقانون الدولي. وجهود المقاومة الشعبية في فلسطين في ١٣٠ سنة الماضية، كما سنرى لاحقاً، كانت لها أهداف لتحقيق العدالة والسلام والديمقراطية الكاملة للشعب بغض النظر عن ديانته.

الفصل الثالث

منطق المقاومة الشعبية

”من الضروري، حتى لا يكون الإنسان مضطراً لأن يجد له كملاً أخيراً التمرد على الاستبداد والقيود والعنف، أن حقوق الإنسان يجب أن تكون محمية بالقانون“.

من المقدمة للإعلان العالمي لحقوق الإنسان

إستراتيجيات المقاومة

أية دراسة موضوعية تبين أنه لا توجد أمثلة لنضال لاعنف بحت من أجل التحرر من احتلال استعماري. لا الهند في عهد المهاتما غاندي، ولا الولايات المتحدة الأمريكية في عهد مارتن لوتر كينغ خلت من المقاومة العنيفة. كل من المقاومة العنيفة وغير العنيفة وُجدتا في الجزائر تحت الحكم الفرنسي وجنوب أفريقيا في ظل نظام الفصل العنصري. حق المقاومة معترف به دولياً ومدعوم من القانون الدولي.^١ المادة ٣ من اتفاقيات جنيف للعام ١٩٤٩ تنص على أن جيش الاحتلال يجب أن يُعامل على قدم المساواة أولئك الذين يشاركون في التمرد وأولئك الذين لا يشاركون. وفقاً لفودة: ”إن دولة الاحتلال لا يمكنها اتخاذ إجراءات ضد شخص محمي لمجرد الانخراط في المقاومة، وهذا ينبع من حقيقة أن القانون الدولي يُعرّف سلطات الاحتلال كسلطات الأمر الواقع لا كسلطات قانونية، وعلى هذا النحو الشعب المحتل يجب ألا يمتثل للقواعد والقوانين التي وضعها الاحتلال“.^٢

قال الكاتب الإسرائيلي هانز ليبيرتك في كتابه الفلسطينيين بين الماضي والحاضر باللغة العبرية:

”وفقاً للقانون الدولي، إنّ الشعب في بلد مُحتلّ من قبل قوة أجنبية، له الحق الكامل في الكفاح من أجل التحرّر ... ويقوم هذا الحق من بين أسباب أخرى أيضاً على مجموعة خطوط توجيهية للمحكمة الدولية في نورمبرغ، التي أنشئت بعد الحرب العالمية الثانية لمحكمة مجرمي النازية الرئيسية ... والحجة القانونية في المادة ٢ من لوائح الاتهام، بشأن التجاوزات المخالفة للقوانين على الحرب الجارية، في محكمة نورمبرغ كانت تستند إلى اتفاقية دن-هوغ الدولية للعام ١٩٠٧. والمادة ٦ (ب) من قواعد المحكمة تعتمد على المادتين ١ و٢ من الرسائل المرفقة من اتفاقية دن-هوغ التي تشرّع الحق في المقاومة الشعبية الجماهيرية ضد الاحتلال العسكري، داخل الأراضي المحتلة نفسها، وكذلك خارجها“^٢.

وقال المهاتما غاندي: ”حين لا يوجد سوى الاختيار بين الجبن والعنف، أنصح بالعنف ... لكنني أعتقد أنّ اللاعنف متفوّق على العنف“^٣. بطبيعة الحال، يجب أن يُدرك المرء أنّه في حين أنّ القانون الدولي يدين المقاومة العنيفة، يمكن أن تُمارس المقاومة اللاعنفية في كل أشكال النضال. وفي الواقع، لا أَسْتَطِيع التفكير في سابقة تاريخية واحدة، حيث أنّ النضال من أجل حقوق شعب حدث فقط بالوسائل العنيفة وحدها، أو عن طريق الوسائل غير العنيفة وحدها. ويبدو أنّ التاريخ الطويل من الصراعات البشرية هو تاريخ مزيج من كل ذلك بدرجات متفاوتة. والمجتمعات التي تتغيّر بطبيعة الحال سوف تختار التأكيد على عناصر إيجابية. وبالتالي في الولايات المتحدة كان مارتن لوثر كينغ الابن وغيره من الذين ناضلوا باللاعنف، معترفاً بهم إيجابياً أكثر من مالكوم أكس والفهود السود. وإنّ الشعب المحتل أفراداً وجماعات يختار الطريقة والتوقيت للمقاومة. فيصل الحسيني شرح لماري إليزابيث كينج في العام ١٩٨٩:

”عندما يكون هناك احتلال، فإنّ الناس لهم الحق في محاربته بأية وسيلة، بما في ذلك الكفاح المسلح. ولكنّ العنف ليس واجباً، وإذا كان ضرورياً يمكن استخدامه في فترة معينة، ولكنه ليس هدفاً في حد ذاته. وأعتقد أنّه في هذه المرحلة، فإنّ وسائل أخرى سوف تعمل على نحو أفضل. أنا لا أقول يجب علينا التخلّي عن الكفاح المسلح، لكننا لا نقوم باستخدامه الآن. الكفاح المسلح هو فقط جزء من النضال السياسي“^٤.

يجب علينا أيضاً أن ندرك أن العالم أكثر تعقيداً من أمانينا ورغباتنا الخاصة، وأنه في نهاية المطاف ما نختار هو الذي يحدّد أعمالنا وعدمها. بكل تواضع، نقول أنه ليس هناك طريقة واحدة لعلاج مرض الاستعمار. وبيانات مطلقة مثل "العنف هو السبيل الوحيد"، أو "اللاعنف هو الطريق الوحيد"، غير منطقية.

عموماً، هناك مزيد من التسامح والتفاهم لأفكار أخرى بين أولئك الذين يروّجون للمقاومة الشعبية. وذلك لأنّ هؤلاء الذين ينخرطون في النضال اللاعنفي يعتقدون أنه هناك إمكانية للتغيير السلمي للسلوك (العنفي) لمعارضتهم. ودعاة اللاعنف هم بالتالي يمكنهم فهم أولئك الذين يتورّطون في أعمال العنف أكثر من أولئك الذين يؤمنون بالعنف ويتفهمون النضال اللاعنفي. وعند أولئك الذين يدعمون العنف هناك دائماً الحجج حول أي نوع من العنف له ما يبرره، وعند أولئك الذين يؤيدون فكرة اللاعنف هناك جدال حول ما يؤهل اللاعنف (مثلاً هل يُعدّ إلحاق الأضرار بالمتلكات من أعمال العنف أم لا؟). كذلك، فإنه من الواضح أن الناس يمكن أن يؤيدوا المواقف وتغيّر المواقف بشأن هذه القضايا. ومبدأ المقاومة اللاعنفية لا يدع للظالمين الفرصة للقمع، بل قد يولد لديهم الإحساس والمشاركة بإنسانيتنا. بالنسبة لنا، إنه دائماً من المشجّع أن نرى المقاتلين السابقين يلقون أسلحتهم ويبدأون العمل من أجل السلام، أو قد نرى جنود جيش الاحتلال يرفضون الخدمة العسكرية.^٦

إنّ أفعال الإنسان مبنية على خزّان من المعرفة من تجارب وكتابات أولئك الذين سبقونا. موهانداس غاندي ولد في ٢ تشرين الأول ١٨٦٩، وعرف بالمهاتما بمعنى الروح العظيمة، ونجح في تطوير واستخدام إستراتيجيات عديدة من المقاومة اللاعنفية التي اعتمدت في فلسطين عبر التاريخ. في حين أنه لم يوافق على تأليف كتاب يشرح فيها فلسفاته وتجاربه، ولكنّ البعض كتب أفكاره التي من الجدير أن تقرأ لمن يريد أن يحصل على أسس جيدة في مبادئ المقاومة الشعبية. لقد قام غاندي بتطوير مفهوم ساتياغراها، والمشتقة من اللغة السنسكريتية ساتيا بمعنى "الحقيقة"، وجراها بمعنى "الصمود". هذا المفهوم "أحمساً" ينطوي على المثابرة في قول الحقيقة ومناهضة الظلم، ويُعتبر نشاطاً إيجابياً في الرغبة في التضحية بالنفس من أجل تحقيق العدالة. في اللغة

السنسكريتية (أحمسا) مفهوم يتضمّن مزيجاً من الحب والصدق وعدم الاعتداء والسلام. غاندي آمن بأنه ليس هناك أعداء، ولكن أولئك الذين يخطئون في معتقداتهم، والذين تحتاج أفعالهم إلى التحدي والتصحيح.

المقاومة الشعبية يمكن أن تُطبّق لتحديّ القوى الاستعمارية وزعماء الظلم. هناك أمثلة كثيرة من قادة الديكتاتورية يبدلون سياساتهم تحت الضغط الشعبي. غاندي استوحى نضاله من المظاهرات الحاشدة ضد قيصر الإمبراطورية الروسية العام ١٩٠٥. وفي العام ١٩٩٩، انخرطت منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات في مفاوضات مع القادة الإسرائيليين، حُشدت حركة جماهيرية للضغط على المفاوضين الفلسطينيين بعدم التخلي عن حق اللاجئين في العودة. ولقد اشتركت مع آخرين في الحركة التي جمعت على مدى ١٠ أشهر أكثر من ٨٠٠,٠٠٠ توقيع (أغلبية فلسطينية) للتأكيد على حقوق اللاجئين. عرفات لم يوافق على تصفية هذا الحق العام ٢٠٠٠ في كامب ديفيد. والعديد من المقربين له صرّحوا بأنهم أدركوا مدى أهمية هذه المسألة للفلسطينيين نتيجة هذا التحرك الشعبي.

الافتراض الأساسي لهذا النوع من النشاط على مستوى القاعدة أنه من الممكن للأفراد أن يؤثروا في التغيير في الشؤون الاجتماعية. في مقال مؤثر بعنوان "العصيان المدني" للكاتب الأمريكي هنري ديفيد ثورو، جادل بإقناع لماذا ينبغي لأحد الدخول في عصيان مدني نشط لوقف الحروب والعبودية ولتفهم واجب الإنسان تجاه إنسان آخر في أية حالة من حالات الظلم.^٧ وأحد القادة الرئيسيين لحركة الحقوق الشعبية في الولايات المتحدة، الدكتور مارتن لوثر كينغ سلط الضوء على أهمية مقال ثورو في سيرته الذاتية:

"عندما ذهبت إلى مورهاوس كطالب العام ١٩٤٤، فإن قلقي من أجل العدالة العرقية والاقتصادية كان كبيراً بالفعل. وخلال أيام الدراسة قرأت مقالة هنري ديفيد ثورو عن العصيان المدني لأول مرة. شجاعة هذا الشخص لرفض دفع الضرائب واختياره السجن بدلاً من دعم الحرب التي من شأنها انتشار الرق في أراضي المكسيك، كان أول اتصال لي مع نظرية المقاومة اللاعنفية، مقترناً بفكرة رفض التعاون مع نظام الشر. لقد كنت بالغ التأثر، حيث أعدت قراءة العمل مرات عدة.

وأصبحت مقتنعة بأنَّ عدم التعاون مع الشر هو واجب أخلاقي بقدر ما هو التعاون مع الخير. لم يكن أي شخص آخر أكثر بلاغةً وحماسةً في نشر هذه الفكرة من هنري ديفيد ثورو. نتيجةً لكتاباتهِ ومشاهداته الشخصية، فنحن ورثةُ تراث إنساني معارضٍ خلاق. تعاليم ثورو في الحقوق المدنية اليوم حية أكثر من أي وقت مضى ...^٨

في الفنون القتالية الشرقية، فإنَّ الدرس الأول في الدفاع عن النفس ليس مواجهة قوَّة خصمك بقوَّة، ولكن تحويل قوته لتصبح بلا فائدة. اللاعنِف يحاول أن يفعل ذلك بالطريقة نفسها. السلطة لا تعمل إلا عندما يقبل السكان هذه السيطرة. وعدم التعاون والعصيان المدني يؤديان إلى فقدان توازن الخصم. ومجرد الانخراط في المقاومة الشعبية يكشف على الفور أنَّ هيكل السلطة قد فشل. ويمكن للمقاومة إنجاز الكثير بعد ذلك:^٩

- يمكن أن تقلِّل من الموارد البشرية التي يعتمد عليها الحكام.
- تستطيع أن تحرم السلطة من المعرفة والخبرة.
- تستطيع أن تحرم السلطة من الموارد المادية (الضرائب، ... الخ).
- يمكن أن تزيد من التكاليف المادية للحفاظ على نظام القمع.

المقاومة الشعبية يمكنها تجنيد قطاعات واسعة من المجتمع المحلي والدولي (كما سنرى لاحقاً مع حركة التضامن الدولية). كتب جوناثان كُتاب ومبارك عوض: "إن أولئك الذين يؤيِّدون الاحتلال وجرائمه يجب فضحهم ومحاربتهم في كل مكان. هذا يخلق ساحة في جميع أنحاء العالم من أجل النضال غير العنيف على أساس الأخلاق والقانون الدولي. ونظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا واجه مثل هذه المعركة في نهاية المطاف وانهار. إسرائيل هي أكثر ضعفاً بكثير لأنها تعتمد اعتماداً كبيراً على بقية العالم لاسيما أوروبا والولايات المتحدة، وإنها لا تستطيع أن تتجاهل هذه الأصوات".^{١٠}

قوة المقاومة الشعبية

إنَّ انخراط المواطنين في القيام بدور نشط في المقاومة الشعبية يبدأ بإقناعهم بأنَّه يمكن إحداث تغيير في الواقع. والتاريخ هنا مليء

بالأمثلة. مثلاً استخدام الإضرابات يُمثّل طريقة ناجحة جداً في المقاومة اللاعنفية التي انتشرت مع الثورة الصناعية في أوروبا في القرن ١٩ وما زالت تُستخدم حتى اليوم. عندما انتقل الناس من العمالة في المزارع والحرف الفردية أو العائلية إلى العمل في المصانع، أصبح تنظيم القوى العاملة طبيعياً. وبات من الممكن للعمال الإضراب وإغلاق المصانع حتى يوافق أصحابها أو الحكومات على تحسين ظروف عملهم أو منحهم تعويضات أكبر.

وأصبحت المقاومة الشعبية تاريخياً القوة المهيمنة الكبرى للأفراد والمجتمعات على حد سواء. والعديد من الكتب كتبت حول هذا الموضوع، وهذا الكتاب يلقي المزيد من الضوء عن نجاحها في تجربة فلسطين، لكن معظم الناس لا يعرفون حقاً مدى قابليتها للاستعمال أو النجاح وحتى بدايتها. من الولادة حتى الموت على المستوى الفردي، نرى استخدام الوسائل غير العنيفة مثل بكاء طفل للحصول على الاهتمام والطعام إلى شكوى الكبار من أشياء لا يحصلون عليها، أو من مرافعة، أو من تصحيح بعض من الظلم أو المطالبة ببعض الحق أو الامتياز. على الصعيد الاجتماعي، نرى أمثلة مثل مواطني روما عندما غادروا المدينة في ٤٩٤ قبل الميلاد، ومكثوا في الجبال حتى وافق النبلاء وأعضاء مجلس الشيوخ التفاوض على مطالبهم العادلة.^{١١} القوات الألمانية بعد الحرب العالمية الثانية، اعترفت بأن المقاومة الشعبية اللاعنفية في المناطق المحتلة كان لها تأثير أكبر بكثير على عملياتها من المقاومة العنيفة.^{١٢}

هنا ستة أمثلة أخرى (من بين مئات) على أن العمل على مستوى الشعب أحدث فرقاً دون قوة عسكرية:

- ضد الاحتلال البريطاني في الهند (المهاتما غاندي وغيرهم في الثلاثينيات والاربعينيات).
- مكافحة التمييز العنصري في الولايات المتحدة (حركة الحقوق الشعبية).
- ضد الحرب في فيتنام في الستينيات من القرن الماضي في الولايات المتحدة.

- مناهضة الفصل العنصري في جنوب أفريقيا؛ سواء داخل جنوب أفريقيا أو خارجها، على سبيل المثال الولايات المتحدة، وبخاصة في الثمانينيات مع حملات المقاطعة.
- ضد الاستعدادات لحرب نووية في أوروبا والولايات المتحدة في السبعينيات والثمانينيات.
- ضد استمرار تقسيم ألمانيا والسيطرة السوفيتية على ألمانيا الشرقية، ما أدّى إلى انهيار جدار برلين، وثم تحرير دول شرق أوروبا من الهيمنة السوفيتية.

ما الذي يدفع المقاومة الشعبية؟

انتقد أحد الزملاء البروفيسور المشهور إدوارد سعيد ووصفه بالأنانية على الرغم من أنّ الأستاذ إدوارد كان من أهم العاملين -تطوعياً- للدفاع عن القضية الفلسطينية. يتجاهل البعض مثل هذه التعليقات لأنها قد تكون ناتجة عن دوافع أخرى كالغيرة وغيرها. ولكن جعلني أفكر في دوافع للعمل التطوعي: هل هي تضحية بحتة أو أنانية أو مختلطة؟ وهنا أقول بناء على خلفيتي في علوم الأحياء التطورية والوراثية والسلوكية أنّه مختلط. ليس ضرورياً من أجل هذه المناقشة، مراجعة الأدب الشامل لتطور السلوكيات الاجتماعية. نحن نعرف أنّ لكل فرد من أفراد البشر بعض الاحتياجات الأساسية التي يمكن تمييزها بسهولة: الماء، الغذاء، المأوى، السلامة، التفاعلات الاجتماعية، الإنجاب. في أجزاء كثيرة من العالم لا يزال الناس بحاجة إلى التركيز على البقاء على قيد الحياة يوماً فيوماً: يبحثون عن الطعام وإيجاد المأوى ... الخ. في المجتمعات المتقدمة تكنولوجياً، لا يزال نجد مثل هؤلاء الناس كالذين لا مأوى لهم في المدن في أنحاء أوروبا وأمريكا الشمالية. وقد نجد مثل هذه الحياة لأكثر من ٣ مليارات من البشر في أنحاء كثيرة من العالم. ولكن حتى عندما تُستوفى الاحتياجات الأساسية للبقاء، فإنّه من الصعب جداً العيش دون التفاعلات الاجتماعية، فالحبس الانفرادي هو العقوبة الأشد رهبة للسجناء. ومن المعروف أنّ انعدام التفاعلات الاجتماعية يضعف جهاز المناعة، ويسبب تغيرات سلبية للسلوك، وقد تؤدّي إلى الوفاة المبكرة. ومن هنا جاءت أفكار ومفاهيم التضحية بالنفس والعمل الجماعي.

إنَّ المصلحة المشتركة تنبثق مباشرة من المجتمع الإنساني، وتشمل العمل الجماعي والتضحية. وفي المجتمعات الحيوانية الاجتماعية كالنمل، والنحل، والفيلة، تظهر مثل هذه الصفات، ولكن البشر لديهم نظم اتصالات معقّدة، وحسب ما هو معروف نحن الكائن الوحيد على الكرة الأرضية الذي يفكر في وجوده، ويفكر في الحياة بعد الموت، ويفكر بالأخلاق ومفاهيم أخرى لا نلاحظها في أشكال الحياة الأخرى. وقد نجد العديد من الحيوانات التي تظهر سلوكيات التضحية بالنفس من أجل تغذية أطفالها وحمايتهم، حتّى بعض الحيوانات الأليفة قد تخاطر بحياتها لإنقاذ رفيقها الإنسان، ولكن المجتمعات البشرية استحدثت أشكالاً مذهلة للغاية في المقاومة؛ مثل الوقوف أمام جرافة تهدف إلى هدم منزل شخص ليس يقربنا (مثلاً راشيل كوري التي فقدت حياتها أمام منزل فلسطيني). تستدعي هذه السلوكيات تفسيرات أكثر عمقا من سطحيات ناجمة عن اعتقاد ديني أو عقائدي (وهذا صحيح ولكن لا يكفي). هل يمكن للمرء أن يجادل بأنّ الأم تيريزا أو المهاتما غاندي كانا مدفوعين بشكل نقي للتضحية بالنفس من أجل الآخرين؟ هنالك ما يسمّى بالذاتية المستنيرة، التي تقول إنّ دوافع هؤلاء كغيرهم ليست تضحية بحتة. يوميات الأم تريزا التي قالت إنّها لا تريد أن تنشر أزعجت العديد من مؤيديها الذين أصيبوا بصدمة كبيرة عندما علموا أنّ طوال فترة حياة حافلة بفعل الخير للآخرين، كانت لديها شكوك حول أشياء كثيرة (حتى وجود الله). ومع ذلك، هذه المرأة البسيطة تجسّد حب الفقراء أكثر مما نتصوّر. هذا الحب هو القضية التي ينبغي لنا أن نبدأ بها عند مناقشة التضحية بالنفس والمصلحة الذاتية المستنيرة.

الحب بين الطفل والأم ينطوي على تضحية كبيرة، وربما تكون أسهل للفهم في الربط بين علم الأحياء (العلاقة الجينية) وعلم السلوك. في الصين القديمة، كان الأولاد في بعض الأحيان يقطعون قطعاً من لحم أجسادهم لتغذية والد مريض أو يتصوّر جوعاً. رعاية أفراد الأسرة المباشرة متأصل بيولوجيا لسبب واضح هو تشاطر الجينات نفسها. ولكن التطوّر الاجتماعي والفكري للإنسان يُنتج صفات أخرى تتفوّق على الرابط البيولوجي. نجد أمثلة الحب والتضحية في تبني الأطفال أو إعطاء ما نملك لآخرين، وليس من السهل تفسير ذلك بيولوجياً، أو

بالقول إنه ناتج عن إيمان ديني معيّن. ونجده في كل الديانات وحتى بين الملحدين. حب الأزواج لبعضهم البعض أيضاً، لا يمكن أن يختزل إلى الاحتياجات البيولوجية أو حتى الاجتماعية.

من وجهة نظر نفسية، يمكن القول إنّ الأفراد بحكم طبيعتهم لا يحبّون أن يكونوا مكروهين ويحبّون الجماعة. المقاومة الشعبية تعطيهم الفرصة للانخراط في سلوكيات تحصل على دعم شعبي، ومن يعارض الشعب يشعر بالوحدة. الحكام والمحتلون أيضاً قد يعيدون تقويم موقفهم هذا لأنّ الحاجة البيولوجية الطبيعية تتطلّب أن نكسب إعجاب الناس واحترامهم. لا يوجد إنسان قاس إلى حدّ عدم التأثير مطلقاً بسلوك الآخرين حوله. نحن نعرف أنّه حتّى أشدّ جنود النازية، في بعض الأحيان، تغيّرت تصرفاتهم. ونعرف أنّ الجنود الذين يشهدون أو يشاركون في أعمال وحشية مشوهين نفسياً. هناك دراسات عن التأثير النفسي على عشرات الآلاف من المحاربين القدامى في الحرب الأميركية على فيتنام كما على الجنود الإسرائيليين الذين شاركوا في الفظائع المرتكبة العام ١٩٤٨، أو في لبنان العام ١٩٨٢.^{١٣}

إنّ التفكير في الأجيال المقبلة شيء لا يقتصر على المؤمنين الذين يبحثون عن حياة خالدة، بل أيضاً بين الملحدين والماديين والشيوعيين وغيرهم. إنّهُ ضمن خصائص الإنسان الطبيعية. من بين البشر يشهد سقوط طفل ولا يتقدّم للمساعدة؟ إنّ المثل العربي الذي يقول: "زرعوا وأكلنا، ونزرع فيأكلون" يشرح مسؤوليتنا تجاه الأجيال المقبلة. كلارنس جوردان رجل أبيض في الجنوب المفضل في ١٩٤٠ و ١٩٥٠، ودراسته للغات القديمة وتعاليم يسوع غيّرت أفكاره. فقد تحدّى رجال الدين في الجنوب، وانتقل ليؤسّس مزارع كوينونيا في جورجيا باختلاط السود والبيض الذين كانوا يعيشون ويعملون معاً، وقد تعرّضوا للتفجير بالقنابل، وهُجموا كثيراً، ولكن لم يستسلموا أبداً، وعندما تستمع إلى أشرطة خطب كلارنس تُعجب بالتفاؤل والإيمان في الخير الذي كان يملأ حياته. صحة رؤيته وبعد نظره أدّى إلى نتائج جيدة خلال حياته (نجاح المزرعة التعاونية والعيش بصدق وسلام مع الجميع) وحتى بعد وفاته (مثلاً تأسست (Habitat for Humanity) في المزرعة). وهناك دوروثي داي التي قالت إنّ مهمتها في الحياة هي "مواساة المصاب وجعل المرتاح

أقل راحة“، وهناك مارتن لوثر كينغ، وديزموند توتو، والمهاتما غاندي، والشيخ محمد حسين، والكهنة نعيم عتيق، وحنّا عطا الله، والياس شاكور، وعدد آخر لا يحصى لهم النظرة الإنسانية نفسها. منذ وقت مضى، بدأت بتجميع أسماء لأشخاص على موقعي في الإنترنت لنظرتهم وعملهم لحقوق الإنسان الفلسطيني.^{١٤} ولكن هذه المهمة ستكون بلا نهاية، لأنّ هناك الملايين من الناس. ولكن حتّى هذه المهمة ستكون بسيطة مقارنة لمهمة فهم ما ألهم هؤلاء النشطاء ليفعلوا ما فعلوا. رفضت امرأة سوداء (روزا باركس) التخلي عن مقعدها لرجل أبيض في الولايات المتحدة، وألقي القبض عليها لانتهاك مرسوم عنصري، وبهذا التحدي حدثت سلسلة من الأحداث، أدّت إلى مقاطعة عامة للحافلات في مونتغمري بولاية ألاباما. وحركة الحقوق الشعبية تصاعدت في ١٩٥٠ و ١٩٦٠، وأدّت إلى تغيير جذري في بنية المجتمع الأمريكي.

يكشف هاوارد زين في كتابه التاريخ الشعبي للولايات المتحدة عن أمثلة لا حصر لها في أهمية الحركة الشعبية.^{١٥} هذا التاريخ ومثله يبيّن أنّ المصلحة الذاتية المستنيرة كانت حاسمة في التطوّرات الرئيسية. مثلاً تحرير آلاف العبيد قبل الحرب الأهلية، المصالحة بعد الحرب الأهلية، كسب حق المرأة في التصويت في الانتخابات الأميركية العام ١٩٢٠، تخفيض ساعات أسبوع العمل إلى ٤٠ ساعة، وغيرها من حقوق العمال. وهي التي وضعت حدّاً للحرب في فيتنام، وأنهت ٣٠ عاماً من دعم الولايات المتحدة لجنوب أفريقيا العنصرية.

وبوسعنا أن نُورد دراسات من علوم الوراثة والسلوك لإظهار أنّ التضحية بالنفس من أجل الجماعة هي سمة موجودة وتتطوّر. ولكن يمكن أن ننظر إلى تجاربنا الشخصية الخاصة للعثور على إجابات واضحة. ويمكن أن نفكر بالأفراد الذين نحترمهم لنجد الصفات المحبّدة. بالنسبة لي، كان أحد أعمامي عالم الحيوان الأوّل في فلسطين وقتل العام ١٩٧٠ بعد أن أنهى الدكتوراه مباشرة. وكان قد قدّم مساهمات علمية وأخرى كبيرة للبشرية. ورسائله وحافزه للمساعدة، وليس فقط لأقاربه ولكن للإنسانية، كل ذلك أثّر في حياتي الخاصة. وأنا واثق من أنّ كل واحد منا يعرف أفراداً من هذا القبيل.

خطر الصراع

إنَّ الانخراط في المقاومة اللاعنفية خطر مثل الانخراط في المقاومة العنيفة (وأحياناً أكثر خطورة). وعدد لا يحصى من الفلسطينيين لقوا مصرعهم في المقاومة الشعبية. حتى الطالبة الأمريكية راشيل كوري قُتلت عندما وقفت أمام جرافة وهي تحاول في غزّة منع الاحتلال من هدم بيوت للمواطنين الفلسطينيين، ولكنَّ سائق الجرافة لم يأبه بوجود هذه الفتاة أمامه فقام بسحقها بالجرافة حيث فارقت الحياة. ويتعرّض المقاومون للقتل والأذى والسجن في ظل الاحتلال الاستعماري، بغض النظر عن طبيعة مقاومتهم. ولقي الآلاف من المدنيين الفلسطينيين مصرعهم، وأصيب عشرات الآلاف على مدى العقود القليلة الماضية لمجرد كونهم فلسطينيين في فلسطين. وأكثر من ٦٥٠ ألفاً من الذكور الفلسطينيين ذاقوا مرارة الاعتقال الإسرائيلي في مرحلة ما من حياتهم. وهذا ما يزيد على ٤٠٪ من الذكور في الأراضي المحتلة. لكل مواطن فلسطيني قصص من الظلم من القتل والجرح والسجن وهدم البيوت والحرمان من الخدمات الطبية والتعليم. ما يثير الدهشة هو ليس المقاومة العنيفة، ولكن قوة الصمود والمقاومة غير العنيفة بين الفلسطينيين.

هنا يستوجب التذكير بأنَّ أوّل هجوم انتحاري حدث في نيسان العام ١٩٩٤ بعد أكثر من ١٠٠ سنة من بدء البرنامج الاستعمار الصهيوني. وقع هذا التفجير بعد ٤٠ يوماً من دخول مستوطن إسرائيلي (من الولايات المتحدة) إلى الحرم الإبراهيمي في الخليل وقتل ٢٩ فلسطينياً (بينهم أطفال)، وأصاب آخرين كثيرين. الحكومة الإسرائيلية المنتخبة ديمقراطياً ردّت على هذه الجريمة ليس بمعاقبة المستوطنين، ولكن بمعاقبة الفلسطينيين في الخليل بطريقة أدّت إلى مزيد من التطهير العرقي والدمار الاقتصادي. نقل عن يحيى عيَّاش صانع القنابل في حركة "حماس"، الذي قتلته القوات الإسرائيلية العام ١٩٩٦ قوله إنَّ التفجيرات الاستشهادية الفلسطينية اعتمدت للانتقام، ولتجعل من الاحتلال الإسرائيلي أكثر تكلفة.^{١٦} ولكن الفلسطينيين دفعوا ثمناً باهظاً لهذه التفجيرات التي اتخذتها إسرائيل كذريعة لإكمال المشروع الصهيوني للتشريد والتفرقة العنصرية. كما رأينا أنَّ "حماس" تخلت عن هذه الإستراتيجية، وحتى بدأت بدعم المقاومة الشعبية. هذا منطقي،

ويجب التذكير هنا أنّ مثل هذه المقاومة ليست استسلامية أو سلمية، فهناك تضحيات كبيرة ينبغي لنا أن نتوقعها في النضال من شهداء، وجرحى، وخسائر شخصية.

الفصل الرابع

السياق المحلي للمقاومة الشعبية

”إننا معتادون على الاعتقاد خارج إسرائيل أنَّ العرب كلَّهم همج الصحراء، أناس مثل الحمير، وأنهم لا يروُّن ولا يفهمون ما يجري حولهم، ولكن هذا خطأ كبير“.

اليهودي آشر جينسبيرج المعروف بآحاد هعام يكتب لليهود سنة ١٨٩٣.^١

المقاومة الشعبية لها جذور دينية وحضارية عربية وإسلامية

المقاومة الشعبية في فلسطين حركة تهدف إلى حرمان نظام الاحتلال من ممارسة سيطرة سياسية أو اجتماعية، وينقسم إلى ثلاثة مجالات، هي: المقاومة المدنية (الإضرابات، والمظاهرات، ... الخ)، المقاومة المنظمة (تشكيل اللجان والحركات السياسية من أجل تقرير المصير)، المقاومة من أجل التنمية (بناء الذات الاقتصادية والاجتماعية، الاكتفاء، والاستقلال في جميع مجالات الحياة).^٢ أهداف المقاومة الشعبية في فلسطين أو في أماكن أخرى، تشمل ما يلي:

١. الضغط على الخصم لتفهم الظلم الذي يقوم به تجاه الشعب المحتل.
٢. إضعاف قبضة الخصم على السلطة.
٣. تعزيز المجتمع الذي يعارض الظلم، بما في ذلك أشكال التمكين والمقاومة (الصمود).
٤. تعزيز القدرة على تحمل الظلم، وفعل شيء حيال ذلك.
٥. بناء الاكتفاء الذاتي، وتحسين مستويات المعيشة.

في فلسطين، جميع هذه الصفات يمكن دعمها بهيكل محلي من التقاليد الدينية والفلسفية التي تعود لمئات السنين. ويمكن القول إن الأكثر شهرة وأهم قائد تاريخي للمقاومة الشعبية في فلسطين هو يسوع/ عيسى عليه السلام الذي ولد في فلسطين وتكلم الآرامية، وهي لغة سامية قادت إلى الأبجدية العربية ومعظم العربية الحديثة. لقد خرج يسوع برؤية مختلفة عن العهد القديم وفكرة "العين بالعين". وحُكم عليه بالصلب بسبب المقاومة اللاعنفية. كان هدف اليهود المسيحيين الذين استمدوا القوة من الإمبراطورية الرومانية هو قتل الفكرة التي بشر بها. لقد تكلم بشكل واضح جداً يقول لأتباعه:

”طوبى للودعاء فإنهم يرثون الأرض. طوبى للمحزونين، فإنهم يُعزّون. طوبى للجياع والعطاش إلى البر فإنهم يشبعون. طوبى للرحماء، فإنهم يرحمون. طوبى لأطهار القلوب فإنهم يشاهدون الله. طوبى للساعين إلى السلام فإنهم أبناء الله يدعون. طوبى للمضطهدين على البر فإن لهم ملكوت السموات“ (متى ٥: ٥ - ١٠).

”سمعتُم أنه قيل: العين بالعين والسن بالسن. أما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشرير، بل من لطمك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر“ (متى ٥: ٣٨ - ٣٩).

”أما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم وصلّوا من أجل مضطهديكم، لتصيروا بني أبيكم الذي في السموات، لأنه يطلع شمسَه على الأشرار والأخيار، ويُنزل المطر على الأبرار والفجار“ (متى ٥: ٤٤ - ٤٥).

يسوع لم يكن مسالماً أو سلبياً أو قابلاً للظلم، لكنه كان يشجع مقاومة الظلم والتواصل والإقناع. مقاومته اللاعنفية كانت أكثر نجاحاً مما حلم به أحد في عصره. الآن ما يقرب من ملياري شخص يعتبرون المسيحية دينهم، و١,٥ مليار مسلم يكرّمون المسيح (بل يعتبرونه الأكثر تكريماً من الأنبياء). إن رسالة المسيح يتبعها أكثر من نصف سكان الأرض، وكلها بدأت بتعاليم واضحة عن الحب والمقاومة للظلم ومساعدة المستضعفين.

المطران منيب يونان الفلسطيني، قال:

”إن الكنيسة تنظر إلى الاحتلال بحدّ ذاته على أنه عنف ضد الشعب الفلسطيني، العنف الذي يتخذ أشكالاً عدة. هناك العنف الجسدي

اليومي الذي يرتكبه الجنود الإسرائيليون "لحفاظ على النظام" كما يقولون. القصف وإطلاق النار والضرب. هناك العنف العاطفي عندما يذل جنود الاحتلال يومياً الرجال والنساء عند نقاط التفتيش وإجبارهم على الركوع على ركبهم وشتيمهم بكلمات كره، وتجريدهم من كرامتهم الإنسانية.

وهناك العنف في إنكار حقوق الإنسان الأساسية؛ مثل المياه، والمنازل، والرعاية الصحية.

هناك أعمال عنف إرهابية من إسرائيل؛ مثال: عندما قصفت طائرات هليكوبتر إسرائيلية بلدة بيت جالا. وتركت الأطفال يعانون من مشاكل نفسية. "أمي، هل سيقصفوننا مرة أخرى هذه الليلة؟ إذا ذهبت إلى النوم، هل سأستيقظ مرة أخرى؟". هؤلاء الأطفال في كل مرة يسمعون صوت طائرة هليكوبتر، يرتعشون بسبب احتمال أن القصف قد استؤنف.

هناك العنف الاقتصادي؛ كالإغلاق الذي يمنع الناس من الذهاب لإعمالهم، وإجبارهم على العيش بمتوسط دولارين في اليوم في حالة من الفقر. وتقدر الأونروا أن ٦٠ في المائة نسبة البطالة الحالية، وأن ثلثي السكان يعيشون على أقل من دولارين في اليوم، وليس لديهم دخل وممنوعون من جني محاصيلهم، واستثماراتهم في الممتلكات على مدى الحياة قد دُمّرت.

وهناك عنف الكلمة؛ فكل يوم تصوّر وسائل الإعلام الشعب الفلسطيني شعباً عنيفاً يريد فقط إثارة المشاكل. وأنه الشعب الذي يرسل أبناءه إلى الموت، ويصوّر إلى العالم أنه شعب إرهابي ولا يصوّر أنه شعب يناضل من أجل حريته. إن أولئك الذين يُسيئون استخدام الكلمات، يجب أيضاً أن يكونوا مسؤولين عن هذا العنف".^٣

جاء الإسلام في القرن السابع ليس كديانة جديدة، بل كديانة سيدنا إبراهيم الداعية إلى العدالة. سافر خاتم الأنبياء محمد مرات عدّة إلى بلاد الشام (سوريا الكبرى التي تضم فلسطين). وهذا الدين يكمل ولا ينافس الأديان التوحيدية الأخرى. طالب أتباع هذا الدين العمل لإصلاح الأوضاع في العالم. نظر المسلمون للقدس بأنها القبة الأولى للصلاة والحرم الشريف (المسجد الأقصى) في القدس باعتباره ثالث أقدس

موقع في الإسلام (بعد تلك التي في مكة المكرمة والمدينة المنورة). وقد انتشر الإسلام في بدايته ليس عن طريق الغزو المسلح، ولكن من خلال الإقناع والمناقشة. يمكن اعتبار سنوات الهجرة إلى المدينة سنوات من المقاومة الشعبية أو انتفاضة وصمود. لم يكن هناك إكراه على المواطنين في اعتناق الإسلام، فلا إكراه في الدين. ولكن الكثير رأوا في الإسلام حقيقة، ووجدوا أنه ينسجم مع نظرتهم إلى العالم. وما يقرب من نصف سكان فلسطين الكنعانية اعتمدوا الإسلام ديناً ليس جديداً، بل امتداداً لدياناتهم القائمة (اليهودية والمسيحية)، لكن عدداً كبيراً بقي على دينه، وكان هنالك تعابيش وازدهار. ومفهوم النضال المدني تعزز في منطقتنا من هذه الديانات والفلسفات والممارسات. وعاش المسيحيون والمسلمون واليهود في انسجام نسبي لقرون حتى جاء الصليبيون.

إنّ الإسلام يتوافق مع مبادئ حقوق الإنسان والعدالة العالمية ومع المقاومة الشعبية للاستبداد.^٥ والمسلم الحقيقي يسعى إلى السلام مع الله وأخيه الإنسان، مع الله عن طريق الخضوع التام لإرادته، لأنّه هو مصدر كل الخير والنقاء، ومع أخيه الإنسان عن طريق فعل الخير ونشر النوايا الخيرة. تحية المسلمين، مثل الديانات السماوية الأخرى "السلام عليكم"، "السلام عليكم" مأخوذة من القرآن الكريم (القران ١٠: ١٠) "وتحيّتهم فيها سلام". الجنة وُصِفَتْ بأنّها المكان الذي "لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً" (القران ١٩: ٦٢). واحد من أسماء الله هو دار السلام وفي القرآن الكريم "يدعو إلى دار السلام" (القران ١٠: ٢٥). "وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً" (القران ٢٥: ٦٣). والله يكره الذين يبدؤون الحروب والصراعات "كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله ويسعون في الأرض فساداً والله لا يحب المفسدين" (القران ٥: ٦٤). لكن الإسلام ليس سلبياً: "يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين" (القران ٤: ١٣٥). هذه وغيرها من الآيات في القرآن الكريم تؤكد على ضرورة اتخاذ إجراءات لتحقيق العدالة، وبأنّ العنف يجب أن يكون محفوفاً فقط للدفاع عن النفس. وفي الحديث نرى مثل هذه التصريحات: "من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان".^٦

المسيحية مثل الإسلام لا يُشجع المؤمنون على كره أولئك الذين يفعلون أشياء سيئة/ أفعالاً شريرة، بل كره الأعمال الشريرة نفسها. أنْ تحب أعداءك لا يعني أنْ تحب أفعالهم الظالمة. المؤمنون هم الذين يكرهون السيئات. في جميع الأديان الأخرى (البوذية واليهودية ... الخ) نجد أقوالاً مشابهة. "المسلم الحقيقي هو من سلم لسانه ويده من أي عنف، والمجاهد المثالي هو الذي تخلص عن تلك التي يحظرها الله. الجهاد هو جهده؛ السعي من أجل العدالة والحقيقة التي لا تحتاج إلى عنف".^٧

العبارة القرآنية لاستخدام القوة واضحة: "وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين" (٢: ١٩٠). القتال مسموح به لتحقيق العدالة دون أن يؤدي غير المقاتلين، ولا سيما النساء والأطفال وكبار السن من الرجال، وأيضاً دون أن يضر النباتات أو الأشجار في أرض العدو. وأمر الله أيضاً السعي إلى السلام إن كان الخصم يوافق على السلام: "وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم" (٨: ٦١).^٨ الإسلام يدعو لنزول العنف، ويتوافق كلياً مع الطرق التي يراها الغرب اليوم كأنها اختراعات لغاندي أو غيره.^٩ محمد أبو نمر يفسر: "هناك توافق تام بين هذه الأساليب اللاعنافية والقيم والمعتقدات الإسلامية التي توعد للمؤمنين مقاومة الظلم والقهر والسعي إلى تحقيق العدالة والصبر وحماية قدسية وكرامة الإنسان ... هناك العديد من الأمثلة التي يمكننا توضيحها لاستخدام الأساليب اللاعنافية في التاريخ الإسلامي، وربما كان أفضل مثال على ذلك هو ١٣ عاماً من الكفاح والمقاومة اللاعنافية للنبي محمد (ص) في مكة. لم يُستخدم أي فعل أو مصطلح عنيف ولم يجيز الرسول أو أي من أتباعه ذلك. المسلمون ليسوا سلبيين، ولم يستسلموا لمصيرهم، على العكس من ذلك نشروا رسالتهم وإيمانهم وواجهوا غير المؤمنين يومياً".^{١٠}

وأصبحت المقاومة الشعبية في العالم العربي والإسلامي راسخةً. لتوضيح ذلك، أورد بعض الأمثلة: أحد زملاء مهاتما غاندي في الهند كان رجلاً مسلماً واسمه عبد الغفار خان. في الأعوام بين العشرينيات والثلاثينيات، أنشأ جيشاً من عشرات الآلاف من المقاومين المسلمين في بيشاور. كانوا يرتدون زيّاً فريداً ومنضبطين ووسائلهم غير عنيفة مطلقاً. في واحدة من المظاهرات السلمية التي نظمها خان لمقاومة الإنجليز، فتحت القوات البريطانية النار عليهم، ما أسفر عن مقتل المئات منهم.^{١١}

في تشرين الثاني ١٩١٨، طلب سعد زغلول وقادة القيادة الشعبية المصرية من قوات الاحتلال البريطاني السماح لهم بإنشاء قيادة مصرية للشعب المصري والتمهيد للاستقلال. عندما رُفِضَ طلبهم قام هؤلاء القادة بجمع أكثر من مليوني توقيع، حيث أقرت قيادة جديدة على الرغم من رفض الاحتلال. ردت بريطانيا بالقبض على هؤلاء القادة، ما أدى إلى إضرابات عامة ومظاهرات. قد وقعت الاضطرابات العام ١٩١٩، وتصاعدت واستمرت حتى العام ١٩٢٢ عندما سمح البريطانيون بتشكيل حكومة مصرية، وإن كان يحكمها ملكٌ خاضعٌ للمصالح البريطانية.^{١٢}

وقّع متعاملون عراقيون العام ١٩٤٨ صفقات سرية مع الحكومة البريطانية لإقامة قواعد عسكرية مستديمة على أرض العراق، وتسربت المعلومات إلى الجماهير، ما أدى إلى مظاهرات حاشدة. في يوم واحد (٢٦ كانون الثاني ١٩٤٨) قتل أكثر من ١٠٠ عراقي بالرصاص في مظاهرات سلمية في بغداد. ولكن المظاهرات نجحت في تخريب الاتفاقيات، وعوّضت الحكومة ذلك عن طريق إقامة المزيد من الصلاحيات الديكتاتورية لمنع عودة هذه الاضطرابات الشعبية.^{١٣}

هذه التقاليد المسيحية والإسلامية والتاريخ المشرف للمقاومة تعطينا كفلسطينيين حافزاً قوياً. على سبيل المثال في انتفاضة ١٩٨٧-١٩٩١، كانت المساجد والكنائس مراكز لتنظيم النشاط وتعبئة الناس من أجل النضال المدني.^{١٤} خير مثال على هذا هو بعد المذبحة التي راح ضحيتها ١٧ من العمال الفلسطينيين في ريشون لتسيون على يد جندي إسرائيلي طلبت القيادة الموحدة بيوم صيام. في بلدة واحدة (بيت ساحور) جلس إمام المسجد المحلي على يسار محراب المسجد، بينما جلس كاهن الكنيسة المحلية إلى اليمين. جلس جميع الناس من حولهم في صمت أو بأحاديث متكتمة محترمين يوم الصيام والاعتصام. عندما انتهى اليوم نهض الجميع وساروا إلى الكنيسة الأرثوذكسية المجاورة.^{١٥}

الفصل الخامس

المقاومة الشعبية خلال فترة الحكم العثماني

”لقد عاش اليهود هنا في فلسطين تحت الحكم العثماني وكأنهم عثمانيون، وكانوا محبوبين من جميع شرائح المجتمع العثماني ... كانوا يعيشون في الأحياء نفسها، حيث يذهب جميع أطفال المجتمع إلى المدارس نفسها، ولكن الصهاينة وضعوا نهاية لكل هذا، وحرّموا الاختلاط بين اليهود والسكان المحليين. وقاطعوا اللغة العربية والتجار العرب وأعلنوا عزمهم على الاستيلاء على البلاد من أيدي سكانها“ (جريدة فلسطين، ١٩١٤).^١

باستثناء فترات قصيرة جداً، حكمت الإمبراطورية العثمانية فلسطين من العام ١٥١٧ حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. وفي العام ١٨٣١ قامت الجيوش المصرية بقيادة محمد علي باحتلال فلسطين، وقام بتعيين نجله إبراهيم حاكماً. قامت انتفاضة الفلاحين الفلسطينيين ضد هذا الحكم المصري على نمط ثورات سبقت ضد العثمانيين العام ١٨٠٨، والعام ١٨٢٦. وفي ١٩ أيار من العام ١٨٣٤، قال وجهاء المدن والقرويون والبدو للمسؤولين المصريين في نابلس والقدس والخليل، إنهم لن يوافقوا الحصص المطلوبة من المجندين. أعقب هذا العمل من المقاومة الشعبية ضد التجنيد الإجباري أعمال شغب في منطقة الخليل، حيث قام سكان قرية سعين وأهل الخليل بقتل ٢٥ جندياً مصرياً واعتقال الحاكم. انتشرت نار الثورة في جميع أنحاء الريف الفلسطيني. كان الثمن باهظاً، حيث تم نقل الآلاف من الفلسطينيين عن طريق البحر إلى مصر من أجل التجنيد القسري، وقتل المئات، وتم زج البعض الآخر بالسجن، وتم تدمير الجزء المسلم من مدينة بيت لحم.^٢ نجاح الانتفاضة أضعف الحكم المصري،

وعادت المحافظات تحت الحكم العثماني العام ١٨٤٠. ربما كان الأهم من ذلك للمستقبل هو أنّ الانتفاضة أشعلت الحس القومي، وقدمت نموذجاً للنشاط السياسي الذاتي والمقاومة التي تردّد صداها لعقود مقبلة.

كان السلطان عبد المجيد يبلغ من العمر ١٦ عاماً فقط عندما تولّى زمام السلطة العام ١٨٣٩، وتميّزت فترة حكمه بمزيد من الضعف في الإمبراطورية لصالح القوى الأوروبية. منذ حكم الصليبيين والقوى الأوروبية كانت تحلم دائماً بالعودة إلى فلسطين، وزاد هذا في القرن التاسع عشر. وكما هو معروف فقد جاءت فترة من تاريخ العالم التهمت القوى الاستعمارية الأوروبية مساحات شاسعة من قارات أفريقيا وآسيا وأمريكا. وبدأت بريطانيا وفرنساً على وجه الخصوص تتطلع إلى الاستفادة من فكرة إنشاء وطن قومي لليهود في فلسطين في هذا الموقع الإستراتيجي الذي يربط ثلاث قارات. وقد بدأت فكرة إقامة "وطن قومي يهودي" (أي فكرة الصهيونية) كأداة لمصالح القوى الاستعمارية بعهد نابليون، حيث اجتمع مع اليهود القيايين في أوروبا لاقتراح هذا الاحتمال. ولكن كانت لدى بريطانيا خطط أكثر عمليّة.

قام بعض الأرسقراطيين الأثرياء البريطانيين في القرن التاسع عشر بتقديم فكرة أنّه قد يكون من الحكمة إنشاء مستعمرة يهودية بوصفها "منطقة عازلة" في هذه النقطة الحساسة التي تربط بين آسيا وأفريقيا.^٢ مصادفةً، كانت هناك حركة يهودية صغيرة نظرت إلى التمييز الذي تعرّض له اليهود في أوروبا باعتباره ليس مشكلة تُحل بالدمج في المجتمع الأوروبي، ولكن بسيادة اليهودية على دولة يهودية. تم توضيح الأفكار المؤيدة للصهيونية في كتابات موسى هيس (١٨١٢-١٨٧٥)، ويهودا ليب (ليون) بينسكر (١٨٢١-١٨٩١)، وموسى ليلانبلوم، وناثان بيرنبروم (الاسم المستعار "ماتياس آش" وهو الذي صاغ مصطلح "الصهيونية" على أساس أفكار هيس وبينسكر). وقد كتب موسى هيس كتابه المؤثر روما والقدس الذي تمّ نشره العام ١٨٦٢، حيث قال فيه إنّ الحل لهذه "المشكلة اليهودية" يكمن في إيجاد وطن لهم. ولم تؤيّد الغالبية العظمى من اليهود في القرن التاسع عشر الأفكار الصهيونية السياسية. ولكن بدأ التطبيق العملي للصهيونية بعد تلقي الدعم المادي من قبل الأثرياء اليهود الرأسماليين، والدعم العملي من جانب الحكومات الأوروبية.

كان هناك أكثر من ٦٧٢ قرية وبلدة في فلسطين في ظل الحكم العثماني في القرن التاسع عشر. وكان يبلغ عدد سكانها أكثر من ٤٦٠ ألف نسمة باستثناء البدو. وكانت نسبة السكان المسيحيين ١٥٪ وأقل من ٣٪ يهود.^٤ وكان معظم الفلسطينيين من الفلاحين مع بعض البدو وسكان المدن. كان مجتمعاً نابضاً بالحياة ومتحضراً ومتأقلماً مع بيئته ومع الحكم العثماني. الفلسطيني يوسف ضياء باشا الخالدي كان رئيساً لمجلس البرلمان الأول في الإمبراطورية العثمانية بعد إصلاحات العام ١٨٧٦. البرلمان لم يملك صلاحيات كثيرة، فضباط الجيش التركي كانوا أقوى. شجع النظام العثماني الإقطاعية والتبعية والبيروقراطية. ومع ذلك فقد حاول الخالدي وفلسطينيون آخرون حماية حقوق شعبنا.

بين الأعوام ١٨٥٠-١٨٧٤ كانت هناك صراعات داخلية بين تحالفات عشائر قيس ويمن في مدن وبلدات مختلفة في جميع أنحاء فلسطين. شجع العثمانيون مثل هذه الانقسامات بناء على "فرق تسد"، وتدخّلوا عسكرياً فقط عندما بدأ الصراع يخرج عن السيطرة أو يهدّد السلطة العثمانية. خلافاً لبلدان أخرى كانت فلسطين تواجه بداية البرنامج الصهيوني. وقد ثار المجتمع الإقطاعي ببطء في البداية مع بناء أولى المستوطنات في فلسطين من قبل الحركة الصهيونية. وفي نهاية القرن التاسع عشر، كانت هناك فتتان من الفلسطينيين تشتركان في العداء للصهيونية، وحاولتا توحيد صفوفهما لمحاربتها: المثقفون (بما في ذلك ممثلو الشعب المنتخبون في البرلمان العثماني) والفلاحون.

بدأت نشاطات القومية العربية ومقاومة الصهيونية منذ العام ١٨٦٨ مع تأسيس جمعية سرية سميت بـ"الجمعية السورية" ومقرّها دمشق، ضمّت أعضاء من جميع أنحاء بلاد الشام (سورية الكبرى وتشمل فلسطين) مع شعار "تنبهوا واستيقظوا يا عرب".^٥ نمت مثل هذه المنظمات مع بدء تدفق الصهاينة وازداد التوتر بين المواطنين الأصليين والصهاينة والحكام العثمانيين. وابتداء من العام ١٨٤٩، قام الحكام العثمانيون بتغيير قوانين ملكيّة الأرض، سامحين بذلك لصفقات شراء اليهود الغربيين للأراضي. وفي العام نفسه، زار المليونير اليهودي البريطاني موسى مونتيفيوري فلسطين بمرافقة اللفتنانت كولونيل جورج غاولر حاكم جنوب أستراليا، الذي قدّم

دراسة للحكومة البريطانية نشرت العام ١٨٤٥ بشأن جدوى إقامة المستعمرات اليهودية في فلسطين.^٦ استغلّ مونتيفوري مكانته في المجتمع البريطاني وضعف الإمبراطورية العثمانية خلال حروب القرم. وقام بزيارة السلطان في طريقه إلى فلسطين، وحصل على ورقة تسمح له بشراء الأراضي، واستعمل ثروته لبناء مستوطنات يهودية تجريبية في القدس، ويافا، من خمسينيات وحتى بداية سبعينيات القرن التاسع عشر (أمثلة على هذه المستوطنات: غان مونتيفوري، ويمين موشيه، ومحانيه يسرائيل، وميا شعاريم). من الجدير بالذكر أنّ الجهود الأولية هذه حدثت قبل فترة طويلة لما تعتبره الصهيونية الحديثة أول موجة للهجرة اليهودية من روسيا في بداية العام ١٨٨٢. وسبق هذا بعقود كتاب ثيودور هرتزل، وقبل إضفاء الطابع الرسمي على الحركة الصهيونية العالمية.

منذ إنشاء المشروع الصهيوني في منتصف القرن التاسع عشر (قرن الاستعمار)، كان هذا مشروعاً تعاونياً بين الصهاينة السياسيين اليهود والنخبة البريطانية التي اهتمت بدفع مصالح الإمبريالية. في العام ١٨٦٤، قامت السلطات البريطانية بإنشاء "صندوق استكشاف فلسطين" الذي كان يدعو إلى إجراء دراسات حول فلسطين لإنشاء اتصال التاريخ القديم مع المواقع الحديثة والتمهيد لـ "إعادة تشكيل" فلسطين كدولة يهودية.^٧ وتم تأسيس الجمعية الأمريكية لاستكشاف فلسطين العام ١٨٧٠، وجمعيات "الاستكشاف" الغربية الأخرى التي كانت دائماً تتصرف بمثابة أداة لدراسة المنطقة المستهدفة للاستعمار والاستغلال.

تضاءلت مصالح الإمبراطورية البريطانية في الحركة الصهيونية بعد أن احتلت مصر العام ١٨٨٢، وتحقيق حلم السيطرة على جزء من الشرق الأوسط. لكن التغيرات في معاملة اليهود في أجزاء أخرى من أوروبا، وبخاصة روسيا، أدت إلى موجة من الهجرة إلى فلسطين، التي تُعرف بالموجة الأولى من الهجرة الصهيونية.

تواكب نمو الحركة الصهيونية مع المصالح الاستعمارية. ففي العام ١٩٠٧، قامت الحكومات الأوروبية الاستعمارية بعقد لجنة للنظر في حماية مصالحها وضمان استمرار قوتها الاستعمارية لسنوات أكثر من الإمبراطوريات السابقة. وقد ضمت اللجنة خبراء من إنجلترا وفرنسا

وبلجيكا وهولندا وأسبانيا والبرتغال وإيطاليا. وكانت النتيجة أن أصبح الأمر حاسماً لإنشاء كيان أجنبي يفصل الجناح الإفريقي للعالم العربي عن الجناح الآسيوي.^٨ وكان هذا قراراً يكرس ما بدأ قبله بنصف قرن.

قوانين الأراضي

بدأت قوانين الأراضي العثمانية تتغير تحت وطأة ضغوط غربية وداخلية، وبخاصة الحاجة إلى مزيد من الدخل. وفي العام ١٨٥٨، كان للتغييرات تأثير كبير في عملية نقل الملكية من الأراضي المشاع المملوكة للشعب إلى أراضي خاصة خاضعة للبيع. وحاول الناس التهرب من دفع الضرائب، وأدى هذا إلى تسجيل مزارع خصبة بأسماء أفراد أثرياء أو شيوخ أو مسؤولين حكوميين (وحتى للوقف الإسلامي). وهذا يعني أن العديد من المزارعين بدؤوا كمستأجرين بشكل أساسي في أراضي هي واقعيًا ملك لهم عبر الأجيال. والذين وُضعت أسماءهم على ملكية الأرض، يمكنهم من الناحية العملية بيعها للحركة الصهيونية. وبهذه الطريقة تشكلت العائلات الثرية مثل النشاشيبي والحسيني في القدس، والتميمي في الخليل.^٩

تلا قانون الأراضي العام ١٨٥٨، قانون تسجيل الأراضي العام ١٨٦١ (الطابو). وفي العام ١٨٦٧، سمح القانون للأجانب بامتلاك الأراضي بسهولة. وأدت هذه التغييرات وزيادة تطبيق قوانين الضرائب إلى إفلاس العديد من القرويين وسمحت للدولة بمصادرة أراضيهم وبيعها في مزاد علني بحلول نهاية القرن التاسع عشر، ووصلت ملكية ٢٥٠ ملاكاً إقطاعياً (محليين وغائبين) إلى ٤,١٤ مليون دونم، أو ما يقرب من ٤٥٪ من الأراضي المزروعة في فلسطين!^{١٠} وكانت الحركة الصهيونية في وضع جيد للاستفادة من القوانين ولكن ببطء في ظل الإمبراطورية العثمانية، وأسرع بكثير في ظل الحكم البريطاني، كما سنرى لاحقاً في الفصل السادس. تأسس التحالف الإسرائيلي العالمي في فرنسا العام ١٨٦٠ كمنظمة غير صهيونية بدعم مالي من البارون موريس دي هيرش، والبارون إدموند دي روتشيلد بهدف مساعدة الجاليات اليهودية. وفشل أحد مؤسسيها ويدعى شارل نيتز (١٨٢٦-١٨٨٢) وغيره من اليهود الصهاينة على مدى سنوات عديدة في إقناع مجلس

الإدارة، تشجيع الاستيطان في فلسطين. وأخيراً نجح نيتز العام ١٨٦٩ بتأسيس مدرسة زراعية بالقرب من يافا، وتمت مباشرة العمل على تأسيسها العام ١٨٧٠ بإذن من الحكام العثمانيين.^{١١}

لقد لعبت عائلات هيرش، ومنتيفيوري، وروتشيلد دوراً مهماً في التوسّع الاستيطاني الاستعماري. وقامت عائلة هيرش العام ١٨٩١ بتأسيس جمعية الاستعمار اليهودية (Jewish Colonizing Association) التي قامت في البداية بتوطين اليهود في أجزاء كثيرة من العالم، مثل نقل الآلاف من اليهود الروس إلى الأرجنتين. وتم إنشاء أول مستعمرة سياسية صهيونية رسمية في فلسطين بالقرب من مدينة يافا العام ١٨٧٨، وسُميت هذه المستعمرة ”بتاح تكفا“ (وتعني ”فتح الأمل“ أخذ هذا الاسم من العهد القديم). وتم دعم عمليات الشراء والتطوير عن طريق أموال سخية من البارون إدموند دي روتشيلد، الذي ساهم أيضاً في تأسيس المستعمرة القريبة منها ريشون لتسيون (الأولى في صهيون)، وأيضاً زخرون يعقوب بالقرب من مدينة حيفا (١٨٨٠-١٨٨٢). وكانت هذه المستعمرات بداية لما يعرف بالموجة الأولى من المهاجرين الصهاينة.

كان الهدف الطموح لهؤلاء ”الرواد“ واضحاً منذ البداية. كما يبيّن التاريخ أنّ مخاوف الفلسطينيين الأصليين كانت حول ما كان يؤول إليه الأمر لها ما يبررها، وهذا ليس له علاقة بالخوف من الأجانب، فقد رحّبت فلسطين بهجرة الشركس والدروز والأرمن وغيرهم. ورحّبت فلسطين باليهود الذين لم يأتوا تحت راية الاستعمار الصهيوني، ولكن فراراً من الاضطهاد على سبيل المثال خلال اضطهاد القيصرية الروسية في القرن التاسع عشر. اندمج جميع المهاجرين بنجاح في المجتمع الفلسطيني، بما في ذلك اليهود غير الصهيونيين الذين أصبحوا كالفلسطينيين الأصليين. ولكن كان للبرنامج الصهيوني منذ نشأته خططٌ مختلفة، وشدّد على ”استعادة“ الأرض، وأنها ”أرض اليهود“، وأراد ”عمالة اليهودية“، و”قوات الدفاع اليهودية“.

طبّقت قوانين ملكية الأرض وجمع الضرائب سلبياً، ولكن وجود الفساد وسوء الإدارة سمح لمعظم المزارعين بالاستمرار والتعامل مع الدولة العثمانية. طبّقت هذه القوانين بشراسة على الفلاحين المحليين بعد الاحتلال البريطاني.^{١٢} إذ تم الحصول على ٤١٨,١٠٠ دونم (دونم=

حوالي ٢٤,٠ فدان) من الأراضي من قبل اليهود الأوروبيين في فلسطين منذ العام ١٨٥٠ وحتى العام ١٩١٤. ٥٨٪ من هذه الأراضي تم شراؤها من قبل الصهاينة من لوردات أراضي الغائبين الذين لم يكونوا فلسطينيين، و٣٦٪ من ملاك الأراضي الغائبين الفلسطينيين، والباقي ٦٪ من الملاك المحليين والفلاحين.^{١٢} إذ انتقل فقط حوالي ١٠ آلاف من اليهود إلى المستوطنات الصهيونية "الأولى" في فلسطين بحلول العام ١٨٩١. وفي العام نفسه، تم تأسيس جمعية الاستعمار اليهودية في لندن من قبل البارون الألماني مورييس دي هيرش، حيث بدأت أعمالها الفعلية على أرض الواقع العام ١٨٩٦.

وأصبح بيع أغنى المناطق الزراعية في فلسطين مسموحاً، ولكنه كان طلبة تحذيرية على ما هوأت. اعتبرت أراضي قرى مرج ابن عامر (بما في ذلك العفولة، وملول، وبيت لحم) أراضي دولة، على الرغم من أن القرويين قاموا بزراعة تلك الأراضي لمئات السنين. وتمت خصخصة الأراضي بعد إصدار قوانين الأراضي العام ١٨٥٨ والعام ١٨٦٧، ومن ثم بيعها العام ١٨٦٩ إلى المقرضين والصرافين اللبنانيين الأثرياء أمثال: حبيبي بسترأس، ونقولا سرسق والتوينه، وماتا فرح. قامت عائلة سرسق بشراء أملاك الآخرين، بحيث أصبحت تملك الجزء الأكبر من المرج. في العام ١٨٧٢ قامت الحكومة ببيع أراضي قرى أخرى في الوادي بما في ذلك المجدل. انتهى الأمر أن عائلة سرسق امتلكت ٧٠ ميلاً مربعاً من أفضل الأراضي الزراعية في فلسطين.^{١٤} سُمح للقرويين بمواصلة زراعة أراضيهم طالما هم يدفعون جزءاً من دخلهم لعائلة سرسق وغيرهم من الملاك "الأثرياء". وقامت العائلة ببيع منطقة العفولة للصهاينة العام ١٩١٠، وتم طرد القرويين قسراً من أراضيهم بموجب القانون العثماني عندما باعت عائلة سرسق المزيد من الأراضي للصهاينة في ظل الحكم البريطاني (انظر ص ٧٢ و٧٦).

تتفاقم الأزمة وتتصاعد المقاومة

لقد تحول استياء الفلاحين (المزارعين) إلى غضب وإحباط. إذ أصبح هؤلاء الفلسطينيون هم النازحون الأوائل وتبعهم الملايين من اللاجئين والنازحين الفلسطينيين في القرن اللاحق. وكما حصل لاحقاً، كان

هؤلاء المشردون نواة المقاومة الشعبية، وبعد ذلك المقاومة المسلحة. عاش الشهيد الشيخ عز الدين القسام بين أولئك الفلاحين المشردين لسنوات في المناطق الفقيرة العشوائية في مدينة حيفا، حيث أنه شعر بآلامهم وحاول في البداية تقديم المساعدة لقضيتهم في ظل قوانين النظام العثماني القائم آنذاك.^{١٥} وقبل عقود من بدء المقاومة المسلحة، حاول الفلسطينيون التأثير على مجرى التاريخ من خلال وسائل أخرى. احتج سكان قرى الخضيرية وملبس على نمو مستعمرة بتاح تكفا العام ١٨٨٦، ما جعل الحكومة تقيد استيطان أولئك الذي دخلوا البلاد كسياح وتجاوزوا تصريح دخولهم البالغ ثلاثة أشهر.^{١٦} وتلتها احتجاجات العام ١٨٩٠، وتقديم عريضة من وجهاء المسلمين والمسيحيين في القدس يوم ١٨٩١/١/٢٤ لمنع اليهود الأجانب من شراء الأراضي الفلسطينية.^{١٧} وكان الردُّ صدور مرسوم عثماني نادى بمنع الهجرة اليهودية الأوروبية، ولكن هذا لم يدم طويلاً، حيث تمّ العدول عن هذا القرار تحت ضغوط من الحكومة البريطانية على السلطان عبد الحميد.

كانت هناك نجاحاتٌ قليلةٌ جداً للحركة الصهيونية في بدايتها وحتى السنة التي عقد فيها هرتزل المؤتمر الصهيوني الأول في بازل العام ١٨٩٧. بعد ما يقرب من ثلاثة عقود من الاستعمار كان هناك ١٩ مستعمرة صغيرة مع بضعة آلاف من اليهود في فلسطين، الغالبية منهم من المواطنين اليهود غير الصهاينة الذين عاشوا وعملوا مع الفلسطينيين في مدن مثل صفد والقدس. كان في القدس ٢٨ ألفاً من اليهود العام ١٨٩٧، لكن أغليبتهم يهود عربٍ وضد الصهيونية. لكن المستعمرات الصغيرة المنضبطة عسكرياً والكتابات الصهيونية أعطت إشارة واضحة للفلسطينيين. جاء المؤتمر الصهيوني كتأكيد على الخطط الواضحة والطموحة. لذلك دقّ الفلسطينيون ناقوس الخطر، وبخاصة المتعلمين، الذين يتفكرون بما يكفي لرؤية ما كان يحدث. ناقش الخالدي في كتابه المحاولات من جانب الفلسطينيين لتعديل الحكم والقوانين العثمانية لحماية أراضيهم من الخطر المتأصل في الأفكار الصهيونية، مثل نقل مناقشات البرلمان العثماني العام ١٨٩٧.^{١٨} وكان يوسف ضياء الدين الخالدي واحداً من هؤلاء الممثلين من مدينة القدس، الذين عملوا لمواجهة الصهيونية، حيث شغل منصب رئيس البرلمان العثماني ابتداءً من العام ١٨٧٦، كما شغل عدداً من المناصب المهمة في الحكومة العثمانية (بما

في ذلك حاكم مقاطعة كردية). وقام بتأليف أول قاموس عربي- كردي. وشغل أيضاً منصب رئيس بلدية القدس العام ١٨٩٩، وكتب رسالة إلى الحاخام الفرنسي مبدياً اعتراضه على الحركة الصهيونية.

في العام ١٨٩٧، قام مفتي القدس محمد ظاهر الحسيني (١٨٤٢- ١٩٠٨، والد أمين الحسيني) بعقد اجتماع للسلطة العثمانية المحلية لدراسة الهجرة اليهودية الصهيونية وشراء الأراضي. وهذا أدى فعلياً إلى وقف جميع عمليات شراء الأراضي على مدى السنوات الخمس التي تلت انعقاد الاجتماع.^{١٩} في العام ١٨٩٨، كتب الشيخ محمد رشيد رضا في جريدة المنار عن مخاطر الصهيونية وتأثيرها المحتمل على السكان الفلسطينيين الأصليين. وناقش الأهداف الصهيونية التي تذهب أبعد من توفير السلامة لليهود القادمين من أوروبا للسيطرة على فلسطين، وبناء كيان يهودي سياسي.^{٢٠} وكتب القس هنري لامانسي مقالاً مفصلاً في مجلة المشرق البيروتية العام ١٨٩٩ عن المستوطنات الصهيونية وجماعاتهم النشطة وخططهم المستقبلية، وحذر من كارثة وشيكة للفلسطينيين.^{٢١}

قام القرويون من الشرع ومسحة والملحمية باحتجاجات جماعية لمحاربة محاولة إخراجهم من ٧٠ ألف دونم من أراضيهم التي تم بيعها إلى الصندوق القومي اليهودي العام ١٩٠٢، ودعمهم الأمير أمين أرسلان بدوافع قومية.^{٢٢}

وحذر نجيب عازوري من خطورة المشروع الصهيوني في فلسطين في كتابه استيقاظ الأمة العربية الذي نشر العام ١٩٠٥، قائلاً: "هناك ظاهرتان مهمتان من النوع نفسه، ولكنهما متناقضتان وأخذتان في الظهور في هذه اللحظة في تركيا الآسيوية. وهي صحوة الأمة العربية والجهد الأخير لليهود لإعادة تشكيل مملكة إسرائيل القديمة على نطاق واسع جداً. هاتان الحركتان هما في مواجهة باستمرار حتى تفوز واحدة منهما. نتائج هذا الصراع بين مجموعتين لهما مبدآن مختلفان قد يغير مستقبل العالم".^{٢٣} وكان هنالك كتاب ومفكرون آخرون في تلك الفترة تحدثوا بشجاعة وبصرامة. نذكر المقدسي بندلي الجوزي خاصة، الذي تم إبعاده بعد ذلك من فلسطين من قبل البريطانيين لقوله الحقيقة حول مخاطر الصهيونية ومخاطر الانقسامات الصغيرة في المجتمع الفلسطيني.^{٢٤}

شهدت القوى الأوروبية الاستعمارية، وبخاصة بريطانيا وفرنسا وروسيا وألمانيا، توسعاً سريعاً خلال هذه الفترة. وكانت حريصة على تقسيم أملاك الإمبراطورية العثمانية الملقبة بـ "رجل أوروبا المريض".^{٢٥} وفي العام ١٨٨١، سيطرت فرنسا على تونس والمغرب، وسيطرت بريطانيا على مصر العام ١٨٨٢، وعلى السودان العام ١٨٨٣. وعندما قامت إيطاليا بالسيطرة على ليبيا العام ١٩١١، أصبحت جميع دول شمال أفريقيا للمرة الأولى منذ ١٤٠٠ سنة غير خاضعة للحكم الإسلامي. وكانت فلسطين مجرد هامش في هذا التاريخ المعقد، وأصبحت مركزاً "للمبشرين" والقنصليات القوية "كحماة الأقليات"، في مقابل تخفيف الضغوط على السلطان عبد الحميد في أماكن أخرى. ولكن -كما رأينا أعلاه- كانت هذه الفترة الأولى من المقاومة الشعبية الفلسطينية الناجحة حقاً في وضع الحكام العثمانيين حداً للمزيد من التنازلات في فلسطين لصالح التطلعات الصهيونية. وبعد أن رفضت الإمبراطورية العثمانية العام ١٩٠٢ كامل الإغراءات والتهديدات الصهيونية، اتجه هرتزل والمؤتمر الصهيوني العالمي نحو الإمبراطورية البريطانية للحصول على الدعم.^{٢٦} وقام الحكام العثمانيون بتقليص جذري لعمليات شراء الأراضي في سنجق (مقاطعة) القدس، وعندما دعا المؤتمر الصهيوني إلى زيادة الاستعمار العام ١٩٠٥، قامت الحكومة العثمانية بتعليق جميع عمليات نقل ملكية الأراضي لليهود في كل من سنجق القدس وولاية (محافظة) بيروت

تحولات ١٩٠٨

أجبر الانقلاب العسكري التركي العام ١٩٠٨ السلطان عبد الحميد الثاني على إحياء دستور العام ١٨٧٦. بعد تنحيه أصبح إبراهيم باشا سلطاناً. وضمنت إعادة تشكيل الدستور حرية الصحافة والتجمع. فرح الفلسطينيون وغيرهم من السكان لأنهم أملوا في المزيد من الحريات والمساواة والازدهار في إدارة عثمانية لامركزية ومتفتحة. ولكن بينما ازدهرت الصحف عادت عمليات القمع. بالمقابل، فقدت المجموعات التي دعت إلى الأخوة العربية-التركية قوتها. واضطر السكان المحليون إلى المقاومة الشعبية ضد الحكم العثماني. وتضمن هذا تطويراً، سرّاً أو

علناً، للمؤسسات غير الحكومية التي كانت قومية عربية. أسس خليل السكاكيني (عملاق الأدب والتعليم الفلسطيني) مدرسة تستخدم اللغة العربية، وأطلق عليها اسم المدرسة الدستورية. وتوسع الوعي الوطني العربي وتبلور في شكل منظمات سرية مثل القحطانية التي تأسست العام ١٩٠٩ على يد مجموعة من الضباط العسكريين والمدنيين العرب برئاسة عزيز علي المصري، التي "نادت بازدواجية الإمبراطورية لتصبح عربية تركية، كالنظام النمساوي الهنغاري؛ [وكذلك جماعات أخرى مثل] الجمعية العربية الفتاة، التي تأسست العام ١٩١١ في باريس من قبل الطلاب العرب، والتي نُقلت نشاطاتها إلى بيروت العام ١٩١٣، ومن ثم إلى دمشق في ١٩١٤، والتي دعت إلى الاستقلال العربي من أية سيطرة أجنبية.^{٢٧} تم تأسيس الجمعية العربية الفتاة على يد عوني عبد الهادي، وجميل مردم، ورفيق التميمي، وغيرهم. بعد بعض عمليات التسلل وتعذيب أحد أعضائها، تم تأسيس منظمة أو جمعية سرية مشتقة تدعى بجمعية العهد.^{٢٨} وتم تأسيس جمعية الإخاء العربي الأولى في اسطنبول في العام ١٩٠٨، حيث ضمت فلسطينيين مثل شكري الحسيني. وفي العام الذي تلا ذلك، تم تأسيس المنتدى العربي، الذي ضم فلسطينيين، والذي دعا إلى تطبيق اللامركزية.^{٢٩}

كان هناك خمسة فلسطينيين ممثلين في البرلمان العثماني العام ١٩٠٨ وتحذوا الخط الصهيونية. تحدّث على وجه الخصوص كل من روجي الخالدي وسعيد الحسيني (الذين كانوا يتكلمون اللغة العبرية) ضد المشروع الصهيوني. وحذا حذوهم ثلاثة آخرون، وهم: حافظ سعيد الذي كان ممثلاً عن مدينة يافا، والشيخ أحمد آل خمّاش ممثلاً عن مدينة نابلس، والشيخ أسعد الشقيري ممثلاً عن مدينة عكا.^{٣٠} كما استمرّ النضال على المستوى الشعبي. فعلى سبيل المثال، في كانون الأول من العام ١٩٠٨، حاول سكان قرية كفر قاما (بالقرب من طبرية) استصلاح الأراضي التي استولت عليها جمعية الاستعمار اليهودية.^{٣١}

لخص شافير هذه الفترة بقوله: "المعارضة الشعبية والسياسية كانت متحدة وأدت إلى ولادة القومية الفلسطينية المعادية للصهيونية، ولكن عدم قدرة الفلسطينيين العرب على توحيد صفوفهم على المدى الطويل في معارضتهم للصهيونية، أدّى إلى تقويض الجهود الفلسطينية الفعالة".^{٣٢}

كما قلنا، سمحت القوانين بنشر المطبوعات، وأدّى هذا إلى نشر العديد من الصحف المحلية في فلسطين (أكثر من ١٩ صحيفة في يافا وحيفا والقدس بين الأعوام ١٩٠٨ و ١٩١٤). وكانت أبرز أربع صحف تحدّت الخطط الصهيونية في فلسطين، ودعت إلى الصحوة العربية، هي:^{٣٣}

١. الأصمعي: أسسها حنا عبد الله العيسى في القدس العام ١٩٠٨.
 ٢. الكرمل: أسسها نجيب الخوري نصار في حيفا العام ١٩٠٩.
 ٣. فلسطين: أسسها عيسى العيسى في يافا العام ١٩١١ وحررها يوسف العيسى.
 ٤. المنادي: أسسها سعيد جاد الله العام ١٩١٢.
- تم إغلاق صحيفة فلسطين مرات عدة بسبب دورها الرائد في معارضة الصهيونية، بما في ذلك في كانون الثاني ١٩١٤ بعد شكاوى الصهاينة. ولكن أصدر عدد باللغة الإنجليزية ووزّع مجاناً على البرلمانيين البريطانيين لإحداث تأثير كبير محلياً ودولياً.^{٣٤} خلافاً لمحرري صحيفة فلسطين، أيد نجيب نصار في جريدة الكرمل التحالف مع بريطانيا، الذي اعتقد -على الأقل حتى العام ١٩٢٠- أنها ستكون قادرة على احترام وعودها من أجل نيل العرب استقلالهم.^{٣٥} تعامله مع جمعية الاستعمار اليهودية جعلته يدرك أهداف الصهيونية، ويعمل على فضح الحركة الصهيونية، ما أكسبه لقب "مجنون الصهيونية".^{٣٦} أدّى النشاط الإعلامي إلى فرض العديد من القيود والحظر التام لتوزيع الصحيفة في العديد من المناسبات.^{٣٧} بشكل عام، أظهرت المقالات التي نشرت في هذه الصحف قدراً كبيراً من الحنكة السياسية وفهمها للواقع. فعلى سبيل المثال، التمييز بين احترام الديانة اليهودية والازدراء للتطلعات الصهيونية السياسية.^{٣٨}

في العام ١٩١٠، وافق الرأسمالي اللبناني إلياس سرسق على بيع أراضي العفولة للصندوق القومي اليهودي، وتمّ التصديق على هذا الاتفاق من قبل الوالي في بيروت. لكنها لاقت معارضة من قبل القائم مقام المحلي شكري العسلي، الذي قام بنشر مقالات في الصحف الأكثر قراءة في ذلك الوقت.^{٣٩} وأصبحت حالة أولئك القرويين قضية بالغة

الأهمية ترتبط بالقومية العربية. أشار رشيد الخالدي إلى أن بيع الأراضي ونقل ملكيتها للتجمعات الصهيونية، أدّى إلى ظهور عدد من الثورات بقيادة الفلاحين، بما في ذلك تلك الثورات في العفولة في ١٩١٠-١٩١١، وفي منطقة طبرية في ١٩٠١-١٩٠٢.^{٤٠}

وشهد العام ١٩١١ ازدياداً نوعياً وكمياً لانتفاضة مصغرة ضد الحكم العثماني والهجرة الصهيونية. تم تأسيس جماعات سرّية مثل العربية الفتاة، التي دعت إلى استقلال العرب عن تركيا العثمانية.^{٤١} وتم تشكيل الحزب الوطني في يافا كأول حزب سياسي حديث في فلسطين^{٤٢} بقيادة ممثلين عرب في البرلمان العثماني، ومارس الضغط على الحكومة لوقف تدفق المهاجرين الصهاينة. كان من بين هؤلاء الممثلين البارزين، روجي الخالدي، وراغب النشاشيبي، وسعيد الحسيني من فلسطين، وشكري العسلي ممثلاً عن دمشق.^{٤٣}

ولد روجي الخالدي العام ١٨٦٤ في القدس، ودرس العلوم الإسلامية والفلسفة في باريس. حاضر في جامعة السوربون ومعهد اللغات الأجنبية في باريس. وتم تعيينه مستشاراً عاماً للإمبراطورية العثمانية في بوردو (فرنسا) من العام ١٨٩٨، وحتى ١٩٠٨. ثم انتخب بعد ذلك في القدس للبرلمان العثماني في الأعوام ١٩٠٨ و ١٩١٢، حيث شغل منصب نائب رئيس البرلمان في العام ١٩١١. كان الخالدي أوّل عربي يقوم ببحث وكتابة دراسة حول الصهيونية. توفي الخالدي في ٦ آب من العام ١٩١٣ في اسطنبول. كان صديقه راغب النشاشيبي والمولود في العام نفسه الذي ولد فيه الخالدي ممثلاً في البرلمان العثماني خلال الحرب العالمية الأولى، وساعد في تأسيس الحزب القومي العربي الفلسطيني العام ١٩٢٣ (مع عارف الدجاني من القدس، والشيخ سليمان التاجي الفاروقي من يافا)، ولاحقاً قام بتأسيس حزب الدفاع الوطني العام ١٩٣٤، وأصبح ممثلاً لدى اللجنة العربية العليا العام ١٩٣٦. دعا الحزب القومي العربي إلى إقامة علاقات جيدة بين جميع شرائح المجتمع في فلسطين (يهود ومسيحيين ومسلمين) والعمل مع السلطات البريطانية لتحقيق أهداف الحرية والمساواة.

بدأت حركة عثمانية، بقيادة جمال باشا وتاليا باشا في العام ١٩١٢، تؤكّد على الوحدة العثمانية وتعزيز استخدام اللغة التركية وقمع الحكم الذاتي

للمقاطعات بما في ذلك للعرب. أدّى هذا إلى زيادة العزلة للذين نادوا إلى الوحدة التركية-العربية والمساواة داخل الإمبراطورية العثمانية. وأصبح الشعور بالغربة والحاجة للتغيير واضحاً جداً بين كثير من العرب، بما في ذلك الفلسطينيون عشية الحرب العالمية الأولى. وفي الوقت نفسه، تفهّم هؤلاء الناشطون القوميون العرب مخاطر الصهيونية في فلسطين. وأصدرت الصحف الفلسطينية الكرمل وفلسطين، بيانات تنتقد فيها المجتمعين العرب في قمّتهم في باريس لعدم منح المشكّلة الصهيونية في فلسطين الأهمية اللازمة.

في السنة نفسها ١٩١٤، صدر منشور بعنوان "الاستدعاء العام للفلسطينيين: كن حذراً من الخطر الصهيوني!" والموقع من قبل "فلسطيني"، وحذر من "رغبة الصهيونية في الاستيطان في بلادنا وطردها منها".^{٤٤} وفي افتتاحية في صحيفة فلسطين في أيار من العام ١٩١٤، قام محررو هذه الصحيفة بالدفاع عن مواقفهم ومهاجمة الحكومة العثمانية المركزية في محاولاتها إغلاق الصحيفة بسبب التنويه للخطر الصهيوني على الأمة الفلسطينية.^{٤٥} وقام الفلسطينيون بمقاومة الحكم العثماني من خلال تطوير نظمهم التعليمية: "الاعتراف الفلسطيني بقيمة التعليم وأهمية أن تكون قادراً على تطبيق ما تمّ تعلمه يعود إلى الانتداب البريطاني وما قبله... فقد تمّ تدريس الطلاب العرب في المساجد في ظل الإمبراطورية العثمانية (١٥١٧-١٩١٧) كرد فعل طبيعي للسيطرة التركية".^{٤٦}

حاولت الحكومة العثمانية قمع أيّة معارضة محتملة في البلاد العربية عندما دخلت تركيا في الحرب العظمى في ٢٩ تشرين الثاني من العام ١٩١٤. وأدّى فشل الهجوم العثماني على القوات البريطانية في منطقة السويس ونجاح القوات البريطانية في العراق العام ١٩١٥ إلى تكثيف الحملات العثمانية التعسفية ضد العرب. تم تنفيذ عمليات الشنق علناً في شوارع القدس ودمشق بحق عشرات النشطاء العرب بعد سحب "اعترافات" منهم بالتعذيب. قام العثمانيون أيضاً بالاستيلاء على الحيوانات المستخدمة في العمل وتدمير أشجار الفاكهة من أجل الحصول على الوقود، وبناء السكك الحديدية، وقامت بنقل السكان في طرق أدّت إلى تدمير نسيج المجتمع الذي نشأ واستقرّ عليه منذ مئات

السنين، وقاموا بتجنيد الرجال المعيلين، ما أدى إلى مجاعة. (أدى تجنيد والد جدّي إلى جعل جدّي يتيماً، حيث فقد والدته أيضاً وبعد ذلك فقد شقيقه وشقيقتيه). مثل هذه القصص حدثت بكثرة في فلسطين بين ١٩١٤ و ١٩١٨. وأظهر إحصاء السكان قبل الحرب وبعدها تراجعاً في عدد السكان الفلسطينيين بما يقرب من ٣٠٪. وكان هذا هو التغيير الديموغرافي الأكثر تدميراً في فلسطين حتى تلك اللحظة. وبالإضافة إلى هذا التدمير وزعزعة الاستقرار، كان هناك البرنامج الاستعماري الصهيوني المنهجي!

في هذه الأثناء، كان مصير فلسطين قد قرّر في مكان آخر من قبل السياسيين المتآمرين دون الأخذ في الاعتبار مصالح السكان المحليين ورغباتهم. خططت الإمبراطورية البريطانية إلى تقسيم العالم العربي مع فرنسا في معاهدة سايكس بيكو العام ١٩١٦. وقام الحكام البريطانيون بإنشاء ممالك صغيرة خاضعة لمصالحها الامبريالية، ولتأمين مستقبل الصهيونية مثلاً، تم تعيين عائلة آل سعود لتكون المسؤولة عن منطقة الحجاز، التي كانت ستصبح المملكة العربية السعودية على حساب الهاشميين الذين تمت مراداتهم من خلال إعطائهم الحكم في مناطق شمال الجزيرة العربية (وهي بلاد الشام أو سورية الكبرى). كان هؤلاء الحكام مستعدين لفعل ما تطلبه بريطانيا العظمى. مثلاً، ردّ عبد العزيز آل سعود على طلب بريطاني وبخط يده العام ١٩١٥: "أنا السلطان عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، أقرّ وأعترف ألف مرة للسير بيرسي كوكس ممثل بريطانيا العظمى، بأنّه ليس لدي أي اعتراض بإعطاء فلسطين لليهود الفقراء أو لغيرهم كما رأته بريطانيا العظمى، ولن أخرج عن طاعة بريطانيا حتى قيام الساعة".^{٤٧}

لم تكن التحركات الصغيرة للفلسطينيين في مستوى التعامل مع الأعباء ومخططات القوة العظمى والحركة الصهيونية والمتعاملين العرب. ولكن الأمثلة المذكورة بيّنت أهمية المقاومة الشعبية في تأخير الاستعمار الصهيوني، وتهيئة المناخ لحقبة تشدّد فيها المقاومة لمواجهة الاحتلال البريطاني البغيض. والكثير من الفلسطينيين يترحمون على أيام العهد العثماني بعد خبرة ما تلا ذلك العهد وقراءته ومعرفته.

الفصل السادس

وعد بلفور، البراق، وحشد الصهاينة (١٩١٧-١٩٣٥)

صرّح اللورد بلفور في مذكرة خاصّة كتبها إلى اللورد كيرزون -الذي عارض الصّهيونية في البداية- في ١١ آب من العام ١٩١٩ "بالنسبة لفلسطين، لا ننوي اللجوء حتى إلى شكلية التشاور لمعرفة رغبات السكان الحاليين ... القوى الأربع الكبرى ملتزمة بالصهيونية، والصهيونية سواء أكانت صحيحة أم خاطئة، جيدة أم سيئة، فهي راسخة في تقليد منذ زمن بعيد، وفي احتياجات حاضرة وآمال مستقبلية ذات أهمية أعمق من رغبات وأهواء الـ ٧٠٠ ألف عربي الذين يسكنون حالياً في هذه الأرض القديمة".^١

لم تأت هذه النظرة فجأة. انتقل الزعيم الصهيوني الناشط والمؤثر حاييم وايزمان إلى لندن العام ١٩٠٤ بعد فشله في الحصول على الدعم العثماني. ولم يستطع إقناع البريطانيين بالمشروع الصهيوني في البداية، إلى أن جاء الانفراج في منتصف الحرب العالمية الأولى، حيث كانت بريطانيا وفرنسا في وضع حرج، وعرضت ألمانيا شروطاً سخية للسلام. قامت الحركة الصهيونية بتقديم عرض مغرٍ لبريطانيا وفرنسا: جر الولايات المتحدة للانضمام إلى جانب الحلفاء مقابل تقديم الدعم لإقامة وطن قومي لليهود في فلسطين.^٢ جاء وعد فرنسا من خلال رسالة بعث بها جول كامبون أمين عام وزارة الخارجية الفرنسية إلى ناحوم سوكولوف المسؤول الرسمي للمنظمة الصهيونية العالمية جاء فيها:

"لقد قمت بإبلاغني حول مشروعك بشأن توسيع الاستيطان اليهودي في فلسطين. كما قلت أيضاً إذا كانت الظروف تسمح بذلك، ومن جهة

أخرى إذا تم ضمان استقلالية الأماكن المقدسة، سيكون عملاً من العدالة أن قوى التحالف تقوم بمساعدة نهضة القومية اليهودية على الأرض التي تم إقصاء الشعب اليهودي منها منذ قرون. إن الحكومة الفرنسية التي دخلت هذه الحرب للدفاع عمّن تمت مهاجمته بظلم، والتي لا تزال تكافح من أجل ضمان انتصار الحق على القوة، لا يمكن إلا أن تشعر بالتعاطف مع قضيتكم، التي انتصارها مرتبط بانتصار دول الحلفاء. ويسعدني أن أقدم لكم هنا تأكيدات من هذا القبيل^٢.

وبعد حوالي خمسة أشهر، وفي ٢ تشرين الثاني من العام ١٩١٧، قام وزير الخارجية البريطاني آرثر جيمس بلفور، بإعطاء القائد الصهيوني روثشيلد إعلاناً مماثلاً جاء فيه: "إن حكومة صاحب الجلالة تنظر لصالح إنشاء وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، وسوف تستخدم أفضل مساعيها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جلياً أنه لن يؤتى بعمل من شأنه أن ينتقص من الحقوق المدنية والدينية التي تتمتع بها الجاليات غير اليهودية في فلسطين، أو الحقوق والوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في أي بلد آخر".

لقد تمت الإشارة للفلسطينيين الأصليين على أنهم مجرد شعب "غير يهودي"، وأن لهم حقوقاً مدنية ودينية، ولكن ليس لهم حقوق وطنية أو سياسية (كما لو كانوا أجانب). إن وعود الحلفاء لليهود أوروبا لإقامة "وطن قومي" لليهود أوروبا في فلسطين، تتناقض مع رغبات سكانها والمعارف والقوانين الدولية. وأيضاً أعطيت الوعود على الرغم من أن الحلفاء تلقوا دعماً كبيراً من العرب الذين ثاروا ضد الأتراك العثمانيين.

قبل ثلاث سنوات من هذه الوعود للصهيونية، وعدت بريطانيا العرب بالاستقلال في مراسلات مكماهون والحسين. وهناك عامل تعقيد آخر، وهو أن الأمير فيصل، الذي أصبح فيما بعد ملك الحجاز، قد اتفق مع وايزمان على دعم وعد بلفور مقابل مساعدة الحركة الصهيونية لتحقيق الاستقلال للمناطق العربية خارج فلسطين. ولكن هذا الاتفاق يعتبر لاغياً، حيث يشترط تأسيس بلد عربي موحد في جميع أنحاء المنطقة (التي تضم حالياً سوريا والعراق والمملكة العربية السعودية ودولاً أخرى)^٣. هذا لم يحصل، ومع ذلك فإن اتفاق فيصل-وايزمان كان سابقة خطيرة لعقد صفقات سرية بين قائد عربي والصهاينة دون

التشاور مع الفلسطينيين الأصليين. هناك تشابه بين اتفاق فيصل-وايزمان واتفاق السادات-بيغن على أمور تنتهك القانون الدولي دون التشاور مع السكان الأصليين.

مع هذا، قام العرب بمساندة دول الحلفاء. ومن المعروف أنَّ ملك الحجاز الشريف حسين بن علي الهاشمي كَوَّن جيشاً بقيادة نجله فيصل من أجل القيام بثورة ضد الحكم العثماني بالتضامن مع دول الحلفاء (التي وعدت مراراً وتكراراً باستقلال الشعب العربي). كان هناك القلائل الذين يعرفون التاريخ الاستعماري الأوروبي، والذين شكَّكوا بهذه الإستراتيجية، وكان لشكوكهم ما يبرِّرها. إنَّ المستعمرين الأوروبيين قسَّموا البلاد إلى أشلاء صغيرة بعكس العثمانيين المسلمين الذين حرصوا على إبقاء المناطق موحَّدة. كما اتضح فيما بعد أنَّ اتفاقية سايكس بيكو السريَّة جاءت لتقسيم المنطقة ليس فقط بين بريطانيا وفرنسا، بل أيضاً لخلق خلافات كثيرة بين الناس. أوضح ت. لورنس لاحقاً كيف أنَّ الحكومة البريطانية خانت الأمير فيصل على الرغم من التأكيدات المسبقة من قبل لورنس وأناس مثل اللورد مكماهون. ويُعتقد الآن أنَّ الملك فيصل خسر عرشه فيما بعد بسبب رفضه لمزيد من التنازلات، وبخاصة عن فلسطين. هكذا قُسمت البلاد العربيَّة، ولا تزال الأمَّة العربيَّة مشرذمة.^٥

قفز الصهاينة قفزة هائلة بفتح أبواب الهجرة إلى فلسطين عندما دخلت القوات البريطانية القدس في يوم شتاء غائم وبارد في ٩ كانون الأول العام ١٩١٧. كان الحاكم العثماني قد قرَّر تجنيب المدينة القصف البريطاني والاستسلام دون قتال. دخل الجنرال البريطاني اللنبي بعد فترة قصيرة في الحادي عشر من كانون الأول، واستقبل بحفاوة من قبل النخب الفلسطينية والزعماء الدينيين بمن فيهم محافظ القدس حسين صقيم الحسيني. تعهَّد الجنرال بالحفاظ على الأماكن المقدسة، وحقوق الجاليات الدينية في المدينة، وعدم إحداث أي تغيير في الحياة. وهنا أقول إمَّا أنَّ الجنرال كذب وإما لم يعرف سياسة حكومته. حصلت الحركة الصهيونية على تنازلات لا يمكن تصوُّرها. كان اليهود في فلسطين العام ١٩١٧ يشكلون ٧٪ من السكان، وكان معظم اليهود الفلسطينيين من غير الصهاينة، ويملكون أقل من ٢٪ من الأراضي الخاصة. مع

نهاية الحكم البريطاني أصبح اليهود يمثلون ما يقرب ثلث عدد السكان، ويملكون ما يقرب من ٧٪ من الأراضي. الضباط البريطانيون كانوا يشعرون براحة أكبر في التعامل مع اليهود الأوروبيين "البيض" بدلاً من محاولة فهم السكان الأصليين والتعامل معهم. في غضون سنة أو سنتين، أصبح الفلسطينيون الذين ساعدوا بريطانيا في البداية ينظرون إليها نظرة عدا. لسخرية القدر عندما ألقى الجنرال للنبي أول خطاب له في القدس، أشار إلى الانتهاء من الحروب الصليبية!

في غضون شهر بعد بدء الاحتلال البريطاني، وحتى مع وجود الجيش العثماني في شمال فلسطين، جاء أول وفد يهودي صهيوني من أوروبا للاجتماع مع ستورز ومحافظ القدس يوم ٢٧ نيسان العام ١٩١٨. على الفور، بدأت أصوات الاحتجاج تُسمع من قبل الفلسطينيين، وتبلورت جمعيات إسلامية-مسيحية لاقت تأييداً شعبياً كبيراً، وكان الرمز لكل من هذه المجتمعات صليبا داخل هلال. عملت هذه الجمعيات بكفاءة وبشكل منهجي لمواجهة المحاولات البريطانية-الصهيونية خلق انقسامات طائفية أو دينية. ليس من المستغرب أن هذه الجمعيات كانت تحرص على التمييز بين اليهود العرب الأصليين والمستعمرين اليهود الصهاينة.^٦ ومما يجدر ذكره أنه تم اعتماد العلم العربي والنشيد الوطني للثورة العربية من قبل الحركة الوطنية الفلسطينية في النصف الثاني من أيار العام ١٩١٨، على الرغم من الاعتراضات من قبل البريطانيين.^٧ وأعقب هذا إنشاء عدد من المنظمات القومية في الأسبوع الأول من حزيران، وبخاصة في يافا والقدس.

وفي العام ١٩١٨، تم تأسيس منطمتين شبابيتين في القدس تمثلان تحالفات عائلية/عشائرية لتلك الفترة، وهما: النادي العربي، المنتدى العربي (الملتقى الثقافي). كان من بين المؤسسين للنادي العربي محمد أمين الحسيني، ومن مؤسسي المنتدى العربي فخري النشاشيبي وحسن صدقي الدجاني.^٨

وازداد غضب الفلسطينيين، وبخاصة عندما قامت الحركة الصهيونية باحتفالات صاخبة بمناسبة الذكرى السنوية الأولى لوعده بلفور في ٢ تشرين الثاني العام ١٩١٨. وفي اليوم نفسه، قامت الجمعية الإسلامية

المسيحية في يافا، بإرسال رسالة احتجاج إلى الجنرال كلايتون. وأثارت الأنشطة المتزايدة الفلسطينية انزعاج كل من الحكام البريطانيين وقادة الحركة الصهيونية، فكتب وايزمان تقارير ورسائل مفصلة، ومبالغ فيها أحياناً، عن التجمّع المحلي للمقاومة الوطنية الذي يصرّ على أن "فلسطين للفلسطينيين"^٩. ولكن العمل استمر. حدثت قفزة تنظيمية عندما أسّست "الجمعية الإسلامية المسيحية الفلسطينية" بطريقة مركزية ولوائح داخلية معتمدة في القدس في كانون الثاني العام ١٩١٩، ودعت إلى تعليم الشباب وتشجيع التنمية الوطنية في مختلف المجالات، وحماية الحقوق الفردية والوطنية. هذا مهدّ الطريق أمام المؤتمر العربي الفلسطيني الأول الذي عُقد في القدس بين ٢٧ كانون الثاني - ٤ شباط من العام ١٩١٩، وحضره ٢٧ مندوباً من جميع أنحاء فلسطين.^{١٠}

مثلّ بعض المندوبين النخب العائلية، وكان بعضهم حريصاً على منصبه أكثر من خدمة فلسطين. سمحت السلطات البريطانية للمؤتمر بالمضي قدماً لأنهم كانوا يأملون أنّ المندوبين الأحد عشر المؤيدين لبريطانيا سيكونون قادرين على التأثير في المؤتمر. وبدلاً من ذلك، وفي اليوم الأول، قرّر المؤتمر إرسال رسالة إلى "مؤتمر السلام" في باريس جاء فيها: "إن شعب فلسطين اجتمع واختار مفوضيه، وعقد اجتماعاً في القدس لمناقشة شكل الحكومة المناسبة لبلدهم. وقد قرّروا كأولوية أولى إرسال شكوى إلى مؤتمر الموقر حول ما سمعوه بأنّ الصهاينة تلقوا وعداً بجعل بلدنا وطناً قومياً لهم، ويهدفون إلى الهجرة إلى هذا البلد والاستيطان فيه... إنّنا نطلب من مؤتمر الموقر عدم اتّخاذ أيّة قرارات بشأن هذا البلد إلا بعد معرفة ما هي رغباتنا وأمنياتنا..."^{١١}.

بالمثل أرسل يهود أمريكيون بارزون (بالإضافة إلى عضو في الكونغرس) رسالة شبيهة تقول: "إنّنا نرفع أصواتنا من أجل التحذير والاحتجاج على طلب الصهاينة لإعادة تنظيم اليهود باعتبارهم وحدة وطنية ولهم قد تُعطى السيادة الإقليمية في فلسطين الآن أو في المستقبل. هذا الطلب ليس فقط يحرف مجرى تاريخ اليهود الذين توقّفوا من أن يصبحوا أمة منذ ٢٠٠٠ سنة، ولكنه ينطوي على القيود والإلغاء المحتمل للمطالبات لليهود من أجل الحصول على المواطنة الكاملة وحقوق الإنسان في جميع البلاد، حيث تبقى تلك الحقوق غير مضمونة... ونحن نطلب أن

تكون فلسطين دولة حرة ومستقلة تخضع لحكم ديمقراطي لا يعرف التمييز على أساس العقيدة أو العرق أو الأصل، ومع وجود سلطة ذات كفاءة لحماية البلاد ضد أي نوع من أنواع القمع. ونحن لا نودُّ أن نرى فلسطين، سواء الآن أو في أي وقت من المستقبل، كدولة يهودية^{١٢}.

في الثالث من تمّوز العام ١٩١٩، عُقد "المؤتمر السوري" في دمشق حضره خمسة عشر من الـ ٢٧ مفوضاً للمؤتمر العربي الفلسطيني الأول. وأدى وجود هؤلاء إلى أنّ المؤتمر شدّد على الوحدة العربية مع فلسطين (سوريا الجنوبية). عندما كان الصهاينة يخططون للضغط على مؤتمر باريس لتنفيذ وعد بلفور، منعت القوات البريطانية مغادرة القادة الفلسطينيين إلى باريس. لم يبق لتمثيل مصالح الشعب إلا بعض العرب غير الفلسطينيين (بما في ذلك الملك فيصل الذي رُوّجت له بريطانيا). من الجدير ذكره أنّ الإدارة الأميركية كانت مترددة في دعم السياسة البريطانية في فلسطين في هذا المؤتمر، حيث أنّ الرئيس ويلسون كوّن سياسة لخصها في وقتٍ مبكرٍ من العام ١٩١٨:

"إنّ تسوية كل مسألة، سواء أكانت حول الأرض، أم السيادة، أم الترتيبات الاقتصادية، أم العلاقة السياسية، تقوم على أساس القبول الحر لتلك التسوية من قبل الشعب المعني مباشرة، وليس على أساس المصلحة المادية أو ميزة أية أمة أو شعب آخر ... وإذا كان هذا المبدأ هو معيار مقاليد الحكم، فلذلك لتكون رغبات سكان فلسطين حاسمة في تقرير ما ينبغي عمله في فلسطين. لذلك، يجب أن نتذكر أنّ سكان فلسطين غير اليهود - ما يقرب من تسعة من عشرة من مجموع السكان - هم بالتأكيد ضد البرنامج الصهيوني برمته. تبين الجداول أنّه لا يوجد هناك شيء واحد يتفق عليه سكان فلسطين أكثر من هذا (الرفض). إخضاع شعب يعارض الهجرة اليهودية غير المحدودة، واللجوء إلى الضغوط المالية والاجتماعية لتسليم الأراضي، من شأنه أن يشكل انتهاكاً صارخاً للمبدأ الذي تم ذكره آنفاً، ويشكل انتهاكاً لحقوق الناس أيضاً، على الرغم من أنّه موجود ضمن أشكال من القانون^{١٣}.

تبعاً لذلك، صدرت تعليمات مفاوضات ويلسون المبعوثين إلى مؤتمر العام ١٩١٩ لاقتراح حق تقرير المصير لسكان البلاد الأصليين. لكنهم كانوا على استعداد لتقديم تنازلات مقابل الضغط من الحكومات الأخرى (التي بدورها تحت الضغط الصهيوني). تمّ اقتراح إنشاء لجنة تحقيق

مؤلفة من مندوبين اثنين من كل بلد من البلدان المعنية "لدراسة الوضع"، وأرسلت الولايات المتحدة مندوبين اثنين، وهما الدكتور هنري كينغ، وتشارلز كرين، في جولة لتقصي الحقائق إلى فلسطين (لم تشارك أية دولة أخرى). قبل شهرين من زيارة فلسطين للجنة كينغ كرين، عقدت الجمعية الإسلامية المسيحية اجتماعاً للتخطيط لتقديم مطالب للإدارة الأميركية لمتابعة الأهداف المعلنة من قبل الرئيس ويلسون من أجل حق تقرير المصير. وأعلنوا معارضتهم للصهيونية، ولكنهم أكدوا على علاقتهم مع اليهود بالقول: "إن اليهود المحليين هم مواطنون ولهم ما هو لدينا ويتحملون ما نتحملة".^{١٤}

هذا وقد تم تعميم الإعلان على الملأ، وتحدث الفلسطينيون الذين التقوا بلجنة كينغ وكرين بالأسلوب نفسه. استنتجت اللجنة أنّ الفلسطينيين المحليين الذين يمثلون تسعة أعشار ما مجموعه من عدد السكان متفقون بالإجماع على رغبتهم وتطلعاتهم. ومع أنّ لجنة كينغ وكرين تعاطفت مع الحركة الصهيونية، فقد أظهرت موضوعية وبُعد نظر في تفسير لماذا كان وعد بلفور خاطئاً، ويتناقض مع مفاهيم حق تقرير المصير. أصدرت اللجنة تقريراً مطوّلاً ولكن تم قمعه، ونشرت مقتطفات منه فقط في العام ١٩٢٢، ولم يتم نشر التقرير بالكامل إلا في العام ١٩٤٧. استمرت القوات البريطانية في مخططاتها لحكم المناطق وفقاً لما جاء في اتفاقية سايكس بيكو ووعد بلفور. أمّا في مصر، فقد أظهرت الثورة بين العام ١٩١٩ و١٩٢٢ أنّ العرب يريدون الاستقلال. وفي فلسطين ظهرت عدة مجلات جديدة تتبنّى أفكار الاستقلال، ومنها سوريا الجنوبية (حررها عارف العارف وأمين الحسيني)، ومرآة الشرق (حررها بولس شحادة)؛ وبيت المقدس (حررها بندلي مشحور).^{١٥}

وعندما عاد الملك فيصل من باريس إلى دمشق في العام ١٩١٩، كان الجو مشحوناً بالثورة. اقترح مندوبون عن حزب الاستقلال العربي انتخاب جمعية وطنية وإعلان الاستقلال في سوريا العربية المتحدة (والتي تضم فلسطين وشرق الأردن والعراق ولبنان المستقلة ذاتياً آنذاك). ووقعت اشتباكات مع القوات الفرنسية وتصاعدت الاشتباكات بعد إعلان المؤتمر السوري العام تعيين فيصل ملكاً على سوريا في ٨ آذار العام ١٩٢٠. وأقلق دول الحلفاء انتشار مظاهرات مؤيدة عاصفة

في القدس. وتبع ذلك تنويع الشعب العراقي عبد الله شقيق فيصل ملكاً على العراق. دفعت الأنباء عن هذه الأحداث دول الحلفاء إلى عقد مؤتمر في سان ريمو في ٢٥ نيسان العام ١٩٢٠ لمناقشة وضع خطة لتدمير هذه الإشارات المبكرة للاستقلال بين العرب، وإعادة تأكيد التزام فرنسا وبريطانيا باتفاقيات سايكس بيكو ووعده بلفور.^{١٦}

في ٢٠ شباط العام ١٩٢٠، قام مسؤولون بريطانيون بجمع الوجهاء في القدس لإعلامهم أنّ بريطانيا تسعى إلى فرض انتدابها على فلسطين الذي يتضمّن وعد بلفور، وبعبارة أخرى ينبغي على الفلسطينيين التكيف مع الواقع. بعد سبعة أيام صدر إعلان رسمي للغرض نفسه. وفي يوم ٢٧ شباط من العام ١٩٢٠ جاء الرد الفلسطيني: (١) عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني في دمشق الذي أكد مرة أخرى على ضرورة الوحدة العربية لمقاومة الاحتلال البريطاني ووعده بلفور وحق تقرير المصير للسكان الفلسطينيين الأصليين. (٢) خرجت مظاهرة حاشدة في القدس للتأكيد على تلك المطالب نفسها. وامتدت المظاهرات في جميع المدن الفلسطينية الرئيسية يوم ١١ آذار من العام ١٩٢٠.^{١٧} أمّا في حيفا، فقد قام الآلاف من المتظاهرين بالتوقيع على عريضة ضد جعل فلسطين وطناً قومياً لليهود، وتم إرسال تلك العريضة إلى الحاكم العسكري هناك الكولونيل ستانتون.^{١٨} واندلعت انتفاضة القدس العام ١٩٢٠ بسرعة مع حدوث استقالات جماعية واحتجاجات وإضرابات وغيرها من أشكال المقاومة الشعبية.

في ٤ نيسان من العام ١٩٢٠، تحوّل موسم النبي موسى من احتفال ديني يقام سنوياً إلى تظاهرة وطنية كبيرة. سمعت الحشود من عارف العارف رئيس بلدية القدس، وموسى كاظم الحسيني، وأمين الحسيني. هنا سطع اسم أمين الحسيني الذي خدم القوات البريطانية والشريف فيصل، وتم تعيينه مفتي الديار المقدسة من قبل البريطانيين، ولكنه في وقت لاحق أصبح غير محبوب من قبل البريطانيين.^{١٩} (انظر أيضاً ص ١٣٠) عندما دخلت الحشود بوابة يافا في القدس تعرّضوا لمضايقات من قبل الصهاينة بقيادة جابوتنسكي، الذي زرع الفتنة من أجل زيادة صفوف قواته الفاشية. وحصل الصهاينة على ما خططوا، له، حيث اندلع العنف الطائفي، وقتل خمسة

من اليهود، وأربعة من العرب. حكمت الإدارة البريطانية على كل من عارف العارف وأمين الحسيني غيابياً لمدة عشر سنوات. وحُكم جابوتنسكي لمدة ١٥ عاماً في السجن، ولكن أفرج عنه في غضون ثلاثة أشهر. هنا تجدر الإشارة إلى أن عارف العارف ولد في القدس العام ١٨٩١، وكان قد تلقى تعليمه في تركيا. ودعا إلى المقاومة غير العنيفة. أمضى العارف ثلاث سنوات في المنفى في سيبيريا، ولاذ بالفرار بعد الثورة الروسية عائداً إلى فلسطين. هذا وعمل محرراً لصحيفة "سوريا الجنوبية" التي تتحدث عن فلسطين، والتي بدأ نشرها في القدس العام ١٩١٩. عاد العارف العام ١٩٢٩ بعد قضاء فترة في منفاه الاختياري هرباً من الاضطهاد البريطاني. كان مثلاً للمثقف الذي لا يعيش في أبراج عاجية بل بين شعبه. وكان يجلس ويحتسي الشاي مع العائلات الفلسطينية الغنية في القدس كما مع البدو الفقراء في خيام بسيطة في النقب أو القرى النائية في الجليل. قام بتأليف العديد من الكتب في التاريخ والدراسات الاجتماعية. بعد العهد البريطاني، انتُخب رئيساً لبلدية القدس العام ١٩٥٠، وتوفي في ٣٠ تموز عام ١٩٧٣ في رام الله.

أمّا موسى كاظم الحسيني، فقد قدّم استقالته من منصب رئيس بلدية القدس لكي لا يقبل إملاءات الاحتلال البريطاني. أدّى تعيين راغب النشاشيبي مكانه العام ١٩٢٠ إلى تعميق الصدع القائم بين الفصيلين بقيادة عائلتي النشاشيبي والحسيني. كان فيصل النشاشيبي يؤمن بسياسة خذ وطالب - الأخذ والعطاء مع الانتداب. أما مجموعة الحسيني فكانت تؤمن بالمقاومة والرفض. ولد موسى الحسيني العام ١٨٥٣. تحدّث التركية بطلاقة وخدم كمسؤول في الدولة العثمانية قبل أن يصبح رئيس بلدية القدس العام ١٩١٨. انتخب ممثلاً للجنة التنفيذية للمؤتمر العربي المعقود في القدس سنة ١٩٢٠، والخامس في حيفا ١٩٢٢، والسادس في نابلس العام ١٩٢٣، والسابع في يافا العام ١٩٢٨. وتولى رئاسة اللجنة العربية سنة ١٩٢٠. عندما كان عمره ٨٠ سنة، قاد مظاهرة سلمية احتجاجاً على الهجرة الجماعية الصهيونية في يافا يوم ٢٧ تشرين الأول العام ١٩٣٣، حيث أصيب، ما سرّع في وفاته في ٢٧ آذار العام ١٩٣٤.

عهد هربرت صموئيل

منعت السلطات البريطانية مؤتمراً فلسطينياً آخر من الانعقاد شهر أيار ١٩٢٠ الذي كان يهدف إلى مناقشة مؤتمر سان ريمو. وقامت السلطات بتعيين لجنة تحقيق سرية أبرمت تقريراً لم يتم رفع السرية عنه حتى العام ١٩٤٦ (وذلك بفضل الضغوط من قبل الصهاينة). يقول التقرير إنَّ سبب الاضطرابات العام ١٩٢٠ هو برنامج القيادة الصهيونية لتحويل فلسطين إلى دولة يهودية. قدّم التقرير عرضاً مفصلاً لإمكانيات الحركة الصهيونية التي بُنيت معظمها سرّياً للسيطرة على فلسطين، بما في ذلك جهاز المخابرات الذي كان يعرف عن الوثائق البريطانية السرية أكثر مما كان البريطانيون يعرفون عن الحركة الصهيونية.^{٢٠} تجاهلاً للتقرير، قامت الحكومة البريطانية باستبدال حكمها العسكري بإدارة مدنية في ٣٠ حزيران العام ١٩٢٠. وتم اختيار هربرت صموئيل الذي كان يحب ارتداء سترات بيضاء ليمثل أقرب وأشرس وجه للاحتلال. كان قد برز قبل تعيينه كيهودي صهيوني عندما نجح في إسكات منتقدي وعد بلفور، وعندما انضم إلى الوفد الرسمي الصهيوني لمؤتمر "السلام" في فرساي في باريس العام ١٩١٩، وجعل نفسه مدافعاً قوياً عن الصهاينة اليهود في بريطانيا. كان المرشح المثالي لحكم فلسطين والمساعدة في تحويلها إلى وطن قومي صهيوني. أشار صمويل في مذكراته المنشورة إلى أنه تم تعيينه إلى حد كبير بسبب انتمائه وولائه للصهيونية.^{٢١} قوبل تعيينه بالاعتراض من قبل ضباط بريطانيين مثل اللورد كيرزون الذي حذر من تداعيات أن يكون اختيار أول مسؤول مدني في فلسطين يهودياً صهيونياً. عند تعيينه قام صمويل بجولة في فلسطين، وزار عسراً من المستوطنات الاستعمارية اليهودية. زعم بعد ذلك في تقريره أن الجيش البريطاني قد بالغ في تقدير الرفض العربي، وأن تحقيق ما جاء في وعد بلفور أسهل مما قيل.^{٢٢}

تعيين صموئيل أثار احتجاجات فورية ومباشرةً وعمليات مقاطعة. استجاب الكثير من الفلسطينيين من خلال تقديم استقالة جماعية من الوظائف الحكومية (وكان من الأمثلة البارزة على ذلك خليل السكاكيني). وعمّت الإضرابات والاحتجاجات والعرائض والمناشدات قطاعات الشعب كافة. فعلى سبيل المثال، وصلت للحكومة رسائل

من الجمعية الإسلامية المسيحية في يافا ومن قبل النساء في شمال فلسطين في ٢٣ حزيران من العام ١٩٢٠.^{٢٣} وعلى الرغم من الدعوة للمقاطعة، فإن العديد من الزعماء حضروا الاجتماع مع صموئيل في القدس في ٧ تموز العام ١٩٢٠، وفي حيفا في اليوم التالي، ما أدى إلى أن صمويل والحكومة البريطانية اعتقدا أنه بالإمكان عزل الشارع عن النخبة القيادية واحتواء المقاومة الشعبية.^{٢٤}

متزامنة مع مكائد صموئيل، منحت فرنسا الملك فيصل في دمشق إنذاراً نهائياً لإنهاء التجنيد وتسليم الحاميات للقوات الفرنسية في ١٤ تموز ١٩٢٠، واضطرّ للقبول ضد رغبات شعبه. لكن الفرنسيين خانوه وطرده من دمشق على أية حال. كانت لهذه الضربة للاستقلال السوري آثارٌ سلبية على الفلسطينيين. بعد ذلك فرضت دول الحلفاء اتفاقاً مع تركيا المهزومة في ١٠ آب العام ١٩٢٠ ينصّ على أنه لا يحق لتركيا المطالبة بالمقاطعات العثمانية التي تم "تحريرها". رفض أتاتورك في البداية هذا الاتفاق، ولكن تم إجباره على قبول اتفاق بصيغة أقوى في لوزان في ٢٨ أيلول العام ١٩٢٣. وتقدّم المشروع الصهيوني بسرعة مع إزالة هذه العقبة التقنية. كان لدى الوالي الصهيوني صموئيل سلطات لم يسبق لها مثيل لتنفيذ وعد بلفور، حيث كانت لديه السلطة التنفيذية والتشريعية والعسكرية (شبه بالملك اليهودي الجديد لفلسطين). ولم يتردد في تقسيم المجتمع الفلسطيني، وفي السماح للوكالة اليهودية بإنشاء مدارس يهودية مستقلة ومستعمرات يهودية، وإعطاء تنازلات اقتصادية للصهاينة، وبناء صناعات يهودية ... وهلم جرا. لقد كانت هنا أول بوادر لترسيخ نظام الفصل العنصري. منذ العام ١٨٨٠، قامت الوكالة اليهودية/ يشوف بتطبيق الفصل العنصري في الخفاء وبعيداً عن الأضواء ودون اعتراف رسمي وبشكل صغير. أصبح هذا الفصل العنصري سياسة حكومية في عهد صموئيل. كما قام صموئيل بتعيين عدد من كبار الصهاينة اليهود في مناصب حكومية حساسة مثل المسؤولية عن الهجرة، والمالية، والتجارة، والصناعة. بينما كان اليهود يشكلون ١٠٪ من عدد السكان في ذلك الوقت، إلا أنهم احتلوا ٦٠٪ من المناصب الحكومية. وكان العرب القلائل في الحكومة يتم اختيارهم من أجل الولاء والاستكانة، بينما يتم اختيار اليهود بشرط صهيونيتهم. في أيلول وتشرين الأول العام ١٩٢٠، قام صموئيل بإصدار سلسلة

كبيرة من الأنظمة المتعلقة بملكية الأرض التي جعلت من الأسهل للحركة الصهيونية انتزاع مساحات شاسعة من الأراضي، وصُعِبَت على السَّكان المحليين الحفاظ على أراضيهم. وعيَّن صهيونياً يدعى نورمان بينويتش ليكون مسؤولاً عن الدائرة التي تتعامل مع تسجيل الأراضي والملكية،^{٢٥} وسمح بتشكيل الهاغاناة (الاسم الأسبق للجيش الإسرائيلي) باعتبارها "قوة دفاع" عن المستعمرات الصهيونية. هذه الإجراءات الظالمة وبيانات مباشرة من قادة الحركة الصهيونية ومن المفوض السامي الصهيوني نفسه، أقنعت كل الفلسطينيين بأن اليهود الصهاينة يهدفون إلى الاستيلاء على فلسطين.^{٢٦} وقَبِل صموئيل تمثيل الوكالة اليهودية وقيادة اليشوف لليهود، ولكنه رفض أن يمثل المؤتمر العربي الفلسطيني عرب فلسطين.^{٢٧}

أدت زيادة الهجرة اليهودية وقوانين الأراضي الظالمة التي وضعها صمويل إلى تقلص عدد الفلاحين الفلسطينيين، حيث كانت معظم الأراضي المزروعة في فلسطين أراضي أميرية، حيث كان الفلاحون يدفعون إلى الحكومة ضريبة تُسمَّى "ضريبة العشور" (ما بين الضريبة والاستئجار). كانت هذه الأراضي مملوكة تقليدياً من أهالي القرية وبشكل جماعي. استخدم صموئيل سلطته الواسعة لتخصيص هذه الأراضي ونقل ملكيتها للصهاينة أو أصحاب ثراء آخرين. وكانت صدمة كبيرة عندما يتم إعلام القرويين أنهم لم يعودوا يستطيعون استخدام الأراضي التي قام بزراعتها أسلافهم لمئات من السنين. ووضع صموئيل قوانين تسمح بنقل مساحات كبيرة من الأراضي العامة للحركة الصهيونية من أجل "الصالح العام" كما زعم صمويل والصهاينة الآخرون. أيضاً وضع صموئيل قوانين تنصّ على أن أصحاب الأراضي الغائبين لا يمكنهم الاستفادة من استخدام الأراضي، ولكن يمكنهم بيعها. هذا دفع العائلات الغنية مثل سرسك لبيع مساحات واسعة في مرج ابن عامر وأماكن أخرى إلى القيادة الصهيونية. وطرد الكثير قسراً من أراضيهم. وبالتالي فقد كان من المتوقع بأن المقاومة سوف تنمو.

كرّر المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث المنعقد في حيفا في ١٤ كانون الأول العام ١٩٢٠ طلب حق تقرير المصير والدعوة إلى رفض وعد بلفور.^{٢٨} لكن المؤتمر كان يواجه تحديات جديدة منها النجاح البريطاني

والفرنسي في تصفية إمكانية قيام دولة عربية قومية متّحدة مستقلة أو حتى توحيد بلاد الشام. تم إبعاد الملك فيصل من سوريا وقمع المقاومة في العراق. أدّت هذه التطورات الإقليمية إلى مرحلة إعادة تقييم، وثم التركيز على القومية الفلسطينية.^{٢٩} انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية برئاسة موسى كاظم الحسيني لتقود العمل الوطني في الحقبة الجديدة. وعندما لم يبد هربرت صموئيل أي استجابة لمطالبها سافرت اللجنة التنفيذية إلى القاهرة للاجتماع مع ونستون تشرشل الذي وافق على الاستماع إلى اللجنة بعد زيارته القدس. والتقى تشرشل مع اللجنة في القدس في ٨ آذار العام ١٩٢١، وكانت مطالب المندوبين: لا لوطن قومي لليهود في فلسطين، وضع حد للهجرة ولنقل ملكية الأراضي، السماح لحكومة وطنية تمثل الشعب الفلسطيني، عدم فصل فلسطين عن المناطق المجاورة لها. رفض تشرشل هذه المطالب، وأبلغ المجتمعين أنّ حق تقرير المصير لن يأتي إلا بعد موت "أبناء أبنائنا"^{٣٠}!

بينما كان تشرشل يلقي خطاباً مهيناً يوم ١٨ آذار العام ١٩٢١ يُمجّد فيه الصليبيين والمكابيين، كان هناك يوم إضراب عام واحتجاجات في جميع أنحاء فلسطين. تمت مواجهة هذه المظاهرات بوابل من الرصاص، حيث لقي أشخاص عدة مصرعهم، وقتل الكثير حتى في جنازات إدوارد منصور، ومصطفى العجوز.^{٣١} تجمّع الآلاف في مظاهرة في مدينة طولكرم ضمّت العديد من أهالي المدينة والقرى المحيطة بها. انطلقت المسيرة من الحافة الجنوبية من البلدة باتجاه المبنى الحكومي، وكان يقودها طلاب المدارس، وتبعتها القيادات الدينية (المسيحية والإسلامية) وزعماء العشائر والقادة السياسيون والتجار والناس العاديون حاملين رايات سوداء.^{٣٢} ولقي طفل آخر مسيحي ورجل مسلم حتفهما في مظاهرة في حيفا (في تحدٍّ لحظر التظاهرات).^{٣٣} عندما كان السفير الملكي يلقي خطابه في ١٤ نيسان العام ١٩٢١، وقف شاب فلسطيني يدعى جبران كنزا مطالباً الحكومة البريطانية بوقف تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود، ومطالباً أيضاً بتنفيذ المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم المتحدة حول حق تقرير المصير.^{٣٤} وفي ٢٩ نيسان من العام ١٩٢١، وصل ضابط بريطاني جديد اسمه الكولونيل كوكس إلى منطقة الجليل لتهدئة الاضطرابات، حيث قام باستجواب أحد المتهمين "مثيري الشغب" ويدعى حبيب وهبة، متهماً إياه بخلق التمرد، والاعتراض على الحركة

الصهيونية، والانضمام للمؤتمر العربي، والانخراط في جمعية قومية. ردّ وهبة قائلاً إنّ كل هذا صحيح ما عدا الجزء المتعلق بخلق التمرد، "أما كوني ضد الحكومة الصهيونية، فهذا شيء لا أنكره، لأنني أعتقد أنّ الصهيونية من شأنها أن تدمّر آمال جميع الفلسطينيين وتطلعاتهم".^{٣٥}

بما أنّ المظاهرات السلمية كانت قد وُجّهت بالعنف، فقد تدهور الوضع إلى مزيد من العنف. وتشير تقديرات متحفظة إلى أنّ ٤٨ من العرب و٤٧ من اليهود لقوا مصرعهم في نيسان العام ١٩٢١. أمّا التقديرات الأكثر واقعية، فتشير إلى أنّ أكثر من ١٠٠ عربي لقوا مصرعهم، وبخاصة في الخامس من نيسان في مدينة يافا. ومنذ ذلك الحين ومدينة يافا ظلت في مرمى بنادق السلطات البريطانية باعتبارها مركزاً للمقاومة. بعد أحداث العنف في نيسان، قامت الحكومة البريطانية كعادتها بتعيين لجنة تحقيق أخرى.^{٣٦}

في أوائل أيار من العام ١٩٢١، خرج الكثير في مظاهرات بمناسبة زيارة ونستون تشرشل إلى فلسطين. وكان تشرشل قد عقد للتو صفقة مع الأمير عبد الله للسماح له بحكم شرق الأردن مقابل الإذعان للخطط البريطانية في فرض انتدابها على فلسطين (بما في ذلك الوطن القومي الصهيوني). تدفق ٢٠ ألف شخص في مدينة غزة لمواجهة القطار الذي كان يستقله تشرشل، وخرجت مظاهرات غاضبة في مدينة حيفا وبيسان (حيث تم الإبلاغ عن سقوط ٢٠ قتيلًا من الفلسطينيين عندما فتحت القوات البريطانية النار عليهم). وقامت السلطات بإقصاء المحافظ الفلسطيني في بيسان من منصبه بعد المظاهرة هناك.^{٣٧} ونُشرت صورة لبرقية في صحيفة الكرمل بعثت بها الجمعية الإسلامية في مدينة حيفا موقعة من رئيسها مفتي حيفا محمد مراد إلى الحكومة البريطانية (رئيس الوزراء، ومجلس اللوردات، ... الخ) وإلى صحيفتي الصن ومورنينج بوست في لندن، تُحذّر من أنّ الأمور تخرج عن السيطرة.

تكثيف نشاطات القيادة الفلسطينية

في أيار العام ١٩٢١، عُقد المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع في مدينة القدس، حيث انتخبت مجموعة يقودها موسى كاظم الحسيني. سافر وفد بقيادته في تموز العام ١٩٢١ إلى لندن في محاولة لإقناع الحكومة

البريطانية بالعدول عن سياساتها. وأمضوا تسعة شهور في مفاوضات طويلة ومضنية ومحاولات للضغط على الحكومة البريطانية.^{٢٨} ونشرت صحيفة الكرمل صورة عن القرار الذي اتخذته اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني الرابع، حيث قدّمت اللجنة اعتراضها الشديد حول منع وحظر المظاهرات السلمية وقمع المظاهرات بالسلاح، ما أدّى "إلى الحادث المؤسف في مدينة حيفا، حيث تم سفك دم الأبرياء".^{٢٩} وفي الوقت نفسه، قامت الجمعية الإسلامية المسيحية في مدينة نابلس بتوجيه بيان تذرّ حول قرار عسكرة المستعمرات اليهودية.^{٤٠}

أرسلت القيادة الفلسطينية في أيلول العام ١٩٢١ مجموعتين إلى أوروبا؛ المجموعة الأولى ذهبت للإدلاء بشهاداتها للحكومة البريطانية في مدينة لندن من أجل التحقيق في "الاضطرابات"، والمجموعة الثانية سافرت إلى جنيف بسويسرا لحضور المؤتمر السوري الفلسطيني هناك. وعقب ذلك خلاف مسجل عندما عبّر أولئك الذين حضروا مؤتمر جنيف عن تأييدهم للنداء ضد الانتداب البريطاني، في حين أراد أولئك الذين كانوا في لندن من الانتداب البريطاني التخلي فقط عن دعمه لوعده بلفور والسماح بتطبيق الحكم الذاتي.^{٤١}

قامت الحكومة البريطانية بنشر "الكتاب الأبيض" في تشرين الأول العام ١٩٢١، الذي كرّر بعض الاستنتاجات العسكرية المغايرة لسياسة صموئيل والحركة الصهيونية. ويقول الكتاب إنّ السبب الرئيسي وراء "الاضطرابات" كان الخوف من تحويل فلسطين إلى وطن قومي لليهود. وأكد التقرير أنه لم توجد مشكلة في العلاقات بين اليهود وغير اليهود في فلسطين في ظل الحكم العثماني. وأضاف التقرير أنّ أساس المشكلة هو إصرار الحركة الصهيونية على السيطرة في فلسطين. ردّ هربرت صمويل على الكتاب بزيادة سرعة التحوّل في فلسطين من أجل تقويض ما ورد فيه، ففي كانون الأول العام ١٩٢١، قام بتغيير قانون ملكية الأراضي للعام ١٩٢٠، لإزالة القيود المفروضة على كمّية عمليات بيع الأراضي وقيمتها، وشجّع عمليات البيع من قبل الناس الذين يعيشون خارج البلاد. وأضاف أيضاً ضرائب على الأراضي غير المستغلة التي من شأنها أن تشجّع على بيعها (حيث أن الكثير من الفلسطينيين لا يقدرون على دفع الضرائب). ونتيجة لتلك القوانين الجائرة، فقد قامت

عائلة سرسق اللبنازية الغنية ببيع الأراضي الخصبية في سبع قرى في سهل مرج ابن عامر للصهاينة في العام ١٩٢١. وعلى الرغم من أن القانون كان قد وعد بأن يحصل القرويون على أراضٍ ومنازل مساوية في أماكن أخرى في مثل هذه الحالات، ولكنهم لم يحصلوا على شيء، وطردوا بالقوة من قراهم. وتم الاستيلاء على ٤٠٠ ألف دونم من أراضي ٢٢ قرية من هذا الوادي الخصب بين الأعوام ١٩٢١-١٩٢٥، وتم طرد الناس منها (١٧٦٤ أسرة، ٨٧٣٠ من الأفراد).^{٤٢} هذا وتمت عملية طرد مُمثلة لـ ١٥٠٠ من أهالي وادي الحوارث بالقوة، حيث لقي البعض من السكان الأصليين مصرعهم في تلك العملية. هذا وأظهرت الأدلة أن السكان في ذلك الوادي دفعوا الكثير من الضرائب في إطار نظام إنتاج القرويين (تقرير سمبسون). وقد أدى غضب هؤلاء القرويين إلى اللجوء إلى أعمال مقاومة من أجل تأمين الحراسة في المنطقة. وكان أكثر هؤلاء شهرة أحمد المحمود (والملقب بـ "أبو جلد") من قرية طمون، وصالح أحمد المصطفى (والملقب بـ "العرميط") من قرية بيتا، وأصبحت أعمالهم البطولية مشهورة في جميع أنحاء فلسطين في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وتردد صدق القول المشهور في شتى أنحاء قرى شمال فلسطين، وهو: "أبو جلد والعرميط ياما كسروا برانيط"، ويعني تكسير الخوذات البريطانية.^{٤٣}

وفي السنوات التي تلت صياغة صموئيل لقوانين الأراضي الجديدة، تم الاستيلاء على مئات الآلاف من الدونمات من الأراضي من قبل الصهاينة وبأسعار رخيصة جداً (متوسط ٣,٦ جنيه للدونم، وفي بعض الحالات مجاناً عن طريق عملية النقل من الحكومة/التخصيص)، حيث طرد الناس الذين عاشوا وزرعوا هذه الأراضي لمئات السنين (أكثر من ٣٥ قرية منها قرية العفولة، التي قاومت مقاومة شرسة). وفي خلال فترة حكم صمويل التي امتدت إلى خمس سنوات، ازدادت حيازة الصهاينة على الأراضي بنسبة ٦٤٪ من ٦٥٠ ألفاً إلى ١,٠٩٥,٧٤٠ دونماً، حيث قام هربرت صموئيل طوال تلك الفترة بتقوية الصهاينة اليهود وإضعاف الفلسطينيين الأصليين، وسمح لليهود بحمل السلاح وتشكيل "قوات الدفاع"، ومنع ذلك على غير اليهود. وفي مرحلة من اليأس، قاد موسى كاظم الحسيني وفداً إلى مدينة لندن تجاوز فيه المفوض السامي الصهيوني صموئيل، لتقديم القضية مباشرة إلى

مجلس اللوردات، حيث لم يُكلَّل اجتماع الوفد مع تشرشل في ١٥ آب العام ١٩٢١ بالنجاح؛ وطلب منه ببساطة أن يجتمع مع وايزمان وفعل ذلك، ولكن وايزمان زاد من مخاوفهم من خلال توضيح أن حركته تهدف في الواقع إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية. وعقد الوفد اجتماعاً ثانياً مع ونستون تشرشل في ٢٢ آب العام ١٩٢٢. وفي غضون ذلك، أرسل بعض أعضاء اللجنة الذين عينهم صامويل من العرب المتعاونين برقية يدعون فيها أن اللجنة التنفيذية المنتخبة للمؤتمر العربي الفلسطيني لا تمثل مصالح الشعب الفلسطيني.^{٤٩} وقد تكرر مثل هذا التقسيم بين المتعاونين المهتمين بالحفاظ على مناصبهم والقوميين الحقيقيين في السياسة الفلسطينية منذ ذلك الحين.

هذا وقد أثرت إدارة صموئيل المنحازة لليهود على صدور "كتاب أبيض" آخر من قبل الحكومة البريطانية يوم ٣ حزيران العام ١٩٢٢، والذي أكد السياسات الفاشلة والمدمرة مدعياً أن فلسطين لم تكن جزءاً من المحافظات العربية المدرجة في الوعود للملك فيصل. في هذا الكتاب فقد ذهب ونستون تشرشل أبعد من وعد بلفور في التأكيد على أن اليهود المهاجرين من شأنهم أن يصبحوا من الفلسطينيين كحق وليس كامتياز (على الرغم من أنه أكد أن هذا لا يعني قيام دولة فلسطين اليهودية أو دولة يهودية في فلسطين). كما رفض الكتاب فكرة إدارة تمثيلية ديمقراطية في فلسطين. وتم توضيح دور الحركة الصهيونية من خلال صامويل في الحصول على هذا الدعم غير المشروط في السيرة الذاتية لحاييم وايزمان.^{٥٠}

وبعد أن ضمنت الحركة الصهيونية دعم الولايات المتحدة الأمريكية على شكل تصويت في الكونغرس في ٣٠ حزيران العام ١٩٢٢، قام مجلس عصبة الأمم في ٢٤ تموز العام ١٩٢٢ بالموافقة على الانتداب البريطاني على فلسطين. وأكد القرار مجدداً على لغة بلفور التي تضمنت "الحقوق المدنية والدينية لغير المواطنين اليهود" (ولم يكن يضمن الحقوق السياسية). هذا ولم يتعامل القرار المطول مع شعب فلسطين كسكان أصليين لديهم حقوق في بلدهم، ولم يأخذ في الاعتبار بأنهم الأغلبية. فلقد كانوا -حسب اعتقاد مجلس عصبة الأمم- ببساطة مواطنين في بلد يتم تحويله بواسطة تدابير مبرمجة إلى وطن

قومي لليهود من جميع أنحاء العالم. ومع هذا القرار أضافت القوى الكبرى الشرعية على مشروع فصل فلسطين عن شعبها الأصلي.^{٤٦} لقد تم إنجاز الكثير في الأربع سنوات وسبعة أشهر في ظل الانتداب البريطاني قبل ٢٤ حزيران من العام ١٩٢٢. ولكن عند هذه النقطة أدرك معظم الفلسطينيين أنّ المشروع الصهيوني والانتداب البريطاني جزء لا يتجزأ، وأنّ الكفاح ضد واحد يعني محاربة الآخر. وهكذا، وفي اجتماع اللجنة التنفيذية العربية من ٢٣-٢٧ حزيران، قرّرت أنّه عندما يتم وضع اللمسات الأخيرة للانتداب، ينبغي إشراك الناس مباشرة في مظاهرات حاشدة وإضرابات وغيرها من أشكال المقاومة الشعبية ضد الاحتلال. قام الزعماء الدينيون بالانضمام للكفاح ضد برنامج نقل الأراضي للصهاينة أو لعملاء للوكالة اليهودية. وأدّى الإضراب العام الذي استمر من ١٣-١٤ تموز العام ١٩٢٢ إلى شل حركة التجارة في جميع أنحاء البلاد. وسافر القادة الفلسطينيون الوطنيون إلى مكة المكرمة للحصول على دعم المسلمين في تموز العام ١٩٢٢. واعترف الانتداب البريطاني في رسائل خاصة بأنّ القيادة العربية تشجّع المقاومة الشعبية الفعالة، وتقاوم النداءات التي كانت تدعو إلى تمرد مسلح، كان ينادي إليه عدد قليل من الأفراد.^{٤٧}

صدر مرسومٌ دستوري من قبل المفوض السامي في ١٤ آب العام ١٩٢٢ يدعو إلى إنشاء هيئة تشريعية لا تملك السلطة لتشريع أي شيء. هذا وقد رفض المؤتمر الفلسطيني الخامس المنعقد في مدينة نابلس ٢٢-٢٥ آب العام ١٩٢٢ هذا المرسوم، وبدلاً من ذلك، قام بوضع ميثاق وطني يقوم على مبادئ حق تقرير المصير. رفض الفلسطينيون المشاركة في المهزلة التي أعلن عنها، وهي "الانتخابات" لمجلس شكلي، وفشلت الانتخابات في ١٩٢٣.^{٤٨} لذا، قرّرت المفوضية السامية إنشاء "لجنة استشارية" في أيار العام ١٩٢٣، ولكن بعد أقل من شهر قام سبعة أعضاء عرب من تلك اللجنة بتقديم استقالتهم تحت ضغوط من الجمهور حتى قبل عقد اللجنة جلستها الافتتاحية.^{٤٩} والأعضاء السبعة الذين استقالوا كانوا من المؤيدين للحكومة البريطانية وهم: اسماعيل الحسيني، عارف الدجاني، راغب النشاشيبي، محمود أبو خضرة، سليمان طوقان، عبد الفتاح السعدي، سليمان ناصيف، الدكتور حبيب سالم، فريح أبو مدين. لذا كان من الواضح أنّهم وجدوا أنّ موقفهم لا يحسد عليه بالنظر إلى غضب الرأي العام.^{٥٠}

لقد دفع فشل السلطات البريطانية بين شباط العام ١٩٢٢ وأيار من العام ١٩٢٣ إلى العودة إلى الطريقة الاستعمارية المجرّبة لـ "فرق تسد". بين العامين ١٩٢١ و ١٩٣٥، أصبح أعضاء اللجنة التنفيذية لمنظمة المؤتمر العربي الفلسطيني أهدافاً رئيسية. ولسوء الحظ، لم يقدّر أمين الحسيني بإنشاء مؤسسات حكم أو هيكل ديمقراطي، وفضل إبقاء جميع الخطوط تحت سيطرته. وكان لشخصنة القضية آثاراً سلبية كبيرة، ليس فقط خلال هذه الفترة، ولكن لأنها أعطت نموذجاً للمستقبل تم تقليده بقيادة ياسر عرفات.^١ ومع ذلك، لا بدّ من القول إنّ الحاج أمين الحسيني وقيادة اللجنة التنفيذية نجحت في عزل الأفراد المتعاونين من المجتمع الفلسطيني، وفي إبقاء القضية حيّة، وضمان أنّ القضية الفلسطينية ليست معزولة عن البعد العربي والإسلامي. والدليل أنّ الحكومة البريطانية ساعدت في خلق المعارضة لقيادة الحسيني والقوى الوطنية من خلال مجموعة يقودها أسعد الشقيري، وعارف الدجاني، وراغب النشاشيبي، وسليمان تاجي الفاروقي. وبمساعدة من السلطات البريطانية، قاموا بإنشاء "الحزب القومي العربي" في ٨ تشرين الثاني من العام ١٩٢٣. وضمّ الحزب أصحاب الأراضي الأثرياء، والتجار، والمفكرين المثقفين الغربيين. لم تكن مواقفهم قويّة بشأن القضايا المصرية، فعلى سبيل المثال، لم يكونوا واضحين حول قضية وعد بلفور أو الانتداب. وتم أيضاً تشكيل "الحزب الزراعي" العام ١٩٢٣ مع جدول أعمال مماثل للانقسام والدعم للسياسات البريطانية، وفي هذه الحالة كان الأمل فصل المناطق الريفية عن المناطق المدنية الفلسطينية. في نهاية المطاف، استمرّ بعض أولئك الذين يراهنون على السلطات البريطانية في العمل وتخلّى البعض الآخر عن جهودهم التعاونية، في حين قام آخرون بتعزيز التزامهم بجدول الأعمال البريطاني، وبالتبعية للبرنامج الصهيوني، وبالتالي أسأوا إلى القضية الفلسطينية.^٢

في ٥ حزيران العام ١٩٢٣، تضمّن الاتفاق المبرم بين الحكومة البريطانية والعائلة الهاشمية تسليم مقاليد الحكم للعائلة الهاشمية واعترافاً بالانتداب البريطاني على فلسطين. وقام المؤتمر العربي الفلسطيني المنعقد في مدينة يافا في ١٦ حزيران العام ١٩٢٣ بالاعتراض على أية اتفاقيات من هذا القبيل، وأرسل رئيس اللجنة التنفيذية العربية موسى كاظم الحسيني رسالة استفسار إلى الملك عبد الله حول هذا الموضوع،

وكان ردُّ الهاشميين بأنَّ هذا الاتفاق لم يُبرم بعد. في الواقع، وعندما رفض الملك حسين ملك الحجاز الاتفاق المقترح تحت ضغط شعبي، تلقَّى رسالة شكر من اللجنة التنفيذية الفلسطينية. ويُقال إنَّ العائلة الهاشمية خسرت بعض التأييد البريطاني الذي تحوَّل بعد ذلك إلى أسرة آل سعود التي لا تزال حتَّى الآن تحكم المملكة، والتي تمت إعادة تسميتها بالمملكة العربية السعودية. وأعتقد أنَّ هذا كان درساً للملك عبد الله ساعده في صياغة سياسات أكثر تفهماً مع البريطانيين لاحقاً كما سنرى.

ازدهرت حركات جديدة في فلسطين على الرغم من العقبات في عشرينيات القرن الماضي. وحين كان التعاون بين المسيحيين والمسلمين هو القاعدة، فرضت الحركة الصهيونية العزل على الجالية اليهودية. فقد شدَّدت على "اليد العاملة اليهودية"، و"استرجاع الأرض اليهودية" .. وغيرها. وأصبحت مثل هذه المواقف سائدة في المجتمع اليهودي الصغير في فلسطين في بداية الثمانينيات من القرن التاسع عشر، وتسارعت هذه المواقف بعد إنشاء برامج الصهيونية العالمية في بداية القرن العشرين. نجح دافيد بن غوريون في إقناع الاشتراكيين الليبراليين المفكرين، بما في ذلك نقابات العمال العرب، في عشرينيات القرن الماضي، بأنَّه من الأفضل إنشاء نقابات عمال مستقلة، لأنَّ "هذا من شأنه أن يُسمح للعمال اليهود في أماكن العمل المختلطة تحسين وضعهم من خلال التعاون مع إخوانهم من العمال العرب، مع الحفاظ على الطابع اليهودي للهستدروت ونقاباته العمالية، التي من شأنها أن تظل حرة في القيام بعملها الصهيوني بما في ذلك الكفاح من أجل إبدال العمالة العربية بالعمالة العبرية".^{٥٣} واستجابة لذلك، فقد تم تأسيس الحزب الشيوعي الفلسطيني في العام ١٩٢٣، الذي تولى مهمة تنظيم العمال العرب واليهود معاً في فلسطين.^{٥٤} لقد كان أول حزبٍ سياسي يضمُّ صهاينة وفلسطينيين محليين. كان ذلك التحالف هشاً، حيث انقسم الحزب العام ١٩٤٣ إلى عصابة التحرير الوطني التي تدعو إلى استقلال فلسطين، وإلى الاتحاد الشيوعي التبروي الذي يؤيد الحركة الصهيونية.

وفي ١١ تشرين الأول العام ١٩٢٣، طلبت السلطات البريطانية من اللجنة التنفيذية العربية إذا كانت تودُّ تشكيل "وكالة عربية" مشابهة للوكالة اليهودية. أشار خطاب الرفض في ٩ تشرين الثاني من العام

١٩٢٣، والموقع من قبل موسى كاظم الحسيني بوضوح، إلى أن مثل هذا الأسلوب يؤدي إلى تقليل المواطنين العرب ومساواتهم مع الغرباء الصهاينة بخلق جسم يحاول التأثير على الحكومة، وأن الحل الأكثر عقلانية هو الوفاء بالالتزامات البريطانية للسكان، وإعطاء حق تقرير المصير مع حق التصويت لجميع المقيمين في فلسطين (من مسيحيين، ومسلمين، ويهود). كانت القيادة العربية تعتبر الاحتلال البريطاني غير شرعي، ويقوم على أساس الدعم لوعد بلفور.^{٥٥} في اعتقادي وبمنظور بعيد الأمد، كان من الممكن مع رفض المحاولات البريطانية خلق قيادات متعاونة مع العدو أن تتخذ خطوات إيجابية استباقية من أجل الحصول على تمثيل ديمقراطي لجميع قطاعات المجتمع الفلسطيني، وتحضيره لصراع طويل الأمد.

لقد تصرفَت الحكومة البريطانية بوحشية لقمع انتفاضة ١٩٢٠-١٩٢٢، وبعد انتفاضتين أخريين العام ١٩٢٩ والعام ١٩٣٦، شُكلت لجنة برئاسة اللورد وليام روبرت ويلسلي ببيل، للنظر في أسباب الاضطرابات الفلسطينية وكيفية قمعها. واستنتجت لجنة ببيل في تموز العام ١٩٣٧، أن أحداث العشرينيات وأحداث ١٩٣٦، وقعت لأنَّ السَّكَّانَ المحليين أُصيبوا بخيبة أمل من الرِّفْض البريطاني لتنفيذ وعود الاستقلال، وإصرار الحكومة على وعد بلفور، والخاوف من تحويل بلدهم إلى دولة يهودية.^{٥٦} وهذا أقرب إلى الحقيقة من الأقاويل الصهيونية المعتادة مثلاً بأن أشخاصاً مثل الحاج أمين الحسيني حرَّضوا على الغضب الفلسطيني.^{٥٧}

عندما قام بلفور برحلته الأولى والأخيرة لفلسطين في آذار العام ١٩٢٥ (من أجل المساعدة في افتتاح الجامعة العبرية)، قوبل بأعلام سوداء على نوافذ مغلقة وإضراب وفترة حداد ومظاهرات صاخبة، وقام باستقباله فقط من فقدوا مصداقيتهم وهم رئيس البلدية راغب النشاشيبي وثلاثة من موظفي البلدية وحفنة من شبوخ العرب. ولقد أجبر المحتجون السلطات على نقل بلفور سريعاً إلى دمشق التي كانت تحت الانتداب الفرنسي، ولكنه ووجه بمظاهرات مماثلة هناك، ما اضطره إلى إلغاء زيارته القصيرة بسرعة والتوجه إلى مدينة بيروت، ومن ثم العودة إلى باريس.^{٥٨} وفي العام ١٩٢٥، كان هناك أيضاً ثورة في سورية

ضد الحكم الفرنسي. وقام العرب الفلسطينيون تحت قيادة الحاج أمين الحسيني بإنشاء لجنة محلية "للجنة المركزية لمساعدة المنكوبين في سوريا"، وقاموا بجمع الأموال لدعم المقاومة السورية. وقبل هذا العمل التضامني بالتقدير ورد الجميل بعد ١١ عاماً خلال الانتفاضة الفلسطينية العام ١٩٣٦.^{٥٩}

هدأت الانتفاضة الشعبية التي وقعت العام ١٩٢٠ تدريجياً. وشهدت الفترة ما بين الأعوام ١٩٢٣-١٩٢٨ نقشاً كبيراً وإضعافاً للحركة الوطنية الفلسطينية. وقللت اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي الفلسطيني من مطالبها من البريطانيين وخفضت توقعاتها. وبدلاً من التركيز على الاستقلال، فقد أصبح التركيز على التمثيل. وبدلاً من رفض المهاجرين اليهود الجدد، فقد دعت إلى نظام التمثيل النسبي الذي يضمّ كلا من الأفراد الأصليين وغير الأصليين. وكان الوضع الفلسطيني السيئ جداً واضحاً في المؤتمر العربي الفلسطيني السابع الذي عُقد في مدينة القدس بين ٢٠-٢٧ حزيران العام ١٩٢٨. حضره ٢٥٠ مندوباً من كل الاتجاهات: مصالح عشائرية وأسر متنافسة، منهم الوطنيون ومنهم المتعاونون، من قاوموا استعمار الأراضي ومن كانوا يبيعونها. وقد تمّ توسيع اللجنة التنفيذية لتشمل ٤٨ عضواً (٣٦ من المسلمين و١٢ من المسيحيين) من أجل إرضاء مختلف المناطق والطوائف والاتجاهات لتكوين قيادة مجرّأة وضعيفة.^{٦٠} ولم تعد المطالب تشمل إنهاء الاحتلال البريطاني، أو إلغاء وعد بلفور، ولكنها ركّزت بشكل كبير على المطالب "المعتدلة"، بما في ذلك توظيف الفلسطينيين، والاعتراض على منح الحكومة البريطانية امتيازات للشركات الصهيونية.^{٦١} وطالب مؤتمر اقتصادي عُقد العام ١٩٢٣ في مدينة القدس بتخفيض الضرائب وتقديم الدعم للمزارعين، وطالب بغرس الأشجار وما شابه ذلك.^{٦٢} واستمرّ الضعف حتّى أنّه أصبح يُمارس ذاتياً، حيث واصلت الأسر الفلسطينية مثل الحسيني والنشاشيبي بتكثيف المناقشة وأحياناً الاقتراب من السياسات البريطانية من أجل إحباط محاولات الآخرين للمطالبة بالقيادة. تراكت الكوارث وحتى من الطبيعة، فقد ضرب فلسطين زلزال قوي العام ١٩٢٧ راح ضحيته ٢٧٢ مواطناً، وجرح ٨٣٣ شخصاً آخر.

وبدا أنَّ عصر العرائض والشكاوى والمظاهرات والمقاطعة المقيّدة وصل إلى نهايته. نجاحات صغيرة سُجّلت قبل العام ١٩٢٩ من التكتيكات المدنية في وجه تنفيذ المشروع الصهيوني. ولكن كانت مكائد الحكومة البريطانية قادرة على إحباط جهود المقاومة، وتكثيف الانقسامات بين السكان المحليين. أقنع اللوبي الصهيوني القوي حزب اليمين المحافظين في لندن بأنه لا يوجد أي حلول ممكنة.^{٦٣} تصاعدت مشاعر الإحباط في فلسطين، وكانت الأرض مهيأة لانتفاضة أخرى. وكما هو الحال في انتفاضات أخرى قبل وبعد، فقد أشعل الفتيل من قبل الصهاينة أنفسهم في ٢٤ أيلول العام ١٩٢٨. اختار الصهاينة هذا التاريخ لأنّ التقويم اليهودي يعتبره تاريخ تدمير الهيكل الثاني المزعوم.

هبة البراق

اختارت الحركة الصهيونية إثارة الخلاف في جزء من الحرم الشريف الذي يسمّيه اليهود حائط المبكى، ويسمّيه المسلمون حائط البراق (اعتقد بعض اليهود أنه جزء من المعبد القديم، ويعتقد بعض المسلمين أنه المكان الذي هبط فيه النبي محمد من رحلته الليلية إلى مدينة القدس، وبيّن المؤرخون أنه ليس له صلة بالمعبد). يعتبر الجدار والمساحة الصغيرة المتاخمة له جزءاً من الوقف الإسلامي، ولكنّ المسلمين سمحوا تقليدياً لليهود بتأدية الصلوات هناك بالعرف أو التقليد. وبتحريض من قبل الوكالة اليهودية، انتهك اليهود التقاليد والسياسة البريطانية بإقامة حاجز وطاولة في الموقع، ما يشير إلى بداية إنشاء كنيس. ومَرّت الأيام ورفض اليهود إزالة ذلك الحاجز، وتصاعد الغضب الإسلامي في تشرين الثاني العام ١٩٢٨. وقرّر البريطانيون في ١٥ آب العام ١٩٢٩، أنه يجب على اليهود أن يزيلوا أية هياكل دائمة عند حائط البراق (حائط المبكى)، وأضافوا أنَّ الجدار يعود إلى دائرة الأوقاف الإسلامية، بينما يُسمح لليهود بالصلاة هناك حسب التقاليد. ولكنّ القيادة اليهودية رفضت هذا القرار، وبدلاً من ذلك خرجوا بمظاهرة صاخبة (وبشكل مفاجئ) متوجهين إلى الحائط عبر الأحياء الإسلامية رافعين العلم الصهيوني على الجدار، وينشدون النشيد الوطني الصهيوني (هاتكفا). وكان هناك مظاهرة صهيونية أخرى خرجت في تل أبيب في ١٤ آب العام ١٩٢٩، تطالب بالملكيّة والسيطرة على حائط المبكى.

وجاء الرد على ذلك الاستفزاز بخروج المسلمين في مظاهرة بعد أداء صلاة الجمعة ١٦ آب العام ١٩٢٩، الذي صادف أيضاً بأن يكون عيد مولد النبي محمد. طالب المتظاهرون بتنفيذ القرار البريطاني واحترام الترتيبات التاريخية وشجبوا الاستفزازات الصهيونية. وكما يبدو أنه لم يستطع البريطانيون تنفيذ قراراتهم. خرجت مظاهرات بعد صلاة الجمعة التي تلت ذلك في ٢٣ آب من العام ١٩٢٩ في مدينة القدس، حيث فتحت الشرطة النار على المتظاهرين الذين كان بعضهم يحملون العصي والسيوف وحتّى البنادق. وقام بعض الفلسطينيين من المدن الأخرى (ويقال أيضاً عملاء بهدف بلبلة الوضع لصالح الصهيونية) بنشر شائعات حول سيطرة اليهود على الأماكن المقدسة، وأنّ هناك مجازر لناس عزّل.

هنا اتخذ هذا الصراع السياسي طابعاً دينياً، والبعض قال إنّ أفكار جماعة الإخوان المسلمين التي تأسست في مصر العام ١٩٢٨ بدأت تتسرّب إلى فلسطين العام ١٩٢٩. والحقيقة هي أنّ الصهاينة بدأوا الفتنة الدينية لاعتقادهم بأنّها وسيلة من أجل حشد المزيد من الدعم اليهودي لقضيتهم. وقضية الحائط هيمنت على المؤتمر الصهيوني العالمي الذي عُقد في زيورخ في ذلك العام. واعتقد أنّ أب علم النفس (سيغموند فرويد) وصل إلى لب الموضوع عندما شرح رفضه التوقيع على عريضة لإدانة أعمال الشغب التي قام بها العرب في فلسطين ولدعم المشروع الصهيوني، قائلاً:

”لا أستطيع أن أفعل ما تريد. فأنا غير قادر على التغلب على نفوري وإثقال كاهل الجمهور باسمي. وحتى هذه اللحظة الحرجة، لا تبدو لي تبرير ذلك. من يُريد التأثير على الجماهير يجب أن يعطيهم شيئاً مثيراً وتحريضياً. تقديري الرصين أنّ الحركة الصهيونية لا تسمح بذلك. من المؤكّد أنني أتعاطف مع أهدافها وأشعر بالفخر بجامعتنا في القدس، وأنا مسرور حول ازدهار مستعمراتنا، ولكن من ناحية أخرى لا أعتقد أبداً أن تصبح فلسطين دولة يهودية، ولن يكون العالمان المسيحي والإسلامي مستعدين لوضع أماكنهما المقدّسة تحت الرعاية اليهودية. كان من الممكن أنّ يكون أكثر عقلانية بالنسبة لي إنشاء وطن لليهود على أرض ذات أعباء تاريخية أقل. ولكنّي أعلم أنّ مثل وجهة النظر العقلانية هذه لن تكسب حماس الجماهير والدعم المالي من الأثرياء.

وأنا أعترف - مع الأسف - بأنّ التعصّب الذي لا مبرر له من قبل أبناء شعبنا أدّى إلى صحوةٍ عِدمِ الثقة العربية. وبالنسبة لي، لا يمكنني أن أبدي أيّ تعاطفٍ نهائياً مع نزعة خطأ تريد تحويل قطعة من جدار هيرودي إلى أثر وطني، وبالتالي الإساءة لمشاعر المواطنين الأصليين. والآن أحكم بنفسك ما إذا كنت أنا مع مثل وجهة النظر الناقدة هذه، الشخص المناسب للتقدم كعزاء لشعب مخدوع من أمل غير مبرّر.^{٦٤}

أصبحت هذه الانتفاضة (سواء العنيفة أو غير العنيفة) تعرف باسم هبة البراق. وعندما انتهت الانتفاضة، خلفت وراءها ١١٦ قتيلاً من العرب و١٣٣ من اليهود، وقُدّم أكثر من ١٠٠٠ شخص للمحاكمة.^{٦٥} لقد قام الصهاينة اليهود بالتشجيع والتحريض من أجل جذب الدعم والمساعدة في تسليح المستعمرات وعسكرتها.^{٦٦} وكذلك بعض الضباط البريطانيين ذوي الميول الصهيونية أرادوا رؤية العرب يتصرفون بعنف. ففي الخليل على سبيل المثال، قام ضابطان بريطانيان بإذكاء نيران الكراهية عن طريق نشر الشائعات التي أدّت إلى قيام عرب بشن هجمات ضد اليهود المحليين، بينما قام عرب آخرون بحماية جيرانهم من اليهود.^{٦٧} أوضحت هبة البراق للفلسطينيين مدى التحيز البريطاني لصالح المشروع الصهيوني، فمثلاً تمّ تخفيف حكم الإعدام بحق شرطي يهودي قام بإعدام أسرة عربية ليصل إلى سبع سنوات فقط. من ناحية أخرى، نُفذ حكم الإعدام شنقاً في ٢٧ حزيران العام ١٩٣٠ بحق ثلاثة فلسطينيين قياديين اتهموا بقتل يهود وهم: فؤاد حجازي من صفد، وعطا الزير ومحمد جمجوم من الخليل. ومن المشاهد المؤثرة التي بقيت وستبقى في ذاكرة كل الأجيال اللاحقة أنّ هؤلاء الثلاثة، وحين بدأ تنفيذ حكم الإعدام تنافسوا على من سيتمّ إعدامه أولاً، وبعد الإعدام استقبلت أمهاتهم أجسادهم بالزغاريد وشهداء من أجل الوطن.^{٦٨} بعد ذلك عقدت اللجنة العربية العليا اجتماعاً في ٨ آب العام ١٩٣٠ للاعتراض على تخفيف العقوبة بحق الإرهابي اليهودي جوزيف مزراحي الذي قام بقتل ثلاثة من الفلسطينيين، ودعت اللجنة فيما بعد إلى إضراب عام.^{٦٩}

استمرت المظاهرات رغم القمع، وتأثّر الاقتصاد الفلسطيني بشكل كبير؛ فعلى سبيل المثال ضحّى السوق المزدهم في مدينة طولكرم بتجارته المربحة التي كان يتردّد عليها زبائن من مناطق بعيدة (حتى

نجد والحجاز) من أجل الانضمام إلى الإضراب في ٢٦/٨/١٩٣٠.^{٧٠} هبة البراق كانت حركة المقاومة الشعبية وتعبئة الشارع العربي تضم جميع شرائح المجتمع في النضال. حتى المرأة، على الرغم أن المجتمع الفلسطيني مجتمع تقليدي أبوي، ولم تقتصر مقاومة المرأة فقط على القضايا التي تهّم النساء (الحقوق، والتمييز، والزواج القسري، وتنظيم الأسرة، ... الخ) ولكن أيضاً على قضايا الاستعمار والاحتلال. فقد حاولت جماعات مثل رابطة السيدات العربية الضغط من أجل الاستقلال وحق تقرير المصير. وتأسس الاتحاد النسائي العربي الفلسطيني في مدينة القدس العام ١٩٢١. وكان هناك العديد من الجمعيات النسائية الأخرى، بما في ذلك جمعية زهر الأقحوان التي تأسست في مدينة يافا العام ١٩٣٦، وجمعية تضامن المرأة التي تأسست العام ١٩٤٢.

عُقد أول مؤتمر للمرأة العربية الفلسطينية في ٢٦ تشرين الأول العام ١٩٢٩ في مدينة القدس، وضمّ نحو ٣٠٠ من النساء. وكانت المطالب هي نفس مطالب الشعب الفلسطيني عامّة: إلغاء وعد بلفور، وقف الاستعمار الصهيوني، حق تقرير المصير. وانتخب ١٤ عضواً للجنة التنفيذية برئاسة ماتيل مغنم.^{٧١} قامت مغنم بعد ذلك بتأليف كتاب حول المرأة العربية والمشكلة الفلسطينية.^{٧٢} وكانت النساء اللواتي شاركن في الاجتماع من مختلف الأطياف. وخلال اجتماعهنّ مع المفوض السامي البريطاني، قامت النساء المحجّبات "بخلع أحجبتهنّ عن وجوههنّ وقدّمن طلباتهن بلغة قوية".^{٧٣} حيث كان المفوض السير تشانسلر منبهراً بما رآه، ولكنّه ذكر أن "سلطته محدودة، وهناك بعض الأشياء يجب أن تقرّها وزارة الاستعمار.. [ولكن] أنا راض عن التقدم الذي تحرزه الحركة النسائية في فلسطين... وسأبذل قصارى جهدي للمساعدة في المجالات التعليمية للمرأة الفلسطينية حتى يمكنها الوصول إلى مكانها المناسب في المجتمع".^{٧٤} أُختتم المؤتمر بالخروج في موكب يتكوّن من ١٢٠ سيارة جاب شوارع المدينة القديمة في القدس، وأرسل برقية إلى الملكة ماري، جاء فيها:

"التقت مائتان من النساء المسلمات والمسيحيات العربيات الفلسطينيات في السادس والعشرين في مؤتمر القدس، وقررن بالإجماع الطلب وبذل كل جهد ممكن لتحقيق إلغاء وعد بلفور وإقامة

حكومة وطنية ديمقراطية ذات سلطة منبثقة عن البرلمان تمثل جميع الطوائف الفلسطينية، بما يتناسب مع أعدادهم. ونحن نرجو المساعدة في مطالبنا العادلة“.^{٧٥}

لقد كانت اللجنة التنفيذية للمرأة العربية نشيطة لسنوات عديدة، وكانت تقوم بتطوير أشكال جديدة من المقاومة الفلسطينية مثل الاحتجاجات الصامتة، ونشر الرسائل في الصحف الأجنبية، وتقديم الدعم المباشر لأولئك الذين يعانون من الاحتلال. وكان هناك أيضا جماعات لدعم الأسرى قامت بإرسال مئات الرسائل إلى الحكومة البريطانية، والصحف، ووسائل الإعلام، والزعماء العرب، والمنظمات النسائية الأخرى.^{٧٦} ولم تكن هذه الرسائل دون أي تأثير، فقد أسفرت رسائلهم حول السجناء السياسيين في السجون البريطانية إلى إصدار العفو عن ثلاثة من السجناء.^{٧٧}

ومن جانب آخر، فقد تم تشكيل حركة مقاومة مسلحة خلال خريف العام ١٩٢٩ في منطقة الجليل، كانت تدعى الكف الأخضر بقيادة أحمد طافش. ولم تدم عملياتها العسكرية ضد قوات الاحتلال البريطاني سوى فترة قصيرة قبل أن تتعرض الحركة لل سحق وقتل أعضائها أو أسرهم. وظل النموذج الرئيسي للمقاومة هو المظاهرات والاحتجاجات والعصيان المدني وغيرها من أشكال المقاومة الشعبية. وبالطبع، كانت هناك لا تزال المجموعة نفسها من النخب الذين كانوا يعتقدون أن أفضل طريقة هي أن تعمل داخل النظام، من أجل حمل كل من الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية على إعطائهم شيئا (وكان هذا يدعى بـ ”النهج البراغماتي“). ولكن الضغط المتزايد من أشكال المقاومة الشعبية أجبر الحكومة البريطانية والحركة الصهيونية على البحث عن حلول بديلة لتهدة الغضب العربي الآخذ بالصعود. فعلى سبيل المثال، أعطى بن غوريون الضوء الأخضر ليهودا ماغنوس (رئيس الجامعة العبرية ومؤيد لدولة ثنائية القومية) للسعي نحو حل. قام ماغنوس باستشارة العديد من القادة الفلسطينيين العرب، وخرج بفكرة تقاسم التمثيل في الحكومة مع توفير الحماية للأقليات. ولكن بن غوريون رفض تلك الفكرة، وأصر على أن الهدف هو أن تؤسس دولة ذات أغلبية يهودية. ومن أجل تهدئة المنتقدين، قام بتقديم عرض وهو أن يكون

هناك مجلس وزاري يتكوّن من ٩ أعضاء يحكمون فلسطين، وهم ثلاثة بريطانيين (لوزارة العدل والمالية والنقل/الاتصالات) وثلاثة يهود (التوطين والعمالة والهجرة)، وثلاثة من العرب (للتعليم والصحة والتجارة)، إلا أنّ هذا الحل -رغم تحيّزه للصهيونية- رُفِض من قبل قيادة ماباي الصهيونية.^{٧٨}

وبشكل منفصل سافر بعض الفلسطينيين إلى بريطانيا قبل شهرين من إصدار لجنة التحقيق تحت قيادة السير والتر شو تقريرها. وضغطوا على السلطات للاعتراف بالحقوق العربية، ولكنهم لم يصلوا إلى حد الدعوة بإنهاء الانتداب أو إلغاء وعد بلفور. وكان الرد على ذلك سلبياً، حيث أصرّت الحكومة على "التزامات" للوكالة اليهودية دون النظر إلى حقوق السكان الأصليين. وتوصّلت لجنة شو إلى قرار حول الأحداث التي وقعت العام ١٩٢٩ بأنّ المفتي كان له الحق في رفض التغييرات في حائط البراق/المبكى، وأنّه لم يحرّض على العنف. وأنّ العناصر الأخرى ولاسيّما التظاهرة اليهودية أمام حائط البراق والظروف السياسية السائدة، بما في ذلك التهديد الظاهر للحقوق العربية، قد شجّعت أعمال المقاومة بما في ذلك الأعمال العنيفة. وأشار التقرير أيضاً إلى "المشاكل" التي نشأت مثل طرد ١٥,٥٠٠ من القرويين من وادي الحوارث بعد نقل ملكية ٣٠ ألف دونم.^{٧٩} بعد ذلك تنفيذ إحدى توصيات لجنة شو عندما قامت الحكومة البريطانية بإجراء دراسة واسعة حول ملكية الأراضي واستخدامها في فلسطين. وقام الخبير العالمي السير جون هوب سمبسون بجولة في فلسطين في تموز وأب من العام ١٩٣٠، وقدم تقريراً أظهر فيه أنّ الصهاينة يملكون بالفعل ٦,٥٤٤,٠٠٠ دونم من الأراضي الصالحة للزراعة، أو ما نسبته ١٤٪ من هذه الأراضي، ولا يكاد الجزء المتبقي من الأرض يكفي لسد حاجات السكان المحليين. وبالتالي، استنتج أنّ الزيادة في الهجرة اليهودية غير محبّذة عملياً.^{٨٠}

قام رئيس الوزراء البريطاني رامزي مكدونالد بالتخفيف من مخاوف الحركة الصهيونية، وذلك بعد أيام فقط من صدور تقرير لجنة شو، وذلك في رسالة إلى وايزمان أشار فيها إلى أنّه لن يكون هناك أي تغيير في الالتزامات المنصوص عليها لليهود في ظل الانتداب البريطاني، بما في ذلك وعد بلفور. وأصبحت رسالته معروفة للعرب بالرسالة

السوداء (كانت رداً ومحاولة لإلغاء "الكتاب الأبيض" وهو تقرير لجنة شو). وقامت حكومة الانتداب بتوجيه جميع السلطات الإدارية للمساعدة في "إعادة بناء" سلطة ومصالح اليهود، وسمحت السلطات للمليشيات اليهودية بحمل السلاح "والدفاع" علناً عن المستوطنات الاستعمارية، حيث تم الاعتراف بالهاغاناة، وتم انضمام المزيد من اليهود في قوات الشرطة البريطانية. وبهذا سرعان ما تلاشى الأمل الضئيل للفلسطينيين بإمكانية العدالة.^{٨١}

عقد المؤتمر القروي العربي في مدينة يافا بين ٥-٦ تشرين الثاني العام ١٩٢٩، وأرسل المؤتمر رسالة موقعة من رئيسه عبد القادر شبل تطالب بإلغاء الضرائب "العشر" و"ويركو"، والاستعاضة عنها بفرض ضرائب جمركية بسيطة، وتطالب بتأسيس اتحاد الائتمان الزراعي، وغيرها من التدابير التي يمكن أن تخفف من الإفلاس المتزايد للمزارعين.^{٨٢} وفي بداية العام ١٩٣١، تم إنشاء صندوق وطني (صندوق الأمة) يعتمد في معظمه على مساعدات الفلسطينيين والعرب الآخرين داخل فلسطين وخارجها، وذلك بهدف مساعدة المزارعين المهدين بفقدان أراضيهم. وكانت السلطات البريطانية قد أغلقت البنك الذي يقدم قروضاً للمزارعين في بداية شهر آذار ١٩٢٠ بعد سيطرتها على فلسطين، ورفضت أية طلبات تدعو لفتح البنك مرة أخرى. وعقد اجتماع وطني في مدينة نابلس في ١٨ أيلول العام ١٩٣١ أعلن تأييده لمشروع الصندوق رسمياً، واعتبر يوم ١٦ حزيران العام ١٩٣٢ يوماً وطنياً لجمع التبرعات لإنقاذ الأراضي المهددة. ومع ذلك، فقد كان هذا الصندوق محدوداً للغاية، وكان تأثيره قليلاً جداً، حيث عمل مدة ٨ سنوات، وأنقذ بعض الأراضي في منطقتي بيت حنون، ولكن لم يكن مثل هذا الجهد الصغير مطابقاً لحجم المؤامرة الصهيونية البريطانية الهادفة لتجريد المزارعين من أراضيهم.^{٨٣}

انحسار الهبة والانهيال الاقتصادي

كانت المشاريع الصغيرة والاحتجاجات والمظاهرات ليست بمستوى مواجهة الكارثة التي يُحكيها التحالف البريطاني الصهيوني، والتي كانت تضرب فلسطين بقوة في فترة من الركود الاقتصادي العالمي.

فقد نمت الحركة الصهيونية كسلطة قوية وعدوانية، وبدأت تطلب المزيد من البريطانيين. في تشرين الثاني العام ١٩٣١، تم تبديل المفوض السامي بضغط من وايزمان، وفي ظل المشاكل الاقتصادية التي عمت بريطانيا والعالم. أصيبت القيادة الفلسطينية المحلية بخيبة أمل كبيرة إزاء نتائج استخدام المقاومة الشعبية فقط. وتنامى الغضب والنداءات للقيام بثورة مسلحة، ودعا مندوبون في اجتماع عقد في تموز العام ١٩٣١ في نابلس إلى بدء المقاومة المسلحة ضد البريطانيين والصهاينة على حد سواء. وقاموا بتشكيل لجنة لشراء الأسلحة، ولكن هذه اللجنة لم تفعل شيئاً. وفي السنوات القليلة اللاحقة بدأت بوادر أكثر تظهر في هذا الاتجاه، ذلك أنه بعد ٥٠ عاماً من المقاومة الشعبية البحتة بدأ التفكير في نموذج مختلط للمقاومة، لكن الحاج أمين الحسيني وأنصاره دعوا إلى استعمال الدبلوماسية ودعوا لعقد المؤتمر الإسلامي العام بين ٧-١٧ كانون الأول العام ١٩٣١، حيث حضره ١٤٥ من علماء المسلمين وزعماء من ٢٢ بلداً. وكان من الأفكار التي تبلورت في المؤتمر تشكيل جامعة إسلامية في مدينة القدس (كما تم تأسيس الجامعة العبرية) وتأسيس شركة زراعية لمساعدة الفلسطينيين الذين يعانون من الركود الاقتصادي من أجل إبقائهم في أراضيهم. لم يكن هناك تجسيد لأيّة خطوات عملية، فقد كان المؤتمر رمزياً إلى حد كبير، وتعزيزاً للوضع الشخصي لأمين الحسيني والقيادات الأخرى.^{٨٤} ولكن على هامش المؤتمر في منزل عوني عبد الهادي، تم حشد خمسين من المثقفين من قادة منظمة الفتاة العربية السابقة وأنصار الاستقلال. وتمخض عن هذا الاجتماع الذي عقد في ١٣ كانون الأول العام ١٩٣١، تشكيل الميثاق القومي العربي. وقد أكدت وثيقة الميثاق الوضع الإقليمي العربي للنضال من أجل فلسطين كنضال مشترك ضد الامبريالية، وتطور التجمع لاحقاً إلى حزب الاستقلال العام ١٩٣٣. هذا وقد أصبح انقسام القوميين العرب عن الإسلاميين سمة واضحة في النضال الفلسطيني حتى اليوم. وكانت مشاكل القوميين العرب كما هو الحال الآن هو التدخل من الخارج والتنافس بين القادة العرب (فعلى سبيل المثال، التنافس بين عائلة آل سعود والأسرة الهاشمية). ولكن كانت القوة تكمن في المطالب المبدئية التي لم يكن يرغب في اعتمادها الحاج أمين الحسيني وغيره من الذين ارتبطوا مع السلطات البريطانية في ذلك الوقت.^{٨٥}

ولد قائد القوميين العرب عوني عبد الهادي العام ١٨٨٩ في نابلس، وتلقّى تعليمه في بيروت واسطنبول وجامعة السوربون في باريس. وساعد في تنظيم المؤتمر القومي العربي الأول في باريس في العام ١٩١٣، وكان السكرتير الخاص للملك فيصل الأول في مؤتمر فرساي للسلام في العام ١٩١٩. كما كان عبد الهادي عضواً وأمين عام اللجنة العربية العليا التي تشكّلت في نيسان العام ١٩٣٦، والمسؤولة بشكل جزئي عن ثورة العام ١٩٣٦-٣٩. وقام عبد الهادي بتأسيس حزب الاستقلال كحزب سياسي، وطالب بإجراء تغييرات في اللجنة التنفيذية العربية لانتخاب أعضاء وزعماء شباب وجدد يؤيدون الوحدة العربية والاستقلال.^{٨٦} وحضر اجتماعات الحزب في ٢٤ شباط العام ١٩٣٣ و٢٦ آذار العام ١٩٣٣ أكثر من ٥٠٠ ناشط، وقد تمّ وضع خطط وأفكار من أجل إنهاء أي تعاون واستخدام اللاعنّف من أجل تحقيق أهداف الاستقلال.

وبعد وصول النازيين إلى السلطة في ألمانيا في آذار العام ١٩٣٣، بدأت نداءات من النظام النازي الجديد ومن الحركة الصهيونية لترحيل يهود أوروبا وتوطينهم في فلسطين. في العام ١٩٢٩، بلغ عدد المهاجرين اليهود إلى فلسطين حوالي ٥٠٠٠ مهاجر، وبحلول العام ١٩٣٣ بلغ أكثر من ٣٠ ألف مهاجر.^{٨٧} عبّر الفلسطينيون في مظاهرات حاشدة عن مشاعرهم ضد إقحامهم بمشاكل أوروبا. وخرجت مظاهرة نسائية تطالب بوضع حدّ للبرنامج الصهيوني يوم ١٥ نيسان العام ١٩٣٣، وألقيت خطابات حماسية من قبل نساء عربيات أمثال طرب عبد الهادي (التي كانت أيضاً ناشطة في حركة ضد الحجاب). وخرجت مظاهرة حاشدة في ١٣ أيلول العام ١٩٣٣ في مدينة القدس، كان يقودها قادة دينيون ومدنيون فلسطينيون دون طلب الإذن من قوات الاحتلال البريطاني، وامتدّت المظاهرات إلى مدن أخرى.^{٨٨}

وكان موسى كاظم الحسيني البالغ من العمر ٨٠ عاماً على رأس مسيرة احتجاج حاشدة "غير مرخص لها" في مدينة القدس في ١٣ تشرين الأول العام ١٩٣٣.^{٨٩} وقامت القوات البريطانية بفتح النار على سبعة آلاف من المتظاهرين، ما أسفر عن مقتل ١٢، وإصابة ٧٨ فلسطينياً (كما قتل شرطي واحد). بعد ذلك بأسبوعين، وفي ٢٧ تشرين الأول العام ١٩٣٣، لقي ٢٤ من المتظاهرين مصرعهم، وأصيب ٢٠٤ بجروح في

تظاهرة سلمية في مدينة يافا، وكان من بين المتظاهرين موسى كاظم الحسيني (٨٠ عاماً) الذي عومل بخشونة وبقسوة، ما زاد من غضب السّكان، وفي وقت لاحق، التقى هو واللجنة العربية العليا مع المفوض السامي البريطاني السير آرثر ووتشوب، وقام العجوز بشرح كيف أنّه يجب على القوات المتحضرة ألا تطلق النار على المدنيين العزل.^{٩٠}

ونتيجة لإشاعات أو أقوال حول تأجير أراض عربية في وادي الأردن لمدة ٩٩ سنة، وبيع أراضي قرب بحيرة الجولة العام ١٩٣٣، فقد قدّمت اعتراضات واحتجاجات من قِبَل أعضاء حزب الاستقلال إلى الملك عبد الله، وإلى السّوريين أيضاً، واستمرّت المظاهرات والاحتجاجات ضد البريطانيين أيضاً.^{٩١}

جاء قرار مفاجئ من المفوض السامي بإجراء انتخابات بلدية العام ١٩٣٤، ويرجع السبب في ذلك على الأرجح إلى أمّله في أنّ الانقسامات في القيادة العربية، والزيادة في أعداد اليهود قد تغيّر شكل المجالس البلدية في السبل التي تخدم مصالحه، وعلى الرغم من ذلك فازت القوى الوطنية في الانتخابات (التاريخ أعاد نفسه العام ١٩٧٦)، وفي بعض البلدات، قام المفوض السامي بتعيين رؤساء البلديات من المعارضة على الرغم من أنّ غالبية المنتخبين من الوطنيين.^{٩٢} وفي ١٢ أيار العام ١٩٣٤، عقد مؤتمر حول الوضع الضريبي في فلسطين في محاولة لحمل الحكومة على خفض الضرائب، وشملت ضرائب العشور (العشر ١٠٪ من الدخل الصافي للمزارعين)، وضريبة الويركو (وهي ضريبة إضافية خاصة تستخدمها الحكومة في الحالات الاستثنائية وحالات الطوارئ)، وبالإضافة إلى الحالة الاقتصادية الصعبة الناجمة عن زيادة الهجرة اليهودية تدهور الاقتصاد العالمي، ما أدّى إلى إفلاس العديد من الفلسطينيين، واضطّر كثير من المزارعين لبيع مساحات من أراضيهم للحركة الصهيونية.^{٩٣}

تجاهلت الحكومة الوضع المضطرب، واستمرّت في سياساتها القائمة على تشجيع الهجرة اليهودية ونقل ملكية الأراضي ودعم الوكالة الصهيونية/يشوف لإنشاء دولة إسرائيلية، وسحب البساط في آن واحد من تحت المزارع الفلسطيني. هذا، وفي صحيفة الدفاع يوم ١٥

كانون الثاني العام ١٩٣٥، كتب سامي السراج: ”دعونا يا عرب نعصي القوانين ولو لمرة واحدة. تعالوا أيها الكتاب ودعونا لمخالفة القوانين دون القلق بشأن النظام القانوني وما سيفعله بنا. ... يا أيها العربي ليس هناك ما يجبرك على شراء المنتجات من الأجانب، وبالتأكيد ليست من منتجات أعدائكم“.^{٩٤} وفي ٢٥ كانون الثاني من العام ١٩٣٥، عقد مؤتمر القضاة والعلماء المسلمين تحت قيادة أمين الحسيني، وأصدر قراراً يحظر بيع الأرض، والذين يخالفون ذلك يعتبرون منبوذين وحتى لا يسمح دفنهم في مقابر المسلمين.^{٩٥}

اقترح المفوض السامي مفهوم تشكيل المجلس التشريعي العام ١٩٣٥، بحيث يتكوّن من ٢٥ عضواً: خمسة من المسؤولين الحكوميين، ثمانية من المسلمين، سبعة من اليهود، ثلاثة من المسيحيين، واثنين من أصحاب المصالح التجارية. قبلت اللجنة العربية العليا هذا المقترح بعد المداورات، ولكن الحركة الصهيونية رفضت ذلك. وتراجعت الحكومة البريطانية عن هذا المخطط بعد مداورات في مجلس العموم (حيث كان للصهاينة صوتٌ قويٌّ/قوة ضاغطة).^{٩٦} مهد هذا الفشل لمزيد من التوتر. وبحلول العام ١٩٣٦، كان المشهد السياسي في فلسطين جاهزاً للثورة. وكان في السّاحة الفلسطينية بعض الأحزاب السياسية، وهي:^{٩٧}

حزب الاستقلال: ظهر على هامش المؤتمر الإسلامي العام ١٩٣١، وهو الحزب القومي العربي الرافض للاستعمار والحركة الصهيونية. كان أبرز قادته عوني عبد الهادي وصبحي الخضراء وأكرم ازعيتر والدكتور سليم سلامة وفهمي العبوشي.

حزب الدفاع: دعا هذا الحزب إلى التوجّه القومي العام، ولكنه تجنّب الدعوة إلى الوحدة العربية، حيث كان زعماءه يؤمنون أكثر بالمفاوضات للتوصل إلى حل تسوية مع القادة البريطانيين والصهاينة. كما كان له علاقات وثيقة مع العاهل الأردني الملك عبد الله. ضمّ هذا الحزب بعض الشخصيات المهمة مثل: راغب النشاشيبي، وفخري النشاشيبي، والشيخ أسعد الشقيري، وسليمان طوقان، وعادل الشوا، وغيرهم.

الحزب العربي: تأسّس هذا الحزب العام ١٩٣٥ على يد جمال الحسيني من أجل الدعوة إلى استقلال فلسطين والوحدة العربية. وكان بالأساس

خليفة لحزب الاستقلال، وأصبح هذا الحزب أكثر شعبية، وحظي بدعم كبير لوجود قادة يحظون باحترام كبير مثل الشيخ حسن أبو السعود، وفريد العنتاوي، والشيخ محمد الخطيب، ويوسف صهيون، وضاهر فرحان، وعبد الله سمارة، وكامل الدجاني، ويوسف العلمي، وآخرين.

مؤتمر الشباب: أنشئ هذا الحزب أصلاً كحركة شبابية في مدينة يافا العام ١٩٣٢، ولكنه تحول في وقت لاحق إلى حزب سياسي يمثل جميع الأعمار. وضع وسيلة مقاومة مدنية عملية بما في ذلك إنشاء صندوق للمساعدة في التنمية وتوظيف مجموعة من الحراس على طول السواحل لمنع تسلل المهاجرين الصهاينة داخل فلسطين، وتطوير حركة الكشافة في فلسطين. (حضر مؤتمره العام الثاني في أيار العام ١٩٣٥، ١٠٠٠ مندوب). وكان أبرز قادته يعقوب الغصين.

حزب الإصلاح: تأسس في ١٨ حزيران العام ١٩٣٥، وتبنى مبادئ مماثلة وفي نواح كثيرة كان خليفة للحزب العربي. تولى إدارة هذا الحزب ثلاثة أمناء متساوين وهم: الدكتور حسين فخري الخالدي (الذي انتخب رئيساً لبلدية القدس في انتخابات العام ١٩٣٤)، ومحمود أبو خضرة، وشبلي الجمال.

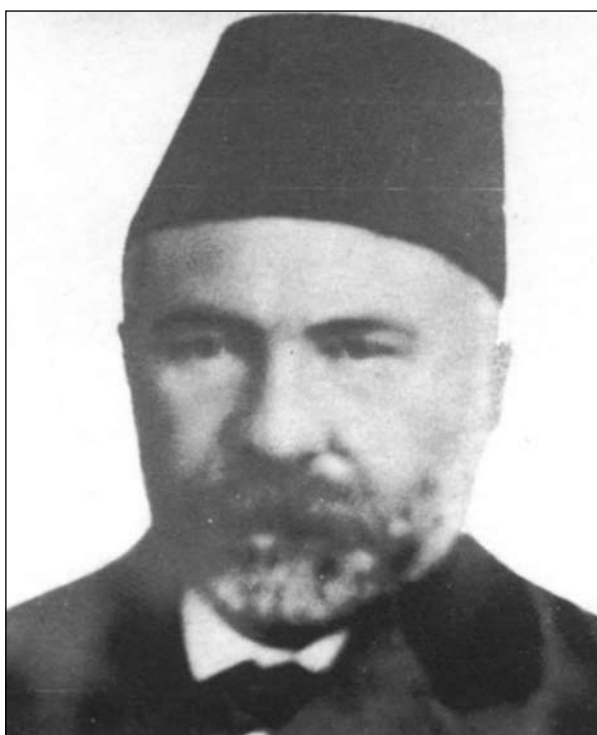
حزب الكتل الوطنية: تأسس في مدينة نابلس في ٤ تشرين الأول العام ١٩٣٥، وكان موقفه بين حزب الدفاع والحزب العربي، ودعا إلى الوحدة بين مختلف الأحزاب.

الحزب الشيوعي الفلسطيني: تعود جذور الحزب الشيوعي الفلسطيني إلى العام ١٩١٩ في شراكة مع الشيوعيين اليهود (والذين كانوا يؤمنون بالصهيونية). في العام ١٩٢٣، ابتعد عن الحركة الصهيونية واتجه أكثر نحو جدول الشيوعية الحقيقية (الماركسية).

جمعية العمال العرب: منذ العام ١٩٢٣، بدأ العمال العرب ينظمون أنفسهم كمنظمات في إطار نادي عمال سكة الحديد العرب، ولكن جوبهت محاولاتهم بشراسة من قبل الهستدروت والسلطات البريطانية، حيث سمحت الحكومة للعمال اليهود بالتنظيم، ولم تسمح بذلك للعمال العرب، بعد ذلك قدموا طلباً من أجل إنشاء جمعية العمال العرب، وبعد المزاوغة

تم قبول طلبهم في ٢١ آذار العام ١٩٢٥، وهو اليوم الذي أصبح يعرف فيما بعد باليوم الوطني للعمال العرب. من الجدير بالذكر أنّ من أبرز القادة العماليين في تلك الفترة كان ميشال متري، الذي قام بخطوات عدّة متحدّياً هيمنة الهستدروت، ولكن تم اغتياله في كانون الأول العام ١٩٣٦ لمشاركته في أعمال المقاومة الشعبية ضد الهيمنة الصهيونية.

لقد كانت هذه الأحزاب مُمثّلة في اللجنة العربية العليا، حيث أرسلت رسالة إلى السلطات البريطانية تطالب فيها بأن تُمثّل في حكومة ديمقراطية وفقاً لميثاق عصبة الأمم، وإلى المادة ٢ من إعلان الانتداب. وجاء الرد في ١٢ كانون الثاني العام ١٩٣٦ مكرراً رفض الحكومة البريطانية لهذه المطالب.^{٩٨} لقد كانت هذه الحقبة من تاريخ القضية الفلسطينية مقترنة بفشل المحاولات الرامية لتطوير الاكتفاء الذاتي الاقتصادي بين الأعوام من ٣١-٣٤، ويرجع هذا الفشل إلى عدم وجود رأس المال (مقارنة مع رأس المال الضخم المتاح للصهاينة)، وميل الحكومة البريطانية لمنح الامتيازات والمصالح الاقتصادية للصهاينة وغيرهم من الأجانب على حساب المواطنين الأصليين، وعدم المعرفة بالمشاريع الاقتصادية الحديثة، وعدم وجود ثقافة العمل المشترك. وأدّى الإحباط الذي أصاب الفلسطينيين من جهة، والضغط الصهيوني البريطاني على السكان الأصليين من جهة أخرى، وبعد أكثر من ١٥ عاماً من الاحتلال البريطاني، إلى قيام أول ثورة تشمل المقاومة المسلحة والمقاومة الشعبية.



حافظ عبد الهادي (١٨٧٢ - ١٩١٦)، باسيا



عيسى داوود العيسى، مؤسس مع ابن عمه جريدة فلسطين الأسبوعية في مدينة يافا ١٩١١ . باسيا



روحي الخالدي الباحث في وقت مبكر عن الصهيونية والمسؤول الفلسطيني
في الحكومة العثمانية. باسيا



موسى كاظم الحسيني. باسيا .



عبد القادر الحسيني (١٩٠٧ - ١٩٤٨) بآسيا



مظاهرة ٨/٣/١٩٢٠. مجموعة ماتسون

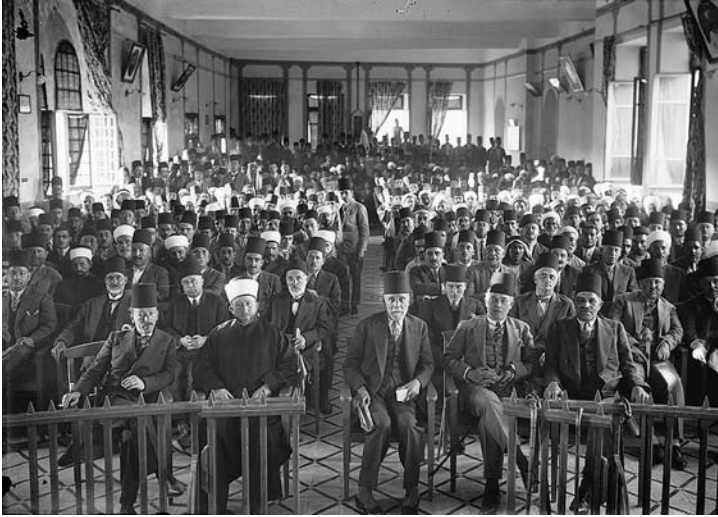


بيوت حداد بمناسبة زيارة اللورد بيلفور الى فلسطين. مجموعة ماتسون





عارف العارف بين بدو النقب .مجموعة ماتيسون



إجتماع في روضة المعارف لوجهاء فلسطين وقيادات المقاومة الشعبية في
عهد الإنتداب البريطاني ١٩٢٩ (ماتسون)



أول وفد يمثل المرأة الفلسطينية أثناء اجتماعه مع المندوب السامي البريطاني



أبو غوش ١٩٣٦



الحاج أمين الحسيني ومساعديه بعد إجتماع مع لجنة ١٩٣٧



بعض مسؤولي هيئة الإذاعة الفلسطينية ١٩٤٥/٥/١٥



إحتفالات عودة جمال الحسيني من المنفى ١٦/٢/٤٦



إحتفالات عودة جمال الحسيني من المنفى ١٦/٢/٤٦



مدارس بيتية للأطفال وقت إغلاق المدارس. بيت ساحور ١٩٨٩ (مركز التقارب)



فيصل الحسيني



متظاهرون فلسطينيون يحملون صور الأسرى (٢٠٠٥). أنا بالتيزر



عودة العائلات الفلسطينية الى قراهم ٢٠٠٧ التي دمرها الاحتلال الاسرائيلي خلال النكبة
وزرعت الكثير من الأشجار ، زيخروت (المجموعة الاسرائيلية ، تتذكر النكبة)



اقتلاع أشجار مزارع في صفا (٢٠٠٥)



راعية تستمر حتى بعد محاولة تسميم غنماتها



طالبات في المدارس الثانوية عند الذهاب والعودة من المدارس لكنهن مصمعات على مواصلة الدراسة



فتى فلسطيني يبني حاجز بنفسه لمنع دخول الجيئات الاسرائيلية الى قريته في تلك الليلة. ٢٠٠٤



أبو دیس ۲۰۰۵.



القرويون بالقرب من بلعين بمساعدة المتضامنين الدوليين يحاولون كسر جزء من الجدار المقام على أراضيهم. ٢٠٠٥

الفصل السابع

الثورة الفلسطينية الكبرى ١٩٣٦-١٩٣٩

”أولئك الذين يجعلون الثورة السلمية مستحيلة، يجعلون الثورة العنيفة لا مفر منها“.

(الرئيس الأمريكي جون فيتزجيرالد كينيدي قبل اغتياله)

مسببات الثورة

رأينا في الفصل السابق كيف أنّ السلطات البريطانية ساهمت في تقوية الصهيونية بين العامين ١٩١٩ و١٩٣٦ على حساب الشعب الأصلي الذي قاوم محققاً نجاحات محدودة ولكنها ملحوظة. مع ذلك، تسارع التحوّل في فلسطين في منتصف الثلاثينيات من القرن العشرين. وسيطرت الحركة الصهيونية على ما يقرب من مليون دونم من أفضل الأراضي الفلسطينية وتمت هذه السيطرة -في الغالب- من خلال نقل مباشر من السلطات البريطانية، أو عن طريق شرائها من أصحابها الغائبين الذين حصلوا على مبالغ كبيرة وفقاً لقوانين بريطانية غير عادلة كما ذكر في الفصل السابق. وهذه السياسة البريطانية أدّت إلى تشجيع الهجرة الاستعمارية وزيادة النسبة المئوية لليهود في فلسطين إلى ثلاثة أضعاف. بعد تدهور حالتهم الاقتصادية، ألقت الطبقات المتوسطة والفقيرة اللوم على النخبة الفلسطينية والمستوطنين اليهود واللوردات البريطانيين.

وهكذا جاءت الظروف مجتمعة للثورة، كما أوضحت، إذ أصبح عشرات الآلاف من الفلاحين الفلسطينيين بلا مأوى ومُعْدمين بسبب

هذه السياسات. وكانت سياسة الصهاينة تمنع العمل للنازحين من الفلاحين، وهكذا اندمجت سياسة "العمالة اليهودية فقط" في المؤسسات والشركات التي استولت عليها الصهيونية مع السياسة البريطانية بإعطاء جميع الامتيازات الصناعية بشكل أساسي إلى الرأسماليين الصهاينة اليهود، ونقل أكثر من ٩٠٪ من القاعدة الصناعية في فلسطين (رأس المال والعمالة) إلى أيدي اليهود والصهيونية بحلول العام ١٩٣٧. وهذا أدى إلى تباين أوفارق كبير في توافر فرص العمل، وأصبح واضحاً في هيكل الأجور.^١ وزاد الوضع اضطراباً تدهور الوضع الاقتصادي في جميع أنحاء العالم في أوائل الثلاثينيات من القرن العشرين، وظهور علامات واضحة على النوايا الصهيونية للسيطرة على البلاد بالقوة.

أصيب الفلسطينيون بالإحباط لعدم استجابة البريطانيين لمطالبهم العادلة. وكان المجتمع الفلسطيني قليل الخبرة في الطرق الغربية، وغير قادر على التعامل مع الحملات التي كانت تشنها حركة الاستيطان اليهودية المنظمة. ولكن الساحة السياسية المحلية شملت تنظيمات فلسطينية مهمة كما ذكرنا وإعلاماً نابضاً بالحياة، وتصعيد المواجهات مع القوات البريطانية في العامين ١٩٣٤ و ١٩٣٥ تم احتواؤه بالقوة، ولكن كان الغضب يغلي ويتفاقم. وبذلك كانت الظروف مهيأة لنشوب انتفاضة على الرغم من عدم وضوح كيف يمكن أن تبدأ ومن يقودها. في ١٦ تشرين الأول ١٩٣٥ سقط برميل مكتوب عليه "أسمنت" عندما كان العمال العرب يقومون بتفريغ حمولة سفينة في ميناء يافا، الأمر الذي أدى إلى الكشف عن وجود أسلحة وقنابل يدوية وذخيرة. زاد الكشف عن الشحنات السرية للميليشيات الإرهابية الصهيونية السرية من الغضب الفلسطيني، وأوضح ذلك للجميع حجم المؤامرة الصهيونية. هذا ولم تعر السلطة البريطانية أي اهتمام جدّي تجاه تهريب الأسلحة غير القانونية، وبدلاً من ذلك استمرت بريطانيا بسياساتها المدمرة.^٢

ما تسبّب في سلسلة من الأحداث التي أدّت إلى انتفاضة كاملة بين العامين ١٩٣٦-١٩٣٩ هو موضع جدل. إذ أنّ البعض يرجع ذلك إلى هذا الحدث العرّضي في ميناء يافا، في حين أنّ آخرين يرجعون ذلك إلى قمع مظاهرة حدثت في ٢ تشرين الثاني سنة ١٩٣٥ في الذكرى السنوية لوعد بلفور.^٣ ونوّه آخرون إلى أنّ الاستيلاء على الأرض التابعة لمدرسة

طولكرم الزراعية لاستخدام اليهود كان حدثاً محورياً. ينوّه أكرم زعيتر (رئيس التحرير السابق لجريدة مرآة الشرق في القدس، وفيما بعد كان أحد مؤسسي حزب الاستقلال) أنّ ١٧ من تشرين الثاني العام ١٩٣٥ كان السبب الرئيسي، لأنه تمّ قمع المظاهرات التي تلت عودة المفوض الملكي من زيارة إلى انكلترا حاملاً معه المزيد من الدعم للصهاينة.^٤ ومما يجدر ذكره أنّ زعيتر ترك مهنة التدريس في مدينة عكا وعمره عشرة عشر عاماً، ليصبح محرراً وناشطاً سياسياً، وتمّ إلقاء القبض عليه وحبسه مدّة ثلاثة شهور، ثمّ ترحيله في وقت لاحق إلى مدينة نابلس، حيث كثّف عمله ضد الاحتلال البريطاني.^٥

هذا ووصف المؤرخ جورج أنطونيوس الذي كان يعمل موظفاً مدنياً بريطانياً واستقال العام ١٩٣٠ احتجاجاً على السياسات البريطانية في فلسطين،^٦ وصف الثورة في كتابه المبدع الصحوة العربية:

”الثورة اليوم هي، إلى حدّ أكبر من أي وقت مضى، ثورة القرويين، والسبب المباشر وراءها هو المخطط المقترح للتقسيم، وبوجه أخص ذلك الجانب الذي يرمي في نهاية المطاف إلى نزوح عدد كبير من الفلاحين العرب من أجل إفساح المجال للمهاجرين اليهود للقدوم إلى الدولة اليهودية المقترحة. إنّ الأرواح المحركة للثورة ليست من القادة الوطنيين، فمعظم هؤلاء الآن في المنفى، ولكنها من الطبقات العاملة والزراعية الذين يخاطرون بحياتهم في ما يعتقدون أنّه السبيل الوحيد الذي تبقى لهم لحماية منازلهم وقراهم. من الوهم أن نعتبرها عمل محرضين سواء عرب أو أجانب. إذ أنّ التحريض السياسي يمكن أن يفعل الكثير من أجل تأجيج نيران السخط، ولكنه لا يستطيع أن يبقى ثورة نشطة شهراً بعد شهر في ظروف عنف ومعاناة. بعيداً عن كونها مدبرة من قبل قادة، فإنه من الواضح أن الثورة هي تحدّ لسلطتهم ولائحة اتهام لأساليبهم“.^٧

دعت القيادة المحلية في مدينة نابلس في الثالث عشر من تشرين الثاني ١٩٣٥ إلى الإضراب في جميع أنحاء البلاد، حتّى عندما صوّت معظم قيادات الفصائل السياسية ضد الإضراب. وفي ٩ كانون الأول ١٩٣٥ عقدت اجتماعات للتخطيط والتجمّعات الشعبية لإحياء الذكرى السنوية للاحتلال البريطاني لمدينة القدس. هكذا نمت الثورة. واندلعت مظاهرة

حاشدة في حيفا في ٥ كانون الثاني من العام ١٩٣٦ في اليوم الأربعين لوفاة الزعيم الفلسطيني الشيخ عز الدين القسام ورفاقه، وقتل اثنان من المزارعين الفلسطينيين (حسن أبو راس وسالم المصري) في ١٧ نيسان من العام ١٩٣٦ على يد الصهاينة في بيارة برتقال بالقرب من نهر العوجا. وتدهورت الأوضاع مع الحديث عن حوادث أخرى في الـ ٤٨ ساعة اللاحقة. بعد ذلك بيومين، واجهت السلطات مظاهرة غاضبة في شوارع مدينة يافا، تحولت إلى أعمال شغب، حيث لقي بعض الصهاينة مصرعهم فيها.

هذا ودعا القادة الفلسطينيون في اجتماع في ٢٠ نيسان ١٩٣٦ إلى إضراب عام ومفتوح، مستوحى من نجاح ٤٥ يوماً من الإضراب في سوريا، الذي نجح في إجبار الفرنسيين على الموافقة على مطالبهم. بعد الضغط الشعبي، وفي ٢١ من نيسان ١٩٣٦، أعلنت الفصائل السياسية دعمها للإضراب، ووافقت على سياسة عدم التعاون، ويشمل ذلك أشكال المقاومة الشعبية. عندها، قام هؤلاء القادة السياسيون بعقد مؤتمر في القدس في ٢٥ نيسان العام ١٩٣٦ برئاسة الحاج أمين الحسيني، وقام الناشطون الشبان بمحاصرة المبنى، وطالبوا محافظ القدس (حسين فخري الخالدي) بالخروج والرد بشكل عملي وعلني على رئيس بلدية تل أبيب دوزينغوف (الذي أعلن أنّ اليهود يريدون سلاماً ولكنهم يواجهون أمة "من الإجرام والقسوة"). ولم يخرج الخالدي في البداية، وخرج الناشيبي، وردّ على أقوال دوزينغوف. ومع ذلك، لم يكن الشباب راضين حتى عندما خرج الحاج أمين الحسيني وتحدّث. وبعد ذلك خرج الخالدي واستنكر تعليقات رئيس بلدية تل أبيب العنصرية.^٨ في اليوم نفسه، أدّى الضغط الجماهيري على هذه الأحزاب إلى تشكيل اللجنة العربية العليا. هذا التشكيل شمل أشخاصاً وأحزاباً متنافسة تحت مظلة واحدة (ممثلة لمنظمة التحرير الفلسطينية في السبعينيات): جمال الحسيني، وألفرد روك من الحزب العربي، راغب الناشيبي ويعقوب فراج من حزب الدفاع، عوني عبد الهادي وأحمد حلمي من حزب الاستقلال، الدكتور حسين فخري الخالدي من التحالف القومي (الكتلة)، عبد اللطيف صلاح من حزب الإصلاح، ويعقوب الغصين من مؤتمر الشباب.^٩

وفي استجابة للنداء المتزايد للمقاومة الشعبية، دعت "لجنة السائقين وأصحاب السيارات العرب" التي تمثل المئات، في نداء في أواخر نيسان العام ١٩٣٦، إلى تشجيع المواطنين على عدم دفع الضرائب.^{١٠} وانتشرت ثورة الضرائب، وقامت اللجنة العربية العليا بتبني هذا النداء. وفي ٥ أيار العام ١٩٣٦، التقى المندوب السامي البريطاني مع اللجنة، وحذرهم من عواقب قانونية وغيرها إذا استمروا في الإضراب وعدم دفع الضرائب، وغيرها من أعمال المقاومة الشعبية. وفي ٧ أيار العام ١٩٣٦، عقد اجتماع في كلية روضة المعارف في القدس حضره ١٥٠ مندوباً يمثلون جميع قطاعات السكان، وصوّتت الغالبية الساحقة في هذا الاجتماع على مواصلة الإضرابات والمظاهرات حتى تتم الاستجابة لمطالبهم. وطالب المجتمعون أيضاً بوقف الهجرة الصهيونية والاستعمار، وحظر نقل ملكية الأراضي الفلسطينية للصهاينة الأوروبيين، وإقامة حكومة ديمقراطية. ورفع المجتمعون شعار (لا ضرائب دون تمثيل) وحدث هذا للمرة الأولى في فلسطين.^{١١}

وقد عقد مؤتمر اللجان القومية في القدس في اليوم التالي، وأعلن أنه اعتباراً من الخامس عشر من أيار، ينبغي على الناس التوقف عن دفع الضرائب حتى يتم تنفيذ مطالب الشعب الفلسطيني. وتشكلت اللجان القومية في العديد من المدن لتعزيز الإضراب وتطوير أشكال أخرى من المقاومة اللاعنفية، ولجان الإسعاف لخدمة المحتاجين.^{١٢} وقامت لجان الدعم المحلية بعلاج المرضى ورعاية المحتاجين وتقديم الدعم للعائلات الذين اعتقلوا أو جرحوا أو قتلوا. وقد ساعد الناس بعضهم البعض لجعل انتفاضة ١٩٣٦ عملاً حقيقياً على المستوى الجماهيري. وفعلاً، كان الإضراب ناجحاً، ما جعل البريطانيين يعترفون في تقاريرهم بأنه كان مذهلاً وفعالاً وناجحاً.^{١٣} ولقد أعاد التاريخ نفسه في انتفاضة العام ١٩٨٧ كما سنرى في الفصل الحادي عشر.

ونُظمت مظاهرات في جميع أنحاء فلسطين بعد صلاة الجمعة في الموعد المعلن لها في ١٥ أيار العام ١٩٣٦، حيث فتحت القوات البريطانية النار على المتظاهرين في واحدة من المظاهرات الكبيرة في يافا، فقتلت وجرحت العديد منهم. وعندما ذهب شكاوى السكان حول وحشية رد القوات البريطانية أدراج الرياح، قرّر الشباب تشكيل حماية خاصة، حيث انتخب

سكان يافا خمسة عشر شاباً لهذا الغرض، أطلق عليهم اسم ”الحرس الوطني“، واعتبر هذا الحدث بداية حركة شبابية فعّالة في فلسطين.

الحاج أمين الحسيني

ولد أمين الحسيني في القدس العام ١٨٩٥، ودرس القانون الديني في جامعة الأزهر في القاهرة، وفي كلية اسطنبول للإدارة، ولكن لم ينه دراسته مثله مثل الكثير من الفلسطينيين، وتمّ تجنيده في الجيش العثماني في الحرب العالمية الأولى. اتهمه البريطانيون بالمشاركة وقيادة المظاهرات التي اندلعت العام ١٩٢٠ وحكم عليه غيابياً. بعد ذلك صدر عفو عنه من قبل المفوض السامي، وعاد في آب العام ١٩٢٠ إلى القدس. وعيّنه المفوض السامي في منصبٍ أنشئ حديثاً وهو ”المفتي العام للقدس“ في ٨ أيار من العام ١٩٢١. ترأس الوفد الفلسطيني الأول إلى لندن العام ١٩٢١، وعُين رئيساً لأول مجلس إسلامي أعلى في شهر آذار ١٩٢٢ (أقرب ما يكون إلى هيئة من الممثلين الفلسطينيين في ذلك الوقت). ترأس أيضاً الوفد الفلسطيني إلى لندن العام ١٩٣٠، وانتخب رئيساً للجنة العربية العليا التي شكّلت في ٢٥ نيسان العام ١٩٣٦. كان دبلوماسياً حذراً ونجح في إدارة مصالح مختلفة ليبقى مسيطراً على زمام الأمور. ولكن ليس من الصعب أن تجد أنه أدلى ببيانات متباينة حسب الظروف، فتارةً نجده ضد ”التحريض“ وضد أي عنف ضد البريطانيين، وتارةً نجده شديد اللهجة مع البريطانيين استجابة للضغط الشعبي. اعتبرته بريطانيا حليفاً مهماً لها لسنوات عدة. ولم يفعل الحسيني الكثير من أجل الانتفاضة التي كانت ثورة شعبية عفوية.^{١٤}

هرب الحسيني إلى لبنان بعد أن لُوحق من قبل السلطات، ثم انتقل إلى العراق وإيطاليا وألمانيا. وتمشياً مع براغماتيته العادية، بحث عن حلفاء أينما كانوا طالما بقي هو في مركز قوة. لذلك سعى إلى حشد التأييد من عدو بريطانيا وهي ألمانيا. أراد هتلر من الحسيني مساعدته في جهود الدعاية لقوى المحور بين المسلمين في بوسنيا. وأراد الحسيني من هتلر مساعدته على استعادة سلطته السياسية واستقلال فلسطين إذا فازت ألمانيا في الحرب. ولا يزال الصهاينة حتى الآن يحاولون تشويه القضية الفلسطينية بربطها ببقاء الحسيني مع هتلر، فعلى سبيل المثال

يصّر وزير الخارجية الإسرائيلي (أفيغدور ليبرمان) على استخدام صورة لهذا الاجتماع الذي عقد في ثلاثينيات القرن الماضي في جميع السفارات والقنصليات الإسرائيلية في الخارج. خلافا لتوقعات الحسيني، لم تقم ألمانيا النازية بتقديم الدعم لفلسطين. في واقع الأمر كانت ألمانيا آنذاك تتعاون مع القيادة الصهيونية.^{١٥} وعلى الرغم من تدني سمعة أمين الحسيني، كان لا يزال الرئيس المنتخب للهيئة العربية العليا التنفيذية (اللجنة العليا الرابعة التابعة لجامعة الدول العربية)، وتم تعيينه قائداً محلياً لجماعة الإخوان المسلمين المتواجدة في مدينة القدس في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين. في وقت لاحق، تم تعيينه رئيساً للجمعية الوطنية (المعروفة باسم حكومة عموم فلسطين) التي شكلها مؤتمر اللجنة العربية العليا بتاريخ ١ تشرين الأول ١٩٤٨ في قطاع غزة. كانت التجربة قصيرة في القيادة الفلسطينية المستقلة سنة ١٩٤٨ (أنهت بقرار من حكومتي الأردن ومصر). بعد النكبة، بقي الحسيني مهمّشاً على الرغم من أن العديد من الفلسطينيين أيّدوه، وتوفي في ٥ تموز ١٩٧٤ في بيروت.^{١٦}

نتيجةً للمقاومة المتنامية، قامت سلطات الاحتلال بإعلان حالة الطوارئ، وحظر عام للتجول، وتدابير صارمة ضد أية اضطرابات. وفرضت غرامات على القرى والبلدات التي رفض سكانها دفع الضرائب، وصودرت ممتلكاتهم الشخصية، ودمّرت منازلهم. وزجّ في السجون المئات من منظمي الإضراب. وفي ١٧ أيار ١٩٣٦، أعلن الأسرى في نور شمس (الواقعة على بعد ٣ كم شرق طولكرم، والتي تحوّلت إلى مخيم للاجئين بعد العام ١٩٤٨) إضراباً، وقاموا بمواجهة حراس السجن. ونتيجة لذلك، أمر مأمور السجن السيد غراند جنوده بإطلاق النار، واستشهد سجين وجرح عدد آخر. كان الأسرى يرددون عبارة "الشهادة أفضل من السجن".^{١٧} وتم إلقاء القبض على عوني عبد الهادي الأمين العام للجنة العربية العليا بتاريخ ٢٣ أيار ١٩٣٦.

واستمرّت السلطات البريطانية في تجاهل مطالب الحركة المتنامية، لا بل وافقت على جلب الآلاف من المهاجرين الجدد. وافتتح ميناء جديد في تل أبيب يديره العمال الصهاينة ليحل محل ميناء يافا. ونتيجة لذلك، زاد السكان المحليون من مقاومتهم. ففي ١٨ أيار، حضر الآلاف

من الفلسطينيين من عشرات القرى والبلدات الفلسطينية إلى قرية أبو غوش غرب القدس، وساروا في مظاهرة سلمية. ويوم الجمعة ٢٣ أيار ١٩٣٦، استخدمت السلطات البريطانية الذخيرة الحية ضد المتظاهرين في نابلس، ما أسفر عن استشهاد أربعة فلسطينيين، وهم: حسني حماد، وبكر عيسى، وفوزي الطاهر، وشخص آخر مجهول الهوية.^{١٨}

دعا رئيس بلدية يافا عاصم بيك السعيد إلى عقد اجتماع لرؤساء البلديات. وعقد الاجتماع في مدينة رام الله يوم ٣٠ أيار العام ١٩٣٦ وتوصل المجتمعون إلى تأييد الإضرابات ودعمها. وكانت المرة الأولى في تاريخ فلسطين التي تشارك فيها البلديات في أعمال جماعية. واتسعت رقعة الإضرابات لتشمل الطلاب والقيادات الدينية و ١٥٠٠ بحار وعمال ميناء في مرفأ يافا. وأدت الإضرابات إلى شلل شبه كامل في الأعمال والتجارة وغيرها من جوانب الحياة العادية.^{١٩}

المقاومة المسلحة في ثلاثينيات القرن العشرين

منذ وصول القائد الشيخ عز الدين القسام إلى حيفا في الخامس من شباط العام ١٩٢٢، عمل مع شرائح المجتمع الفقيرة والمهمشة، وبخاصة المزارعين الذين نزحوا بسبب تغيير قوانين الأراضي لصالح الحركة الصهيونية، وزاد هذا من إيمانه بأن الصهاينة فعلاً كانوا ينوون فرض سيطرتهم، وأنه ينبغي أن تكون المقاومة المسلحة لهذه الخطط مقترنة مع العمل السياسي والإعلامي. ورفض أمين الحسيني هذه الدعوات للمقاومة المسلحة، وفضل اللجوء إلى الأعمال السياسية والمظاهرات. أعلن الشيخ عز الدين القسام وعدد قليل من أصدقائه تشكيل مجموعة سميت بـ "الكف الأسود" لمقاومة الاحتلال في ذكرى وعد بلفور بتاريخ ٢ تشرين الثاني العام ١٩٣٥. وقام ما يقرب من ٤٠٠ من القوات البريطانية بمحاصرة مجموعة صغيرة من مقاتلي الحركة في أحراج يعبد بالقرب من مدينة جنين يوم الاثنين ٢٠ تشرين الثاني ١٩٣٥، وطلبت منهم الاستسلام. ولكن الشيخ عز الدين ورفاقه قرروا مواصلة القتال والاستشهاد. استششهد الشيخ عز الدين القسام وأربعة آخرون هم الشيخ يوسف عبد الله، ومصطفى الزيباوي، وحفي عطيّة أحمد، وحمد أبو قاسم خلف، وأصيب آخرون بجروح، وألقي القبض على البعض الآخر

(بما في ذلك الشيخ نمر السعدي، ونجت مجموعة أخرى بأعجوبة تحت قيادة الشيخ فرحان السعدي).^{٢٠} حضر أكثر من ٥٠٠٠ شخص جنازة الشهداء، وفتح الجنود البريطانيون النار على الحشد. هذا وأُخرجت موجة الحزن الشعبي الزعماء التقليديين، بمن فيهم أمين الحسيني الذي لم تكن علاقته جيدة مع القسام.^{٢١} عبّر المؤرخ إميل توما عن اعتقاده بأن حركة الكف الأسود حوّلت النضال الفلسطيني من حقبة من المظاهرات وأعمال العصيان والاحتجاجات إلى عصر المقاومة المسلحة.^{٢٢}

أمضى موسى كاظم الحسيني نصف حياته في مقاومة الانتداب البريطاني بالطرق السلمية، وأسس نجله عبد القادر البالغ من العمر ٢٤ عاماً "الجهاد المقدّس" سنة ١٩٣١ لمحاربة الانتداب البريطاني، وذلك من خلال مزيج من الأعمال السلمية والمقاومة المسلحة، حيث قام بتنظيم مؤتمر من المثقفين المسلمين للمطالبة بالمساواة والعدالة، ومن ناحية أخرى كانت هناك مجموعة صغيرة من مقاتلي حرب العصابات قد بدأت العمل على إيجاد ممر من يافا إلى نابلس. فعلى سبيل المثال، نشبت معارك بين هؤلاء الثوار والسلطات البريطانية في جبل النار (منطقة نابلس) وفي أماكن أخرى بتاريخ ٢٥ نيسان من العام ١٩٣٦. وأصبح عبد القادر قائداً لمنطقة القدس وتم نفيه العام ١٩٣٨، ولكنه عاد سرّاً ومن ثم استشهد في هجوم صهيوني على قرية القسطل (قضاء القدس) في ٨ نيسان ١٩٤٨.

بحلول أيلول من العام ١٩٣٦، قامت مجموعات بحشد تأييد للمقاومة المسلحة تحت قيادة فوزي الدين القاوقجي. في ذروة هذه المقاومة ضُمّت المقاومة المسلحة بين ٥٠٠٠-٨٠٠٠ فلسطيني تقريباً.^{٢٣} أنهيت المقاومة المسلحة وأنهى الإضراب على حد سواء تلبية لنداء من قادة الدول العربية بتاريخ ١٢ تشرين الثاني من العام ١٩٣٦. كان هذا النداء مدعوماً من اللجنة العربية العليا (التي كانت تقود المقاومة الشعبية) والقاوقجي.^{٢٤} ولكن كان من الواضح أنّ الانتفاضة ليست صنبوراً يمكن تشغيله أو إيقافه عن طريق الإعلانات. لذلك استمرّت المقاومة ولكن بشكل متقطع. وفاضت المشاعر نتيجة فشل الحكومة البريطانية في عمل أي شيء ذي معنى لحماية حقوق السكان الأصليين، وبخاصة بعد خطط التقسيم العام ١٩٣٧.

تصاعدت المقاومة خلال الفترة من تشرين الأول العام ١٩٣٧ وأوائل العام ١٩٣٩. ففي ٩ أيلول العام ١٩٣٩، استولى المقاتلون على المرافق الحكومية في بئر السبع، وأخلوا سبيل سجناء سياسيين من السجن المركزي. وفي حدث مماثل، سيطر المقاتلون على طبريا بتاريخ ٤ تشرين الثاني من العام ١٩٣٨. وبعد بضعة أيام سيطر الثوار سيطرة تامة على مدينة القدس القديمة.^{٢٥} ووفقاً للإحصاءات الحكومية الرسمية قام الثوار بـ ٤٩٦٩ عملية العام ١٩٣٨. هذا وقد استخدمت القوات البريطانية تكتيكات عديدة في محاولة لإخماد الثورة، وتركزت تلك التكتيكات على استخدام واسع النطاق لأشكال العقاب الجماعي المحظورة بموجب القانون الدولي. فعلى سبيل المثال، تم في ٢٨ تموز العام ١٩٣٧ هدم جميع المنازل في قرية باقة الغربية، والبالغ عددها ٩٣ بيتاً، وتم تدمير أراضي القرية ومحاصيلها.^{٢٦}

كان في فلسطين حوالي ٢٠٠٠ جندي بريطاني قبل شهر نيسان ١٩٣٦، وبحلول العام ١٩٣٨ ازداد العدد ليصل إلى ٢٥،٠٠٠ جندي. وأصبح نظام فرض حظر التجول ولفترات طويلة أمراً عادياً. وفرضت أيضاً غرامات على المدن والبلدات الفلسطينية من أجل دفع التعويضات عن أي ضرر ينتج عن عمل الثوار في المنطقة. واستخدمت القوات البريطانية الفلسطينيين دروعاً بشرية، وأرسلت مخربين للقيام بعمليات مزيفة من أجل إلقاء اللوم على الثوار. وتجدر الإشارة إلى أن جميع هذه التكتيكات استخدمت من قبل القوات الإسرائيلية بعد خمسين عاماً.

.. واستمرت المقاومة الشعبية

لقد شملت أشكال المقاومة المظاهرات والمقاطعة والتمرد على الضرائب وغيرها من أشكال العصيان المدني. وكانت هناك أيضاً مئات الهجمات على خطوط السكك الحديدية، وتدمير مباني المستوطنين والمباني الحكومية وغيرها من البنية التحتية. هذا وقد وصفت كل من الصهيونية والقيادة البريطانية مثل هذه الأفعال باستخدام مصطلحات مثل "إجرامية"، و"خارجة عن القانون"، و"بلطجية" و"تخريبية". واستفادت الحركة الصهيونية من ذلك بحمل القوات البريطانية على تدريب الميليشيات الصهيونية وتسليحها من أجل

”الدفاع“ عن المستعمرات اليهودية. واتخذت السلطات البريطانية خطوات جذرية لإخماد الثورة الفلسطينية السلمية وغير السلمية على حد سواء. وكان أسوأ ما في هذه التدابير لكثير من الفلسطينيين هو العقاب الجماعي، وذلك من خلال هدم مئات المنازل في مدن مثل نابلس، وبيت لحم، والخليل، واللد، وصفد، والمجدل، وقلقيلية. وفي صباح يوم الثامن عشر من حزيران العام ١٩٣٦، قامت السلطات بهدم جزء كبير من البلدة القديمة في يافا، مسببة تشريد ٦٠٠٠ من سكانها وتركهم بلا مأوى.^{٢٧} وقام أحد الفلسطينيين المتضررين برفع دعوى قضائية، وحكم قاضي العدل البريطاني السير مايكل ماكدونيل بأن عمليات الهدم تمت بالفعل بصورة مفرطة وغير قانونية. وقام الناشطون الفلسطينيون بطباعة الحكم وتوزيع آلاف النسخ منه على الجنود البريطانيين.^{٢٨}

وفي ١٠ حزيران من العام ١٩٣٦، غادر وفد فلسطيني ضم جمال الحسيني، وجمال شبلي، وإميل الغوري، والدكتور عزت طنوس إلى لندن، لمناقشة الاضطرابات التي جرت مع المسؤولين البريطانيين. وفي حين فشل الوفد في إقناع الحكومة، فقد نجح في تأسيس مجموعة برلمانية بريطانية تدعم القضية الفلسطينية العادلة، وافتتح المركز العربي في لندن، حيث كان أول مركز اتصال وإعلام يوازي آلة الدعاية الصهيونية المترسّخة.^{٢٩} ولكن على أرض الواقع، استمرت عمليات القمع في فلسطين، وقامت السلطات البريطانية بطرد الموظفين الفلسطينيين الذين أبدوا مشاعر وطنية. فمثلاً، تم إقصاء إبراهيم طوقان من منصبه كرئيس للقسم العربي في إذاعة صوت فلسطين، وذلك بسبب بث برامج تدعم حق تقرير المصير.

طرح حكمة الاحتلال فكرة تقسيم فلسطين ”كحل“ معقول للمشكلة التي خلقتها. توصيات لجنة بيل في تموز العام ١٩٣٧ تنصّ على إعطاء أفضل الأراضي الخصبة فضلاً عن حيفا وعكا للدولة اليهودية.^{٣٠} وعارض معظم الأحزاب والشخصيات السياسية الفلسطينية هذه الفكرة بشدة، بما في ذلك الاعتراض الملحوظ من قبل حزب الدفاع الوطني الذي يرأسه ”المعتدل“ راغب النشاشيبي. توضّح هذه وغيرها من الأمثلة إمكانية تغيير سياسات المسؤولين بانتفاضة شعبية.

الثورة الكبرى بدأت تتلاشى بحلول ٢٧ أيلول من العام ١٩٣٧. وأعلنت السلطات أن اللجنة العربية العليا وجميع اللجان الوطنية العربية هي "جمعيات غير مشروعة". وقامت سلطات الانتداب باعتقال العديد من الثوار، وأُعدم بعضهم، وتم إبعاد آخرين إلى جزر سيشل.^{٣١} بحلول العام ١٩٣٨، عادت الحياة إلى ما وصف بـ "الوضع الطبيعي" وهو الوضع غير الطبيعي للاحتلال البريطاني والاستيطان الصهيوني. واستمرت أنشطة متفرقة للمقاومة ولكن غير ممنهجة. فعلى سبيل المثال، عُقد مؤتمر المرأة العربية لدعم كفاح الشعب الفلسطيني في مصر في ٢٨ تشرين الأول العام ١٩٣٨، وكان هناك وجود فلسطيني بارز بقيادة طرب عبد الهادي.^{٣٢}

دفع الفلسطينيون ثمناً باهظاً لانتفاضة العام ١٩٣٦ من خسائر مادية وبشرية. وفي السنة الأولى من الانتفاضة، قتل حوالي ١٠٠٠ فلسطيني، أكثر من نصفهم من العزل الذين لم يحملوا السلاح. وبنهاية الانتفاضة لقي أكثر من ٥٠٠٠ فلسطيني مصرعهم وأصيب آلاف آخرون (وهذا أعلى مما كان عليه في انتفاضتي العام ١٩٨٧ والعام ٢٠٠٠ بالنسبة لتعداد السكان). كان العقاب الجماعي شرساً، حيث هُدمت أجزاء كاملة من يافا ومدن وقرى أخرى كثيرة. ودُمّر الاقتصاد المحلي، وسُجن حوالي ١٠٪ من الذكور البالغين، وأُعدم المئات ونُفي المئات. وكان الأثر مدمراً على الصعيدين السياسي والاجتماعي. وأصبحت اللجنة العربية العليا أكثر انقساماً من أي وقت مضى. وتمكن البريطانيون من تقسيم الفلسطينيين إلى فصائل تتنازع على كل شيء، ابتداءً من الموارد المتبقية والضئيلة إلى التكتيكات والفلسفة.^{٣٣} اكتسب الحسيني مزيداً من القوة على حساب المنظمات الشعبية. وتفاقم الوضع بالتدخل السلبي من الحكومات العربية التي بدورها كانت تخدم مصالح خارجية. وبالمختص، كانت نتيجة هذه الثورة تحركات بريطانية سلبية للقضية الفلسطينية، وإعطاء قوة للصهيونية في فلسطين، وعززت قوات الهاغاناة اليهودية وقيادة اليسوف بطرق مباشرة وغير مباشرة.

أشار عبد الجواد صالح (الزعيم الفلسطيني من مدينة البيرة) إلى الإضراب الذي استمر مدة ستة أشهر من العام ١٩٣٦ بقوله:

”صحيح أن إضراب العام ١٩٣٦ كان إحدى أدوات تعزيز الهوية الفلسطينية الناشئة، وأنه كان إشارة واضحة على الرفض، ولكنه كان صحيحاً أيضاً أنه كشف الستار عن أعداء الأمة، وصحيح أيضاً أن هذا الإضراب الطويل أدى إلى إضعاف الاقتصاد الفلسطيني، وأيضاً إلى زيادة حدة موقف اليهود ضد الفلسطينيين وتعزيز اعتمادهم على ذاتهم. فعلى سبيل المثال، قاد إضراب البحارة والعمال العرب في ميناء يافا إلى تأسيس ميناء تل أبيب ... ويجب الأخذ بالحسبان بأن الآثار السلبية للإضراب تلخّصت في إضعاف المجتمع الفلسطيني، وعدم قدرته على التعامل مع المواجهات التي اندلعت في ١٠ سنوات تلت، ما أدى إلى نكبة العام ١٩٤٨“.^{٣٤}

كانت هناك نجاحات لهذه الثورة العفوية، ما اضطرّ طلب تعزيزات عسكرية من بريطانيا ومصر وقبرص لقمع المقاومة السلمية وغير السلمية، وجعلت البلاد تقريباً غير قابلة للحكم. وكان على السلطات أن تتعامل مع الاضطرابات يومياً. في دولة عدد سكانها ما يقارب ١,٥ مليون نسمة، كان هناك أكثر من ٢٥ ألف جندي بريطاني مدجّجين بالسلاح يحاولون إخماد تمرد شامل. أثّرت الانتفاضة على الناس من الناحية النفسية في جميع أنحاء الشرق الأوسط الذين بدأوا يتساءلون كيف أن جيش أقوى الدول يترنّح مقابل مقاومة أناس بسطاء لا يملكون سوى الإرادة.

حاولت القوات البريطانية التخفيف من مستوى الاستياء بإصدار تصريحات لا تتفق مع الأفعال على أرض الواقع. من جهة، زادت القمع ضد السكان وزادت الدعم للبرنامج الصهيوني بين العام ١٩٢٢ وأواخر الثلاثينيات. واقترحت بريطانيا تقسيم البلاد إلى دولة يهودية صغيرة، وإخضاع الجزء الأكبر من فلسطين تحت سيطرة الحكومة الأردنية التي كانت دمية في يد البريطانيين. من جهة أخرى، قام البريطانيون بتعيين نوري السعيد وزير الخارجية العراقية ”كوسيط“ لخلق بلبله في قادة الانتفاضة. وافقت النخب المتعاونة على صيغ لوضع حد للانتفاضة مقابل وعود غامضة تمثّلت في ”النظر في“ مطالبهم، ولكن معظم الناس لم يصدقوا مثل هذه الوعود.^{٣٥}

بناءً على طلب من الحكومة البريطانية، دعا الملك عبد العزيز آل سعود الحكام العرب إلى إصدار بيان يطالب الفلسطينيين بإنهاء ثورة العام

١٩٣٦. وجاء البيان بتاريخ ١١ تشرين الثاني العام ١٩٣٦ ليقول: "نحن متآمرون من الوضع الراهن في فلسطين، وبالاتفاق مع ملوك العرب والأمير عبد الله [الهاشمي القادم من الحجاز الذي ولته بريطانيا والياً على الأردن] نطالبكم بالتهدة ووقف الإضراب لمنع سفك الدماء، معتمدين على الله وعلى حسن النية من صديقتنا الحكومة البريطانية، ورغبتها المعلنة في تحقيق العدالة، وعلى ثقتنا من أننا سوف نواصل السعي لمساعدتكم".^{٣٦} وجدت اللجنة العربية العليا في هذا النداء مخرجاً لنفسها، لأنها لم تكن مقتنعة من قوة الشعب الفلسطيني.

قامت حكومة الانتداب البريطانية بعد ذلك بإصدار الكتاب الأبيض، محاولة تقديم قطعة من الجزرة للسكان، ولكن في الوقت نفسه استخدمت العصي الثقيلة (حرفياً ومجازياً). المسودة الأولى نشرت في ٩ تشرين الثاني العام ١٩٣٨، والأخرى في ١٧ من أيار العام ١٩٣٩. وكان الهدف تهدئة الأوضاع حتى يتسنى لبريطانيا التركيز على الحرب العالمية الثانية. جاء في هذا الكتاب اعتراف بأن الانتداب وتصريحات بلفور لم تهدف إلى إنشاء دولة يهودية ضد رغبات الفلسطينيين العرب. والقيادة الصهيونية في حينها رفضت هذا الكتاب، وكان الموقف الفلسطيني منقسماً.^{٣٧} وأشار ديمبلي إلى أن الكتاب الأبيض "كان الدفعة الأخيرة نحو تفكير سليم، [و] لم يكن قد جمع الغبار قبل أن يداس بالأقدام من جانب القوة الصهيونية".^{٣٨} كانت حكومة الانتداب تغذي الميليشيات الصهيونية التي كثفت من نشاطاتها العسكرية، بما في ذلك استخدام تكتيكات لإرهاب كل من الفلسطينيين والبريطانيين.

خمود الثورة

كما سنرى لاحقاً في انتفاضة العام ١٩٨٧، فإن أشخاصاً استقطبوا الحركة الشعبية لمصالح ذاتية. في النصف الثاني من الحكم البريطاني تنافس قادة جدد من العائلات السياسية التقليدية مثل الحسيني، والدجاني، والنشاشيبي، ونسبية، على السلطة مثلهم مثل أسلافهم الذين سبقوهم، ولم يولوا إلا قليلاً من الاهتمام للحركات الشعبية. كتب الدبلوماسي العراقي محمد جمالي، قائلاً:

”أحد العوامل الأساسية التي أدت إلى مأساة فلسطين هي مشكلة القيادة، وعدم وجود التنظيم الديمقراطي لدى الفلسطينيين. لقد تمّ الفوز بقيادة الشعب من خلال إثارة المشاعر الشعبية. ومن خلال سحر الشخصية والخلفية العائلية والحس الوطني. لكن، وعندما يصل أيّ زعيم إلى السلطة بالعادة يكون غير قابل للتبديل أو التغيير عن طريق الديمقراطية. التسلّط من جانب الزعيم يؤدّي إلى خلافات وصراعات بين الشخصيات، ما يضعف الأمة بأكملها، وهذا صحيحٌ وواقعٌ في معظم العالم العربي وفلسطين ليست استثناءً ... ولم تترك الشخصية القويّة للحاج أمين ذات الشعبية مجالاً لشخص آخر. وعندما عاد الحاج أمين بعد الحرب لم يكن يحظى بشعبية كبيرة، سواء في العراق، أو مع دول الحلفاء المنتصرة، ما زاد من أزمة القيادة“.^{٣٩}

طلب أمين الحسيني عقد اجتماع في القاهرة مع جمالي لأنه لم يقبل فكرة مكتب الإعلام الفلسطيني حديث النشأة بقيادة موسى العلمي (بتمويل من العراق، وبدعم من جامعة الدول العربية، وبدون سيطرة للحسيني). ولد العلمي في القدس العام ١٨٩٧، ودرس القانون في جامعة كامبريدج، ومثّل الأحزاب السياسية الفلسطينية في الاجتماعات التحضيرية لإنشاء جامعة الدول العربية. أسّس العلمي مكاتب اتصالات في القدس، وبيروت، ولندن، وواشنطن لخدمة القضية الفلسطينية. وهكذا نرى أنّ بعض النخب الفلسطينية تحاول دائماً تهيمش بعض القيادات السياسية الفاعلة ودائماً يعيد التاريخ نفسه.

قالت كينغ عن هذه الفترة إنّ ”الفلسطينيين استخدموا في الغالب إستراتيجيات سلمية للحفاظ على طريقتهم في الحياة، نتج عنها القليل من التأثير على السياسات البريطانية أو الأهداف الصهيونية ... أمّا الحالات الواضحة حيث أثر الفلسطينيون فعلياً فيها على السياسة البريطانية، فقد شملت أعمال شغب دامية وشرسة وعمليات شبه عسكرية“.^{٤٠} ولكن أنا أعتقد أنّ النتائج كانت خليطاً للمقاومة السلمية وغير السلمية.

لقد سيطرت الحركة الصهيونية، بشكل كبير، على جميع جوانب الحياة في فلسطين في الثلاثينيات، وانتهى الأمر باليهود غير الصهاينة والمعادين للصهيونية بإرسال أولادهم إلى المدارس التي تديرها

الصهيونية. وبقي الفلسطينيون خاضعين لحكم الانتداب البريطاني وأهوائه، ولم تكن القيادة الفلسطينية تتخطى المصالح الضيقة لبناء مؤسسات حكم ذاتي يناسب التحدي.^{٤١} بين التاريخ المذكور هنا فشل الحركة الوطنية الفلسطينية بتحقيق أهدافها المعلنة في هذه الفترة نتيجة لعدد من العوامل منها: الضعف الاجتماعي الفلسطيني، التعاون الدولي مع الحركة الصهيونية، الوحشية البريطانية التي دمّرت الكثير من المجتمع الفلسطيني، قلة الخبرة في القيادة، الافتقار إلى الدعم والتخطيط والتنفيذ، ضعف الدول العربية وتواطئها، الانقسامات بين الفلسطينيين. وتكرّرت هذه العوامل في العقود المقبلة. ولكن -كما ذكرت آنفا- هذا لا ينتقص من الجهود البطولية في المقاومة الشعبية التي أعطت المعنى والتوجيه والدروس في الصمود والتحدي، وشكلت نموذجا يحتذى به في مواجهة تحديات المستقبل.

الفصل الثامن

١٩٣٩ - ١٩٤٨: فترة الدمار حتى النكبة

صرّح اللورد بيفن في بيان له في مجلس العموم بتاريخ ٢٣ شباط ١٩٤٧ "ما من إنكار بأنّ الانتداب (الذي جسّد وعد بلفور) قد شمل وعوداً متناقضة. فقد وُعد اليهود بوطن قومي في المقام الأول مع حماية حقوق ومواقف العرب في المقام الثاني. وبناءً على ذلك فقد نصّ في الواقع على غزو البلاد من قبل الآلاف من المهاجرين، وفي الوقت نفسه ادّعى أنّ هذا لم يكن ليزعج السكان الأصليين".^١

الكتاب الأبيض والحرب العالمية الثانية

لقد تزامن الالتباس حول الكتاب الأبيض وأثره في العام ١٩٣٩ مع الحيرة في صفوف الفلسطينيين حول التأثير المحتمل لبداية الحرب العالمية الثانية على فلسطين. انضمّ أكثر من ١٩ ألفاً من الفلسطينيين إلى القوات البريطانية للقتال مع الحلفاء. بشكل عام، فقد استمرّت الدول العربية كمجموعة في دعم الحلفاء آمليين أنّه وبعد انتهاء الحرب أن يكون الحلفاء أكثر عدلاً لتطلعاتهم من دول المحور. ولكن الكثيرين كانوا خائفين من دعم الإمبريالية التي احتلت فلسطين ورعت البرنامج الصهيوني. وكان عدد قليل من القادة الفلسطينيين واليهود على استعداد لإنهاء التعاون مع البريطانيين، وكان عدد أقل من الفلسطينيين على استعداد للتعاون مع الجانب الآخر ممثلاً بدول المحور. على الأرض، كانت المقاومة الفلسطينية قد انتهت العام ١٩٣٩. ولكن رمادها بقي حارّاً في السنوات العصيبة من الحرب العالمية الثانية. هذا

الهدوء كان هدية كبيرة لقوات الحلفاء. على النقيض من ذلك، استمرت الهجمات من قبل عصابات شتيرن وليهي ضد المواطنين الفلسطينيين وحتى البريطانيين.

عندما شعرت الحكومة البريطانية براحة أكبر في العامين ١٩٤٢-١٩٤٣ بشأن الانتصار في الحرب، أطلقت سراح بعض السجناء السياسيين الفلسطينيين، وسمحت لآخرين بالعودة من المنفى. وكانت محاولات إحياء النشاطات السياسية خلال هذه الفترة ضئيلة. عاد عوني عبد الهادي من منفاه العام ١٩٤٣، وأحيا حزب الاستقلال من جديد بمساعدة كل من رشيد الحاج إبراهيم، وأحمد حلمي عبد الباقي، وعمل على إنشاء صندوق وطني.^٢ هذا وتم إحياء الحزب العربي العام ١٩٤٤، وعقد رؤساء البلديات الفلسطينيون العرب مؤتمراً أصدروا فيه تقريراً لتذكير الحكومة البريطانية أنّ السكان التزموا الصمت في دعم جهود الحرب، وطالبوا من الحكومة القيام بتنفيذ ما جاء في الكتاب الأبيض.^٣

استمرت الحركة الصهيونية في توطيد وتوسيع مكاسبها، في حين سمع الفلسطينيون تصريحات ضعيفة من قادة العرب الإقطاعيين الفاسدين مثل التصريحات التي أُلقيت خلال حفل افتتاح جامعة الدول العربية العام ١٩٤٦. كان جميع الملوك والحكام غير منتخبين ويعتمدون على بريطانيا وفرنسا. واستمرت المناورات الدولية. في اجتماع عقد في لندن في أيار العام ١٩٤٦، قدّم المندوبون العرب خطة للحكومة البريطانية والمجتمع الدولي دعت إلى إجراء انتخابات لهيئة حاكمة جزئياً، بحيث يبقى للحكومة البريطانية حق النقض/الفيتو على القرارات. وطالبوا بتنفيذ التوصيات التي جاء بها الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٩، من أجل وضع قيود على الهجرة اليهودية، بما يتفق مع قدرات البلد، وتجنب التأثير سلباً على الظروف المحلية، ولكن رفضت الحكومة البريطانية هذه المقترحات، وبدلاً من ذلك اقترحت على كل من العرب والحركة الصهيونية تمديد فترة الحكم البريطاني في فلسطين لمدة خمس سنوات أخرى. وعندما لم يتمكن الجانبان من التوصل إلى اتفاق، هدّدت بريطانيا بالانسحاب والسماح للأمم المتحدة بتقرير مستقبل فلسطين، ولم يمض وقت طويل على ذلك حتى انتهى بها الأمر بفعل ذلك.^٤

كان الحاج أمين الحسيني في طريقه إلى القاهرة بعد انتهاء الحرب، ولكن السلطات البريطانية منعتَه من دخول فلسطين، ولذلك فقد أعاد تشكيل اللجنة العربية العليا العام ١٩٤٦، على ألا تكون شاملة لمختلف الأحزاب السياسية ولكن عشائرية. كانت جميع المناصب الرئيسية السبعة من عائلة الحسيني، وكان الآخرون متعاطفين، وهم: حسين الخالدي، معين المعادي، رفيق التميمي، عزت دروزة، اسحق درويش، الشيخ حسن أبو السعود.^٥ من الواضح أنَّ هذه المجموعة لم تؤثر على الوضع المتدهور على أرض الواقع في فلسطين، لأنهم كانوا خارج فلسطين، ولم يكونوا على اتصال بالوضع المحلي.^٦ لذلك، نشأت قيادة بديلة داخل فلسطين. في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٥، تم تشكيل اللجنة الوطنية العربية، والمكوَّنة من اثني عشر عضواً يمثلون أحزاباً وانتماءات مختلفة. وشملت هذه اللجنة كلاً من عبد الحميد شومان، ويوسف هيكل، وفارس سرحان، وأحمد الشقيري، وإميل الغوري، وكامل عبد الرحمن، وهنري قطان، وسامي طه، وفؤاد سابا، وكامل الدجاني، وعزت طنوس، ومحمد عبد الباقي. ومن الجدير بالذكر أنه تم اختيارهم على أسس وخلفيات انتقائية ومتنوعة للغاية (تم الحديث عن بعضهم في وقت سابق). لأعطي نبذة عن شخصيّة أخرى وهذه الشخصية: فؤاد سابا الذي ولد في عكا، وتخرج في الجامعة الأميركية في بيروت، حيث عمل في مجال المحاسبة العام ١٩٢٠ في حيفا، وكان أوّل مدقّق حسابات قانوني في ظل الانتداب البريطاني. كما ساعد في إنشاء الصندوق الوطني الفلسطيني في العام ١٩٣٠. وعيّن أمين سر اللجنة العربية العليا في حزيران من العام ١٩٣٦ قبل أن يتم ترحيله إلى جزر سيشل العام ١٩٣٧ من قبل البريطانيين بسبب أنشطته السياسية. في الأربعينيات من القرن الماضي، كان سابا المدير العام لشركة المشرق للاستثمارات المالية المحدودة ومقرها فلسطين، ومستشاراً للبنك العربي.^٧

استمرّت المقاومة المدنية الشعبية محلياً دون قيادة سياسية فعالة. وأصبح الطلاب في طليعة النضال السياسي في أربعينيات القرن العشرين بعد أن انتشر التعليم في الدول العربية المستقلة حديثاً. التّف الطلاب الفلسطينيون في الجامعات المصرية العام ١٩٤٤ بصورة رئيسية حول القضايا السياسية، وقاموا بتشكيل رابطة الطلاب

الفلسطينيين. ونمت الحركة الطلابية بعد ثورة العام ١٩٥٢ في مصر، وقام قادتها بتطوير مهارات قد تستخدم في وقت لاحق في تشكيل وقيادة مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية المختلفة.^٨ كما لعب اتحاد نقابات العمال دوراً مماثلاً. ففي العام ١٩٤٥، قام أعضاء ١٧ فرعاً من اتحادات العمال العرب والبالغ عددها ١٥ ألفاً بدفع الرسوم المستحقة عليهم كأعضاء.^٩ وتحالف الاتحاد بميوله اليسارية مع حزب الشعب الذي ترأسه موسى العلمي ضد الحزب العربي التابع لجماعة أمين الحسيني، الذي كان يقوده آنذاك على أرض الواقع جمال الحسيني (الذي كان يصدر صحيفة الوحدة). وكان من بين المؤيدين الرئيسيين لفصائل اليسار سامي طه الذي اغتيل في ١١/٩/١٩٤٧، والذي يُعتقد أنه تمّ على أيدي مؤيدي أمين الحسيني.^{١٠} وبعد يوم على مرور عملية الاغتيال، عقد المؤتمر الثالث لاتحاد العمال العرب في يافا، كما كان مقرراً، ولكن الحركة واجهت التفكك القادم لفلسطين.^{١١}

بعد الحرب العالمية الثانية

شهدت فترة ما بعد الحرب بلورة الاتجاهات السياسية داخل فلسطين كمحاور لا تزال سائدة حتى اليوم. عقد القوميون العرب (منهم بعض المحاربين القدامى من ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩) اجتماعاً في ٢٥ حزيران العام ١٩٤٦، وأصدروا بعد ذلك صحيفة الشعب الجديدة التي من شأنها أن تحمل رسالة التحرر والوحدة العربية. وقامت جماعة الإخوان المسلمين في مصر بتأسيس شعبة صغيرة تابعة لها بين الفلسطينيين. وعندما انضم الاتحاد السوفييتي إلى الحلفاء في الحرب، أعطت الحكومة البريطانية الأحزاب الشيوعية في فلسطين مجالاً أكبر وأصبحوا قوة لا يستهان بها. انقسم الحزب الشيوعي الفلسطيني العام ١٩٤٣ إلى مجموعة يهودية (التي أصبحت أكثر صهيونية وتؤيد التقسيم)، ومجموعة عربية (عصبة التحرر الوطني) بقيادة رضوان الحل. كان مقر الحزب الشيوعي العربي في مدينة حيفا، حيث أصدر صحفاً ومجلات ومنشورات مثل الاتحاد والغد، التي كان لها دورٌ كبيرٌ في الوعي القومي.^{١٢} بعد تأسيس دولة إسرائيل، اتحد الحزب الشيوعي اليهودي والعربي مشكلاً الحزب الشيوعي الإسرائيلي. في أواخر العام ١٩٤٥، قام أحد المحامين ويدعى محمد نمر الحواري بتأسيس "منظمة

النجدة"، معلناً تأييده لأمين الحسيني المنفي. خلافاً لثلاثينيات القرن العشرين، كان هناك القليل من الترابط بين هذه الفصائل بسبب اختلاف برامجهم وتوقعاتهم.^{١٢}

ليس من المدهش بعد ذلك، نظراً لعدم وجود سياسات أو قيادة موحدة، أنه تم تسجيل القليل من أحداث المقاومة الشعبية في هذه الفترة. عمّ إضراب شامل بتاريخ ٣ أيار من العام ١٩٤٦، وأعلن مقاطعة اللجان الدولية كاللجنة الأنجلو-أمريكية التي أصدرت توصيتها (المتوقعة) في ٢٠ نيسان العام ١٩٤٦ بإدخال ١٠٠ ألف مهاجر يهودي.^{١٤}

تم تكليف الدكتور عزت طنوس من قبل اللجنة العربية العليا بتاريخ آب العام ١٩٤٦ لإنشاء وإدارة الصندوق الوطني (بيت المال العربي) من أجل فلسطين، وجاءت هذه المبادرة متأخرة جداً كما أشار في كتابه.^{١٥} ساهم عبد الحميد شومان (مؤسس البنك العربي) بمبلغ ٤٠٠٠ جنيه فلسطيني. ووصل مجموع المبالغ التي تم تحصيلها بين ١ نيسان ١٩٤٧ و ٣١ آذار ١٩٤٨ إلى ٢٢٠ ألف جنيه فلسطيني (أي ما يعادل في ذلك الحين نحو ٤٠٠ ألف دولار أمريكي مقارنة بالملايين التي أنفقتها الوكالة اليهودية سنوياً). تم إنفاق المال للتخفيف من معاناة القرويين ومساعدة السجناء وكبار المعتقلين، وكذلك تم تخصيص مبلغ للعمل الإعلامي. لكن الأنشطة كانت صغيرة، وكان قرار التقسيم، وبدء البرنامج الصهيوني للتطهير العرقي، السببين الرئيسيين لنهاية الصندوق.

أصبحت السلطات البريطانية -التي خلقت الوجود الصهيوني العسكري الضخم في فلسطين- تعاني من الهجمات التي كان يشنها الصهاينة أنفسهم. ومع ذلك، أظهر بعض الضباط البريطانيين دعماً كبيراً للمشروع الصهيوني على أرض الواقع. مثلاً، عندما ساعد الجنرال ستوكويل في عملية طرد ٥٠ ألف فلسطيني من حيفا ما بين ٢١ - ٢٢ نيسان ١٩٤٨.^{١٦} بعض المسؤولين البريطانيين كانوا أكثر تفهماً للموقف الفلسطيني، والبعض الآخر قدّم مجرد تصريحات اعتذارية.

أصبحت الولايات المتحدة الأمريكية القوة العظمى بعد الحرب العالمية الثانية. كانت الحركة الصهيونية تحشد دعمها هناك لعقود. عندما توفي الرئيس الأمريكي العادل والواقعي روزفلت في مكتبه بشكل غير متوقع

أصبحت الفرصة مُناحة أمام نائب الرئيس ترومان الطموح الذي أصبح رئيساً مؤقتاً يبحث عن كسب الانتخابات المقبلة. كان ترومان مستعداً أن يضحي بمستقبل الملايين، حيث قام بإعطاء الأوامر باستعمال القنابل النووية على هيروشيما وناجازاكي. وقامت الإدارة الأمريكية بتقديم موعد تشكيل اللجنة الخاصة للأمم المتحدة حول فلسطين (UNSCOP) لـ”دراسة المشكلة”، من أجل تقديم برنامج لحل محتمل يفيد الصهيونية. وقامت اللجنة العربية العليا بمقاطعة (UNSCOP) بسبب بنيتها المنحازة بشكل واضح (التي تتألف من البلدان التي تعرضت لضغوط من جانب الولايات المتحدة لدعم قرار التقسيم). وكما توقع الفلسطينيون، فقد قامت اللجنة بتقديم تقرير لصالح التقسيم في ٣ أيلول ١٩٤٧. وعقدت جامعة الدول العربية الحديثة النشأة اجتماعاً ضم رؤساء الوزراء بتاريخ ٧ تشرين الأول العام ١٩٤٧. ولم يتم دعوة اللجنة العربية العليا لأن حكام الأردن والعراق لا يتفقون مع أمين الحسيني، إلا أن الأخير حضر الاجتماع دون دعوة، ولم يمتلك أحد من الحضور الشجاعة لإخراجه. واقترح الحسيني تشكيل حكومة فلسطينية في المنفى لتحل محل اللجنة العربية العليا، ولكن اقتراحه قوبل بالرفض (مرة أخرى من قبل مندوبين يمثلون ملوك العراق والأردن). ومنذ ذلك الحين، كان التعامل بشأن قضية فلسطين يتم من قبل الدول العربية والأمم المتحدة مع الوكالة اليهودية القوية والمسيطرة مع اللوبي الصهيوني في جميع أنحاء العالم.

صوّتت الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٤٧ لتؤيد التوصية بتقسيم فلسطين، وإعطاء الحركة الصهيونية السيطرة على ٥٥٪ من فلسطين، وتركت للفلسطينيين (الذين كانوا أكثر من ثلثي السكان) ما نسبته ٤٥٪ من أراضي فلسطين. وسيكون هناك عدد متساو تقريباً من الفلسطينيين المسلمين والمسيحيين مقابل اليهود في الدولة اليهودية المزمعة. نجح التصويت بسبب ضغوط كبيرة من إدارة الرئيس ترومان (بسبب حاجته للحصول على دعم اليهود في الانتخابات). وصف جيمس فورستتوول وزير الدفاع الأمريكي في مذكراته أن ”الطريقة التي استخدمت لتحقيق الإجماع والإكراه على الدول الأخرى في الجمعية العامة اقتربت بأن تصبح فضيحة“.^{١٧} مكائد السياسة التي أدت إلى هذا القرار المشين (الذي انتهك ميثاق الأمم المتحدة) أظهرها أحد الدبلوماسيين، حيث قال:

”حاولت الوفود العربية بشدة إقناع الوفود الأخرى للتصويت ضد قرار التقسيم من خلال الاحتكام إلى المنطق والعدالة والقانون. ونجحت جهودهم التي بذلوها مع الوفود ذات الضمائر الحية للتوصل إلى قرار مستقل. ولكن بعض الوفود اضطرت إلى تغيير موقفها عندما شاهدوا القوة تنهي المصالح المادية لبلدانهم على الجانب الآخر. علينا أن نتذكر كيف أنّ مندوب هايتي ذرف الدموع عندما اضطّر لتغيير تصويت بلاده والتصويت لصالح التقسيم. وندّكر كيف أنّ الجنرال رومولو مندوب الفلبين غادر الولايات المتحدة بسبب التهديدات الصهيونية. ولقد التقيت بالدكتور آرسي مندوب الأرجنتين الذي وقف ضد التقسيم، وقال إنه يشعر بالأسف لأنّه اضطّر إلى الامتناع عن التصويت بدلاً من التصويت ضد التقسيم، وهذا كان نتيجة للضغط على حكومته. هذه هي بعض الوفود الذين أجبروا على التصويت ضد قناعاتهم. وقبيل صدور القرار، كنت أتحدث مع ليستر بيرسون وزير خارجية كندا ولاحقاً رئيس الوزراء. فقلت له: ”سيد بيرسون، هل تعتقد أن هذا قانون تقسيم فلسطين ضد إرادة سكانها هو قانون يملّيه الضمير والقانون؟“. أجابني وبكل صراحة قائلاً: ”دكتور الجمالي، السياسة لا تعرف الضمير أو القانون ما لم تكن مدعومة بالقوة“.^{١٨}

ردّت الهيئة العربية العليا على التصويت لصالح التقسيم بالدعوة لإضراب عام لمدة ثلاثة أيام في الفترة من ٢-٤ كانون الأول العام ١٩٤٧، وكان هذا الإضراب شبه شامل.^{١٩} ولكن حتى قبل حدوث هذا الحدث السلمي، اندلعت اشتباكات مسلحة في ١ كانون الأول العام ١٩٤٧ بين العرب واليهود على الطريق بين يافا وتل أبيب (لم ترد أنباء عن مقتل أحد). بينما لقي ٦ عرب و٨ من اليهود مصرعهم يوم ٢ كانون الأول. وأحرق بعض اليهود دار السينما العربية ”ريكس“ في القدس، وانتقم بعض العرب عن طريق حرق متاجر بالقرب من بوابة يافا، ولكن الصهاينة كانوا قد حشدوا ما يقرب من ٥٠ ألفاً من الجنود المسلحين جيداً بحلول كانون الأول العام ١٩٤٧. وتجاوزوا بأضعاف عدة من حيث الكمية والنوعية أيّ خصم محتمل. استُخدمت الاضطرابات والاشتباكات ذريعة للبدء في عملية التطهير العرقي في فلسطين. من ٢١ كانون الأول من العام ١٩٤٧، قامت منظمة الهاغانة وغيرها من القوات الصهيونية السرية بمهاجمة القرى في السهل الساحلي شمال

تل أبيب. وبتاريخ ٣١ كانون الأول، ارتكبت هذه القوات مذبحه بحق ٦٠ مدنياً من قرية بلد الشيخ (قضاء حيفا)، وقامت بارتكاب عشرات من المجازر الأخرى التي أدت إلى تفريغ ما يقرب من ٢٠٠ ألف من القرى والبلدات من سكانها الفلسطينيين قبل ١٥ أيار العام ١٩٤٨ والضعف بعدها.^{٢٠}

حاول العرب داخل فلسطين وخارجها تعبئة الحشود وجمعها، ولكن كان قد فات الأوان. أنشئت في هذه الفترة مجموعتان متنافستان من المتطوعين: جيش الإنقاذ من قبل الدول العربية والجهد المقدس من قبل الهيئة العربية العليا. كانت كلتا المجموعتين تفتقر للسلاح، وبالكاد مدربين، ولم تكن هنالك إمكانية لمواجهة الميليشيات الصهيونية ذات الخبرة والمهنية والقوة (١٥ ألفاً منهم تدربوا وعملوا مع الجيش البريطاني). لكن الهيئة العربية العليا حاولت أيضاً بطرق أخرى وقف الهجوم على فلسطين. على سبيل المثال، قامت بإرسال وفد للقاء البابا الذي اجتمع بهم لمدة ٢٥ دقيقة، ولكنه قرّر عدم التحدث علناً ضد التقسيم.^{٢١} وقد بدأت القوات الصهيونية باستخدام العنف يوم ٢١ كانون الأول ١٩٤٧، الذي أصبح لغة التخاطب. تصاعدت الهجمات والهجمات المضادة، ولكن دائماً بسقوط المزيد من العرب أكثر من الصهاينة اليهود. وكانت هناك محاولات متفرقة تطالب بالاحتكام للمنطق، ولكنها لم تلقَ آذاناً صاغية. على سبيل المثال، صدر بيان في ٣ آذار العام ١٩٤٨ من قبل "الاتحاد المسيحي لفلسطين"، موجّهاً إلى جميع الزعماء الدينيين والسياسيين في العالم، وتم التوقيع عليه من قبل جميع الطوائف المسيحية في فلسطين. استنكر البيان بشدة خطط التقسيم، وجاء أيضاً "كتضامن مع إخوانهم المسلمين" في المقاومة لهذه المخططات، ودعا لحق تقرير المصير كما نصّ عليه في الميثاق التأسيسي للأمم المتحدة.^{٢٢}

لقد كان من بين المجازر (وعددها ٣٣) التي ارتكبتها القوات الصهيونية مجزرة ساعدت بشكل محوري في إقامة الدولة اليهودية، وهي مجزرة دير ياسين بتاريخ ٩ نيسان ١٩٤٧. حتّى في هذه المأساة تم تسجيل أعمال بطولية في المقاومة الشعبية. فعلى سبيل المثال، هرعت إحدى الفتيات وتدعى حياة البلبيسي (١٩ عاماً) إلى القرية من القدس لمساعدة القرويين، واستشهدت بينما كانت تقوم بمعالجة ساق أحد القرويين.^{٢٣}

يعود انتصار الصهيونية في هذه الحقبة للانشقاق والاحتلال العربي والتفوق العسكري الصهيوني في كل مرحلة من مراحل الحرب والدعم الغربي.^{٢٤} كان عدد الجنود الصهاينة ضعفي عدد المقاتلين العرب، وكانوا مدربين ومجهزين بشكل أفضل. كان الفلسطينيون مثبطي العزيمة بسبب تدمير مجتمعاتهم وقيادتهم خلال ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩. كانت النتيجة كارثية، ولذلك سميت بنكبة فلسطين: بين كانون الأول ١٩٤٧ ونهاية آخر اتفاق لوقف إطلاق النار، دُمّر معظم المجتمع الفلسطيني وتحوّل ٨٠٠ ألف إلى لاجئين ونازحين. أصبح تاريخ فلسطين يُقسم إلى ما قبل النكبة وإلى ما بعدها.

كل جانب من جوانب الحياة اليومية ومستقبل البلاد والمنطقة تغيّرت في فترة قصيرة. لقد تمّ محو خمسمائة وثلاثين من البلدات والقرى الفلسطينية من على وجه الخريطة. وظهرت الدولة الاستعمارية العسكرية الجديدة "إسرائيل" على أنقاض ما تبقى من قرانا ومدننا. وقد لعب غدر الجيش العربي وخيانتته بقيادة الجنرال البريطاني غلوب باشا، وتعاون الملك عبد الله مع الحركة الصهيونية لتقسيم فلسطين، دوراً مهماً في هذه الكارثة.^{٢٥}

قامت الأمم المتحدة بتعيين "وسيط" لفلسطين من خلال قرار لمجلس الأمن بتاريخ ٢٩ أيار ١٩٤٨. أنقذ الكونت فولك برنادوت الذي كان رئيس الصليب الأحمر السويدي العديد من اليهود في الحرب العالمية الثانية. وقدّم هذا الرجل الذي كان يحظى باحترام كبير تقريره إلى الأمم المتحدة يوم ١٦ أيلول العام ١٩٤٨، الذي يدعو إلى عودة اللاجئين. ولهذا، وبدلاً من تكريمه وتنفيذ توصياته، قتل على يد الصهاينة في اليوم التالي مع أحد مساعديه ويدعى الكولونيل اندريه سيرو. وسمحت الأمم المتحدة لإسرائيل تعزيز مكاسبها، وبالتالي توسيع نطاق الهيمنة على ٧٨٪ من أرض فلسطين، وذلك بزيادة نسبة ٥٠٪ أكثر مما نادى به قرار التقسيم.

هناك العديد من الكتب تتحدّث عن قصص النكبة، وهناك أيضاً موقع على شبكة الإنترنت يحوي تاريخاً شفويّاً ومكتوباً عن هذه الفترة.^{٢٦} اسمحوا لي أن أقتبس هنا مجرد واحدة من ملايين القصص، وهي

قصة لاجئة فلسطينية من سكان بلدة بيت جبرين، وتدعى أم إبراهيم الشوابكة، حيث تعرّضت قريتها للهجوم من قبل القوات الإسرائيلية في تشرين الأول العام ١٩٤٨: "لقد كان عمري ١٢ عاماً عندما طردنا اليهود وهربنا من القرية وعندما أتى الجنود وبدأوا يطلقون النار على الناس، ولم يرغب جدّي وجدتي في مغادرة منزلهما، لذلك اختبأوا في مغارة بالقرب من القرية، حيث عثر عليهما الجنود وأطلقوا النار عليهما".^{٢٧}

كانت العودة، على الرغم من خطر القتل والإبادة، نوع من المقاومة الشعبية التي راح ضحيتها الكثير.

عقدت اللجنة العربية العليا مؤتمر فلسطين في قطاع غزة، وتم انتخاب حكومة فلسطين في ١ تشرين الأول من العام ١٩٤٨. وبعد ذلك تمّت صياغة الدستور، وقام المندوبون بانتخاب مجلس للوزراء برئاسة أحمد حلمي عبد الباقي، كما انتخب أمين الحسيني كأول رئيس لفلسطين. واعترف بالحكومة الوليدة من قبل الكثير من البلدان، بما في ذلك جميع الدول العربية باستثناء الأردن. ولم يدم هذا طويلاً، إذ تم القضاء عليه أولاً من قبل الحكومة الأردنية من أجل فرض سيطرتها على المناطق الفلسطينية المتبقية. وفي وقت لاحق، قامت الحكومة المصرية بسحب الحكومة المؤقتة من غزة إلى القاهرة، حيث خيم عليها الغموض ولم تظهر. قام ملك الأردن بعقد مؤتمر أريحا في ١ كانون الأول ١٩٤٨، حيث شمل نخباً فلسطينية غير منتخبة ومنتفعة، وتم ضم ما أصبح يعرف بالضفة الغربية للأردن. في وقت لاحق، قام العاهل الأردني وقائده من الجيش البريطاني غلوب بإعطاء النقب والمثلث إلى إسرائيل للسماح للدولة الوليدة بالمزيد من التوسع.^{٢٨} هكذا تم محو الاسم القديم "فلسطين" من الخريطة على كلا الجانبين من خط الهدنة الذي عُرف بالخط الأخضر، وأنشئت جغرافياً سياسية جديدة. من شأن العقود المقبلة أن تثبت أنّ النكبة كانت أكبر نكبة أو كارثة على المنطقة برمتها، وليس فقط على الضحايا الفلسطينيين.

الفصل التاسع

من النكبة وحتى النكسة ١٩٤٨-١٩٦٧

الجغرافيا السياسية الجديدة المدوّنة في اتفاقية الهدنة الموقعة في مدينة رودس في العام ١٩٤٩، تعني أن فلسطين كمجتمع متماسك ووحدة جغرافية متحدة أزيلت، وأنه تم إنشاء دولة إسرائيل على ٧٨٪ من أرض فلسطين. دولة إسرائيل الوليدة بدأت ونشأت بتخليص نفسها من معظم المواطنين الأصليين غير اليهود عن طريق التطهير العرقي^١. ووضعت قوانين من أجل منع عودة السكان الأصليين، وقوانين للاستيلاء على أراضيهم وأعمالهم التجارية وحساباتهم المصرفية وغيرها من الممتلكات. حاول العديد من هؤلاء الفلسطينيين، على الرغم من هذه القوانين الجائرة، البقاء أو العودة إلى بلادهم، وهذه أنواع من المقاومة الشعبية. نجح قليل منهم بالعودة وكثير منهم لقوا حتفهم فيما كانوا يحاولون العودة إلى بلادهم. الجنرال غلوب قال إن: "الإلحاح النفسي موجود داخل الفلاحين الذي أجبرهم على التشبث والموت على أرضهم. فقد لقي عدد كبير جداً من هؤلاء الناس البؤساء مصرعهم وهم يقومون بقطف الزيتون والبرتقال الخاص بهم وراء خط الهدنة، إذا رأت الدوريات اليهودية ذلك الفلاح سيتعرض لإطلاق النار على الفور ومن دون أية أسئلة. ولكن مع ذلك كانوا يصرون على العودة إلى مزارعهم وحدائقهم"^٢. الفلسطينيون الذين حاولوا العودة إلى ديارهم وأراضيهم بعد انتهاء القتال، تم إطلاق النار عليهم حسب الأوامر العسكرية.^٣ بالتالي، "فقد لقي ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ متسلل مصرعهم بين العامين ١٩٤٩ و ١٩٥٦، وغالبيتهم العظمى من الناس العزل. فقد كانت الغالبية العظمى من أولئك الذين تسللوا هم من الفلاحين الذين

كانوا يحاولون التسلّل للوصول إلى منازلهم، إما من أجل العودة وإما لرؤية الأقارب وإما لجني محاصيلهم إما بسبب الجوع الشديد وإما لارتباط عميق^٤. وهذا في حد ذاته كان عملاً رئيسياً للمقاومة الشعبية أثناء النكبة وبعدها.

كانت هذه النكبة ضربة قاصمة أضيفت إلى سلسلة من الأحداث الكارثية من العام ١٩٣٦ وحتى العام ١٩٤٨.^٥ تم تقسيم الفلسطينيين إلى مجموعات منفصلة، وهي كالآتي:

– أولئك الذين أصبحوا لاجئين (وهذا يشمل الفلسطينيين الذين كانوا خارج البلاد قبل الحرب أو خلالها).

– أولئك الذين نجحوا، وعلى الرغم من كل الصعاب، في البقاء في الدولة الجديدة.

– سكان الضفة الغربية (الذين أصبحوا تحت الحكم الأردني).

– سكان قطاع غزة (الذين أصبحوا تحت الحكم المصري).

توفي العديد من الفلسطينيين في مخيمات اللاجئين بسبب مشاكل صحية لها صلة بالوضع المأساوي. استغرق الأمر ما يقرب من جيل من أجل تجاوز هذه الأزمة، وإعادة تأسيس مقاومة قوية (سواء الشعبية أو المسلحة). تنامت أعمال الصمود والمقاومة وأتت ثمارها في تشكيل المنظمات الفلسطينية مع هياكل تنظيمية سياسية متطورة بدأت في خمسينيات القرن العشرين، ونضجت في ستينيات القرن نفسه.

”عرب الداخل“

واجه الفلسطينيون الذين بقوا داخل ما أصبح يعرف بدولة إسرائيل وضعاً فريداً. فهي هم المواطنون الأصليون يجدون أنفسهم يعاملون على أنهم غرباء في أرضهم. نجح حوالي ١٦٠ ألف فلسطيني من أصل ١,٤ مليون فلسطيني في العام ١٩٤٧، وعلى الرغم من كل الصعاب، في البقاء في أراضي فلسطين التي تم تحويلها إلى دولة يهودية إثنوغرافية بحلول العام ١٩٤٩. وتم تدمير غالبية هياكل الدعم لهم، بما فيها قياداتهم السياسية وأغلب أراضيهم ومصادر الثروة. تفضل إسرائيل تسمية

هؤلاء بـ "العرب الإسرائيليين" أو مجرد "العرب في إسرائيل". وقد أصبح البرنامج الصهيوني الذي استحوذ على الأراضي بتيسير أو إذن من الحكام العثمانيين والبريطانيين، أصبح الآن الحاكم المسيطر وليس لديه أية قيود. وأطلق عنان السرقة والنهب للأراضي دون حدود.

بسرعة وكفاءة لا ترحم، قام المهاجرون/السادة الجدد ببرنامج ممنهج لحرمان الفلسطينيين القليلين المتبقين من حقوقهم الطبيعية، ولضمان أن الذين هُجروا من أراضيهم لن يعودوا أبداً. لقد شُرعت السرقة من خلال مجموعة من القوانين مرت بسرعة من قبل البرلمان الصهيوني الذي يدعى الكنيست. حرم أولئك الذين فروا أو أُجبروا على ترك ديارهم خلال عملية التطهير العرقي بين الأعوام ١٩٤٧-١٩٤٩ من حق العودة من خلال قوانين واضحة. تم الاستيلاء على ممتلكاتهم بموجب قوانين عنصرية أخرى (مثل "أملاك غائبين"). تم طرد الكثير من المواطنين الذين بقوا على الرغم من التحذيرات، واستولت الدولة على أراضيهم وبيوتهم وأعمالهم التجارية، وسُلمت للمهاجرين اليهود الجدد.^٦ بالتالي، قامت الدولة بتدمير التجمعات الفلسطينية المتبقية في المدن الرئيسية مثل حيفا، وطبريا، والرملة، واللد، ويافا، وقامت أيضاً بتدمير عشرات القرى بين تل أبيب والقدس، وفي الأجزاء الغربية والشرقية من منطقة الجليل، وبالقرب من حدود وقف إطلاق النار. من الأمثلة القاسية لفترة ما بعد الحرب عملية التطهير العرقي التي تمت في بعض القرى مثل قرية كفر برعم في ١٩٤٩/٢/٤. تم إعلان اثنتي عشرة قرية في الجليل مناطق عسكرية مغلقة. تم نقل ٧٠٠ من اللاجئين الذين لجأوا إلى قرية كفر ياسف بعد تدمير قريتهم في شاحنات إلى الحدود الأردنية في ١٩٤٩/٢/٢٨. كذلك هُجرت قرية الغابسية في ١٩٥٠/١/٢٤، وتم طرد سكان المجدل إلى مدينة غزة في شباط ١٩٥١، وطرد سكان ١٣ قرية أخرى خارج الحدود عبر منطقة وادي عارة العام ١٩٥١.^٧

تم احتلال قرية إقرت الفلسطينية دون أية مقاومة في ٣١ تشرين الأول من العام ١٩٤٨. وبعد خمسة أيام طُلب من السكان إخلاؤها "مؤقتاً لمدة أسبوعين فقط". وعندما تحوّل الأسبوعان إلى أشهر قَدَّم القرويون التماساً إلى محكمة العدل العليا الإسرائيلية، وما يثير الدهشة

أن المحكمة حكمت لهم بالعودة في ٣١ تموز العام ١٩٥١ (وربما يكون هذا أحد الأشكال الأولى للمقاومة باستخدام النظام القانوني الإسرائيلي). ومع ذلك، فإن السلطات العسكرية أمرت بالإخلاء الكامل في ١٠/٩/١٩٥١، وتم تدمير القرية بشكل كامل يوم عيد الميلاد ٢٥ كانون الأول العام ١٩٥١ (والذي كان أكثر إيلاماً بالنسبة للقرويين المسيحيين).^٨ وهذا ما حدث أيضاً بالنسبة لسكان كفر برعم الذين أمروا بإجلاء قريتهم وقرروا الذهاب إلى محكمة العدل العليا الإسرائيلية التي أمرت في مطلع أيلول ١٩٥٣ بالسماح لهم بالعودة إلى ديارهم. وبدلاً من ذلك، قام الجيش الإسرائيلي بقصف القرية من الجو والأرض، الأمر الذي أدى إلى تدميرها.^٩

كانت النتيجة أن تم وضع الفلسطينيين المتبقين في ثلاث مناطق معزولة تسهل السيطرة عليها، وهي: الجليل، والمثلث، والنقب. في وقت لاحق، تمت زيادة الضغط على تلك المناطق حتى أصبحت أصغر. أصبح الفلسطينيون الذين كانوا يملكون ٩٣٪ من الأراضي قبل العام ١٩٤٨ يعيشون على أقل من ٣,٥٪ منها. ولكن الحكومة الإسرائيلية لم تكن راضية بذلك، حيث استمرت بمحاولة طرد أولئك الذين بقوا وأخضعتهم لأحكام عسكرية قاسية جداً في الفترة ما بين ١٩٤٨-١٩٦٦. وقامت إسرائيل بتعديل وتوسيع وتكثيف القوانين المأخوذة من قوانين الطوارئ التي استخدمها البريطانيون في ثلاثينيات القرن العشرين. تم تطبيق هذه القوانين على غير اليهود فقط، وتم تعيين ثلاثة من القادة العسكريين للإشراف على المناطق الثلاث، حيث يتجمع الفلسطينيون المتبقون. تم منع الفلسطينيين من التنمية الاقتصادية والعمل والحق في التنقل حتى إلى القرى المجاورة (كان ينبغي عليهم الحصول على تصاريح خاصة)، ومُنعت الحريات الاجتماعية أو الثقافية. كانت أهداف الحكم العسكري تتمثل في ما يلي:

- (١) تسهيل عملية نقل الأراضي ومصادرتها. (٢) التحكم والتلاعب في أي تصويت فلسطيني محتمل في الكنيست. (٣) منع تشكيل حركات سياسية مستقلة التي من الممكن أن تحمي حقوق الشعب الفلسطيني.^{١٠}

في البداية، صبَّ الفلسطينيون جُلَّ تركيزهم وجهودهم على الصمود وتشبثوا في أراضيهم على الرغم من كل الصعاب. خسر ربع الفلسطينيين الذين بقوا في أراضيهم وأصبحوا بموجب القوانين

الإسرائيلية "غائبين حاضرين": حاضرون لأنهم موجودون ضمن حدود الدولة، ولكنهم يندرجون تحت إطار قوانين الغائبين، حيث تمت مصادرة أراضيهم وسلمت إلى الوكالة اليهودية لتوطين اليهود. ويدعي هؤلاء الناس حسب القانون الدولي "المشردين" ولهم حق -تماماً مثل حق اللاجئين- للعودة إلى ديارهم وأراضيهم. ومع ذلك، رفضت إسرائيل الاعتراف بهذا الحق. وأنشأت الدولة آليات لتشجيع التفرقة والانقسام وإعادة التأهيل لجعلهم يتماشون مع رغبات "الدولة اليهودية".^{١١} درست السلطات الصهيونية الانقسامات التي كانت ستفيد الحكومة البريطانية من قبل (مثل الانقسامات التي حدثت بين الحسيني والنشاشيبي عشرينيات وثلاثينيات القرن الماضي). وشرعوا يشجعون ويؤكدون الانقسامات من خلال تصنيف الفلسطينيين إلى "قوميات عدة"، وإقناعهم بأن مصالحهم ضد بعضهم البعض: البدو والدروز والشركس والعرب المسيحيين والعرب السنة والبهائيين. وعُرفت المقاومة ضد هذا التقسيم فيما بعد من قبل السلطات الإسرائيلية باسم "فلسطنة الشعب" كما لو كان هذا اسماً قذراً.^{١٢} لقد كانت السلطات الإسرائيلية قادرة على العثور على بعض المتعاونين بين جميع الطوائف، ولكن الغالبية اختارت "الرفض" الذي كان سيصبح أكثر تنظيماً في السنوات القليلة المقبلة.^{١٣}

بعد النكبة استغرق الفلسطينيون بضع سنوات للنهوض من الصدمة التي مروا بها والبدء بالتعبئة؛ فعلى سبيل المثال، من خلال تشكيل رابطة للشعراء في العام ١٩٥٢.^{١٤} هذا النوع من المقاومة الشعبية أصبح مشهوراً بعد كتاب غسان كنفاني حول أدب المقاومة في فلسطين في العام ١٩٦٨.

لقد كان الحزب الشيوعي أول حزب يقوم الفلسطينيون الداخل بالتصويت والانضمام إليه، لأنه طالب إسرائيل بتحقيق المساواة، وأن تصبح دولة لجميع مواطنيها. لم يكن حزباً ثورياً بالمعنى الكلاسيكي، لأنه أيد العديد من جوانب دولة إسرائيل عند تأسيسه، وحتى قام بطرد الأعضاء الذين اعتنقوا مبادئ ثورية كتحرير فلسطين.^{١٥} كما ذكرنا في فصل سابق، فقد اختلف الحزبان الشيوعيان العربي واليهودي في بداية أربعينيات القرن العشرين، وأصبح الحزب الشيوعي العربي (عصبة التحرر الوطني)

الذي استمر حتى ١٩٤٨. بعد النكبة، قرّر الكثير من العرب الانضمام إلى الحزب الشيوعي العربي اليهودي المولود حديثاً "راكاح" بسبب عدم وجود خيارات أخرى. ووصل الأعضاء العرب في الحزب إلى مراكز جيدة. من المؤسسين المهمين إميل توما، وتوفيق طوبي، وإميل حبيبي. كان إميل توما أيضاً مفكراً ومؤرخاً، وأصدر معهد إميل توما للأبحاث السياسية والاجتماعية في حيفا الأعمال الكاملة لإميل توما وعددها ١٤ مؤلفاً، ومنها: جذور القضية الفلسطينية، ٦٠ عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية، منظمة التحرير الفلسطينية، الحركة القومية العربية والقضية الفلسطينية. وكانت صحيفة الاتحاد الصادرة باللغة العربية مشهورة جداً. أعطت أصوات العرب واليهود للحزب أربعة مقاعد في الكنيست في الانتخابات الإسرائيلية الأولى للكنيست. وساعدت برامج الحزب الثقافية والاجتماعية في دعم النمو في المشاعر القومية، وأعطت مكانة مهمة للشعراء والكتاب أمثال محمود درويش، وسميح القاسم، وتوفيق زياد، وسالم جبران، وحنّا أبو حنا وغيرهم، ولعلّت أصواتهم داخل فلسطين وخارجها.^{١٦} بعد محاولة تنظيم لجان للدفاع عن الأراضي المهدّدة بالمصادرة، قامت السلطات بإقصاء ١٣ من الشيوعيين العرب عن مجتمعاتهم العام ١٩٥٩.

كانت حركة القوميين العرب التي كان يقودها الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر هي الحركة المنظمة الثانية التي ظهرت داخل الخط الأخضر بعد اغتصاب فلسطين. وعقد اجتماع في ١١ شباط العام ١٩٥٦، ودفعت من أجل الوحدة والكفاح من أجل الحصول على حق تقرير المصير.^{١٧} خلق غزو إسرائيل لمصر بمساعدة من بريطانيا وفرنسا العام ١٩٥٦ فرصة للضغط على من تبقى من الفلسطينيين. أصدرت السلطات الإسرائيلية أوامر لفرض حظر التجول على القرى القريبة من الخط الأخضر، وقامت بإطلاق النار فوراً على أي شخص يخالف هذا القانون. في حادث واحد فقط لقي ٤٩ مدنياً في قرية كفر قاسم مصرعهم في فترة ساعتين في ٢٩/١٠/١٩٥٦. وقد حاول سكان القرية إجراء تأبين للشهداء الذين سقطوا في كفر قاسم كل عام، وتم منعهم مرات عديدة.^{١٨}

أعطت هذه المجزرة دافعاً للناشطين لترتيب أمورهم، عُقد مؤتمران في آن واحد في ٦ تموز العام ١٩٥٨ في الناصرة وعكا حضرهما حوالي

١٢٠ فلسطينياً، وتم وضع ٤٠ آخرين قيد الإقامة الجبرية لمنعهم من المشاركة، وقرّر المؤتمرون تأسيس (الجبهة العربية) وانتخاب لجنة تنفيذية، وأصدروا قائمة من المطالب شملت عودة اللاجئين والنازحين، وإنهاء مصادرة الأراضي، وإنهاء الحكم العسكري، ووضع حد للتمييز واستخدام اللغة العربية.^{١٩} وعندما حاولوا تسجيل هذه الحركة من أجل البدء بأنشطتها تم رفض الاسم حيث زُعم بأن استخدام كلمة عرب في الاسم هو عمل عنصري (مع أنه تم السماح لمئات من المنظمات باستخدام "اليهودية" في أسمائها). لذلك اضطرت إلى إعادة تسمية نفسها باسم "الجبهة الشعبية" (كان يشار إليها عادة باسم الجبهة الشعبية العربية)، وأصبحت فيما بعد تعرف باسم الجبهة الشعبية الديمقراطية. انقسمت الجبهة بعد خلافات بين الشيوعيين والقوميين العرب في إطار انقسام الدولة العربية المتحدة المتمثلة في مصر وسوريا.^{٢٠}

كان الإرهاب جزءاً من البرنامج الصهيوني لإنهاء عملية التطهير العرقي، ولكن استمرار مقاومة الشعب منع وضع اللمسات الأخيرة على هذا البرنامج. حينها، بدأت السلطات الإسرائيلية بوضع إستراتيجيات جديدة من أجل التعامل مع من تبقى من الفلسطينيين بدون تهجيرهم بالكامل.^{٢١} ولكن هذا البرنامج الجديد أيضاً وُوجه بالمقاومة. تحوّل فصيل منشق عن الجبهة الشعبية إلى حركة الأرض التي دُشنت باجتماع في نيسان العام ١٩٥٩ من خلال دعوة من منصور كردوش (من الناصرة)، وحبيب قهوجي (من حيفا). تم التوصل خلال الاجتماع إلى قرار بنشر مجلة أسبوعية بعنوان الأرض. تم إغلاق المجلة من قبل السلطات في كانون الثاني العام ١٩٦٠، ولكن حاول النشطاء بطرق مختلفة الحفاظ على الحركة على الرغم من الحظر والتعدي على حرية التعبير والتجمع في ظل "نظام طوارئ عسكري" وحشي.^{٢٢} كان الفارق الرئيسي مع الحزب الشيوعي، هو أن حركة الأرض لا تؤمن بالتطبيع مع الدولة الإسرائيلية، ولا بتحديد الأهداف كمجرد مطالبة للمساواة، وكان لدى الحركة ميل قوميّ عربيّ ونهج قائم على حقوق قومية وليس فقط مدنية.^{٢٣} قامت حركة الأرض في ٢٣ حزيران العام ١٩٦٤ بإرسال مذكرة تتألف من ١٣ صفحة إلى الأمم المتحدة حول وضع الفلسطينيين داخل دولة إسرائيل. وجاء رد السلطات بتفكيك حركة الأرض في تشرين الثاني العام ١٩٦٤، وطرد اثنين من أعضاء الحركة الرئيسيين

إلى لبنان وهما: صبري جريس، وحبيب قهوجي، وحكمت على صالح برانسة بالسجن لمدة عشر سنوات. رفضت السلطات السماح للحركة بدخول الانتخابات. بعد إطلاق سراحه، قام برانسة بتأسيس المركز الثقافي في الناصرة، وقام كردوش بتأسيس الصحافة التعاونية، وأشرف على جمعية تعنى بتقديم الدعم للأسرى.^{٢٤}

وتنامت حركة المقاومة الشعبية على الرغم من التكتيكات الإسرائيلية الوحشية. في العام ١٩٦١، قرّر ثلاثة من المسيحيين الفلسطينيين أن يتحدّوا الحكم العسكري بالسفر إلى مصر من أجل العمل والدراسة، إلا أنهم قُتلوا بالقرب من قطاع غزة. وعلى الرغم من إصرار إسرائيل على أن تكون الجنازات منفصلة وصغيرة، فقد احتشد الآلاف لإحياء ذكراهم وإظهار التضامن مع أسرهم.^{٢٥} ولكن محاولات التنظيم استمرت، فعُقد اجتماع حضره عناصر تقدمية، بمن في ذلك الطلاب العرب في الجامعة العبرية يوم ٢ كانون الأول العام ١٩٦١، حيث تم إنشاء "اللجنة اليهودية العربية لإنهاء الحكم العسكري".^{٢٦} وفي نيسان العام ١٩٦٢، قامت السلطات العسكرية بإغلاق الطرق المؤدية إلى البعنة في منطقة الجليل، لمنع عقد اجتماع حول مصادرة الأراضي، وفي آب العام ١٩٦٣ عقد اجتماع مماثل، ولكنه قوبل بأمر إغلاق على الطيبة في المثلث، وتم اعتقال ١٨ فلسطينياً.^{٢٧} حاول الطلاب العرب المسجلون في الجامعة العبرية تنظيم اجتماع العام ١٩٦٤ للتخطيط لإنشاء ناد عربي في قرية كفر قرع في المثلث، ولكن تم اعتقال خمسة منهم في الليلة التي سبقت موعد الاجتماع، وعندما حاول البقية مواصلة عقد الاجتماع، أعلنت السلطات الإسرائيلية المنطقة منطقة عسكرية مغلقة، وقامت باعتقال ٤٠ شخصاً حاولوا دخول القرية.^{٢٨} ولكن النشاطات الطلابية استمرت ونمت عبر السنوات.^{٢٩}

انتهى الحكم العسكري العام ١٩٦٦ لضرورات اقتصادية للدولة التي أرادت استخدام العملة العربية بعد نموّها الاقتصادي من التعويضات الألمانية وغيرها من المشروعات التي نقلت اليهود الشرقيين ذوي العملة القليلة الخبرة إلى العملة الماهرة. بهذا، كانت الحاجة الاقتصادية لماء الوظائف الوضيعة.^{٣٠} سمحت قوانين الدولة العنصرية بسرقة الأراضي من السكان الأصليين (سواء أولئك الذين فرّوا خلال الحرب

أو الذين بقوا في أراضيهم). يقول القانون إنّ نقل الأراضي للدولة يسمح من أجل "الدفاع عن الدولة والأمن العام والحفاظ على الإمدادات الضرورية والخدمات الأساسية العامة واستيعاب المهاجرين [اليهود] أو إعادة تأهيل الجنود السابقين..."، وبالتالي فقدت بقية القرى العربية ما يقارب نصف أراضيها المتبقية بحلول سبعينيات القرن العشرين. وانخفضت نسبة العرب الذين يعملون في إنتاج الأغذية (الزراعة، والصيد ... الخ) من ٥٧٪ في العام ١٩٣١ إلى ٣٨٪ في العام ١٩٦٣ وصولاً إلى ١٩,٩٪ في العام ١٩٧٢.^{٢١}

خارج الخط الأخضر

يمثل الفلسطينيون داخل "إسرائيل" ١٢٪ من مجموع الشعب الفلسطيني، وقد ناضلوا من أجل البقاء والمقاومة، واستخدموا جميع أساليب المقاومة الشعبية، وهكذا فعل إخوانهم خارج الخط الأخضر. تشتت ما يقارب مليون لاجئ فلسطيني وتوزعوا بين الضفة الغربية تحت الحكم الأردني وقطاع غزة تحت الحكم المصري والبلدان العربية الأخرى (بشكل رئيسي لبنان، وسوريا، والأردن، ومصر). كان النشاط المطلوب والأكثر إلحاحاً هو المساعدات الإنسانية العاجلة. استضافت محافظة بيت لحم وحدها ما يقرب من ٥٠ ألف لاجئ (العديد منهم انتقلوا لاحقاً إلى مناطق أخرى). جاءت المساعدات لهم أولاً من مواطنين آخرين (وطبعاً كانت عائلتي كغيرها من العائلات من بينهم)، ثم جاءت مساعدات من جميع أنحاء العالم (مثل الكويكرز) حتى تم إنشاء وكالة الأمم المتحدة لإغاثة وتشغيل اللاجئين (الأونروا).

عندما تم استيعاب صدمة الكارثة، وتكيف الفلسطينيون على هذا الواقع الجديد، شرع الشعب بإعادة تنظيم وبناء مؤسساته. في البداية، كانت هذه المؤسسات مبنية على الأسرة والعشيرة. فقد تم تقسيم مخيمات اللاجئين على أساس العشيرة والمكانة وحدود القرية، وحاول الزعماء التقليديون استعادة مجتمع منظم لكي يعمل في المنفى. ولأن الطرق التقليدية لكسب العيش اختفت فقد شدد الفلسطينيون على التعليم لإعادة بناء حياتهم ومجتمعهم. ولقد كان الشباب في الجامعات العربية مسيّسين وجاهزين للعمل، بينما لا يزال الجيل السابق يخرج من صدمة

النكبة. وفي أوائل الخمسينيات من القرن العشرين، بدأت مجموعة من الطلاب الفلسطينيين في مصر وفي قطاع غزة تحت السيطرة المصرية بالتنظيم والتدريب في سياق قومي/ وطني. هؤلاء سيصبحون القيادة التي سترث القيادة من الذين قادونا في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين. كان ياسر عرفات قد درس الهندسة في جامعة الملك فؤاد الأول (التي أصبحت في وقت لاحق جامعة القاهرة) حيث التقى العام ١٩٥١ صلاح خلف و خليل الوزير (أولاد لأصحاب محلات بقالة من يافا والرملة). كان خليل الوزير يقوم بعمليات فدائية من سيناء. وقام هؤلاء بترشيح أنفسهم لانتخاب مجلس الطلبة، وفازوا لأنهم اختاروا برنامجاً عاماً، وبنوا قائمة موحدة تتضمن أيديولوجيات سياسية متنافسة، ولاحقاً قاموا بتأسيس حركة التحرير الفلسطينية (المعروفة باسم حركة "فتح") مع خالد الحسن (من مدينة حيفا) وفاروق القدومي. كان هدفهم الأول والرئيسي هو تعزيز الهوية الوطنية الفلسطينية.

كما كان الفلسطينيون داخل الخط الأخضر يميلون إلى الأحزاب اليسارية، هكذا كان الناشطون الفلسطينيون خارجه. لذا، كانت معظم الحركات تحت ضغط كبير من الحكومات العربية الرجعية التي اتخذت إجراءات صارمة ضد اليساريين في منتصف خمسينيات القرن العشرين. مثلاً حصلت حملة اعتقالات كبيرة في الأردن. وحاول حكام عرب آخرون احتواء الحركة الفلسطينية. خرجت مظاهرات كبيرة في كل من قطاع غزة وفي مصر من قبل الفلسطينيين (وبخاصة الطلبة منهم) رداً على العدوان الإسرائيلي على قطاع غزة في ٢٨ شباط ١٩٥٥، وأدت هذه المظاهرات إلى عقد اجتماع مع الزعيم المصري الراحل جمال عبد الناصر ضمّ عبد الحميد التيصي (بعثي) وعزت عوده (شيوعي) وفؤاد أحمد (حركة القوميين العرب) وصلاح خلف (وطني فلسطيني، وأصبح في وقت لاحق زعيماً في حركة "فتح")^{٣٢}.

خلال فترة العدوان الثلاثي على قطاع غزة وسيناء العام ١٩٥٦، طوّرت الطلاب مهارات للمقاومة، وأصبحوا مخوّلين كقادة في صنع القرار بعد انسحاب القوات الإسرائيلية والبريطانية والفرنسية (بضغط من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية آنذاك آيزنهاور). انتقل العديد من هؤلاء القادة إلى دول الخليج، حيث فرص العمل الوفيرة، وكان فيها

الكثير من المثقفين الفلسطينيين الذين كانوا بارعين في بناء الاقتصاد الناشئ في دول الخليج مثل قطر، والإمارات، والكويت، والمملكة العربية السعودية. ضُمَّت مجموعة الكويت كلاً من ياسر عرفات، وخليل الوزير، وفاروق القدومي، الذين كانوا بارعين في تشكيل حركة وليدة أطلقوا عليها اسم حركة التحرير الفلسطيني (فتح). أعلنت هذه الحركة بشكل رسمي العام ١٩٥٧. أراد أحد مؤسسيها ياسر عرفات أن يبدأ الكفاح المسلح في وقت مبكر، وتمّ التوصل إلى تسوية لإطلاق مثل هذا النضال تحت اسم العاصفة (في ١ كانون الثاني العام ١٩٦٥) حتى إذا نجح فسيتم اعتماده من قبل حركة "فتح"، وإذا فشل ذلك فلن يكون معترفاً به كجزء من الحركة.

في أجزاء أخرى من العالم العربي، واجهت الحركات الطلابية في مهداها تحديات مماثلة، ونجحت في تنظيم مجموعات محلية صغيرة من أجل فلسطين. فقد انعقد الاتحاد العام لطلبة فلسطين (GUPS) يوم ١١ تشرين الثاني العام ١٩٥٩ في الذكرى السنوية الثانية عشرة لقرار التقسيم التابع للأمم المتحدة.^{٣٣} ولسوء الحظ، لم يتم السماح لاتحاد العام لطلبة فلسطين بالعمل علانية في الأردن أو في الضفة الغربية، واضطُرَّ إلى استخدام كيانات بديلة، ولكن أدت الاختلافات بين البعثيين والقوميين العرب إلى عرقلة أنشطة الاتحاد العام لطلبة فلسطين. تم الإعلان رسمياً عن الانقسام العام ١٩٦٣ على غرار الانشقاق الذي حدث بين مصر وسوريا، والذي يظهر مرة أخرى أثر السياسة بين الدول العربية على الحركات الفلسطينية.^{٣٤} الجماعة المنشقة في دمشق كانت أصغر وتلاشت بسرعة، وحافظت المجموعة الرئيسية ومقرها مصر على الخط القومي العربي بدعم الجامعة العربية التي ضُمَّت منظمة التحرير الفلسطينية كعضو العام ١٩٦٥. ولكن أدت هزيمة الجيوش العربية العام ١٩٦٧ إلى انتقال الكثير من الفلسطينيين إلى مزيد من النزعة القومية الفلسطينية الضيقة بقيادة حركة "فتح" التي سيطرت على الاتحاد العام لطلبة فلسطين العام ١٩٦٩ (حصلت على ستة مقاعد من أصل ١١). لسوء الحظ، فقد قادت الانقسامات الداخلية العربية والعوامل الخارجية إلى عقد آخر اجتماع للاتحاد في مدينة بغداد بالعراق العام ١٩٩٠.

للأسف! هنالك القليل من المعلومات حول الفلسطينيين في الأردن بين العامين ١٩٤٩ و ١٩٦٧. كما هو معروف، وضعت بريطانيا العائلة الهاشمية في السلطة في أعقاب الحرب العالمية الأولى. وقام الملك عبد الله بإبرام اتفاق مع قيادة الحركة الصهيونية خلال مناقشة قرار التقسيم من أجل إفشال القومية الفلسطينية وتقسيم فلسطين بين مملكته والدولة اليهودية.^{٣٥} وعقد الاثنان، وبحذر، مؤتمرات في تشرين الأول وكانون الأول من العام ١٩٤٨، وكانت عملية معقدة بلغت ذروتها في ضم الضفة الغربية للأردن العام ١٩٥٠. قام الملك عبد الله أيضاً بإحباط الجهود التي تبذلها جامعة الدول العربية بالاعتراف والدعم لحكومة عموم فلسطين العام ١٩٤٨. بسبب هذه الإجراءات، فقد تم اغتيال الملك عبد الله من قبل شاب فلسطيني العام ١٩٥٠. سيطرت العائلة الهاشمية على الضفة الغربية، وحاولت الحد من مركزية القدس في الحياة الفلسطينية، ونقل المركزية الاقتصادية والسياسية إلى مدينة عمان. بالطبع، قاوم الفلسطينيون هذه التحركات. يشرح بلاسكوف، قائلًا:

”إنَّ التوجّه العام لسياسة النظام يمكن رؤيته بوضوح في عملية النقل التدريجي للمكاتب الإدارية الرئيسية من القدس إلى عمان. تمّ تسليط الضوء على مغزى هذه التحركات من قبل رئيس بلدية القدس في مراسلاته مع وزير الداخلية الذي ذكر الوزير أنَّ القدس هي أول مدينة في الضفة الغربية، ومركز لجميع الطوائف الدينية، وثانية الأهمية بعد عمان. تصاعدت نداءات الفلسطينيين لتحويل القدس إلى عاصمة ثانية للمملكة الأردنية الهاشمية حتى منتصف الخمسينيات من القرن العشرين، لكن مثل هذه الدعوات لم تجذب اهتمام الكثير من الفلسطينيين، ورفض النظام منح مدينة القدس مثل هذا الوضع. وكان بارزاً في جميع هذه المطالب إنعاش البلدة بما يعني في جوهره إحياء واستعادة مدينة القدس. أراد المقدسيون من الحكومة أن تعتبر المدينة رأس الحربة، وبذل قصارى جهدها من أجل تعزيزها، ولكن بدلاً من ذلك فقد واجهوا سياسة ثابتة تهدف إلى عكس ذلك تماماً. قام سكان الضفة الغربية بشكل عام، والمقدسيون بشكل خاص، باحتجاجات قوية ضد الإجراءات التي اتخذتها الحكومة الأردنية لإضعاف مكانة المدينة الإدارية والاقتصادية. وكان نقل جميع المكاتب المهمة إلى عمان مصدراً للشكوى من سكان الضفة الغربية، الذين احتجوا دوماً على رفض الحكومة السماح حتى لمقر الأونروا بأن يكون موجوداً في مدينة

القدس وسط الضفة الغربية، حيث يعيش ٧٥٪ من اللاجئين وكان هدف الحكومة من كل هذا ينقسم إلى شقين: الأول، أرادت الحكومة فرض قيود مشددة على جميع شؤون الأونروا، والثاني، أنها تسعى إلى تطوير مركز المملكة ... نتيجة لهذه السياسة وعدم وجود قيادة موحدة وبارزة محلية، فقدت مدينة القدس أقدميته. ومن أجل إضعاف مكانة المدينة، قامت السلطات الأردنية بنقل جزء من المحاكم الشرعية الإسلامية إلى مدينة عمان مرة أخرى على الرغم من الاحتجاجات لمجلس مدينة القدس. كانت هذه المعاملة إهانة كبيرة للفلسطينيين، وكانت بمثابة دليل آخر على وضعهم المتردي^{٣٦}.

تميّزت هذه الفترة بعدم التعاون والمقاومة المباشرة التي اشتدت وبلغت ذروتها في حملة فلسطينية العام ١٩٥٦، وبخاصة من قبل اليساريين. قبل ١٩٤٨ كانت عصابة التحرر الوطني المنشقة عن الحزب الشيوعي في أوائل ثلاثينيات القرن العشرين معتدلة في أهدافها في التحرر والسلام. وبعد أن حصلت الأردن على حكم الضفة الغربية، انبثق الحزب الشيوعي الأردني من عصابة التحرر الوطني. ربما كان أكبر فصيل سياسي في خمسينيات القرن العشرين في الأردن. ولقد تم قمع مظاهراته ضد الحكم الأردني بين الأعوام ١٩٥٥-١٩٥٦ (وكان هذا أول اختبار جدي للملك حسين في منصبه بحسب مذكراته). مع الحث والدعم من بريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية، قام الملك حسين باستهداف الاشتراكيين والشيوعيين. كان عمي واحداً من بين أكثر من ١٠٠٠ من المشتبه فيهم في تلك الحقبة الذين اعتقلوا وعذبوا. الكثير منهم لا يزال يذكر الأشهر والسنوات في سجن الجفر الصحراوي في شرق الأردن. معظمهم كان من الناس العاديين الذين تحدثوا علناً عن حقوق العمال، أو عن عودة اللاجئين الفلسطينيين لديارهم وأراضيهم.

خلال هذه الفترة من النضال من أجل فلسطين، كان الممثلون "الرسميون" في المحافل الدولية الديكتاتوريين العرب، الذين عقدوا اجتماعاً في جامعة الدول العربية لوضع إستراتيجيات فاشلة، أو لإطلاق شعارات فارغة. كانت التصريحات كافية للحفاظ على دعم القوى الغربية (التي تخضع للنفوذ الصهيوني). وفي هذا الإطار، عقدت جامعة الدول العربية مؤتمراً في مدينة القدس من ٢٨ أيار إلى ٢ حزيران من العام ١٩٦٤، ضم ٣٩٦ مندوباً من الفلسطينيين

من أجل تأسيس منظمة التحرير الفلسطينية. وضمت هذه المنظمة كلاً من "الصندوق الوطني الفلسطيني" و"جيش التحرير الفلسطيني". كان هذا جزءاً من الرد على الارتفاع في شعبية الحركات الفلسطينية الناشئة مثل حركة "فتح" والحركات اليسارية. عُيّن أحمد الشقيري ذو النوايا الحسنة رئيساً للمنظمة منذ تأسيسها إلى أن قدم استقالته في أعقاب هزيمة ١٩٦٧ (النكسة). بدأ أحمد الشقيري اهتمامه بالسياسية في وقت مبكر، وهو في العشرينيات من العمر كعضو في حزب الاستقلال في شمال فلسطين في ثلاثينيات القرن العشرين، وكان رئيساً لمكتب العلاقات العامة الفلسطينية في الولايات المتحدة الأمريكية العام ١٩٤٥، وعمل مساعداً للأمين العام لجامعة الدول العربية (فيما يخص قضية فلسطين) بين الأعوام ١٩٥١-١٩٥٧.^{٣٧}

لم تستطع منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة أحمد الشقيري أن تحقق تقدماً ملموساً لأسباب عدة: (١) السيطرة العلنية والسريّة من قبل الدول العربية القوية التي كانت لا تريد أن تشهد أيّة مواجهات مباشرة مع الإسرائيليين. (٢) عدم وجود قاعدة جماهيرية شعبية. (٣) استبعاد العائلات الفلسطينية المؤثرة. (٤) قلة الدعم المادي. وبالتالي، تم تجاهل منظمة التحرير الفلسطينية ونقدها من قبل اللجنة العربية العليا في فلسطين التي كانت لا تزال تحت قيادة أمين الحسيني، ومن قبل حركة "فتح" بقيادة خليل الوزير وياسر عرفات، ومن قبل الفصائل الفلسطينية الأخرى. هزيمة القوات العربية في العام ١٩٦٧، ومعركة الكرامة العام ١٩٦٨ غيّرتا المشهد. قررت حركة "فتح" وغيرها من الفصائل الأخرى دخول منظمة التحرير الفلسطينية العام ١٩٦٩، وأصبحت حركة "فتح" القوة المهيمنة بفضل القدرة التنظيمية. ثم قامت منظمة التحرير الفلسطينية بالتوسّع في جميع قطاعات الحياة الفلسطينية في الشتات.

الفصل العاشر

مقاومة للاضطهاد تحت دولة واحدة ١٩٦٧-١٩٨٦

”إنَّ المقاومة ضد الاحتلال في الأراضي المحتلة اليوم لا تعكس عموماً الأساليب العنيفة. إضرابات المدارس، والإضرابات التجارية، والالتماسات، وبرقيات الاحتجاج والاستنكار، والإعلانات في الصحف اليومية، ومحاولات مقاطعة البضائع الإسرائيلية، في الواقع هي مظاهر من النضال غير العنيف“.

مبارك عوض ١٩٨٤.^١

النكسة

كان عمري ١٠ أعوام عندما دخلت الدبابات الإسرائيلية الضفة الغربية في الحرب الخاطفة التي أصبحت تعرف باسم النكسة، أو ”حرب الأيام الستة“ العام ١٩٦٧. استولت إسرائيل عندها على ما تبقى من فلسطين (الضفة الغربية وقطاع غزة التي تمثل ٢٢٪ من فلسطين التاريخية)، بالإضافة إلى الجولان وسيناء. أتذكر والدتي تعطي الملابس المدنية لبعض رجال الجيش الأردني الفارين. وأتذكر القصف الذي أسفر عن مقتل إلياس سالم رشماوي، وهو مدرّس من بلدتي بيت ساحور. وأذكر الجنازة والرايات البيضاء للاستسلام المعلقة على المنازل. التحقت بمدرسة خاصة لمدة شهرين حتى أعيد فتح المدارس الحكومية بعد صراع المعلمين مع السلطات الإسرائيلية حول تغيير المناهج. لم أعرف حينها أنَّ جغرافيا سياسية جديدة خلقت ولم يعرف أحدٌ أنَّ هذا الاحتلال سيبقى لعقود. أعطت سيطرة إسرائيل العسكرية قاداتها الغطرسية أن يملوا الواقع على سكان عَزَل. نتج عن هذا الحدث التحولي

طرد ٣٠٠ ألف فلسطيني، البعض منهم أصبحوا لاجئين للمرة الثانية. قامت إسرائيل بمحو بعض القرى والأحياء، بما في ذلك حي المغاربة في القدس من أجل إنشاء ساحة ضخمة أمام حائط البراق/المبكى. وتم تدمير ثلاث قرى فلسطينية في شمال غرب القدس، وطرد حوالي ٩٠٠٠ فلسطيني من منازلهم أجبروا على السير لمدة أيام على سفوح التلال الصخرية للوصول إلى بر الأمان. تم تحويل هذا الموقع في وقت لاحق إلى "حديقة كندا" بتمويل من اليهود الكنديين، ولكن القرويين لا يزالون يتوقون ويناضلون من أجل العودة إلى ديارهم.^٢

قامت إسرائيل بإخضاع أراض شاسعة جديدة تحت الحكم المباشر. لم تكن تريد ضم كل هذه المناطق على الفور (باستثناء القدس الشرقية) بسبب عدد السكان الفلسطينيين الكبير ومن بينهم أكثر من ٢٢ مخيمًا للاجئين. من الدروس المستفادة من النكبة، هو أنه إذا غادرت أثناء الحرب، فلن يسمح لك بالعودة، لذا كان البقاء في الأرض وعدم مغادرتها مقاومة شعبية (صمود). بعد الاحتلال بدأت إسرائيل ببناء المستوطنات الاستعمارية في المناطق المحتلة، وخططت لحصر السكان المتبقين في مناطق صغيرة جداً حسب مخططات ألون ١٩٦٨. لقد كانت تكتيكات إسرائيل بعد العام ١٩٦٧ في خدمة أهدافها السياسية للحفاظ والاستفادة من الاحتلال.^٣ كان نمو المستوطنات في المناطق المحتلة الوجه الأكثر وضوحاً لهذه السياسة الاستيطانية العدوانية. يوضح ناشط السلام الإسرائيلي ديفيد شولمان:

"لا تخطئ في ذلك: إسرائيل مثلها مثل مجتمعات أخرى لديها عناصر ميالة إلى العنف ومريضة اجتماعياً. ما هو غير عادي في العقود الأربعة الأخيرة في إسرائيل هو أن الكثير من الأفراد المولعين بالتدمير وجدوا ملاذاً آمناً هنا مع إعطائهم شرعية أيديولوجية في إطار المشروع الاستيطاني. هنا في أماكن مثل شافات معون، وإيتمار، وتبوح، والخليل لديهم في الواقع الحرية المطلقة لإرهاب السكان الفلسطينيين المحليين من خلال الهجوم، وإطلاق النار، والجرح، والقتل - كل ذلك باسم القدسية المزعومة للأرض وحق اليهود الحضري في ذلك".^٤

ولكن كما سنرى أدناه، انخرط الفلسطينيون والعرب الآخرون في العمل اللاعنفي والجماهيري على جانبي الخط الأخضر (خط الهدنة

(العام ١٩٤٩)، الذي تلاشى الآن ليخلق دولة إرهابية موحدة.

الفلسطينيون داخل الخط الأخضر

ناضل الفلسطينيون بحكمة وشجاعة لمدة ١٩ عاماً في ظل النظام الصهيوني الغاشم داخل الخط الأخضر. وبعد العام ١٩٦٧، أصبح "عرب الداخل" متواصلين مع فلسطيني الضفة وغزة وتبادلوا الخبرات وتعاونوا لمقاومة الاحتلال. بعد هجمات عدة على حقوقهم، كانت التجمعات السكانية الفلسطينية تقتصر على مناطق متقلصة صغيرة في الجليل والمثلث والنقب، وأصبح العشرات من التجمعات الفلسطينية الأخرى "غير معترف بها". وكانت القرى والبلدات غير المعترف بها تعتبر أساساً غير قانونية، وكان هدم المنازل متكرراً في هذه المناطق وعلى أطراف المجتمعات الصغيرة "المعترف بها". ولم تتلق القرى غير المعترف بها أيّاً من الخدمات العامة (مثل المدارس، أو الطرق، أو العيادات، أو الكهرباء، أو المياه، أو الصرف الصحي، أو غيرها من البنى التحتية). ولا يزال نضال فلسطيني ١٩٤٨ بعيداً عن أنظار الجمهور في الغرب وحتى في العالم العربي.

أظهرت نكسة العام ١٩٦٧ عمق الانقسامات والغدر والخيانة وعجز الأنظمة العربية. وهذا جعل المزيد من الفلسطينيين، بمن فيهم داخل الخط الأخضر، ليصبحوا أكثر اتصالاً مع هويتهم الفلسطينية وتعزيز قوميتهم. رفض معظمهم التعريف بكونهم مجرد "عرب يعيشون في دولة إسرائيل". لكن استمر الانقسام الرئيسي الذي كان قائماً قبل العام ١٩٦٧ بين الحزب الشيوعي الذي يدعم المساواة داخل دولة إسرائيل، وحركة القوميين العرب التي رفضت التطبيع والاعتراف بالدولة. أيد الحزب الشيوعي قرار الأمم المتحدة رقم ٢٤٢، ودعا إسرائيل إلى الانسحاب من الأراضي التي تم احتلالها حديثاً، وتبنى أيضاً البيانات والسياسات عن حق تقرير المصير، وأيد أيضاً "حق" إنشاء وصيانة الدولة الصهيونية في فلسطين. كما وقف حزب ركاك أيضاً ضد الكفاح الفلسطيني المسلح الذي نما بعد العام ١٩٦٧ في شكل حركات حرب عصابات.

الاتجاه الآخر في أوساط الفلسطينيين في الداخل رفض قبول شرعية الدولة الإسرائيلية، أو المشاركة في انتخابات الكنيست. تم إنشاء إطار

تنظيمي لهذه الحركة في العام ١٩٦٩ في بلدة أم الفحم بمبادرة من حسن جبارين وغسان فوزي ومحمد سلامة، وأصبحت رسمية العام ١٩٧٢، وعرفت باسم الحركة الوطنية التقدمية /أبناء البلد. كان لهذه الحركة أثرٌ كبيرٌ على المقاومة الشعبية التي تلت في أوائل السبعينيات من القرن العشرين وحتى يومنا هذا.^٦ في الآونة الأخيرة، شكل الفلسطينيون في إسرائيل فصيلاً ثالثاً يدعى الرابطة الإسلامية، ويوازي نمو الحركات الإسلامية في أنحاء الشرق الأوسط في السنوات العشرين الماضية.

بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وانتصار مصر واختراق خط بارليف في سيناء، ارتفعت معنويات الفلسطينيين والعرب الآخرين، ما أعطى طاقة جديدة وتعبئة لحركات التحرر، وأجبرت الجماهير إحداث تغييرات في هياكل القوى القائمة. وتوج هذا بالاعتراف الدولي بمنظمة التحرير الفلسطينية العام ١٩٧٤. عندها دعم الحزب الشيوعي الإسرائيلي الفكرة القائمة بأن منظمة التحرير الفلسطينية بالفعل تمثل الشعب الفلسطيني، كما توقف عن التأكيد على قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢. وبدلاً من ذلك، شدد على الحقوق الأساسية للفلسطينيين في الأرض. وسمحت هذه التغييرات للحزب بكسب التأييد، وبخاصة بعد تشكيل الجبهة الديمقراطية للسلام والمساواة، ما أدى إلى نجاحات في الانتخابات البلدية في مدينة الناصرة، وفي انتخابات الكنيست العام ١٩٧٧.^٧ بعد ذلك، فقدت الجبهة زخمها وبدأت بالتراجع.^٨ في العام ١٩٨١، تم تشكيل حركة أخرى تدعى الحركة التقدمية للسلام، التي كسبت تأييداً كبيراً في الانتخابات البلدية في مدينة الناصرة العام ١٩٨٣، ولكنها حصلت على مقعد واحد فقط في الكنيست، وخسرت في الانتخابات في وقت لاحق.^٩ مقارنة بذلك، قامت حركة أبناء البلد بوضع إستراتيجيات للوصول إلى الطلاب في الجامعات، وتشكيل الحركة الوطنية التقدمية دون الانخراط في النظام السياسي الإسرائيلي. وحصلت الحركة على دعم لموقفها من انتفاضة ١٩٨٧.

أمّا بالنسبة للحركة الإسلامية، فقد كان لها وجودٌ صغيرٌ في فلسطين كحركة سياسية منظمة بدأت مع ثورة العام ١٩٣٦، وشملت تشكيل فرع لجماعة الإخوان المسلمين في مدينة القدس العام ١٩٤٦. كان لدى الحركة متطوعون انضموا إلى الجيش المصري في حرب العام

١٩٤٨. كما هو الحال مع الحركات الأخرى فقد كان للحركة نقاط ضعف حتى بعد العام ١٩٦٧، عندما بدأت الكثير من الحركات المنظمة في الظهور. فقد حاولت مجموعة صغيرة تنظيم مقاومة مسلحة العام ١٩٧٩، ولكن ألقى القبض على أعضائها وانتهت بحلول العام ١٩٨١ داخل الخط الأخضر. وتم تشكيل حركة الشباب المسلم بعد العام ١٩٨٣، وبدأ بإنشاء مؤسسات تخدم المجتمع، ولاحقاً تم الدخول في انتخابات المجالس البلدية العام ١٩٨٩. وبعد العام ١٩٩٦، ظهر انقسام في الحركة الإسلامية بين أولئك الذين يؤيدون المشاركة في انتخابات للكنيست، وأولئك الذين لا يؤيدون ذلك.^{١٠}

بعيداً عن السياسات الفصائليّة، كانت الجهود الجماهيرية المبذولة تتنامى. اتخذت زيادة التعبئة في أوساط الفلسطينيين داخل الخط الأخضر خطوة مثيرة وجريئة إلى الأمام في اجتماع كبير من أجل الدفاع عن الأرض في آب العام ١٩٧٥ في مدينة الناصرة حضره ١١٠ أشخاص. في هذا الاجتماع، تم اختيار لجنة برئاسة أنيس كردوش للتحضير لاجتماع أكبر. تضمّن الاجتماع الأكبر المنعقد في تشرين الأول العام ١٩٧٥ حوالي ٥٠٠٠ من الناشطين من العديد من الفصائل. تم إنشاء لجنة الدفاع عن الأرض، والمكوّنة من ١٠٠ عضو، ولجنة أمانة السر المكونة من ١١ عضواً. وبدأت النشاطات بالاحتجاج على مصادرة ٢٢ ألف دونم في منطقة الجليل، وعلى إعلان مساحات كبيرة تابعة لثلاث قرى في منطقة الميل، منطقة عسكرية مغلقة في الوقت نفسه الذي أعلنت الحكومة الإسرائيلية عن عزمها بناء ٩ مستوطنات يهودية في هذه المنطقة المغلقة. عندها عُقد اجتماع في مدينة الناصرة في ٦ آذار العام ١٩٧٦، ضم ٤٨ من رؤساء البلديات والمجالس القروية المحلية، ودعا إلى يوم من الاحتجاجات والإضرابات في ٣٠ آذار العام ١٩٧٦. عندما بدأ الإضراب، قررت الكثير من المناطق خارج منطقة الجليل الانضمام للاحتجاج (بما في ذلك مناطق في الضفة الغربية).^{١١} وأصبح يعرف هذا اليوم باسم "يوم الأرض" في جميع أنحاء فلسطين حتى يومنا هذا. بدأت الأحداث بالفعل يوم ٢٩ آذار بمظاهرة احتجاج ضد التعبئة الاستفزازية للجيش الإسرائيلي في قرية دير حنا. وفي وقت لاحق من ذلك المساء، تظاهرت قرية عزّابة البطوف تضامناً، واستشهد شاب يدعى (خير محمد ياسين) برصاص جنود إسرائيليين. كان الشهيد

الأول في يوم الأرض العام ١٩٧٦. سقط المزيد من الشهداء خلال الـ ٢٤ ساعة التي تلت، ومع ظلم السلطات زادت حدة المقاومة الشعبية. تزامنت الأحداث مع مذكرة كونيغ السرية التي وضعت خطأً لمزيد من التمييز والتطهير العرقي من أجل جعل منطقة الجليل أكثر يهودية. أدانت الحكومة الإسرائيلية تسريب المذكرة، ولكن لم يستنكر أحد من المسؤولين في الحكومة محتواها العنصري.^{١٢} بعد هذا الحراك الشعبي الناجح، نشأت خلافات أضعفت اللجنة المنظمة، ولكن لا تزال الحركة قوية حتى يومنا هذا.^{١٣}

بدأ التخطيط لتشكيل اللجنة القطرية لرؤساء السلطات المحلية العربية العام ١٩٧٣، وكان موعد الافتتاح الرسمي في مؤتمر صحافي في شباط العام ١٩٧٥. وبسبب وجود بعض الأعضاء الذين ينتمون إلى الأحزاب الصهيونية، لم تؤيد اللجنة الدعوة ليوم الأرض العام ١٩٧٦، وتمت مواجهتها من قبل نشطاء القاعدة الشعبية. ومع ذلك، فقد أنجزت اللجنة بعض الأمور مثل التقليل الطفيف في فارق نسبة الإنفاق الحكومي على البلديات اليهودية مقابل البلديات العربية، من أكثر من ٢٠ إلى ٤-٥ أضعاف.^{١٤}

تعاون الكثير من المتدينين والزعماء التقليديين الدروز مع الحركة الصهيونية قبل قيام دولة إسرائيل، إذ انضم بعض الدروز إلى القوات التي قاتلت ضد الميليشيات الفلسطينية والعربية الأخرى. ولكن الكثير منهم تمردوا ضد أولئك الزعماء التقليديين، وانضموا إلى المقاومة الفلسطينية، بعضهم فقدوا حياتهم دفاعاً عن قرية البروة العام ١٩٤٨. بدأ رسمياً تجنيد الدروز نتيجة لاتفاق بين الحكومة وشخصيات درزية دينية متعاونة. لكن في العام ١٩٥٦، قام ١١٠٠ من السكان الدروز بتوقيع عريضة ترفض هذه الدعوة.^{١٥}

وعلى الرغم من الإعلان الشفهي المتكرر من جانب النظام الصهيوني "للمساواة بين الدروز واليهود"، لكن التعاون لم يُنقذ القرى الدرزية من مصير القرى الفلسطينية الأخرى؛ مثل مصادرة الأراضي، والتمييز، والحرمان الاقتصادي. قام الجيش الإسرائيلي بمعاملة الجنود الدروز معاملة سيئة، وطلبوهم بالقيام بالكثير من الأعمال البغيضة أخلاقياً، ووضعوهم وجهاً لوجه مع الفلسطينيين الآخرين وفي خط النار.

ويسبب هذه العوامل، تنامت قوّة تيار المقاومة داخل الطائفة الدرزية. شكلت العام ١٩٧٢ لجنة المبادرة الدرزية بزعامة الشيخ فرهود فرهود من قرية الرامة، وسُجّن الآلاف من الدروز لرفضهم الخدمة في الجيش الإسرائيلي، وتعرّض نشطاء السلام للهجوم من قبل الجنود الإسرائيليين في مناسبات عديدة، كما حدث خلال مظاهرة جرت في بيت جن في ١٣ نيسان ١٩٨٧.^{١٦}

كان أول هيكل تنظيمي للطلبة الفلسطينيين داخل إسرائيل هو لجنة الطلاب العرب في الجامعة العبرية في العام ١٩٥٨. وشكلت لجان طلابية في الجامعات الأخرى، ثم اندمجت العام ١٩٧٤-٧٥ في الاتحاد القطري للطلاب العرب. داخل هذه الهياكل، عكست الحركة الطلابية الانقسامات داخل المجتمع ككل؛ فعلى سبيل المثال، بين أولئك الداعمين لراكاح والداعمين للحركة الوطنية التقدمية-أبناء البلد.^{١٧}

وفي انتخابات العام ١٩٨٤، قام محمد ميعاري وعرب آخرون وأوري أفنيري والجنرال ماتي بيليد ويهود آخرون بإنشاء القائمة التقدمية للسلام، وتدعو إلى المساواة بين المواطنين في إسرائيل، بغض النظر عن خلفيتهم، والعمل للمساعدة في إقامة دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. لم يلق إصرار الحزب الذي يشمل قادة عرباً ترحيباً في أوساط اليهود الإسرائيليين وحصل على ٢٠٪ من أصوات الناخبين العرب في الانتخابات.^{١٨} حصلت راکاح والقائمة التقدمية للسلام على أصوات الفلسطينيين الذين يُعتقد أنهم تأقلموا/استوعبوا واقع دولة إسرائيلية. اختار الفلسطينيون الآخرون عدم المشاركة وقاموا بتركيز طاقاتهم على الحركات والجماعات التي رفضت التقسيم، ورفضت حتى فكرة وجود دولة إسرائيل في فلسطين التاريخية. وقام آخرون بالتصويت لصالح الأحزاب العربية الوليدة. كان وجود العرب واليهود التقدميين في الكنيست مفيداً في بعض الأحيان للأحزاب السياسية الكبيرة في إسرائيل، وليكون دليلاً على ديمقراطية إسرائيل، وفي بعض المناسبات من أجل المساومة والحصول على أصوات أخرى إضافية. مثلاً انتخب شلومو هيلل متحدّثاً عن الكنيست بفضّل أصوات محمد ميعاري وماتي بيليد مقابل الاعتراف بألم الفحم كبلدية.^{١٩}

قامت الكنيست في ٣١ تموز العام ١٩٨٥ بتعديل القانون الأساسي

للانتخابات، بإضافة: "هناك قائمة من المرشحين لا ينبغي أن تشترك في انتخابات الكنيست إذا كان أي من التالي ضمن أهدافها أو أفعالها صراحة أو ضمناً: (١) إنكار وجود الدولة الإسرائيلية كدولة للشعب اليهودي. (٢) إنكار الطابع الديمقراطي للدولة. (٣) التحريض على العنصرية". ما يعني ذلك هو أن أي مرشح يدعو إلى تطوّر تلك الدولة لتصبح دولة ديمقراطية لجميع مواطنيها بدلاً من دولة الفصل العنصري، سيتم منعه من الترشح للانتخابات.

في انتخابات العام ١٩٩٢، لم تقدّم القائمة التقدمية للسلام عدداً كافياً لتصل للكنيست، وقرّرت الحركة الإسلامية وللمرة الأولى دعم الانتخابات من خلال دعم الحزب العربي الديمقراطي، الذي دعا إلى المساواة داخل الدولة، وإلى إنشاء دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة. تمّ إنقاذ حزب العمل عن طريق الدعم من هذه الأطراف العربية في الكنيست. في المقابل، حصل العرب على جزء من حقوقهم، بما فيها مساواة أكثر في الضمانات الاجتماعية، وتنمية مدينة الناصرة، والتخفيف في عملية البناء اليهودي في البلدات العربية، ووقف هدم المنازل الفلسطينية في هذه المدن.^{٢٠}

لم يتفقّ التجمع الوطني الديمقراطي مع الحزب العربي الديمقراطي سياسياً. ولم يؤيد اتفاقية أوسلو أو فكرة وجود دولتين، ولكن كان يؤمن في تحويل إسرائيل إلى دولة لمواطنيها. وأحرز التجمع الوطني الديمقراطي بقيادة عزمي بشارة تقدماً مهماً في تثقيف الجمهور حول الطبيعة العنصرية للنظام السياسي الإسرائيلي، وصعوبة تحقيق الحقوق داخل نظام حكومة صهيونية عنصرية. هذا ودخل التجمع العربي الديمقراطي في شراكة مع حزب "حداش" في انتخابات العام ١٩٩٦، وحصلت قائمته على ٥ مقاعد بينها مقعد لبشارة.^{٢١} بدأ عزمي بشارة مسيرته السياسية العام ١٩٧٤ من خلال تنظيم اللجنة القطرية للثانويين العرب (وهي حركة طلابية كانت موجودة في المدارس في جميع أنحاء فلسطين العام ١٩٤٨). ومثّل عزمي بشارة اتحاد الطلاب الجامعيين العرب، الذي شارك في تأسيس اللجنة المركزية التي نظمت أحداث يوم الأرض في ٣٠ آذار العام ١٩٧٦.^{٢٢}

من أجل فهم النضال الإنساني اللاعنفي داخل الخط الأخضر (حيث الفصل العنصري قويا أيضاً)، فإنني أوصي بقراءة كتب عرب الداخل مثل عزمي بشارة وحاتم كناعنة،^{٢٣} أيضاً هنالك إسرائيليون شجعان عاشوا في المجتمعات الفلسطينية المهمشة وكتبوا وصفاً مؤثراً وعادلاً عن الواقع الصعب لفلسطيني الداخل. من أمثال هؤلاء سوزان ناثن.^{٢٤}

الفلسطينيون خارج الخط الأخضر

في السنوات السبعة الأولى في مدينة القدس وغيرها من المناطق المحتلة، حاول الفلسطينيون ملء الفراغ الناجم عن مغادرة السلطات الأردنية من خلال تقوية المؤسسات العربية، والصمود في وجه الاحتلال، بينما ننتظر التحرير من الخارج. شرعت السلطات الإسرائيلية بأنشطة استيطانية واسعة النطاق في القدس الشرقية بعد ضمها وتوسيع حدودها. في غضون بضع سنوات، كانت قد صادرت ما يقرب من ثلث الأراضي الخاصة من القدس الشرقية. لكن مع ذلك تمكنت المقاومة المحلية المصممة من الحفاظ على الوجود الفلسطيني الكبير ضد هذه الهجمة. مثلاً نجد كتاباً إسرائيليين يقولون:

”لو استطاع القادة الإسرائيليون تطبيق خططهم لغادر معظم السكان العرب القدس الشرقية منذ زمن بعيد. هذا تصريح قاس، ولكنه الحقيقة. فقد أظهر قرار سياسي بشأن القدس الشرقية أنَّ إسرائيل كانت تفعل كل ما هو ممكن لتشجيع وأحياناً لإجبار العرب في القدس الشرقية على مغادرة المدينة. وكان هذا حقيقياً، وبخاصة فيما يتعلق بسياسات الإسكان والأرض.“^{٢٥}

لقد كانت الأولوية الأولى للاحتلال الإسرائيلي هي الاستيلاء على مدينة القدس ودمجها ضمن ”الدولة اليهودية“. كانت المقاومة الفلسطينية حاسمة في إحباط أو على الأقل تأخير نجاح المحتلين بشكل كبير. فور احتلال القدس حاولت وزارة الشؤون الدينية الإسرائيلية التحكم بشؤون المسلمين. ولكن في اجتماع في ٢٤ تموز العام ١٩٦٧ برئاسة الشيخ عبد الحميد السايح، تم تشكيل لجنة دينية إسلامية لتضع إسرائيل تحت الأمر الواقع، وهو استقلالية للقيادة الدينية للمسلمين.^{٢٦} بشكل مماثل، رفضت الغرفة التجارية العربية اندماجها مع الغرفة

التجارية الإسرائيلية، وبدلاً من ذلك قامت بتشجيع التجار على عدم دفع الضرائب في العام ١٩٦٧.^{٢٧}

وتمثل قضية شركة كهرباء القدس نموذجاً ملهماً للمقاومة الشعبية في المناطق المحتلة. منذ العام ١٩٥٧ تسيطر ست بلديات في الضفة الغربية وحوالي ٢٠٠٠ من المساهمين على الشركة المملوكة للقطاع العام. كانت هناك جهود إسرائيلية متواصلة للسيطرة على الشركة، أو لعرقلة جهودها الرامية إلى مواصلة توفير الخدمة لعملائها بعد العام ١٩٦٧.^{٢٨} من جهة، قام رئيس بلدية القدس العربية روجي الخطيب (الذي أصبح أيضاً رئيساً لشركة كهرباء القدس) بمواجهة الخطة الإسرائيلية في محاكم إسرائيلية، وحين فاز في القضية تم ترحيله. أنكرت إسرائيل حق شركة كهرباء القدس في شراء مولدات جديدة، وأجبرت الشركة على شراء الكهرباء من الشركة الإسرائيلية. وحاولت السلطات الإسرائيلية أيضاً الاستيلاء على مستشفى المقاصد في القدس، ووضعه تحت إشراف وزارة الصحة الإسرائيلية، لكن تم إحباط تلك الخطط بفضل المقاومة الشعبية للجنة الإدارة (بقيادة إبراهيم الدقاق) وبمساعدة من المجتمع الدولي.^{٢٩}

النساء يتولين زمام المبادرة

أخذت المرأة زمام المبادرة في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين وفي أشد الأوقات الحرجة في تاريخنا.^{٣٠} كانت أول تظاهرة في مدينة القدس المحتلة في ربيع العام ١٩٦٨ بقيادة النساء، وتم تفريقها بالقوة.^{٣١} في شباط العام ١٩٦٨، تظاهرت أكثر من ٣٠٠ امرأة في قطاع غزة للتنديد بسياسات الاحتلال، بما في ذلك عمليات الطرد ومصادرة الأراضي.^{٣٢} وقال الكاتبان كُتاب وعوض أن "الجمعيات النسائية السياسية كانت مرتبطة مع مختلف الأطراف السياسية الفلسطينية التي كانت تعتبر جوهر الحركة النسائية الفلسطينية. وتشمل هذه المنظمات اتحاد لجان العمل للمرأة الفلسطينية. وأنشئ الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية (GUPW) في إطار منظمة التحرير الفلسطينية العام ١٩٦٥، وكانت مؤسسة وطنية تضم مختلف اللجان النسائية والجمعيات الخيرية".^{٣٣}

في العام ١٩٦٥، قامت سميحة خليل بتأسيس جمعية إنعاش الأسرة. ولدت سميحة خليل في قرية عنبتا في محافظة طولكرم العام ١٩٢٣، وعاشت في أربعينيات القرن العشرين في عسقلان. أصبحت سميحة لاجئة في قطاع غزة العام ١٩٤٨، وسافرت عن طريق بيروت العام ١٩٥٢ إلى الضفة الغربية، وأصبحت عضواً في المجلس الوطني الفلسطيني العام ١٩٦٥. شغلت منصب رئيسة جمعية الاتحاد النسائي في مدينة البيرة، ومن ثم ساعدت في تأسيس جمعيات نسائية تطوعية، والاتحاد العام للمرأة الفلسطينية في مدينة القدس في ١٥ تموز العام ١٩٦٥.^{٣٤} وفي شباط ١٩٦٨، تظاهرت ٣٠٠ امرأة ضد سياسة الطرد وسرقة الأراضي.^{٣٥} وانتشرت مثل هذه الجماعات النسائية في سبعينيات القرن الماضي، ولعبت دوراً مهماً في انتفاضة العام ١٩٨٧، وقد تم تأسيس لجنة العمل النسائية في ٨ آذار العام ١٩٧٨، وبحلول العام ١٩٨٩ كان لديها أكثر من ٥٠٠٠ عضو.^{٣٦} طبعاً، هنالك تاريخ حافل للمقاومة النسائية في فلسطين يتطلب دراسة منفصلة، وهذا ضروري لأخذ العبر من هذا التاريخ.^{٣٧}

توسّعت المقاومة ضد الاحتلال على نحو بطيء رداً على القمع الإسرائيلي ولعوامل أخرى. بعد حرب ٦٧ كان من المقرر أن يبدأ العام الدراسي في آب، ولكن السلطات الإسرائيلية أرادت تغيير المناهج الدراسية. وتم تأخير التعليم حتى تشرين الثاني، عندما تمّ التوصل إلى حل وسط بفضل مقاومة المعلمين ومديري المدارس.^{٣٨} وفي ٤ تشرين الأول العام ١٩٦٧، قام ١٢٩ من الوجهاء البارزين من الضفة الغربية بإصدار بيان استنكروا فيه الاجتياح الإسرائيلي، والتأكيد على وحدة الصف العربي.^{٣٩} عندما بدأت السنة الدراسية الثانية في ظل الاحتلال في آب العام ١٩٦٨، قام الفلسطينيون بإعلان إضرابات وشاركوا في احتجاجات في شتى المناطق المحتلة. وتم تفريق المظاهرات التي جرت بين العامين ١٩٦٨ و١٩٦٩ بالقوة. وفي العام ١٩٧٠، اندلعت مظاهرات واسعة في قطاع غزة أخافت الجيش الإسرائيلي. وتم إرسال أرئيل شارون لقمع المقاومة (المقاومة العنيفة وغير العنيفة على حد سواء). وأصبح يعرف باسم البلدوزر بسبب الطريقة القوية والعدوانية التي استخدمها لقمع المقاومة من هدم المنازل والقصف العنيف وقتل المدنيين الأبرياء. وقام الفلسطينيون بالرد على هذه الفضائع بطرق مختلفة،

حيث قام البعض منهم بالتظاهر مناشداً المجتمع الدولي التدخل لإنهاء الاحتلال. في الذكرى السادسة لاحتلال العام ١٩٦٧، ناشد ١٠٧ من الفلسطينيين البارزين من مختلف الانتماءات السياسية الأمم المتحدة بإنهاء الاحتلال وتطبيق حق تقرير المصير.^١ بعض الفلسطينيين الذين كانوا يشعرون بالإحباط بسبب عقود من اللامبالاة والصمت في المجتمع الدولي، انخرطوا في المقاومة المسلحة. وشابهت أنواع المقاومة هنا في ستينيات وبداية سبعينيات القرن الماضي الوضع في عشرينيات وثلاثينيات القرن نفسه. نجحت بعض التكتيكات العنيفة في جذب انتباه العالم للمشاكل في هذا الجزء من العالم، ولكن في بعض الأحيان ولدت دعاية سلبية (مثل اختطاف الطائرات).

اتخذت الفصائل الرئيسية لمنظمة التحرير الفلسطينية الأردن مركزاً لنشاطاتها في ستينيات القرن العشرين. كان أحد نجاحاتهم العسكرية معركة الكرامة التي وقعت مع القوات الإسرائيلية التي غزت الأردن العام ١٩٦٨. أعطى هذا النصر حافزاً للعمليات ضد القوات الإسرائيلية في العديد من الجبهات وأيضاً تمرّداً مسلحاً في قطاع غزة العام ١٩٦٨-١٩٦٩ (وكانت هناك جماعة فعالة بقيادة محمد الأسود الذي أصبح يعرف باسم جيفارا غزة). ولكن حدثت تجاوزات في الأردن بدت كتحدٍّ مباشر للعائلة الملكية الأردنية الحاكمة، ونتيجةً لذلك قام الملك حسين بطرد الفصائل خارج الأردن، وأريقت دماء كثيرة سنة ١٩٧٠. استلزمت خسارة الأردن كواجهة محتملة ضد الاحتلال الإسرائيلي إلى إعادة التفكير في جدوى الكفاح المسلح عندما لا تسمح الدول المجاورة مثل هذه الأنشطة على أراضيها. كما تم سحق المقاومة المسلحة في قطاع غزة بلا رحمة من قبل الوحدة ١٠١ السيئة السمعة بقيادة أرئيل شارون. وكان لبنان الملاذ الوحيد للوجود الفلسطيني المسلح. في هذه المرحلة، بدأت إشارات على التغيير في مطالب المقاومة. جاءت في المقام الأول من قبل اليسار الشيوعي والاشتراكي، وأصبح نايف حواتمة أول زعيم فلسطيني كبير (الجبهة الديمقراطية) يقترح قيام دولة فلسطينية إلى جانب دولة إسرائيل العام ١٩٧٠. وسعى إلى إتباع نهج أكثر دبلوماسية من الأحزاب الأخرى مثل حركة "فتح" (بقيادة ياسر عرفات)، أو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (بقيادة جورج حبش). بدأ الكثير من الفلسطينيين في إعادة تقييم الأمور بين الأعوام

١٩٧٠-١٩٧٤، وكانت هذه السنوات من إعادة تقييم النضال العسكري والسياسي، باللغة الأهمية في تشكيل جداول أعمال العديد من الفصائل السياسية، وكذلك أفكار الناس في الشارع. هذا غير بشكل دراماتيكي الساحة السياسية التي كانت موجودة بين الأحداث المتساوية للصراع في الأردن في أيلول العام ١٩٧٠ وحرب أكتوبر ١٩٧٣.

بمقابل هذا الاعتدال، قامت السلطات الإسرائيلية بتصنيف كل من منظمة التحرير الفلسطينية وجميع الفصائل والمنظمات المرتبطة بها كجماعات إرهابية مستهدفة. وقامت بإرسال فرق الموت "الموساد" في بداية السبعينيات من أجل قتل الزعماء الفلسطينيين، أو أي زعيم محتمل. استهدف أولئك الذين شاركوا في المقاومة الشعبية، شأنهم شأن أولئك الذين انخرطوا في المقاومة المسلحة داخل فلسطين وخارجها. مثلاً تم اغتيال الروائي غسان كنفاني في انفجار سيارة مفخخة في ٨/٧/١٩٧٢ في مدينة بيروت، وكان هذا الكاتب والصحافي المولود في عكا رئيساً لتحرير صحيفة الهدف، وعضواً في المكتب السياسي للجهة الشعبية لتحرير فلسطين، ومؤلفاً للعديد من الكتب.^{٤١} لقي المئات من الناشطين مصرعهم أو سجنوا أو تم نفيهم خارج فلسطين.

التغيير في أعقاب حرب العام ١٩٧٣

اندلعت الحرب في تشرين الأول من العام ١٩٧٣، وقام ما يقدر بـ ٧٠ ألفاً من العمال الفلسطينيين الذين يعملون في الشركات الإسرائيلية بالإضراب. الحرب الوحيدة التي بدأتها الدول العربية أثبتت أن الجيش الإسرائيلي يمكن أن يخسر عندما تعمل الجماهير العربية بالتنسيق مع قادتها. كانت المرة الوحيدة التي استخدمت البلدان العربية "سلاح النفط"، حيث قامت بقطع الإمدادات عن الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الدول التي دعمت إسرائيل، وهو شكل من أشكال المقاومة اللاعنفية/السلمية. تم إنقاذ إسرائيل من الهزيمة في سيناء والجولان عن طريق المساعدات العسكرية من الولايات المتحدة الأمريكية، التي تمت برعاية وزير الخارجية الأمريكية الصهيوني هنري كيسنجر، وتراجع تأييد الاتحاد السوفيتي للدول العربية تحت تهديد مباشر من الولايات المتحدة الأمريكية. أدرك الكثير عندها أن الولايات المتحدة الأمريكية قوة

عظمى يصعب العمل دون إذننها.

بعد مرور شهرين، تحدّى المجلس الإسلامي الأعلى في مدينة القدس إسرائيل عن طريق إعلان دعمه لمنظمة التحرير الفلسطينية. وبدأت انتفاضة مصغرة (سُميت بالوثبة) بحركة طلابية في منطقة رام الله والبيرة في مظاهرات في ١١/١١/١٩٧٤. انتشرت تلك المظاهرات في غضون بضعة أيام إلى أجزاء أخرى من الضفة الغربية، وفي وقت لاحق إلى قطاع غزة (من ٢١-٢٦ تشرين الثاني العام ١٩٧٤). لقد كانت المراكز الرئيسية للنشاط في المجتمع الفلسطيني بعد العام ١٩٧٣ هي لحركات طلابية في الجامعات والكليات التي تم تأسيسها في الضفة بين ١٩٧٣-١٩٧٥. جامعة بيت لحم وبيتزيت ولاحقاً تم تأسيس جامعة الخليل، وجامعة النجاح، وجامعة الأزهر، والجامعة الإسلامية، وأصبحت بؤراً للنشاط الفلسطيني. لقد وازت الهياكل التنظيمية في الجامعات ما هو موجود في المجتمع خارجها، وبالتالي فقد شملت الهيئات الطلابية مجموعات مرتبطة بحركة "فتح"، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية، والشيوخين، والقوى الإسلامية. قامت القوات الإسرائيلية بالعديد من الإجراءات من أجل قمع جميع الأنشطة الطلابية السياسية بغض النظر عن طبيعة النشاط واتجاهه.^{٤٢} وضّح ميرون بنفستني لماذا كان الضغط يمارس على هذه الجامعات الوليدة، قائلاً: "تنظر الحكومة العسكرية إلى الجامعات كبؤر تخريبية في طابع أكاديمي. ومن وجهة النظر الإسرائيلية، فإن التعبير السياسي يعتبر نشاطاً تخريبياً يهدف إلى تدمير إسرائيل، ولكن بنظر الفلسطينيين تعتبر إسرائيل قوة احتلال وحاكماً غير شرعي، كل ذلك أدّى إلى الصدام الذي لا مفر منه".^{٤٣}

امتدت الانتفاضة المصغرة (الوثبة) العام ١٩٧٤ بسبب سياسات إسرائيل التعسفية، التي جعلت الحياة أكثر صعوبة في المناطق المحتلة. وشملت الاستيطان، والحرب الاقتصادية عن طريق منع الصادرات، والحد من السفر، وتجميد تحويل الأموال التي جمعت من ضرائب البلديات.^{٤٤} كان من الصعب كبح مارد المقاومة والثقة بالنفس اللذين ترسّخا في نفس الفلسطيني والعربي، إثر نصر حرب أكتوبر ١٩٧٣. استفادت منظمة التحرير الفلسطينية من التغييرات العالمية، وقامت بتعديل مواقفها.

واستجاب المجتمع الدولي عن طريق اعتراف دبلوماسي واسع النطاق. أعلنت القمة الإسلامية التي ضمت ٣٨ دولة إسلامية في باكستان في شباط العام ١٩٧٤ دعمها لحقوق الشعب الفلسطيني. واعترفت القمة العربية في المغرب العام ١٩٧٤ بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلاً شرعياً وحيداً للشعب الفلسطيني. أعقب ذلك في ١٤ تشرين الأول العام ١٩٧٤ بالتصويت في الجمعية العامة للأمم المتحدة، معترفةً بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل للشعب الفلسطيني. صوتت ١٠٥ دول بنعم، مقابل ٤ دول صوتت بلا، وهي الولايات المتحدة الأمريكية، وإسرائيل، وبوليفيا، وجمهورية الدومينيكان. ومن المعروف أنّ منظمة التحرير قبلت بقرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم ١٨١، وقراري مجلس الأمن رقم ٢٤٢ و ٣٣٨، ما سمح لها بالدخول إلى الأمم المتحدة. وفي تشرين الثاني، أعطيت م. ت. ف. مركز مراقب في الأمم المتحدة، وألقى الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات خطاباً في جنيف في تشرين الثاني العام ١٩٧٤ معلناً: ”جئت إليكم أحمل غصن الزيتون في يد والبندقية في اليد الأخرى، فلا تسقطوا غصن الزيتون من يدي“. وقد ردّد هذه العبارة ثلاث مرات، ويعني ذلك أنّ السلام يجب أن يكون مدعوماً، وإلا سيكون هناك خيار المقاومة المسلحة. لكن عملياً لم يدخل أبو عمار سلاحاً معه، ومنذ ذلك التاريخ بدأت تغييرات جوهرية في السياسة نحو المزيد من المرونة السياسية أدّت في نهاية المطاف إلى اتفاقات أوسلو.

هذا التحوّل في السبعينيات قُوبل بالاستهزاء من قبل النخب الحاكمة في إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية. في الواقع قامت إسرائيل بتشديد قبضتها على الأراضي المحتلة. وتابعت سلطات الاحتلال خططها التي تركّزت على ثلاثة مجالات، هي: سحق المقاومة محلياً وخارجياً، استخدام اللوبي الصهيوني لضمان استمرار الضغط على الدول الأخرى، تطبيق مفهوم فرق تسد. ولأنّ العرب كانوا منقسمين، بدأت إسرائيل بالتدخل في الشؤون العربية لتقسيم الدول العربية، فعلى سبيل المثال ما حدث في لبنان، وما حدث في مصر، من خلال التوصل إلى اتفاق مع الدكتاتور المصري أنور السادات. وقامت إسرائيل بتجربة مختلف الوسائل لسحق أيّة مقاومة على المستوى المحلي. هذا شمل توسيع نطاق ما يسمى ”بالاعتقال الإداري“ (الاحتجاز دون محاكمة)

لمدة تصل إلى ٦ أشهر، ما أدى إلى إعلان إضراب السجناء الفلسطينيين السياسيين الذي استمر من ١١ تموز إلى ٦ آب العام ١٩٧٥.^{٤٥}

حاولت السلطات الإسرائيلية تعميق تعاونها مع الملك حسين من أجل تحريك الجمهور نحو قبول "الحكم الذاتي" (في شكل "الإدارة المدنية المحلية")، بدلاً من حق تقرير المصير/الاستقلال. وسارعت إسرائيل بالتوسع الاستيطاني الاستعماري، وقامت بتكثيف اضطهادها للفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة. بالمقابل، نمت المقاومة وتوسعت لتواجه التهميش السياسي، والحرمان الاقتصادي، وإجراءات الاحتلال القاسية، ومحاولات فرض قيادات متعاونة مع الاحتلال. قامت السلطات الإسرائيلية بتعيين رشاد الشوا رئيساً لبلدية غزة، وكانت تربطه علاقة ودية مع إسرائيل والملك حسين، ولكنه سرعان ما اضطُر إلى الاستقالة بسبب ضغوط شعبية. لسنوات عدة، كان على سكان غزة أن يحصلوا على "تصريح الشوا" حتى يتمكنوا من السفر إلى الأردن.

قرّر المجلس الوطني الفلسطيني إنشاء كيان محلي في المناطق المحتلة يدعى الجبهة الوطنية الفلسطينية في كانون الثاني العام ١٩٧٣. نسّبت الجبهة الوطنية مرشحين وطنيين في انتخابات البلديات العام ١٩٧٦، حيث فازوا بثمانية عشر مقعداً من أصل ٢٤ مقعداً، ولكن إسرائيل أعلنت أنّ الجبهة الوطنية الفلسطينية غير شرعية في تشرين الأول العام ١٩٧٨. وعلى الفور تقريباً تشكلت شبكة خلفية سُمّيت لجنة التوجيه الوطني.^{٤٦} كان من قادة هذه اللجنة بسام الشكعة، وكريم خلف، ولم تكن علاقاتهما وطيدة مع منظمة التحرير الفلسطينية. قامت إسرائيل في وقت لاحق بحل اللجنة، وقامت أيضاً بسجن أو نفى الزعماء الرئيسيين في بداية الثمانينيات من القرن العشرين. بعد ذلك، تنامت المظاهرات والاعتصامات ورسائل الاحتجاج، وتم تكثيفها خصوصاً في أواخر العام ١٩٧٥. وفي الوقت نفسه، زادت الاعتداءات الإسرائيلية الوحشية على المتظاهرين، ومثال على ذلك في القسبة في نابلس في أوائل كانون الأول العام ١٩٧٥.

عندما أصدرت محكمة إسرائيلية حكماً من شأنه أن يُسمح لليهود بأداء طقوس في المسجد الأقصى، خرجت مظاهرات في اليوم التالي في

القدس (١ شباط العام ١٩٧٦)، تلتها تظاهرات في مدن أخرى. وصلت الأحداث ذروتها بإضراب موسع في أوائل آذار العام ١٩٧٦ على الرغم من حملة القمع الوحشية في الأسابيع السابقة. وأدى ضغط الرأي العام إلى إصدار المحكمة العليا الإسرائيلية حكماً في ٢٤ آذار العام ١٩٧٦، أشار إلى أنه مع المحافظة على حقوق اليهود في دخول منطقة الحرم الشريف/الأقصى، فإنّ هذا لا يمكن أن يتم بطريقة تخل بالنظام العام أو تضر بمشاعر المسلمين.^{٤٧}

نجحت المقاومة الشعبية العام ١٩٧٤-١٩٧٦ في التأكيد على أنّ الشعب الفلسطيني لن يخضع، وأجبرت السلطات الإسرائيلية على التراجع خطوات عدة على سبيل المثال بشأن مسألة دخول اليهود إلى الأقصى الشريف، وبشكل مؤقت على بناء المستوطنات القريبة من نابلس. بالمقابل، خسر الذين تعاونوا مع إسرائيل ومع النظام الأردني قوتهم وقوي دور منظمة التحرير الفلسطينية. بالمقابل، خسرت القضية الكثير بإزالة مصر كمركز للدعم بعد إبرام اتفاقية منفصلة بين أنور السادات وإسرائيل. تلك الاتفاقية تجاهلت حق تقرير المصير للفلسطينيين، وتجاوزت منظمة التحرير الفلسطينية للدعوة إلى شكل محدّد من الحكم الذاتي عن طريق التفاوض من جانب الحكومات في كل من الأردن وإسرائيل ومصر. بعد التأكّد من المحافظة على حدودها الجنوبية من قبل معاهدة السلام مع مصر، حاولت إسرائيل تصفية "المشكلة الفلسطينية" إلى الأبد من خلال التركيز على مجالين هما: القضاء على منظمة التحرير في لبنان، وسحق المقاومة المحلية في المناطق المحتلة. وأدت المغامرة الإسرائيلية في لبنان والفظائع المصاحبة التي ارتكبتها قواتها وعملائها ضد المدنيين اللبنانيين والفلسطينيين إلى خلق مقاومة محلية ممثلة بحزب الله.^{٤٨}

بعد غزو لبنان، شعر الكثير أنّ قيادة منظمة التحرير الفلسطينية غير قادرة على حماية حتى قواعدها خارج فلسطين، ناهيك عن حماية الناس في الداخل ومساعدتهم في التحرّر. واتّجه عرفات نحو عقد معاهدة مع الملك حسين في الأردن رفضها العديد من الكوادر والقيادات المتبقية للجنة التوجيه الوطني في الداخل. شعروا بالارتياح عندما انسحب عرفات من هذه الاتفاقية. أدى هذا إلى تقارب أكثر بين الملك حسين وإسرائيل وبرز

التعاون في تعيين رؤساء جُدد للبلديات، وفتح فروع للبنوك الأردنية في المناطق المحتلة، ومحاولات لكسب التأييد محلياً من خلال تحسين بعض جوانب الاقتصاد الفلسطيني. تزامن ذلك مع حكومة الوحدة الوطنية في ظل شيمعون بيريس الذي كان يتبع سياسة العصا/الجزرة في الأراضي الفلسطينية، ولقد بدا جانب العصا واضحاً العام ١٩٨٦ مع هدم المنازل والطرْد والتعذيب والسجن دون محاكمة.^{٤٩}

ركّزت المقاومة في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين على إنقاذ الأرض، وذلك لتسارع حركة الاستيطان، وبخاصة بعد العام ١٩٧٨، وعندما تم تشجيع إسرائيل من خلال القبول الدولي في أعقاب اتفاق السلام مع مصر. وكان الفلسطينيون يقاومون دون مساعدة. بعد القمة العربية في العام ١٩٧٩ جرى تحويل أموال من خلال اللجنة الأردنية الفلسطينية إلى السكن وقضايا دينية وبعض البنى التحتية. كما حاولت بعض المنظمات المسيحية مساعدة صمود المجتمع المسيحي، ومثلها المنظمات الإسلامية للمجتمع الإسلامي. لكن كانت المشاريع تتعرقل بسبب رفض سلطات الاحتلال الإسرائيلي إصدار تصاريح للبناء. في العام ١٩٧٦، وبعد سنوات من الاضطرابات، حاولت إسرائيل وضع إستراتيجية جديدة: انتخابات بلدية، وتشجيع المتعاونين للأخذ بزمام الأمور. لقد كانت للإستراتيجية نتائج عكسية، لأنّ الفلسطينيين اختاروا وبأغلبية ساحقة الناس الذين يتمتعون باحترام كبير، والذين تحدثوا بقوة ضد الاحتلال. أنتخب بسام الشكعة رئيساً لبلدية نابلس العام ١٩٧٦، وأقيل من منصبه من قبل السلطات الإسرائيلية بعد فترة قصيرة، وفقد ساقه في محاولة اغتيال العام ١٩٨٠، وتم منعه من السفر العام ١٩٨١. وفي حزيران العام ١٩٧٩، قاد مسيرة مؤلفة من ١٥٠٠ شخص إلى مكاتب الحكومة العسكرية للاعتراض على بناء مستعمرة إيلون موريه.^{٥٠} وفي وقت لاحق، قام الجيش الإسرائيلي بمحاولة لترحيل الشكعة وناشطين آخرين، وقُدّم رؤساء إحدى وعشرين بلدية استقالاتهم تنديداً بهذه المحاولة.^{٥١} وبسبب المظاهرات والاضطرابات التي تلت، اضطر الجيش الإسرائيلي إلى التراجع عن القرار والإفراج عنه يوم ١٢/٥/١٩٧٩.^{٥٢}

بعد وقتٍ قصيرٍ من بدء الاحتلال، أُنشئت لجان العمل التطوعي، ولعبت

دوراً مهماً في المقاومة الشعبية في سبعينيات القرن العشرين. قال لي عبد الجواد صالح (وهو أكاديمي في جامعة بيرزيت، ورئيس بلدية البيرة سابقاً) أنه كان من الطبيعي أن نرى هذه الأنشطة مرتبطة مع الشباب وبرامج الطلاب الأكاديمية. شمل هذا التطوع مخيمات اللاجئين والقرى النائية في أعمال التنظيف والحراثة وبرامج محو الأمية وما إلى ذلك. أذكر أنا كيف أن أكثر من ٤٠ طالباً في صفي كانوا جميعاً "مجنّدين" من قبل لجان من هذا القبيل لتنظيف الشوارع في بيت لحم في السبعينات. كانت هذه أشكالاً من أشكال المقاومة الشعبية والوطنية التي زرعت الإحساس بالانتماء للمجتمع. وكان منظمو هذه الأنشطة مستهدفين، وتمّت معاقبتهم بشدة من قبل سلطات الاحتلال الإسرائيلي، وذلك عن طريق زجّهم في السجون وحتى ترحيلهم. تم نفي الدكتور صالح نفسه لمدة ١٠ سنوات لما بذله من جهود في تنظيم المجتمع المحلي.

ذكر مدير مدرسة متقاعد يدعى يعقوب الأطرش (رحمه الله) قصة وقعت في منتصف السبعينيات من القرن العشرين في بيت ساحور عن قائد عسكري إسرائيلي. لاحق هذا القائد أطفالاً بحجة أنهم يلقون الحجارة على الجنود الإسرائيليين، وادّعى أن أحد الصغار ولبس قميصاً أخضر التجأ إلى المدرسة. وقف الضابط عند البوابة وطلب من مدير المدرسة أن يسلمه الطفل الذي كان يلبس القميص الأخضر. فقال مدير المدرسة أن وظيفته مربّب، وليس من واجباته القيام بمثل هذه المهام لأي أحد، فردّ القائد العسكري قائلاً إن لديك نصف ساعة لإحضار الطفل. وبمرور الوقت، غضب القائد واتصل برئيس البلدية، ومن ثم بالمفتش/المراقب على المدارس. ومع ذلك تمسّك مدير المدرسة بموقفه. وتم استدعاء كل من مدير المدرسة والمراقب من أجل مقابلة قائد الجيش في مكتبه في وقت لاحق من تلك الليلة. وظلّ مدير المدرسة متمسكاً بموقفه. هدّد القائد العسكري بأنه ستكون هناك عواقب في وقت قريب. ومَرَّت الأيام ولم يتخذ أي إجراء. قال جندي إسرائيلي متعاطف لاحقاً لمدير المدرسة أنه عقدت اجتماعات لاتخاذ قرار على ما حدث، ولكن القائد العسكري للتعليم قرّر عدم متابعة الموضوع.^{٥٣}

في حادث آخر، أمر قائد عسكري جميع الطلاب بعدم مغادرة المدرسة حتى الساعة ٧ مساءً (أي بعد ٥ ساعات من الوقت الأصلي للخروج من

المدرسة)، وذلك بذريعة أن بعض الشباب قاموا في وقت سابق بإلقاء الحجارة على سيارة جيب عسكرية. تمت محاصرة المدرسة حتى يتم منع الطلاب من مغادرتها، ولكن الأساتذة والطلاب قرّروا أن ينظموا رقصات شعبية سياسية ومسابقات شعرية ومسرحاً سياسياً وغيرها وبصوت عال على مرأى ومسمع من الجيش. فيما بعد تم تشتيت انتباه الجنود في حين تسلل طلاب لإحضار أطعمة وللتواصل مع الأهالي. عند حلول الساعة ٧ مساء طالب مدير المدرسة جميع القوات العسكرية بمغادرة المنطقة قبل انصراف الطلاب. وكان الطلاب سعداء بأن هذا العمل من المقاومة اللاعنفية كان ناجحاً.^{٥٤}

إن تحييد أكبر دولة عربية (مصر)، والتغيير في الإدارة الأميركية (من كارتر إلى ريغان)، شجّع الحكومة الإسرائيلية على إطلاق عدد من "المبادرات"، منها ضم الجولان، وتكثيف الأنشطة الاستيطانية، وزيادة القمع في المناطق المحتلة، والعدوان على لبنان. بالمقابل، واصل الناس القيام بالمقاومة الشعبية. قام الفلسطينيون بتأسيس مؤسسات لخدمات الشعب في شتى المجالات. عملت هذه المؤسسات تحت مظلات سياسية. فعلى سبيل المثال، قامت القوى اليسارية بتأسيس اتحاد لجان الإغاثة الطبية الفلسطينية، التي بدأت بـ ١٠ مهنيين متطوعين، وتوظف اللجان الآن المئات من الأشخاص الذين يعملون في أكثر من ٤٠٠ منطقة تخدم مئات الآلاف من الفلسطينيين.^{٥٥} وقام المحاميان جوناثان كاتاب ورجا شحادة بتأسيس مؤسسة الحق.

أصدرت إسرائيل أمراً عسكرياً رقم ٨٥٤ العام ١٩٨٠ لإجبار أساتذة الجامعات على التوقيع بأن ليس لديهم اتصالات مع منظمة التحرير الفلسطينية، وغيرها من الشروط التي تنتهك حرية التعليم والحريات العامة. تم تمثيل المعلمين من قبل مجلس التعليم العالي. لمقاومة الضغوط من الأردن وحتى من قادة منظمة التحرير الفلسطينية، نجح الأساتذة في إقناع "أبو جهاد"، الذي تمكّن في وقت لاحق أن يرفع الضغط الخارجي، ما أفسح المجال للمقاومة داخلياً، وثم إلى حملة دولية أجبرت سلطات الاحتلال على تجميد القرار العام ١٩٨٢.^{٥٦} كان المربّون الفلسطينيون بارعين في إيجاد طرق للالتفاف حول عقبات أخرى كثيرة وضعت في طريقهم من قبل سلطات الاحتلال، ومنها

حملة إسرائيل ضد الصحافيين الأجانب.^{٥٧} قام الفلسطينيون بتأسيس وسائل إعلامية بديلة، ووصلوا إلى الصحافيين الأجانب من خلال طريقة اتصالات جديدة وهي الفاكس.

قرّرت الحكومة الإسرائيلية في ٢٣ آذار العام ١٩٨٠ بالشروع ببناء مستعمرة في قلب الخليل. أصدر رئيس البلدية فهد القواسمي والشخصيات البارزة في المدينة بيانات للطعن في القرار، ووعدوا بالمقاومة الشعبية، بما في ذلك مقاطعة كاملة للاحتلال.^{٥٨} حاول الصهاينة المتطرفون اغتيال رؤساء البلديات الفلسطينيين في حزيران العام ١٩٨٠، ما أسفر عن إصابة ثلاثة منهم وهم بسام الشكعة الذي فقد ساقه، وإبراهيم الطويل، وكريم خلف. اندلعت موجة من الاحتجاجات وصفت بأنها انتفاضة صغيرة تسببت في تأثير كبير محلياً وفي الخارج.^{٥٩} هذا وقام رؤساء البلديات بتشكيل لجنة التوجيه الوطني والتأكيد على أن منظمة التحرير الفلسطينية تمثل كل الشعب الفلسطيني، ولكن كانت هناك اختلافات بين لجنة التوجيه الوطني ومنظمة التحرير الفلسطينية في التكتيكات، ومثال على ذلك عندما طردت إسرائيل بعض رؤساء البلديات العام ١٩٧٩، قرّر آخرون تقديم استقالاتهم حتى عندما كانت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية (بقيادة ياسر عرفات) تعارض الفكرة. لقد كانت حركة فتح مترددة حول لجنة التوجيه الوطني، وكانت الأردن معادية لها بشكل صريح. هناك أدلة على أن لجنة منظمة التحرير الفلسطينية الأردنية المشتركة التي تشكلت بعد العام ١٩٧٨ حاولت منع وصول الأموال إلى لجنة التوجيه الوطني.^{٦٠}

بعد ذلك قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلي بإصدار الأمر العسكري رقم ٧٥٢ من أجل إنشاء "روابط القرى"، وهي شبكة من المتعاونين لإدارة وترسيخ الاحتلال نيابة عنها.^{٦١} حسب هذا القانون، يضطر السكان للتعاون عندما يحتاجون شيئاً مثل تصاريح لمغادرة البلاد، وقضايا المياه، والكهرباء ... الخ. كان أعضاء روابط القرى مسلحين ومدربين من قبل إسرائيل، ولا يترددون في قتل وجرح الذين يقفون في طريقهم. هذا ما حدث مثلاً في بلدي بيت ساحور حين قُتل الشاب باسم رشماوي على أيدي الروابط. أظهر الفلسطينيون مقاومة لهذه

المخططات من خلال إجراءات تراوحت بين المقاطعة والتصريحات العلنية ونبذ الكنيسة وأئمة المساجد لهؤلاء الناس (في بعض الحالات، قام الكهنة بطرد أعضاء الكنيسة الذين تعاونوا أو ارتكبوا جرائم أخرى). وتم فصل الكثير من أعضاء الروابط علناً من قبل عائلاتهم.

هناك قصة رواها سعيد أبو الريش خلال هذه الحقبة. يملك صبري غريب وعائلته من قرية صغيرة تدعى بيت إجزا بالقرب من رام الله ٣٠ دونماً من الأراضي الممتازة. كان لديهم منزل جميل وقاموا بزراعة الأرض لأكثر من ٥ أجيال. في العام ١٩٧٨، قامت إسرائيل ببناء مستعمرة "جبعات حداسا" بالقرب من أرضه. وبين الأعوام ١٩٧٨ و ١٩٨١ حاولت إسرائيل شراء أرضه، وعندما كان واضحاً أنه لن يقبل أي عرض، أصدرت أوامر بمصادرة تلك الأرض وحجزها. حيث بدأ غريب رحلة طويلة في المحاكم الإسرائيلية (المتحيزة) التي استمرت من العام ١٩٨٢ وحتى العام ١٩٩٠. رافق ذلك هجمات منتظمة من جانب المستوطنين والجنود وسُجن نتيجة لمقاومته. وتخلت محاميته الإسرائيلية عنه بعد أن تم تهديدها. استلم قضيته بعد ذلك جوناثان كتاب، ونجح في تأخير طرد العائلة من منزلهم. ولكن في النهاية كان من الصعب الفوز بتلك القضية مع ذلك النظام العنصري الاستعماري.^{٦٢}

كانت المقاومة المستمرة تتغذى من المثقفين وطلاب المدارس والكلية والجامعات في الضفة الغربية في أوائل ثمانينيات القرن الماضي. أصرّ اليمينيون في إسرائيل على أنه يجب على الجيش شن حملات أكثر على المثقفين. في العام ١٩٨٢، تم فصل ١٤٠ مدرسا من قبل السلطات العسكرية بسبب المشاركة في إضراب للمساعدة في تنظيم نقابة للمعلمين.^{٦٣}

في العام ١٩٨٢، وفي ظل عدم وجود أي انتقاد دولي لسياسات حزب الليكود، واستمرار الانقسام العربي، أقدمت الحكومة الإسرائيلية على غزو لبنان للقضاء على منظمة التحرير الفلسطينية بحجة أن هؤلاء "الإرهابيين" كانوا يتدخلون في شؤون الضفة الغربية. في الواقع، كانت فصائل منظمة التحرير الفلسطينية من الخارج بعيدة عن المقاومة الفعلية على أرض الواقع في المناطق المحتلة، مع أن أعضاءهم في الداخل كانوا نشيطين. كان خليل الوزير "أبو جهاد" الزعيم البارز في منظمة

التحرير الفلسطينية على اتصال مع الأحداث المحلية. كان أبو جهاد أكثر شعبية في أوساط الأجيال الشابة من ياسر عرفات في نواح كثيرة. إنَّ العمل الذي قام به في سبعينيات وثمانينيات القرن العشرين كان حاسماً في نموِّ قاعدة فتح، وهو الأمر الذي أدَّى في النهاية إلى اغتياله في تونس على يد فرق الموت الإسرائيلية (الموساد).^{٦٤}

واحتلَّت إسرائيل ما يقرب من نصف لبنان، وقامت بمحاصرة بيروت وقصفها وتجويعها. أدَّت حالة عدم الاستقرار في لبنان إلى أن يقوم الرئيس الأمريكي ريغان بتقديم اقتراح في ١ أيلول العام ١٩٨٢ من أجل إعطاء الفلسطينيين حكماً ذاتياً في إطار ما هو مدرج في اتفاقية كامب ديفيد الموقعة العام ١٩٧٩، وفي اتحاد كونفدرالي مع الأردن، وإلغاء حق العودة وحق تقرير المصير. وبعد مرور أسبوع، قدِّمت القمة العربية خطة السلام الخاصة بها (خطة فاس للسلام)، التي قبلت بشكل أساسي حلاً يقوم على أساس دولتين على حدود العام ١٩٦٧. رفض القادة الإسرائيليون الخطين، وردَّت إسرائيل على الدبلوماسية بإعطاء الضوء الأخضر للمجزرة في صبرا وشاتيلا.^{٦٥} أخيراً، وتحت ضغط من بعض المسؤولين في إدارة رونالد ريغان، تم التوصل إلى اتفاق لسحب القوات الإسرائيلية مقابل مغادرة عرفات وقواته إلى تونس. لقد كان فوزاً سياسياً لا بأس به بالنسبة لإسرائيل، ولكن سمعة إسرائيل تشوَّهت بعد المجازر الإسرائيلية، وهذا أدَّى لحشد المقاومة من أجل مواجهة إسرائيل في لبنان وفي المناطق المحتلة. خسرت إسرائيل على الصعيد الدولي حتى بين كثير من اليهود في جميع أنحاء العالم. وتشير هذه الأحداث مرة أخرى إلى أنَّ الصراعات والانتفاضات العنيفة واللاعنفية تؤدِّي إلى بعض التغيرات في الساحة السياسية.

في حين كانت إسرائيل تقوم بغزو لبنان، خرج عددٌ كبيرٌ من النَّاس في مظاهرات وغيرها من أعمال المقاومة الشعبية في الضفة الغربية وقطاع غزة ردّاً على الاعتداءات الإسرائيلية. دفعت أنشطة الطلاب والمعلمين سلطات الاحتلال بالإقدام على إغلاق جامعة بيرزيت في ١٩٨٢/٧/٨ لمدة ثلاثة أشهر.^{٦٦} ازدادت الاحتجاجات الصاخبة بقيادة البلديات في الضفة الغربية وقطاع غزة وداخل الخط الأخضر مطالبة بوضع حد للأعمال الوحشية الإسرائيلية في لبنان والمناطق المحتلة. خلال

هذه الفترة، قامت السلطات الإسرائيلية باستخدام التعذيب كوسيلة روتينية لانتزاع المعلومات من المعتقلين. في ٢ أيار العام ١٩٨٤، قامت مؤسسة الحق (بقيادة رجا شحادة) بمخاطبة رئيس الجمعية الطبية الإسرائيلية بشأن "عدة تقارير مقلقة حول مشاركة مزعومة من قبل الأطباء الإسرائيليين وغيرهم من العاملين في المجال الطبي في عمليات استجواب المعتقلين في سجون الضفة الغربية". وبدلاً من حل المشكلة، أصدرت الجمعية الطبية الإسرائيلية بياناً صحافياً يوم ٧ حزيران العام ١٩٨٤ متهمه فيه مؤسسة الحق بتوجيه اتهامات تشهيرية ضد أعضاء المهن الطبية في إسرائيل.^{٦٧}

أدت هذه الاضطرابات إلى خلق موجات سياسية جديدة. وفي كانون الثاني من العام ١٩٨٤، قام حزب مبام الإسرائيلي بعقد اجتماعات مع بعض القادة الفلسطينيين من الأراضي المحتلة، حيث ضمت هذه الاجتماعات كلاً من سري نسيبة، وحنا سنيورة، وفيصل الحسيني، وسعيد كنعان.^{٦٨} أعطى هؤلاء الفلسطينيون إشارات قوية لابتعادهم عن سياسات منظمة التحرير الفلسطينية. كانت حركة فتح مهيمنة على منظمة التحرير الفلسطينية، وكان ياسر عرفات مسيطراً على حركة فتح نفسها. على ما يبدو كان عرفات يحاول إرضاء الجميع، ويستغل الانقسامات الموجودة للحفاظ على السيطرة. مثلاً توخى الرئيس برنامج تأييد لكل من تيار الحركة العسكرية (أبو جهاد وأبو إياد) وتيار المفاوضات ممثلاً بمحمود عباس (أبو مازن). ولكن عرفات رضخ للضغوط الشعبية مثلاً عندما توصل إلى اتفاق مع العاهل الأردني العام ١٩٨٦، وتخلي عنه بعد عام واحد. احتفظت منظمة التحرير الفلسطينية بصفتها ممثلاً للفلسطينيين داخل فلسطين وخارجها. ولمدة ١٤ شهراً العامين ١٩٨٤ و ١٩٨٥، كانت الساحة الأكاديمية الفلسطينية حافلة بالمظاهرات والأنشطة للاحتجاج على الطلب الإسرائيلي من الأكاديميين الأجانب الذين يعملون في المؤسسات الفلسطينية بالتوقيع على "قسم" لعدم التعامل مع منظمة التحرير الفلسطينية. وأدت هذه الاحتجاجات بالجيش إلى الرجوع عن القرار.^{٦٩}

تنافست الفصائل الرئيسية الأربعة لمنظمة التحرير الفلسطينية من أجل الحصول على الدعم الشعبي، وانتشرت المنظمات غير الحكومية لتمثل

الفصائل ولتخدم الشعب. ومن الجانب الإيجابي، تم بناء بنية تحتية أساسية من الاكتفاء الذاتي. كانت بعض الجماعات النشطة حاسمة في ضمان بقاء الفلسطينيين في أرضهم، والنجاة من الهجمات الوحشية الإسرائيلية، والمحاولات لحملهم على مغادرة الأرض من خلال الضغوط الاقتصادية الأخرى. مثلاً عملت لجان الإغاثة الزراعية الفلسطينية مع المزارعين لتبني لهم أكثر التقنيات الحديثة في الزراعة ومكافحة الآفات. وحتى يومنا هذا، فإن الخدمات التي تقدمها الإغاثة لا تقدمها أية وكالة حكومية أو مجموعة لدعم الزراعة في أي مكان في العالم. أما بالنسبة للجانب السلبي لانتشار المنظمات غير الحكومية، فإن المنافسة بين المجموعات أسفرت عن خدمات متقطعة وغير منظمة أو منسقة. كذلك، فإن معظم هذه المؤسسات كان يديرها كبار السن من الفلسطينيين الذين لم يروا حتى الآن سبباً للقيام بمقاومة شعبية (في وقت لاحق، قاموا بالطبع بالانضمام إلى الانتفاضة التي حدثت بين ١٩٨٧-١٩٩١).

حاولت إسرائيل السيطرة على ٥٠٠ دونم من أراضي صور باهر العام ١٩٨٥ من أجل توسيع مستعمرة تلبوت. ووجهت هذه العملية بمقاومة كبيرة جداً أعقب ذلك التوصل إلى حل وسط كان الفلسطينيون بموجبه قادرين على مواصلة زراعة الأرض.^{٧٠} حاول مبارك عوض وآخرون تثقيف الجمهور وإعلامه عن قوة مثل هذه المقاومة الشعبية.^{٧١} وفي ١٦ و١٧ آذار ١٩٨٣، عقد اجتماع في العاصمة الأمريكية واشنطن في مكاتب صندوق القدس للتنمية، حضره مبارك عوض، وهشام شرابي، وجوناثان كتاب، وكمال بلّاطة، وإقبال أحمد، وجيم فاين، وجين شارب، وبيت هايبي كتاب، وسكوت كينيدي. وعلى الرغم من إثارة بعض الخلاف حول أفضل السبل لاستخدام اللاعنف في هذه المرحلة للصراع، فإن الاجتماع توصل إلى خطوات محددة لجمع الأموال للسيد عوض من أجل إنشاء المركز الفلسطيني لدراسات اللاعنف في القدس، الذي فتح أبوابه مع نهاية ذلك الشهر.^{٧٢} عمل المركز في عامه الأول في مجال التعليم والتوعية، بما في ذلك ترجمة أعمال غاندي وكونغ وجين شارب وعبد الغفار خان. وتم عقد ورش عمل بعنوانين مثل "كيف تحصل على حقوقك دون رصاصة واحدة؟"، ووزعت كتيبات باللغة العربية بعنوان "اللاعنف في الأراضي المحتلة" العام ١٩٨٣.^{٧٣} كان أول مركز ينظم زيارة الفلسطينيين لمنازل آبائهم وأجدادهم المهجرة،

وإعطاء شرح للسكان الحاليين حول تاريخ المنزل الذي يحتلونه الآن. حصلت زيارات المصالحة في حالة من الحزن والحب.^{٧٤} جاء آخر عمل مباشر في كانون الثاني من العام ١٩٨٦ في قرية بالقرب من بيت لحم في منطقة بيت ساحور، كرد على وضع المستوطنين سياجا وتدمير منطقة زراعية تابعة للقرويين الذين طلبوا المساعدة. تجمع المئات وبدأوا بشكل سلمي بتفكيك السياج. قام المستوطنون بإطلاق النار عليهم، ما أسفر عن إصابة ٧ منهم، ولكنهم استمروا بالقيام ما كانوا يقومون به حتى وصلت السلطات العسكرية. في غضون أيام قليلة، تم استصلاح الأرض من قبل أصحابها، في حين تراجع القوات العسكرية والمستوطنون مؤقتاً.^{٧٥} ولكن تم اقتلاع الأشجار المزروعة على الرغم من الوعود بعدم اقتلاعها.^{٧٦}

خلال الفترة الزمنية نفسها، حاول مبارك عوض ومركزه تقديم المساعدة لأصحاب المحلات التجارية في الخليل. هذه المنطقة التي طمع بها المستوطنون والجنود الإسرائيليون حين قاموا بنصب الأسلاك الشائكة على طول الشارع، وقاموا بتفتيش ومضايقة الذين حاولوا الوصول إلى المحلات التجارية المتأثرة. تم تصوير بعض الإجراءات من قبل محطة بي بي سي الإخبارية وغيرها من وسائل الإعلام، وبخاصة عندما انضم المتطوعون الإسرائيليون لمساعدة الفلسطينيين المحاصرين.^{٧٧} كما نظم المركز احتجاجاً في ١٤/٦/١٩٨٧، واجتمعوا مع مسؤولين محليين ودوليين للمطالبة بحقوق جمع شمل الأسرة.^{٧٨}

تلقى عوض انتقادات من جهات مختلفة: من الإسرائيليين، ومن المقاومين الفلسطينيين، ومن المشككين الذين اعتقدوا أنه لا يحث على نبذ العنف على أسس أخلاقية، ومن أولئك الذين قالوا إنه غير واقعي. لكنه أيضاً تلقى الدعم والحماية من شخصيات بارزة مثل فيصل الحسيني.^{٧٩} قرّرت إسرائيل طرد عوض على أساس أن لديه الجنسية الأميركية (مع أنه أصلاً مقدسي). تم رفض تجديد تأشيرته السياحية وقبض عليه في ٥/٥/١٩٨٨، وأمرت السلطات بترحيله في ٦/٥/١٩٨٨. رفض الإرهابي إسحق شامير مناشدات للإفراج عن عوض من عضو أمريكي في مجلس الشيوخ، ومن كوريتا سكوت كينغ. مكث عوض في الحبس الانفرادي لمدة ٤٠ يوماً، في حين تم استئناف قضيته إلى المحكمة العليا.

ودخل في إضراب عن الطعام وانضم إليه آخرون الذين قاموا باعتصام خارج جدار السجن، وكان من بينهم إدوارد كوفمان (يهودي أصبح بعد ذلك أستاذًا في الجامعة العبرية). أيد قرار المحكمة ما تقوم به إسرائيل من إجراءات على سكان القدس، لأن "كان لديهم الخيار في أن يصبحوا مواطنين إسرائيليين".^{٨٠} وفي خطوة غير عادية، تحدث وزير الخارجية جورج شولتز والسفير الأمريكي لدى إسرائيل توماس بيكرينغ علناً ضد أمر الترحيل في ٦/٥/١٩٨٨ (الذي وقعه اسحق شامير). ورأى سفير إسرائيل لدى الولايات المتحدة أنه من المهم شرح قضية إبعاد عوض في صحيفة نيويورك تايمز في ١٧/٦/١٩٨٨.^{٨١} الترحيل الفعلي يوم ١٣/٦/١٩٨٨، رفع من مكانة عوض في الوسط الفلسطيني، وانتشرت أفكاره بشكل كبير.^{٨٢}

في آذار العام ١٩٨٦، حضر عشرات الآلاف جنازة رئيس بلدية نابلس ظافر المصري، رافعين شعارات وطنية، بما في ذلك الدعم لمنظمة التحرير الفلسطينية.^{٨٣} وكانت التظاهرات والأنشطة العام ١٩٨٦ مرة أخرى الأكثر وضوحاً في الجامعات الفلسطينية. قامت السلطات بوضع نقاط تفتيش على الطريق المؤدي إلى جامعة بيرزيت، الأمر الذي أدى إلى تعليق التعليم، ولذلك تظاهر الطلاب بقوة. وفي مظاهرة مماثلة في بداية شهر كانون الأول العام ١٩٨٦، طارد الجنود الطلبة داخل حرم الجامعة، واستخدمت الذخيرة الحية، ما أسفر عن مقتل اثنين من الطلبة وإصابة ١٢ آخرين.^{٨٤} وبعد أن برأت الحكومة اليمينية الإسرائيلية جنودها، خرج المزيد من المظاهرات في جميع أنحاء فلسطين. واحتج الطلاب العرب واليهود في الجامعة العبرية في مدينة القدس ضد القرار الذي اتخذته الإدارة لجلب ٦ طلاب أمام محكمة تأديبية، بعد أن شاركوا في مظاهرة ٧/١٢/١٩٨٦ تضامناً مع جامعة بيرزيت.^{٨٥}

كان هناك المزيد من أعمال المقاومة في أجزاء أخرى من فلسطين والجولان السوري المحتل. على سبيل المثال، قام بدو النقب من الخوالم الذين شردوا من ديارهم بمظاهرة بدعم من الأعضاء العرب في الكنيسة الإسرائيلية في ٦/١/١٩٨٧.^{٨٦} وتظاهر الفلسطينيون الذين رفضوا لم شمل أسرهم في القدس عندما كان أناتولي شارانسكي يلقي خطابه. وتساءلوا لماذا يمكن لليهود من جميع أنحاء العالم أن يستقروا في فلسطين، ويحصلوا على الجنسية تلقائياً، في حين أن أصحاب الأرض

السكان الأصليين محرومون من حق العيش في فلسطين.^{٨٧} على الرغم من أن معظم السكان الأصليين في الجولان تم تطهيرهم عرقياً في العام ١٩٦٧، ومنعوا من العودة، فقد قام من تبقى بتكثيف مقاومتهم، وبخاصة بعد أن قرّرت إسرائيل رسمياً ضم الأراضي السورية العام ١٩٨١. ردّت إسرائيل على المقاومة الشعبية بشن حملات اعتقال وتمديد حظر التجول. ولكن قام القرويون بتطوير أساليب للبقاء والاستمرار:

”عندما نفذت المواد الغذائية من أية قرية، سار القرويون بشكل جماعي إلى قرية مجاورة، حيث تم الهجوم عليهم بأعداد كبيرة من جنود جيش الدفاع الإسرائيلي المتمركزة هناك لمنع ذلك ... اخترق المسنون والشبان حظر التجول من أجل جني المحاصيل. وخلق اعتقال الكبار في السن المزيد من العزم بين القرويين ... وقامت مجموعات من النساء بمحاصرة الجنود الإسرائيليين وانتزعن ما لا يقل عن ست عشرة بندقية من أيديهم، وسلمت البنادق لضباط الجيش، وطلبن بإزالة القوات. كان تبادل البنادق يتم أحياناً مقابل الإفراج عن الدروز في السجن ... وحدث مرّة أن استطاع بعض المواطنين حبس عدد من الجنود داخل إسطل وأخذ القرويون المفاتيح للضابط وأخبروه بمكان الجنود المحبوسين، واقترحوا عليه الذهاب لإخراجهم وإرسالهم إلى بلادهم. استفادت قرية هناك من الإضراب لاستكمال مشروع الصرف الصحي الرئيسي، وكانوا قد حرّموا من الحصول على الأموال والتصاريع لسنوات من قبل السلطات الإسرائيلية“.^{٨٨}

في ذكرى يوم الأرض الاثنين ٣٠/٣/١٩٨٧، خرجت مظاهرات وبدأت إضرابات في مختلف أنحاء الضفة الغربية وقطاع غزة ومناطق فلسطين ١٩٤٨. قامت السلطات الإسرائيلية بكسر أفعال المحال التجارية وأبقتها مفتوحة في العديد من المدن، وهاجمت المتظاهرين والمقاومين بقسوة، لكنها فشلت في قمع المظاهرات الكبيرة التي خرجت في أماكن مثل بيت حانون، وبيت لاهيا، ودير البلح، وخان يونس، والطيرة، ورحيت (في النقب) ومخيم بلاطة للاجئين في نابلس.^{٨٩}

انتهت هذه الفترة في التاريخ الفلسطيني بفقدان رمز المقاومة الشعبية في فلسطين. ففي يوم ٢٩/٨/١٩٨٧ استشهد رسام الكاريكاتير الفلسطيني الشهير ناجي العلي متأثراً بجروح أصيب بها قبل شهر في

محاولة لاغتياله في لندن. ولد ناجي العلي في قرية الشجرة في شمال فلسطين العام ١٩٣٨، وأصبح لاجئاً في سن ١٠، وأمضى سنواته الأولى في مخيم عين الحلوة للاجئين في لبنان. قام بنشر رسوماته الأولى في أوائل سبعينيات القرن العشرين في لبنان، ثم انتقل إلى الكويت وأخيراً إلى لندن. كانت رسوماته الشهيرة دائماً تصوّر طفلاً فلسطينياً لاجئاً فقيراً (حافي القدمين ويلبس ملابس مرقّعة) ويدعى حنضلة، ولا يظهر وجهه. يبحث حنضلة عن طريق العودة إلى فلسطين. السيناريوهات التي رسمها ناجي هي شكل من أشكال المقاومة واسترداد الكرامة. تنوّعت الموضوعات التي تم تناولها، وفي بعض الأحيان لم ينجُ الزعماء العرب والفلسطينيون من الانتقاد. ولكن في معظم عمله كان ناجي العلي يتعامل مع المنفى بطريقة رمزية عكست ما كان في قلوبنا. يقوم نشطاء المقاومة الشعبية بارتداء القمصان أو القلائد أو الأساور التي تحمل شعار حنضلة كرمز لناجي العلي وللعودة.

بُنيت الفترة المقبلة من المقاومة الشعبية الفلسطينية على هذا التاريخ الحافل.

الفصل الحادي عشر

انتفاضة الحجارة ١٩٨٧-١٩٩٣

”لا يجد الناس الشجاعة للكفاح المستمر ضد أقوى جيش في العالم كالجيش الإسرائيلي، دون وجود ذخيرة عميقة من الشجاعة والتضحية الذاتية الثورية“.

إدوارد سعيد^١

إشعال الفتيل في خريف ١٩٨٧

كما لاحظنا في الفصل العاشر، فقد لعبت السنوات الخمس التي تلت الغزو الإسرائيلي للبنان دوراً مهماً في إرساء الأرضية المناسبة لانتفاضة واسعة، عرفت باسم انتفاضة الحجارة. ساعد الاجتياح الإسرائيلي للبنان وما لحق من انتقال منظمة التحرير الفلسطينية إلى تونس العام ١٩٨٢، على إنهاء مفهوم أن التحرر سيأتي من خارج فلسطين. هذا أدى إلى الاعتماد على الذات في صفوف الفلسطينيين في المناطق المحتلة^٢. المشهد السياسي العربي كان متخاذلاً بين العام ١٩٨٢ وحتى انعقاد القمة العربية في مدينة عمان في ٨-١١ تشرين الثاني من العام ١٩٨٧، حيث كانت فلسطين تكاد لا تذكر. لذا، كثفت إسرائيل المتطرفة عمليات القمع الاستعماري، فارتكبت المذابح، وهدمت المنازل، ورحّلت الكثير، وشرعت في عمليات عقاب جماعي. وأنشأت الحكومة الصهيونية هياكل شبه قانونية لإخفاء الانتهاكات الواضحة للقانون الدولي، التي في كثير من الحالات كانت تصل إلى جرائم حرب وجرائم ضد الإنسانية، مثل ما حدث في أيار العام ١٩٨٧، حين وافقت لجنة برئاسة القاضي موشي لاندائو على التعذيب باستخدام عبارات مشفرة: ”ينبغي على وسائل الضغط أساساً أن تتخذ شكلاً غير عنيف للضغط النفسي من خلال

عمليات الاستجواب القاسية والطويلة مع استخدام الحيل، بما في ذلك أعمال الخداع. ولكن عندما لا تبلغ هذه الأعمال أهدافها لا يمكن تجنب ممارسة أي إجراء من الضغط البدني المعتدل“.^٢

لن أحاول هنا أن أدون دراسة أخرى عن هذه الفترة، فقد تكون انتفاضة العام ١٩٨٧-١٩٩١ من أكثر الانتفاضات الفلسطينية المدروسة.^٣ ولكن سأقوم بذكر بعض الأمثلة من آلاف الأعمال الملهمة والمبتكرة للمقاومة الشعبية في هذه الحقبة. نضجت أشكال المقاومة الشعبية إلى حد كبير استجابة للضغوط المكثفة التي بدأت قبل العام ١٩٨٧. عُقدت قمة في الأردن حول جدوى استخدام اللاعنف بين ١٥-١٨ تشرين الثاني العام ١٩٨٦، وكان معظم المشاركين من الفلسطينيين.^٤ أظهر تحليل إحصائي للأحداث الشهرية التي يمكن أن تصنف بالمقاومة الشعبية مثل المظاهرات، والإضرابات، وكتابة العرائض، ورفع الأعلام، بأنها قفزت من ٩٣٣ حدثاً في ١٩٨٥ إلى ١٣٥٨ في العام ١٩٨٦، وإلى ٢٨٨٢ حدثاً في العام ١٩٨٧، وتمّ خلق أشكال جديدة من المقاومة.^٥

حصلت بعض الأحداث في خريف العام ١٩٨٧، ويمكن أن يُقال إنها بداية الانتفاضة. في ٣/١٠/١٩٨٧ تظاهر الفلسطينيون وشاركوا في إضراب شمل المدارس والكلّيات في قطاع غزة للاحتجاج على عمليات القتل التي ارتكبتها قوات الاحتلال الإسرائيلي بحق ثلاثة مواطنين في مخيم البريج في غزة.^٦ تمت مواجهة هذه المظاهرات بشكل وحشي على أيدي الجنود الإسرائيليين، ما أدّى إلى مزيد من الغضب وانتشار المظاهرات. في ٨/١٠/١٩٨٧ خرج الشعب في عدد من المظاهرات في المدن والقرى ومخيمات اللاجئين في قطاع غزة بعد مقتل أربعة فلسطينيين آخرين على يد قوات الاحتلال الإسرائيلي.^٧ ومرة أخرى نتيجة لهذه الحادثة، خرجت مظاهرات أخرى أكثر كثافة، انتشرت في جميع أنحاء المناطق المحتلة العام ١٩٦٧، وأيضاً في المناطق المحتلة العام ١٩٤٨. أصبح نمط هذه المظاهرات واضحاً: يرد الشباب (٨-٢٠ عاماً) على الوحشية الإسرائيلية بمظاهرات، وهذا بدوره يؤدّي إلى هجمات فظيعة، بما فيها قتل الشباب والعقاب الجماعي كهدم البيوت أو منع التجول. لست متأكداً لماذا حاول بعض الكتاب تحديد بداية الانتفاضة بتاريخ لاحق مثلاً بعد استشهاد عمال فلسطينيين من خلال دهسهم

بشاحنة كان يقودها إسرائيلي (انظر أدناه). ربما لأن الأخير قد يكون ناجماً عن حادث، وهذا مكن وسائل الإعلام الإسرائيلية من القول إن الفلسطينيين يردّون بشكل مبالغ فيه على "حادث مروري" (هنالك أمثلة كثيرة على استعمال المخابرات الإسرائيلية لما يسمّى الحروب النفسية بإدخال قصص معينة في وسائل الإعلام العربية). على أية حال، من الواضح لمن يدرس التاريخ أنّ أحداث تشرين الأول العام ١٩٨٧ كانت محورية لبداية الانتفاضة قبل هذه الأحداث الأخرى.

في العاشر من تشرين الأول العام ١٩٨٧، خرجت مظاهرات في العديد من المواقع، رافقتها إضرابات، ما أدّى إلى إصابة ٢٥ فلسطينياً بالذخيرة الحية.^٩ امتدّت هذه المظاهرات والإضرابات إلى الضفة الغربية عندما استشهدت امرأة وأصيب أربعة آخرون بجروح خلال مظاهرة سلمية نظّمت على دوّار المنارة في رام الله يوم ١٢/١٠/١٩٨٧. دفعّت عملية القتل هذه إلى خروج المزيد من المظاهرات في الأيام التالية. كان لمخيمات اللاجئين في مناطق مثل قطاع غزة، وبيت لحم، ونابلس، والقدس الشرقية (مخيم شعفاط)، دوراً رائداً في هذه المظاهرات.^{١١} أثناء زيارة وزير الخارجية الأمريكي جورج شولتز إلى القدس، تم إعلان الإضراب العام، وعمّت المظاهرات أماكن مثل القدس ونابلس، حيث تم قتل شاب على يد قوات الاحتلال الإسرائيلي.^{١٢} وفي حادث دموي هاجم الجيش الإسرائيلي المتظاهرين في جامعة بيت لحم صباح يوم الأربعاء ٢٨/١٠/١٩٨٧، ما أسفر عن إصابة ٣ طلاب بالذخيرة الحية. توفي أحدهم بعد يومين متأثراً بجراحه، ويدعى إسحق أبو سرور من مخيم عايدة.^{١٣} بعد ذلك أمر جيش الاحتلال بإغلاق الجامعة لمدة ثلاثة أشهر.^{١٤} أشعلت وفاة الشاب إسحق المزيد من المظاهرات في منطقة بيت لحم، ونمت دائرة المظاهرات وعمليات القتل الإسرائيلية بحق الفلسطينيين. ندّد المتظاهرون بالشعارات التي كتبت على الجدران بالاحتلال، وتحدّثوا عن الحقوق الفلسطينية، ودعمهم لمنظمة التحرير الفلسطينية، وتكريمهم الشهداء. وكثفت إسرائيل من استخدامها نظام حظر التجول وعمليات الترحيل، وقامت بإغلاق المؤسسات التعليمية بالقوة، في حين أجبرت التجار على فتح المتاجر خلال الإضرابات. وما كان يثير الدهشة هو درجة ضبط النفس التي كان يتحلّى بها الفلسطينيون، فمع أنّه وقعت هجمات مسلحة عدة بين العام ١٩٨٢ وحتى العام ١٩٨٧، ولكن منذ

بداية الانتفاضة، فإنّ قلّة من الفلسطينيين اتّجهوا نحو المقاومة المسلحة في هذه الفترة. هذا على الرغم من لجوء القوات الإسرائيلية إلى عمليات التعذيب والاغتيال وهدم المنازل وغيرها من الأساليب الوحشية.

خرجت مظاهرات في جميع أنحاء المناطق المحتلة في ٢٩/١١/١٩٨٧ في الذكرى السنوية الأربعين لقرار التقسيم واليوم الدولي للتضامن مع الشعب الفلسطيني. استشهد خمسة شبان بالرصاص الحي في رفح ومخيم بلاطة في مدينة نابلس.^{١٥} وخرجت تظاهرات متفرقة في جميع أنحاء فلسطين في ١/١٢/١٩٨٧ حيث أصيب العديد من الشباب بالذخيرة الحية في خان يونس.^{١٦} في ٨/١٢/١٩٨٧ قتل أربعة عمال فلسطينيين، وأصيب خمسة آخرون بجروح (البعض يقول تسعة) عندما صدمت شاحنة إسرائيلية يقودها مستوطن سيارة مليئة بالعمال الفلسطينيين في قطاع غزة. انتشرت الشائعات بأنّ المستوطن الإسرائيلي كان من أقرباء الإسرائيليين الذي طعن فلسطينياً سابقاً. في ٩/١٢/١٩٨٧، انتشرت الدعوة للتجمع في مظاهرة في الصباح وسط مخيم جباليا، ويُعرف الموقع ببركة أبو راشد، وهو مكان تتجمع فيه المياه الملوثة ومياه الصرف الصحي والوحل، وبخاصة بعد الأمطار. قوبلت المظاهرة بالرصاص واستشهد شاب يبلغ من العمر ١٧ عاماً ويدعى حاتم السيسي.^{١٧}

كانت المظاهرات بأشكال عدة، وكانت قوات الاحتلال تقرّر عشوائياً استعمال أنواع القمع. باتريك وايت ذكر، على سبيل المثال، ما حدث في مواجهات "خفيفة" بين طلاب جامعة بيت لحم والجيش الإسرائيلي:

"كانت بداية المظاهرة دائماً تتسم بالخوف مما هو غير متوقع، وحتى نوع من شعور بالهستيريا. كان طلاب السنة الأولى الجدد خائفين ويتساءلون ما الذي سيحدث بعد ذلك. وكانت مجموعات من الفتيات غالباً من داخل الحرم الجامعي ويرتدين أحياناً الكوفية من أجل إخفاء أنفسهنّ يركضن حول الحرم الجامعي ويضعن دلاء من المياه في أماكن إستراتيجية ... وتبدأ انفجارات قنابل الغاز المسيل للدموع. يُطلق قوسٌ من القنابل داخل الحرم الجامعي، وتتصاعد الصرخات والنداءات والركض لإيجاد مكان آمن بعيداً عن الغازات المروّعة. كانت قنابل الغاز تقع من المداخل وتنتشر الغازات داخل ممرات كليات الجامعة، وأحياناً تقع داخل المباني. هؤلاء الطلاب

الذين انخرطوا بفعالية في هذه المواجهة كانوا يحاولون إخمد قنابل الغاز الملقاة عليهم في دلاء الماء قبل أن تنفجر. وكان البعض الآخر الذين يرتدون القفازات يقومون بإعادة القنابل على القوات الإسرائيلية. لقد رأيت أحد الشباب الذي كان بإمكانه الفوز في مباراة كرة الكريكت الإنجليزية يلتقط القنبلة الغازية ويطلقها نحو السماء وتقع على مقربة من مجموعة الجنود المتمركزين أسفل الشارع. وفي نهاية اليوم أراني يده وبكل فخر مع أن حرارة القنبلة الغازية قد حرقت يده بشكل كبير^{١٨}.

أصبحت المظاهرات يومية وفي كل المناطق. وتصاعد القمع والعنف الإسرائيلي حين قام وزير الدفاع الإسرائيلي إسحق رابين بإعطاء الضوء الأخضر لجنوده بقوله أن "الأولوية هي منع المظاهرات العنيفة باستخدام القوة والسلطة والضربات"^{١٩}. ومع الوقت، استخدم الجنود الإسرائيليون أسلحة أكثر فتكاً. مع ذلك كانت السنة الأولى من الانتفاضة الفلسطينية تركز على المقاومة غير العنيفة، ولم يلق أي من الجنود الإسرائيليين مصرعه، في حين قتل ٢٠٤ فلسطينيين خلال الفترة نفسها نصفهم من الأطفال^{٢٠}.

قام الإسرائيليون بصب الزيت على النار حين انتقل أرئيل شارون إلى منزل في القدس الشرقية العربية (في المدينة القديمة في حي الواد). خرجت مظاهرة في ١٥/١٢/١٩٨٧ تم قمعها بوحشية^{٢١}. تم تنظيم مظاهرات على مدار الأسبوعين الأخيرين من السنة وبشكل يومي في أنحاء مختلفة من فلسطين، وتم مواجهة تلك المظاهرات برصاص الجيش الإسرائيلي الذي كان يقتل عادة من ٢-٥ من الشباب الفلسطيني يوميا. وبلغت الاعتقالات الإسرائيلية ذروتها إلى ما يقرب من ٢٠٠ فلسطيني في اليوم الواحد. على سبيل المثال، تم اعتقال ١٧٧ فلسطينياً يوم الخميس ١٩٨٧/١٢/٣١. ناقشت صحيفة معاريف الإسرائيلية موضوع استعمال أساليب جديدة منها خراطيم المياه، وتوسيع استخدام الحجز الإداري، والطرء، في محاولات يائسة للسيطرة على الوضع^{٢٢}.

لبى الفلسطينيون داخل الخط الأخضر نداء أخوتهم، وشرعوا في إضراب عام يوم الاثنين ٢١/١٢/١٩٨٧، ما أدى إلى إثارة الكثير من المخاوف داخل أوساط الدوائر الصهيونية^{٢٣}. بدأت المظاهرات بالظهور في أماكن

مثل النقب والجليل، وتمّ تشكيل لجان في كل تجمع رئيسي للسكان من أجل دعم نضال وصمود إخوانهم الفلسطينيين خارج الخط الأخضر.^{٢٥} في ٢٤ / ١ / ١٩٨٨، تظاهر أكثر من ٦٠ ألف مواطن في الناصرة تحت شعار إنهاء الاحتلال، وإعطاء الشعب الفلسطيني حقوقه المشروعة.^{٢٦} خرجت مظاهرات عدة أخرى وإضرابات وغيرها من الأنشطة، بما في ذلك مظاهرة ضخمة في حيفا بعد ذلك بأسبوعين، وغطيت الجدران في بلدات مثل أم الفحم، وكفر كنا، وشفّا عمر، بالشعارات دعماً للانتفاضة. وكانت هذه الشعارات في بعض الأحيان موقّعة من قبل فصائل فلسطينية معينة أو أسماء مثل "أبناء الانتفاضة".

من دراسة مئات من التقارير والوثائق خلال الفترة من تشرين الأول – كانون الأول من العام ١٩٨٧، يبدو من الواضح أنّ الانتفاضة نمت نمواً طبيعياً في مراحل من الاحتجاجات العفوية إلى النداءات المنظمة والمظاهرات التي اندلعت بأشكال مختلفة وحملات المقاطعة، وإلى تمكين وإنشاء قيادة من الشعب لتحل محل سلطة الاحتلال التي تضاعفت.^{٢٧} تكوّنت مجموعة من المثقفين حول مدينة القدس من بينهم سري نسيبة، وفيصل الحسيني، لمساعدة وتنظيم الانتفاضة العفوية عن طريق عقد اجتماعات سرية وإصدار بيانات توجيهية.^{٢٨} جاء أول بيان بعد شهرين تقريباً من التصعيد الأولي في المظاهرات. كان نداء ٤ / ١ / ١٩٨٨ موقعا من "قيادة المقاومة الموحدة" من أجل "تعزيز الانتفاضة". لكن لم يتم إضافة أي من أسماء الفصائل أو م.ت.ف. إليه. ودعا إلى الإضراب والعصيان المدني من ١١-١٣ / ١ / ١٩٨٨. أما البيان الثاني، فقد حمل اسم "القيادة الوطنية الموحدة" دون تحديد. تضمّن النداء الثالث كلاً من القيادة الوطنية الموحدة ومنظمة التحرير الفلسطينية.^{٢٩}

كانت القيادة الوطنية الموحدة تشمل أعضاء محليين بارزين من ثلاثة فصائل علمانية فلسطينية رئيسية وهي حركة "فتح"، والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين، ومعهم آخرون. لكنهم لم يتلقوا تعليمات من قيادات الفصائل في الخارج. ساعد وقدم الدعم أيضاً أعضاء من الحزب الشيوعي الفلسطيني (الذي تطور لاحقاً ليصبح حزب الشعب الفلسطيني) على الرغم من أنهم أحجموا عن توقيع البيانات الأولية لأنهم كانوا يعتقدون أن هذه كانت

مُوجَّهة. حوت البيانات على لغة تبيّن محاولة التوفيق بين أعضاء اللجنة لمحاولة الحصول على دعم من الجميع. صرح الدكتور سري نسيبة أن الكتابة الأولى للبيانات الأولية كانت من قبل عزت غزاوي، وسمير شحادة، وسمير صبيحات، وثم كانت تُرسل بالفاكس إلى محمد ربابعة (أبو طارق) في باريس للانتقال إلى تونس، حيث قيادة منظمة التحرير الفلسطينية، وبصورة رئيسية خليل الوزير ”أبو جهاد“ (حتى اغتياله من قبل إسرائيل في ١٦ نيسان العام ١٩٨٨). كان التدخل الخارجي غير موجود في البداية. الاستشارات كانت شكلية، وعندما ظهرت اختلافات، فإن القيادة المحلية لم تقم بتغيير النص.

وفقاً لما قاله محمد جاد الله، اجتمعت مجموعة رئيسية من الناشطين (التي كانت تمثل الفصائل وكذلك المستقلين) بانتظام لتوفير مركز للأبحاث الانتفاضة. ضمت هذه المجموعة، بالإضافة إلى محمد جاد الله، كلاً من ممدوح العكر، وزهيرة كمال، وغسان الخطيب، و خليل محشي، ورياض المالكي، وسري نسيبة، وحنان عشاوي، وآخرين.^{٢٠} قال مهدي عبد الهادي أن ”فيصل (الحسيني) يمثل الواجهة الأمامية للانتفاضة، وسري نسيبة العقل المدبر لها“.^{٢١} ولكن تُظهر آية قراءة معمّقة للأحداث أن العلاقات كانت أكثر تعقيداً بكثير، وكان هناك نهج كامل أكثر ديمقراطية. الانتفاضة كانت (على الأقل في السنة الأولى) شعبية بكل معنى الكلمة، وكان هذا في الواقع مفتاح النجاح. بناء على مقابلة مع القيادي في حركة ”فتح“ حاتم عبد القادر، فقد وفر الناشطون على أرض الواقع دفعة رئيسية وراء تجنب الكفاح المسلح، وشددوا على النضال الجماهيري اللاعنفي. لقد كانت قوّة الإدارة الذاتية للانتفاضة واستقلالها النسبي عن ”القادة“ التقليديين الأسباب الرئيسية لنجاحها. في بعض المناسبات قامت قيادة المقاومة داخل فلسطين بتوضيح مواقفها، وحذرت القيادة في الخارج من التحرك في الاتجاهات التي تتعارض مع إرادة الشعب الفلسطيني (مثل جاهزية منظمة التحرير الفلسطينية للمقاربة مع الأنظمة العربية الرجعية، ومحاولاتها إرضاء الولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من البلدان الغربية).^{٢٢}

كانت تلك التوجيهات للقادة المحليين مجرد نقل للقرارات والاحتياجات التي اتخذتها ”اللجان الشعبية“. شملت اللجان الشعبية بعض الأعضاء

في منظمة التحرير الفلسطينية، وأعضاء من الفصائل الأخرى التي ليست جزءاً من المنظمة (مثل الشيوعيين والقوى الإسلامية) وأيضا المستقلين. كانت اللجان الشعبية متخصصة. فعلى سبيل المثال، كانت هناك لجان تجارية تضم رجال أعمال يقررون الإضرابات وأفضل السبل لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية. بدأ الفلسطينيون بمقاطعة المنتجات الإسرائيلية منذ الدعوة التي وجهتها القيادة الوطنية في ١٨ كانون الثاني، والتي نبعت من هذه اللجان. انتشرت حملة المقاطعة لتشمل مقاطعة المحاكم الإسرائيلية، وتم أيضاً تشجيع المواطنين على عدم دفع الضرائب، وامتنع العمال الفلسطينيون عن التوجه للعمل في إسرائيل، حيث صدرت تعليمات باستقالة الكثير من العاملين الذين عينتهم إسرائيل في المجالس البلدية وغيرها من الجهات من القطاعات الأخرى.^{٣٣}

وكانت هناك لجان تعليم تطوعية محلية تكفلت بالحد الأدنى من أداء النظم التعليمية التي أغلقتها سلطات الاحتلال. وتطور النظام التعليمي على الرغم من كل الجهود الإسرائيلية المبذولة للقضاء عليه. تحدث باتريك وايت عن الرغبة البسيطة للتعليم بالقول:

”قد يشتكي بعض موظفي الجامعة من إعطاء محاضراتهم الساعة الثامنة صباحاً، في حين أنهم يجدون طلابهم جاهزين لأخذ المحاضرة حيث غادروا أماكن سكنهم منذ الساعة الرابعة صباحاً والعودة بعد ذلك في رحلة تستغرق ثلاث ساعات أخرى. وهناك مثال آخر على عزم أحد الطلاب الذي كان يسافر خلال الإضرابات من أجل حضور محاضراته، حيث لم تكن هناك أية وسيلة من وسائل النقل المتاحة. لقد مشى أحد الطلاب عبر التلال من قريته بيت أمر إلى بيت لحم لحضور محاضرة ومن ثم عاد سيراً على الأقدام إلى قريته مرة أخرى، فتصور أخي القارئ مدى الشجاعة والتضحية من أجل العلم.“^{٣٤}

انتشرت لجان الشبيبة محفزة بمشروع ناجح بدأه عدنان ملحم في مخيم عنبثا للاجئين.^{٣٥} كانت هناك أيضاً لجان المرأة التي قدمت الرعاية للسجناء، وقامت بمقاطعة كل ما هو مربوط بالاحتلال ولم تنس احتياجات جيرانهن وعائلاتهن، وبخاصة في أوقات منع التجول والحصار. كان هناك لجان تغذية تولت رعاية ضمان الإمدادات الغذائية، وبخاصة في المناطق المحاصرة التي يتم تجويعها، أو المناطق

التي تم استهدافها من قبل قوات الاحتلال. كانت هناك لجان الرعاية الصحية، ولجان النقل، ولجان جمع التبرعات، واللجان الفكرية، واللجان الزراعية، وغيرها الكثير.

نظم السجناء السياسيون في السجون الإسرائيلية أنفسهم ضمن لجان فعالة.^{٣٦} كان قدورة فارس أحد المنظمين للإضراب عن الطعام من أجل ضمان المعاملة الإنسانية للأسرى الذين بلغ عددهم ١٥ ألف سجين في جميع أنحاء السجون الإسرائيلية.^{٣٧} بحلول العام ١٩٩٠، قامت إسرائيل بأسر أكثر من ١٤ ألف فلسطيني، ووضعتهم في أكثر من ١٠٠ سجن ومراكز للاعتقال وفقاً لمنظمة هيومن رايتس ووتش العاملة في الشرق الأوسط.^{٣٨} حتى مؤيدو إسرائيل أمثال أنتوني لويس تملكه الغضب حول المعاملة السيئة للسجناء، حيث كتب:

”طبقت الحكومة الإسرائيلية قانون ”الاعتقال الإداري“ بحق الأسرى. وهذا يعني أنهم محتجزون لمدة تصل إلى ستة أشهر قابلة للتمديد دون محاكمة. تم وضع ٢٥٠٠ من المعتقلين على الأقل في سجن كتسيعوت، وهو سجن يتكوّن من خيام ويوجد في صحراء النقب المحرقة. وفي يوم ١٦ آب قتل جنود إسرائيليون بالرصاص اثنين من المعتقلين في سجن كتسيعوت. ... والسجناء في سجن كتسيعوت لم يتم إدانتهم بالقيام بأي شيء. لم يكن لديهم نوع من الإجراءات القانونية الواجبة. لقد كانوا محتجزين هناك لأن أحداً في الجيش الإسرائيلي يشتبه بهم أو يريد معاقبتهم. ذهب السيد بوسنر إلى سجن كتسيعوت لمقابلة اثنين من المحامين الفلسطينيين المحتجزين هناك وأربعة من المحققين الميدانيين الذي يعملون لدى منظمة الحق لحقوق الإنسان في الضفة الغربية، وكان تقريره عنهم أنهم احتجزوا بسبب عملهم في مجال حقوق الإنسان كمحامين أيضاً.“^{٣٩}

هناك من انتقد قيادة منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بياسر عرفات لإحباطها تشكيل قيادة فعالة في الأراضي المحتلة، وتخوفها من تهديد احتكارها للقيادة الفلسطينية.^{٤٠} وعلى الرغم من الصعوبات، فقد كانت النشاطات في الأشهر الستة الأولى رائعة ومنسقة، واستخدمت أشكالاً متنوعة من أعمال المقاومة الشعبية، وشملت الفصائل كافة. كان من الصعب تجاهلها من قبل وسائل الإعلام الإسرائيلية والدولية. تضمّنت

النشاطات الإضرابات وبناء مواقع عامة لإحياء ذكرى ضحايا الاحتلال ورفض دفع الضرائب وتنمية الاكتفاء الذاتي والاستقالة الجماعية (من قوات الشرطة، والمجالس البلدية، وغيرها من السلطات) ورفض دفع الغرامات المدنية والجنائية، وعقد الصلوات العامة، وعدم الامتثال للأوامر العسكرية، مثل إغلاق الجامعات، والمدارس (حيث كانت الدروس تتم في البيوت وأماكن العبادة وحتى في أقبية وكهوف تحت الأرض). وكذلك أيضاً رفض الناس الامتثال للأوامر العسكرية بعدم رفع الأعلام الفلسطينية أو بإغلاق المحال التجارية. في مثل هذا الكتاب المختصر لا يسعنا إلا أن نسجل أمثلة قليلة من عمق الفعاليات المستخدمة وتنوعها.

في مدينة قلقيلية تمّ تفريق مظاهرة من مئات النساء يوم الاثنين ١٩٨٨/١/٤ بعنف، وتلتها عمليات اعتقال وفرض حظر التجول على المدينة بأسرها.^{٤١} وفي ١٩٨٨/١/١٤، عقدت شخصيات فلسطينية مؤتمراً صحافياً دعت فيه إلى عقد مؤتمر دولي للسلام يشمل منظمة التحرير الفلسطينية. مُنع بعض المشاركين من الحضور واعتقل اثنان. قدم المشاركون المتبقون أربعة عشر مطلباً من إسرائيل.^{٤٢} صدر البيان الثالث في ١٩٨٨/١/١٨، ودعا إلى مقاطعة جميع المنتجات الإسرائيلية التي توجد لها بدائل محلية واقترح مقاومة الضرائب. انتشرت حملة المقاطعة مع الدعوة إلى مقاطعة جميع موظفي الخدمة المدنية والشرطة (البيان رقم ٩)، الأمر الذي أدّى إلى حدوث استقالات جماعية. وبعد ذلك انتشرت حملة المقاطعة لتشمل موظفي الخدمة المدنية الذين يقومون بجمع الضرائب والجمارك (البيان رقم ١١)، وأولئك الذين يعملون في حركة المرور، والتخطيط، والإسكان، والعاملين في دائرة إصدار البطاقات الشخصية (رقم ١٧ و ٢٠).^{٤٣}

بالإضافة إلى أشكال المقاومة المعروفة، كانت هناك أشكال أخرى عديدة مبتكرة. عندما قامت إسرائيل بقطع إمدادات الوقود عن المدن والبلدات المحاصرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، عاد الفلسطينيون إلى استخدام الطرق القديمة للمواصلات. فعلى سبيل المثال، لوحظت المئات من الحمير في شوارع نابلس.^{٤٤} وكانت المفرقات التي تستخدم في الاحتفال بيوم الاستقلال الفلسطيني مصنوعة من منتجات المطابخ، بما في ذلك الصوف السلكي. وكانت عقوبة رفع العلم الفلسطيني تصل

إلى السجن لمدة خمس سنوات، ولكن أحد المراقبين ذكر بعض الطرق البارة في تجاوز هذا، فعلى سبيل المثال كان الغسيل المنشور يحتوي على ألوان العلم الفلسطيني.^{٤٥} ورفع العلم الفلسطيني حتى فوق مباني المجالس المحلية في العديد من البلديات العربية.^{٤٦}

وصل الأمر لدى المحتلّين إلى محاولة منع الزراعة المنزلية لتوفير الطعام عند حظر التجول، ولكن تم تطوير وانتشار عدد لا يحصى من وسائل الاكتفاء الذاتي. كان من أحد الإجراءات الإسرائيلية ضد المنظمين للزراعة أن حُكّم على صديقي وزميلي مدرّس الأحياء جاد إسحق بالسجن لمساعدته في تعزيز مهارات البستنة بين أبناء شعبنا، وقد لخص الكاتب فرانكل ذلك بالقول:

”لقد كان [جاد إسحق] رجلاً عملياً، وسرعان ما اكتشف العلاقة بين السياسة والمواد الغذائية. ففي يوم من كانون الثاني العام ١٩٨٨، قام إسحق وزميله المهندس المدني عيسى الطويل وهو صديق له منذ أيام الطفولة بالذهاب إلى مدينة أريحا التي تعتبر المركز الزراعي أو السلة الغذائية في الضفة الغربية، وعادا ومعهما بذور ٥٠٠ شتلة لتوزيعها على الجيران والأقارب. هذا وانتشر الخبر بسرعة وبحلول اليوم التالي كانت الشتلات قد اختفت. لذلك عاد إسحاق إلى أريحا، وجلب معه ٢٠٠٠ شتلة أخرى، وفي نهاية المطاف قام بتوزيع ٤٠٠٠ مع كيس من البذور والأسمدة والمبيدات والخرطوم المطاطية وأقفاس الدجاج المستعملة. وقام صديق بالتبرع بسقيفة وبعض الأرض من أجل إنشاء متجر صغير للبستنة. وقام أربعة عشر شخصاً باستثمار ما مجموعه حوالي ١٨٠٠٠ دولار لتجهيز المحل. وبحلول أوائل آذار كان إسحاق والطويل وجراسموس خروب وهو معلم أحياء وزميل لهما يقومون بأعمال جديّة على أرض الواقع. ووضعوا ثلاثة أشخاص للعمل في المتجر، وقاموا حتى بشراء جرّار صغير لتأجيريه للحرثة“.^{٤٧}

مقتبس من رسالة كتبتها وأنا في مدينة ممفيس، في ولاية تينيسي الأمريكية في ١٧/٦/١٩٨٨.

دمّر الجيش الإسرائيلي ١٨ منزلاً في الضفة الغربية اليوم. ونقلت الأخبار هنا مقطع حوالي ١٠-٢٠ ثانية حول هذا الموضوع، وتحديث عن الأطفال الذين لا مأوى لهم. وثم بعد ذلك انتقلت الأخبار لتغطي

أموراً أخرى. أظُلُّ أفكّر أنّ الأمور سوف تتحسنّ في نهاية المطاف. أحاول أن أقنع نفسي أنّ مقتل شخص يومياً كمعدل متوسط في الضفة الغربية ليس بالسيئ بعد كل شيء/ بالمقارنة. ولكن مشاعر الأسى والحزن لا تتركني. شاهدت أمس جزءاً من فيلم تدور أحداثه حول زعيم أسود من الناشطين في الحقوق المدنية الذي أصيب بالرصاص في ولاية مسيسيبي أمام منزله العام ١٩٦٣. كانت خسارته لا يمكن استبدالها بالنسبة لزوجته وأولاده. ولم ير هذا الشاب المناضل أيّاً من التغييرات أو الحريات التي اكتسبها السود في وقت لاحق. أعتقد أنّ التغيير سيأتي إلى الضفة الغربية، وربما إلى كل فلسطين وجنوب أفريقيا وأماكن أخرى في العالم. أفكر بأقاربي الذي يعيشون في مثل هذا الوضع البائس والمؤلم. ثم يأتي تفكير أسوأ هو أنّ العالم لا يبالي، وأنا ممكن أن أكون مثل أي شخص آخر: لو لم يكن لدي عائلة هناك، ولم تكن تلك البلد هي موطني، فقد لا أهتم كثيراً! هذا فكر مقلق... إذ ينبغي علينا جميعاً أن نهتم ونحزن على كل شخص قُتل أو يعاني في أي مكان في العالم.

قامت بلدتي بيت ساحور في شباط ١٩٨٨، بالامتناع عن دفع الضرائب، وكانت الأحداث التي تلت سطوراً مشرفة في تاريخنا.^٨ عندما بدأت الحملة في بيت ساحور للامتناع عن دفع الضرائب، كان الالتزام كاملاً، ووجه هذا التمرد بحملة شرسة. أول حملة ضريبية بدأت يوم الخميس ١٩٨٨/٧/٧ في الساعة ٤:٣٠ صباحاً بإدخال صفوف من الجيش المدجّجين بالسلاح إلى المدينة. تم اقتياد الناس من نومهم إلى الخارج، وتم إعطاء أرباب الأسر فواتير (تحتوي على مبالغ تعسفية) وطلب منهم أن يقوموا بدفعها خلال أسبوع. قام السكان برفع شعار (لا ضرائب دون تمثيل).

رد فعل السكان كان تحدياً غير مُتوقع. بحلول منتصف الصباح، تجمع السكان أمام مبنى البلدية لمناقشة الوضع، واتّفقوا حينها على جمع بطاقتهم الشخصية وتسليمها لسلطات الاحتلال. كانت إسرائيل قد وضعت نظاماً يطلب من جميع الفلسطينيين الذين يريدون الحصول على شهادة ميلاد أو تصريح للسفر إلى خارج البلاد، أو الذين يريدون الحصول على عقود الزواج وشهادات الوفاة، أن عليهم أولاً الحصول على "براءة ذمة". تحتاج هذه الوثيقة التوقيعات لإثبات أنك قد أوفيت

بجميع واجباتك مثل؛ لا يوجد أية قضية قانونية ضدك في محكمة إسرائيلية، لا يوجد أية إنذارات أو قضايا أمنية ضدك، وأنت قمت بدفع جميع الضرائب المستحقة وفواتير الكهرباء والمياه لسلطات الاحتلال الإسرائيلي... الخ. وقد كانت بطاقات الهوية الشخصية تشكل عنصراً أساسياً من ذلك النظام الجائر.

تم جمع أكثر من ١٠٠٠ بطاقة هوية لتسليمها، وحضر الجيش الإسرائيلي وهدد البلدة. دعت البلدية إلى اجتماع الساعة الرابعة من بعد الظهر، وأخبر الموجودون أن الحاكم العسكري لا يريد التفاوض، ومن ثم أمر الجنود الناس بالانصراف. الجنود تعاملوا مع هذا العصيان من خلال عمليات الاعتقال، و"فتحو النار بالرصاص المطاطي واستخدموا أيضاً القنابل المسيلة للدموع ضد المواطنين".^٩ طالب الحاكم العسكري بعقد اجتماع في منتصف الليل مع المجلس البلدي، والقائم بأعمال رئيس البلدية، وهدد بترحيل ٥٠ من وجهاء البلدة، وجميع الناس الذين لا يحملون بطاقات هوية بحلول صباح اليوم التالي. بعد التفاوض أرجعت الهويات إلى أصحابها، ولكن عمليات المقاومة للضرائب استمرت بنجاح.

في ١٥/١٢/١٩٨٨، وجّه المركز الفلسطيني للتقارب بين الشعوب دعوة عامة للإسرائيليين للقدوم إلى بيت ساحور: "تذوق طعم السلام: كيف ستبدو عندما تعيش إسرائيل وفلسطين معا في سلام؟ توجه بلدة في الضفة الغربية دعوة لكم من أجل القيام بجولة في بعض المواقع التي في يوم من الأيام سوف تكون الدولة الفلسطينية. تذوقوا اليوم طعم السلام القادم. تعالوا كضيوف وليس كمحتلين".^{١٠} بعد يوم من إصدار الدعوة، صعدت قوات الاحتلال اعتداءاتها، ما أسفر عن استشهاد فلسطينيين عدة وإصابة العشرات. وفي اليوم الذي جاءت به الزيارة، وهو يوم الأحد ١٨/١٢/١٩٨٨، أعلن جيش الاحتلال بيت ساحور منطقة عسكرية مغلقة. قام السكان بتفحص مواقع حواجز الجيش على الطرق، ووجدوا أنه من الممكن للسيارات أن تصل من خلال طريق تقوع من القدس (وكان يستخدم من قبل المستوطنين، ولكن لا توجد فيه نقاط تفتيش عسكرية). وصلت القافلة المكونة من ٢٠ سيارة تحمل ٧٠ إسرائيلياً من بينهم عضو الكنيست ران كوهين، حيث لقيت ترحيباً حاراً من قبل السكان. وتم التجمع في الكنيسة، واستهل بالنشيد الوطني

الفلسطيني ”بلادي، بلادي“، ومن ثم كلمة ترحيبية من رئيس بلدية بيت ساحور السيد حنا الأطرش، الذي أعلن ”القوة والقهر لا يمكنهما أبداً أن يجبرا الفلسطينيين على إنهاء انتفاضتهم ونضالهم من أجل العدالة والسلام والاستقلال“.^{٥١}

حصلت هجمة الضرائب الثانية في ١٩/٩/١٩٨٩. ذكر غسان أنضوني أن مركز المعلومات الفلسطيني لحقوق الإنسان أصدر تقريراً في ٣١/١٠/١٩٨٩ جاء فيه:

”منذ ١٩ أيلول العام ١٩٨٩ وبيت ساحور محاصرة بالمئات من القوات الإسرائيلية. تم إنشاء مجمع عسكري جديد بالقرب من حقل الرعاة لعمليات الاستجواب والتنفيذ السريع للأوامر العسكرية. وأصبح ما بدأ كحملة لفرض دفع الضرائب حملة عسكرية واسعة النطاق ضد سكان بيت ساحور، وهادفة إلى تدمير اقتصاد المدينة وكسر العظام واعتقال حتى الأطفال، ونهب المحلات والمصانع والمنازل ... وكانت السلطات غير قادرة على إجبار أي مواطن على التفاوض معهم، أو حتى دفع مبالغ تافهة لاستعادة ممتلكاتهم. انتقلت الحملة من المحلات التجارية إلى المنازل، وفي بعض الحالات أُسْتُولِي على محتويات المنازل بالكامل تقريباً، ووضعت في شاحنات، وأُخذت إلى مكان البيع بالمزاد العلني ... وتم قطع خطوط الهاتف، ومنعت الصحافة من الدخول، وكذلك المجموعات التي جاءت للتضامن مع السكان ... خلال ٤٢ يوماً من الحصار أُلقي القبض على المئات من السكان، والكثير منهم ليس لهم صلة بمسألة الضرائب. استخدم المعتقلون من قبل السلطات كرهائن، والإفراج عنهم لا يتم إلا مقابل دفع الضرائب. تم إلقاء القبض على المدنيين في الليل، وإحضارهم إلى متاجرهم ومنازلهم في اليوم التالي ليشهدوا عمليات المصادرة. وصرّح وزير الدفاع إسحق رابين في حينه: ”نحن ذاهبون إلى هناك لتلقيهم درساً، ولن يلاحظ أي من القناصل، ولن يعقد فيصل الحسيني أية مؤتمرات صحافية. لن يكون هناك أية محاولة لعدم دفع الضرائب، وحتى إذا كان ذلك سيستغرق شهراً، سوف ينهارون في نهاية المطاف. ولن نسمح لهذا النوع من العصيان المدني أن ينجح، ويجب علينا أن ننجح في هذا الاختبار. وينبغي علينا أن نقول لهم: انسوا ذلك حتى لو استمرّ حظر التجول على بلدة بيت ساحور لمدة شهرين“.^{٥٢}

كتب الصحافي إيان بلاك حول هذه الثورة على الضرائب في صحيفة الغارديان اللندنية الصادرة في تشرين الأول العام ١٩٨٩:

”تم الاستيلاء على سلع بقيمة تقدّر بمئات الآلاف من الجنيهات، وشمل ذلك معدات التصنيع والأجهزة المنزلية والنقود والمجوهرات، وتم شحنها من قبل مأمورين إسرائيليين وبحراسة جنود مسلحين ... وتم فرض عقوبات اقتصادية على بيت ساحور، البلدة المزدهرة نسبياً والجميلة والمؤلفة من ١٢٠٠٠ مواطن، وتقع في ”المثلث المسيحي“ المتمركز حول مدينة بيت لحم. تم فرض عقوبات اقتصادية من جانب السلطات ... وأصبحت عمليات المصادرات أمراً روتينياً. وتم الإعلان عن المدينة بأكملها منطقة عسكرية مغلقة، وفرض حظر التجول ليلاً، وقطعت خطوط الهاتف“.^{٥٢}

منعت إسرائيل وسائل الإعلام والزعماء الدينيين وحتى الممثلين الدبلوماسيين من دخول المدينة لرؤية عمليات النهب التي تمت على نطاق واسع. حاول ممثلو عدد من البلدان الأوروبية وزعماء الكنيسة زيارة البلدة تحت الحصار الذي استمر ٤٢ يوماً، ولكن الجيش الإسرائيلي أرجعهم.^{٥٣} من الصعب على المقاومة السلمية أن تنجح مع تعقيم إعلامي، فأخذ النشطاء على عاتقهم كسر هذا التعقيم. قام القادة المحليون بإرسال دعوات إلى جميع الدبلوماسيين الأجانب للقدوم إلى بيت ساحور رغم الحصار وحظر التجول. القنصل البريطاني العام في القدس كان أول من وافق على الدعوة. وصل من الجانب الشرقي للبلدة في ٥ / ١١ / ١٩٨٩، وتم إخفاء سيارته في بيت يعقوب الأطرش، وأخذ في جولة في المدينة خلال حظر التجول، وذلك عبر الأبواب والطرق الخلفية ليشاهد الدمار الذي خلفته عمليات النهب التي قام بها الجيش.^{٥٤} قام بكتابة تقرير مطوّل لحكومته، التي بدورها طالبت بتوضيحات من السلطات. ردّت السلطات بالغطرسة، وطلب أخذ إجراء ضد القنصل البريطاني لانتهاكه منطقة عسكرية مغلقة.^{٥٥} طلبت الحكومات العربية من مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رفع حظر التجول والحصار. نال القرار تأييداً بالإجماع، ولكن تم استخدام حق النقض ”الفيتو“ ضد هذا القرار من قبل الحكومة الأمريكية.^{٥٦}

هذا جزء من الرسالة التي بعث بها القادة المحليون في ١١/١١/١٩٨٩ إلى رئيس الولايات المتحدة الأمريكية يحتجون على استخدام حق النقض "الفيتو":

"نرسل لكم نحن شعب بيت ساحور هذه الرسالة لنعرب عن حزننا العميق للموقف غير العادل الذي اتخذته حكومتكم من خلال ممثلكم في الأمم المتحدة. يمثل عدم دفع الضرائب نضالاً سلمياً وغير عنيف، والذي ووجه بدرجة كبيرة من العنف من قبل سلطات الاحتلال التي لم تقدم أية خدمات مقابل ما جمعت من الضرائب المباشرة وغير المباشرة من المواطنين على مدار أكثر من ٢٢ عاماً. لم يقم الاحتلال خلال هذه الفترة كلها بتقديم أو بتخصيص أية ميزانية واحدة للأراضي المحتلة. وهذا يعني أن الأموال التي تم جمعها من المواطنين ذهبت إلى الخزائن الإسرائيلية من أجل بناء المستوطنات، وليتم استخدامها في قمع الشعب الفلسطيني ... نحن نطلب منكم إعادة تقييم مواقفكم التي هي منحازة ضدنا، والإعلان بسرعة عن موقف صادق وشجاع لإدانة أولئك الذين ينتهكون حقوق الإنسان الأساسية".^{٥٨}

كان الياس رشناوي أحد الأشخاص الساحوريين الذين شاركوا في الامتناع عن دفع الضرائب، وقد تحدّث في إسبانيا في وقت لاحق قائلاً:

"اهتمت اللجان الزراعية بزراعة الخضراوات التي نحتاج إليها في كل قطعة أرض حول كل منزل، كذلك اهتمت بتربية الأرانب والدجاج لتأمين اللحوم حتى في ظل حظر التجول. كان الجنود الإسرائيليون يصابون بالهستيريا عندما يشمون رائحة اللحم المشوي في جميع أنحاء بلدة بيت ساحور أثناء الحصار ومنع التجول ... وفي أيلول العام ١٩٨٩، بدأت الحملة العسكرية الأطول والأصعب على الضرائب ضد بلدة بيت ساحور الصغيرة، حيث كانت المدينة بأكملها تحت الحصار. تم إغلاق جميع مداخل البلدة، وقطعت خطوط الهاتف، وتم منع دخول الإمدادات الغذائية والطبية إليها. بدأت المواجهة الكبرى. وهي المرة الأولى عندما قامت اللجان في المناطق المحيطة، وبالتعاون مع اللجان الشعبية واللجان المهنية بإعلان حالة التأهب للبدء بعملها ليلاً ونهاراً ... في أحد المنازل بعد أن أوشكوا على المغادرة، سمعوا امرأة تصرخ طالبة منهم الانتظار، وارتسمت الابتسامة على وجوههم

وقالوا لأنفسهم أخيراً قرّر أحدهم الدفع، ولكنهم كانوا غاضبين جداً عندما قامت تلك السيدة برمي جهاز التحكم عن بعد وتقول لهم انسوا ما جئتم لأجله. وفي منزل آخر دخلوا إليه، كان صبي يبلغ من العمر ست سنوات يشاهد الرسوم المتحركة، فنظر جابي الضرائب إليه بخبث وحسب أنه قد يلعب بمشاعر الأب، قال للأب: حسناً يمكنك الاحتفاظ بالتلفاز ويستمر ابنك بمشاهدته، إذا قمت بدفع مائة شيكل. فرد الأب قائلاً: لا.

الجابي: حسناً، يمكنك دفع خمسين شيكلاً.

الأب: لا.

– الجابي: حسناً، أتعرف شيئاً، ادفع شيكلاً واحداً فقط ويمكنك الاحتفاظ بالتلفاز.

كان الأب متردداً لوهلة من الزمن لأنه كان ينظر إلى ابنه يشاهد الرسوم المتحركة، وكانت مشاعره تساومه على ذلك، ولكن قبل أن يتمكن من الرد على هذا العرض، قفز الصبي البالغ من العمر ست سنوات وأطفأ التلفاز وصاح قائلاً: لا يا أبي، دعهم يأخذون التلفاز! لقد كانت واحدة من أعظم اللحظات في تاريخنا كفلسطينيين، للشعور وإظهار بأن المقاومة كانت عميقة جداً في ضمائرنا ووعينا لدرجة أن جميع قطاعات المجتمع، بمن فيهم الرجال والنساء وحتى الأطفال كانوا منخرطين في تلك المقاومة على حدا سواء، وبتناغم كامل في العصيان المدني وفي المقاومة غير العنيفة في حملة المقاطعة ضد دفع الضرائب. لقد كانت هذه المقاومة مهمة جداً وسوف نروي القصة لأجيال قادمة“.^{٩٠}

ووجهت الحرب الاقتصادية والعسكرية التي شنتها إسرائيل بالعديد من الطرق الأخرى للمقاومة، وبخاصة تطوير مؤسسات الاكتفاء الذاتي. قال باتريك وايت في تقرير له معلقاً على هذه الظاهرة بالقول:

”لمواجهة هذه الحقائق الجديدة، قام سكان الأحياء في بلدة بيت ساحور بعمل لم يكن محظوراً من قبل أي من القوانين القائمة في المنطقة وهو الزراعة ... في الوقت نفسه بدأ الأطباء من بلدة بيت ساحور ببرنامج لتقديم العلاج الطبي اللازم بتكلفة منخفضة، وأعلن التجار عن خفض وتثبيت الأسعار لمختلف السلع. وقامت الجمعيات

والأندية الاجتماعية بجمع الأموال اللازمة لمساعدة الأسر المحتاجة، وقامت مجموعة من المهنيين، بما في ذلك المهندسون الزراعيون، بإنشاء مركز زراعي ليقوم بتزويد المجتمع المحلي بالبذور والشتلات والمعدات الزراعية ... لقد كان الدكتور جاد واحداً من خمسة من مؤسسي "السقيفة" التي قمت بزيارتها في أحد الأيام في نيسان العام ١٩٨٨ ... قرّرت هذه المجموعة تقديم اللوازم الزراعية والخدمات إلى جيرانهم بأسعار معقولة ... وقبل اعتقال الدكتور جاد أصبح واضحاً أنّ آثار هذه الجهود الشعبية كانت كبيرة، حيث قامت بتقديم نموذج عمليّ يثبت أنّ العمل الاجتماعي التعاوني يمكن أن يوفر الحماية الذاتية من خلال الاعتماد على النفس لشعب في ظل أوضاع سياسية غير مستقرة".^{٦٠}

حاولت قوات الاحتلال منع تحقيق الاكتفاء الذاتي الذي وصل إليه أهالي بيت ساحور. ابن عمي جلال قمصية لخص قصة طريفة:

"كنا متأكّدين من أنه سيكون من المستحيل الحصول على ترخيص لمشروع تعاوني جديد مثل قيام مشروع مزرعة الألبان في ظل القانون العسكري للاحتلال. قام البعض بتقديم الطلبات مرات عدّة لمشاريع محلية مماثلة، ولكن جهودهم كانت تذهب أدراج الرياح. ولذلك جازفنا بحياتنا وذهبنا إلى كيبوتس إسرائيلي وقمنا بشراء ثمانية عشرة بقرة، وقمنا بنقلها إلى مكان خاص بالقرب من البلدة ... ولكن قام الحاكم العسكري وموظفو بيت شان وضباط الإدارة المدنية والكثير من الجنود بمحاصرة المزرعة، والتقطوا صوراً لكل بقرة وأعطوا أرقام تعريف لها، وبعد ذلك أعطونا أمراً عسكرياً يقضي بإغلاق المزرعة في غضون أربع وعشرين ساعة، وإلا فإنّ الحاكم العسكري سيأمر بتسوية المكان بالجرافات ... لم يكن لدينا بديل آخر سوى الذهاب في ساعة متأخرة من الليل ونقل الأبقار في السر. عندما ذهب الحاكم العسكري في صباح اليوم التالي إلى المزرعة لم يعثر على أية بقرة، فغضب غضباً شديداً، وبدأ عليه الأمر وكأنه خسر ثمانية عشر من الإرهابيين ... وتم تنظيم عملية بحث واسعة النطاق. يقول الناس إنّ مئات الجنود قد شاركوا في هذه الحملة وأشركوا الطائرات العمودية من أجل البحث عن تلك الأبقار ... ولكن أستطيع أن أقول لكم شيئاً، كانت الأبقار ما زالت مخبأة في مكان ما، وتمدّ أطفال بلدة بيت ساحور بالحليب خلال الانتفاضة".^{٦١}

استمرّ الحصار المفروض على بيت ساحور من ٢٢ أيلول إلى ٣١ تشرين الأول العام ١٩٨٩. ^{٦٢} تم فرض حظر التجول لمدة ٢٤ ساعة متواصلة في الأيام الخمسة الأولى من الحصار. في وقت لاحق كان يفرض حظر التجول من الساعة الخامسة مساءً وحتى الساعة الخامسة صباحاً. وفي نهاية شهر تشرين الأول العام ١٩٨٩، أنهت إسرائيل تلك الحملات لجمع الضرائب المستحقة على المواطنين، ويرجع السبب في ذلك إلى الدعاية السلبية والغضب الدولي. ^{٦٣}

عندما سئل أحد المشاركين الرئيسيين الصيدلي مكرم سعد العام ١٩٩٠ ما إذا كان هنالك زعيم لثورة الضرائب، فأجاب ”لم يكن هناك قادة؛ الجميع شاركوا في هذه الثورة. وإذا كان هناك زعماء فهم الزعماء الدينيون. لقد كان القادة المسلمون والكاثوليك والأرثوذكس يربطون أيديهم بعضها ببعض لمواجهة هذه الحملات، وأحياناً كانوا يؤدّون الصلاة معاً في الساحة الرئيسية للبلدة. لقد كنا جميعنا فلسطينيين، ولم يكن هناك قادة، فقد عانينا على حد سواء وقمنا بالاحتجاج“ ^{٦٤}.

القصص السابقة من بيت ساحور كانت تتكرّر في القرى والمدن الأخرى. كان النظام الصهيوني -وما زال- غير واثق من التحكم ويحاول التدخل بكل شيء. مثلاً حتى في السّياحة، كان هناك فقط ٤٠ من المرشدين السياحيين غير اليهود مقارنة بآلاف التراخيص للمرشدين اليهود، وذلك للسيطرة على هذا الاقتصاد، وعلى أيّة معلومات قد تنقل من قبل الفلسطينيين (المسيحيين والمسلمين على حدّ سواء). لكن في شكل من أشكال المقاومة الشعبية هنالك المئات من المرشدين السياحيين يقومون بعملهم معرّضين أنفسهم للغرامات الباهظة والسجن والمضايقة. ^{٦٥}

نظّمت اللجان الشعبية دروساً بديلة في منازل السكان المحليين والمساجد والكنائس من أجل مساعدة الأطفال على مواصلة تعليمهم على الرغم من إغلاق المدارس. ^{٦٦} صرّح أحد الطلاب من مخيم بلاطة للاجئين: ”يريدون أن يجعلوا منا جهلة. بل يريدون أن نصبح أكثر تخلفاً مما هم عليه، ويعرفون أننا نريد أن نتعرّف على العالم، وخصوصاً عن الوضع الذي نعيشه. نحن نريد أن نصوغ نضالنا ونتواصل في قضيتنا بالمعرفة“ ^{٦٧}.

كانت هناك مناقشات بين الفصائل حول سرعة التصعيد المطلوبة، وكذلك طول الإضرابات.^{٦٨} ولكن تُرك للأفراد إمكانيات اتخاذ قرارات بشأن كيفية المضي قدماً في ظل الوضع الراهن. حُرمت بعض الأماكن بشكل كامل من الخدمات مثل الكهرباء والمياه، وأصبحت الحياة صعبة بالنسبة للكثيرين، فترجع البعض وعادوا إلى عملهم. بالمقابل حاول أفراد آخرون التصعيد مثلاً بتدمير ممتلكات المحتلين كالمركبات والبنية التحتية والممتلكات الزراعية والصناعية.

أصدرت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة بياناً أيدت فيه حق الشعب الفلسطيني في المقاومة.^{٦٩} بعد سنتين من المقاومة، أدركت القيادة الإسرائيلية أمرين، وهما: (١) أن الانتفاضة أصبحت أسلوباً للحياة في الأراضي المحتلة. (٢) أن منظمة التحرير الفلسطينية هي السلطة السياسية الفلسطينية الكبرى والوحيدة التي لديها القدرة المباشرة لوضع حد للانتفاضة.^{٧٠} حتى اليميني شامير أدرك أن إسرائيل تفقد السيطرة وبحاجة إلى استعادة المبادرة. في أوائل العام ١٩٨٩، سمح شامير لسكرتير حكومته إلياكيم روبنشتاين والوزيرين ميريدور ورابين العمل على خطة "سلام". عرضت خطة السلام هذه إعطاء الفلسطينيين حكماً ذاتياً في بعض مجالات حياتهم، في حين تسيطر إسرائيل على الأرض والأمن والموارد الطبيعية وغيرها من القضايا الرئيسية. تشمل الخطة خمس سنوات انتقالية يتفاوض خلالها الإسرائيليون مع "العرب"، ولكن ليس مع منظمة التحرير الفلسطينية حول إنهاء الصراع (بشروط إسرائيلية). هذا النمط للحكومة الإسرائيلية يهدف إلى كسب الوقت، بينما يمحزون في تعزيز الاستيطان في المزيد من الأراضي الفلسطينية. لقد كانت هذه الخطة أساساً لنص في اتفاقيات كامب ديفيد العام ١٩٧٨.^{٧١} وما تلاها، مثل خطة رابين ١٩٨٩، واتفاقيات أوسلو ١٩٩٣-١٩٩٤ (انظر نتائج الانتفاضة ص ٢٢٤-٢٢٦).

سُئل إبراهيم الدقاق رئيس اتحاد المهندسين في الضفة الغربية عن أشكال المقاومة خلال هذه الانتفاضة فأجاب:

"هناك صورة غير واضحة عن الانتفاضة خارج فلسطين، وهي أن الانتفاضة تدور حول إلقاء الحجارة والزجاجات الحارقة. الحقيقة هي أن الانتفاضة لديها أشكال متنوعة وعميقة، فبالنسبة لأولئك

الذين يُحصون عدد القتلى والجرحى من الفلسطينيين، فهم ينظرون إلى جانب واحد من الانتفاضة. لقد كانت الانتفاضة انتفاضة في البنية الأساسية للشعب الفلسطيني، وفي كيف يواصل الناس حياتهم اليومية. أصبحت الانتفاضة وسيلة للعيش، وهذا الجزء لا يتم تغطيته من قبل وسائل الإعلام. تسير الانتفاضة في اتجاه بناء ما يمكن أن يُطلق عليه الطريق إلى الاستقلال الفلسطيني. هذا يعني الاستقلال عن الأسواق الإسرائيلية، وبناء المؤسسات الفلسطينية المستقلة قدر الإمكان، وأيضاً في إعادة ترتيب عناصر المجتمع الفلسطيني في ضوء ما يناسب الوضع، وما يتوقع الشعب الفلسطيني أن يحدث في المستقبل، وهو بناء الدولة الفلسطينية المستقلة. إذن، الانتفاضة هي حركة حضارية مفعمة بالحياة في هذا الوقت، وتغيّر الظروف في المجتمع الفلسطيني. هذا التغيير يسير إلى الأمام تصاعدياً وليس العكس^{٧٢}.

قادت انتفاضة الحجارة إلى تجديد الاهتمام بكل شيء فلسطيني مثل: الإعلام الفلسطينية، الفن الفلسطيني، الطهي، الثقافة، وما إلى ذلك. اتخذت رموز حق تقرير المصير منحني وطنياً قوياً. وأصبحت الأفعال البسيطة التي تفصلنا عن الاحتلال ظواهر استقلال يستهدفها العدو. مثلاً جن جنون السلطات الإسرائيلية عندما قام الفلسطينيون بضبط ساعاتهم بوقت مختلف عن التوقيت الإسرائيلي. ورفض الناس تغيير الوقت عندما قامت إسرائيل بإرجاع عقارب الساعة ساعة واحدة إلى الوراء يوم ٢٦ آب العام ١٩٩٠. وعوقب العديد من الفلسطينيين الذين يرتدون ساعات لم يقوموا بتعديل الوقت فيها.^{٧٣}

حاولت المقاومة من الناحية التكتيكية إزالة إجراءات الاحتلال الإسرائيلي تدريجياً. على سبيل المثال، تضمنت هذه الخطوات مطالبة الفلسطينيين الذين كانوا يعملون في سلك الشرطة والمجالس القروية تقديم استقالتهم. وكان يُمارس الضغط عليهم من خلال أسرهم ونبذهم من قبل المجتمع، فلا أحد يتحدث معهم وترفض الكنائس والجوامع مشاركتهم ... الخ.

حاول الجيش الإسرائيلي إعادة السيطرة على الأراضي المحتلة، فأمروا بفتح المتاجر عندما كان التجار مضربين، وكانوا يقومون بكسر أقفال المحلات التجارية قسراً. وطلبوا من الناس إغلاق المحال التجارية عندما كان يقرّر الفلسطينيون فتحها أثناء حظر التجول وعمليات الإغلاق

الموسعة. سرعان ما أصدرت السلطات الإسرائيلية أوامر بحظر جميع اللجان الشعبية مع أحكام بالسجن لمدة ١٠ سنوات للمخالفين.^{٧٤} وبدأوا بسياسة تكسير عظام جميع الذين يقذفون الحجارة، أو الانخراط في أعمال أخرى من المقاومة. شرع بسياسة تكسير العظام هذه في أوائل كانون الثاني العام ١٩٨٨، ولكن لم يتم الإعلان عن السياسة رسمياً إلا عندما سأل بعض الصحفيين أسئلة حولها. وفي غضون ثلاثة أيام من إعلان إسحق رابين عن هذه السياسة، تم علاج أكثر من ٢٠٠ شخص في المستشفيات والعيادات بكسور في العظام.^{٧٥}

أحد الأمثلة على تطبيق هذه السياسة وقعت في ليلة باردة في ٢١/١/١٩٨٨ في قرية حوارة، حين دخلت سيارتا جيب إلى القرية محملة بالجنود، وقام الجنود باعتقال ١٢ شاباً وقيّدوا أيديهم واقتادوهم على بعد مسافة من القرية إلى واد. بتعليمات القائد العسكري، شرع الجنود بتكسير عظام الأرجل والأيدي مستخدمين هراوات خشبية. تطلب هذا الكثير من الضربات، وحتى كسرت بعض الهراوات. وتعالّت صرخات الألم ولكنّ الجنود واصلوا التكسير. أمر القائد بترك أرجل أحدهم حتى يعود إلى القرية للمساعدة، وعدا عن ذلك كُسرت كل العظام الطويلة.^{٧٦} تم تكرار هذه الوحشية في قرى وبلدات أخرى بأوامر مباشرة من وزير الدفاع آنذاك إسحق رابين، ورئيس هيئة الأركان للفتنات جنرال (الفريق في الجيش) دان شومرون، وقائد الضفة الغربية اللواء عمّام متسناح.

في العامين الأولين من هذه الانتفاضة، قتلت القوات الإسرائيلية بمساعدة المستوطنين ٨٢٤ فلسطينياً، وأصيب أكثر من ٨٠٠٠، وقاموا بترحيل ٥٨ فلسطينياً، وتم أسر أكثر من ٥٠٠٠، وفُرض حظر التجول. وتم اقتلاع ٦٨٩، ٧٧ شجرة، وهدم أو إغلاق ١٢٢٥ منزلاً. في الوقت نفسه، لم يُقتل سوى ٨ جنود إسرائيليين، و٣ مستوطنين.^{٧٧} ولكن استمرت هذه الانتفاضة غير المسلحة على الرغم من وحشية الجيش الإسرائيلي.

كان الشباب الفلسطينيون العمود الفقري لهذه الانتفاضة. من بين طلاب الصف التاسع شارك ٨٠٪ من الذكور، و ٥٠٪ من الإناث في المظاهرات، وتعرض ٦٨٪ من الذكور و ٣٤٪ من الإناث لمضايقات من قبل الجنود

الإسرائيليين، وألقي القبض على ٢٩٪ من الذكور و ٢٪ من الإناث. كما تعرض ٥٨٪ من الذكور و ١٣٪ من الإناث للضرب، وكانت الأرقام بين طلبة الجامعات أعلى من ذلك.^{٧٨}

ذكر طبيب يزور المنطقة في تقرير له عن حجم الفظائع والأعمال الوحشية:

”زُرت مستشفى المقاصد في مدينة القدس، وهي واحدة من سبع مستشفيات فلسطينية في الضفة الغربية، وهنا شعرت بالمعنى الحقيقي ”للاحتلال العسكري“. عولج ١٧١ مصاباً بطلقات نارية في غضون ثلاثة أشهر في هذا المستشفى وحده، وأكثر من ٧٠٠ فلسطيني آخرين تعرضوا للضرب المبرح. وعولج أيضاً ما مجموعه ٩٠٠ فلسطيني بجروح بالغة سيظل نصفهم بعجز دائم، وأصيب أكثر من ٤٠ من هؤلاء بشلل دائم. ملأ الفلسطينيون -وثلثهم من الأطفال- جميع غرف المستشفى وممراته، وكانوا يعانون ليس من العظام المحطمة فحسب، ولكنهم من حياتهم المحطمة أيضاً. كما تسببت العيارات المطاطية بإلحاق العمى وكسور في العظام. وتسبب الغاز المسيل للدموع بحدوث التشنجات وفقدان الذاكرة، والإجهاض، وتعرض الصغار والكبار للوفاة بسبب مضاعفات في التنفس. ينبغي أن لا يصبح هؤلاء الفلسطينيون الجرحى وإخوانهم الذين استشهدوا وهم من بني البشر مجرد إحصائيات. الأموال الأميركية هي التي تشتري البنادق والرصاص والغاز المسيل للدموع الذي يحطم اللحم البشري والرئتين والعظام. يجب علينا الطلب من وسائل الإعلام الوصول إلى المظلومين ومساءلة المضطهدين والظالمين. دعونا نعمل لوقف هذا الاحتلال غير المبرر الذي لا فائدة منه قبل أن يموت المزيد من الأبرياء.“^{٧٩}

كانت هناك فترات تم فيها وضع آلاف الفلسطينيين في الضفة الغربية وقطاع غزة تحت حظر تجول كامل. عندما لا يكونون تحت أمر حظر التجول كانت المدارس تُغلق لأشهر عدة من أجل إلحاق الضرر بمئات الآلاف من الطلاب. أغلقت جميع الجامعات الست الرئيسية. ولكن الشعب وجد بدائل -كما ذكرت سابقاً- كالتدريس في المنازل والمراكز الاجتماعية والكنائس والمساجد على الرغم من اعتبار إسرائيل هذه التجمعات غير قانونية (كانت السلطات تقوم بتغريم الناس الآلاف من الدولارات، وتحكم بالسجن لفترات طويلة على من تنالهم).

على الرغم من المذابح ومنطق الدعوة إلى المقاومة المسلحة، فإن هذه الانتفاضة استمرت بأساليب المقاومة الشعبية. يبين تحليل لمحتوى البيانات التي تم توزيعها أن الغالبية العظمى من أول ٣٩ بياناً حوت على توجيهات لأساليب غير عنيفة، وعدد صغير منها حوت توجيهات لأنشطة عنفية وغير عنفية على حد سواء، ولكن الأساليب غير العنيفة سيطرت على تلك البيانات.^{٨٠} عمل الفلسطينيون داخل الخط الأخضر جنباً إلى جنب لدعم إخوانهم وأخواتهم في الضفة الغربية وقطاع غزة، معلنين يوم ١٩/١٢/١٩٨٧ يوماً للسلام بالخروج بمظاهرات واعتصامات، والسير من منطقة رأس الناقورة إلى مدينة القدس. وفي ٢٨/٢/١٩٨٨ قاموا بإلحاق أضرار بالمصالح الاقتصادية الإسرائيلية، مثل إشعال الحرائق، ولأشهر عدة متواصلة أرسلوا الأدوية والأغذية لدعم الفلسطينيين تحت الحصار.^{٨١} لم تنس المقاومة تضامنها مع آخرين يعانون من ظروف مماثلة. دعت المقاومة في بيانها العشرين إلى تعيين يوم ٢٥/٦/١٩٨٨ يوماً للتضامن مع جميع الذين يقاومون التمييز العنصري، وبخاصة في جنوب أفريقيا.

لقد كانت الانتفاضة الفلسطينية نقطة تحول في الأعمال غير العنفية الأخرى داخل الخط الأخضر. تشرح هنا غيلا سفيرسكي عن الحركات النسائية داخل الخط الأخضر، فتقول:

”قبل بدء الانتفاضة كانت هناك ثلاث منظمات نسائية في إسرائيل تعمل من أجل ”السلام والتعايش“، وهي: (جيشر) و(تاندي-حركة النساء الديمقراطية في إسرائيل)، وفرع لمنظمة عالمية (الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية). لقد كانت نسبة مشاركة النساء العربيات في إسرائيل أعلى بكثير من مشاركة النساء اليهوديات في هذه المنظمات ... وبعد وقت قصير من بدء الانتفاضة الفلسطينية ضد الاحتلال الإسرائيلي، ظهرت فجأة سبع منظمات سلام نسائية إضافية، حيث تمكنت من تجنيد العديد من النساء اللاتي لم يسبق لهن أن كنّ نشيطات سياسياً.“^{٨٢}

فيصل الحسيني

من وجوه الانتفاضة ومعالمها فيصل الحسيني (١٩٤٠-٢٠٠١).^{٨٣} ولد في بغداد في ١٧ تموز العام ١٩٤٠ أثناء نفى والده عبد القادر الحسيني

الزعيم في الكفاح المسلح، والذي استشهد في معركة القسطل العام ١٩٤٨. انضم فيصل الحسيني إلى حركة القوميين العرب العام ١٩٥٨، واشترك في تأسيس الاتحاد العام للطلبة الفلسطينيين في القاهرة العام ١٩٥٩، ثم أصبح مسؤولاً في دائرة التنظيم الشعبي التابعة لمكتب منظمة التحرير الفلسطينية في القدس العام ١٩٦٥. انضم إلى جيش التحرير الفلسطيني العام ١٩٦٧، وتخرج من الكلية العسكرية في دمشق العام ١٩٦٧، ولكنه أصبح لاحقاً قائداً رئيسياً في المقاومة الشعبية التي اقتصت بفعاليتها.

بعد الاحتلال الإسرائيلي أصبح عضواً نشيطاً في حركة فتح، وأهلت هذه المرحلة المبكرة إلى قيادة النضال. حُكم عليه بالسجن لمدة عام في ١٥/١٠/١٩٦٧. بين الأعوام ١٩٦٩ و١٩٧٩ مارس الحسيني مهناً مختلفة، ومنها: مزارع في أريحا، وتاجر، وموظف استقبال في فندق، وفني أشعة، أسس بالتعاون مع مجموعة صغيرة من الأكاديميين الفلسطينيين العام ١٩٧٩ جمعية الدراسات العربية، التي تعرضت للتهديد والمضايقات والمواجهات، وأغلقت مرات عدة. قاد حملة لإنهاء الحصار الذي فرضته قوات الاحتلال الإسرائيلي على الجولان العام ١٩٨١. وضعته السلطات الإسرائيلية تحت الإقامة الجبرية في القدس في الفترة ما بين ١٩٨٢-١٩٨٧، ما منعه من مواصلة دراسة التاريخ في كلية الآداب بجامعة بيروت العربية.

أسس فيصل الحسيني مع الإسرائيلي جديون سبيرو لجاناً مخصصة للدفاع عن حقوق الشعب الفلسطيني. تحولت هذه اللجان في أوائل ثمانينيات القرن العشرين إلى "لجنة مواجهة القبضة الحديدية"، ونظمت مظاهرات دعت إلى وقف عمليات الترحيل والاحتجاز الإداري وغيرها من الممارسات الإسرائيلية. كانت اللجنة من أولى المجموعات بقيادة فلسطينية دعت إلى إشراك الإسرائيليين والقبول ضمناً بفكرة حل الدولتين. نظم الحسيني وسري نسبية وغيرها مسيرة في مدينة القدس في ١٤/٦/١٩٨٧، ضمت المئات من الفلسطينيين الذين رفعوا سبعة وستين علماً من الأعلام السوداء الكبيرة. اعتقل فيصل مرات عديدة ما بين ١٩٨٧-١٩٨٩.

وشارك فيصل الحسيني في المحادثات التمهيدية لمؤتمر مدريد للسلام. وفي العام ١٩٩٢ أنشأ مقرّاً للفريق الفلسطيني المفاوض في محادثات

السلام الذي أصبح يعرف فيما بعد باسم "بيت الشرق". عملياً، أصبح مقرّاً لمنظمة التحرير الفلسطينية في القدس، وضمّ جمعية الدراسات العربية، ومركزاً لتقديم الخدمات لأبناء القدس.

قال الحسيني هذه الكلمات التي تعبّر عن روح المقاومة الشعبية بعد المجازر التي ارتكبتها القوات الإسرائيلية في المسجد الأقصى في ٨/١٠/١٩٩٠:

اللهمَّ إنّ الصدر مليء بالمرارة فلا تحوّلها إلى حقد.

اللهمَّ إنّ القلب مليء بالألم فلا تحوّلّه إلى انتقام.

اللهمَّ إنّ النفس تملؤها المخاوف فلا تحوّلها إلى كراهية.

اللهمَّ إنّ الجسد مني ضعيف فلا تحوّل ضعفي إلى يأس.

اللهمَّ إنّني عبدك القابض على الجمر فأعني على الثبات والصمود.

اللهمَّ إنّ الإيمان محبة.

اللهمَّ إنّ الإيمان تسامح.

اللهمَّ إنّ الإيمان يقين.

اللهمَّ لا تطفئ شعلة الإيمان في صدري.

اللهمَّ إنّنا أردنا الانتفاضة بيضاء فاحمها.

اللهمَّ إنّنا أردنا الحرية لشعبنا ولم نرد استعباد الآخرين.

اللهمَّ إنّنا أردنا بيتاً لشعبنا يلم شتاتهم، ولم نسع لتدمير دول الآخرين ولا لهدم بيوتهم.

اللهمَّ إنّ شعبنا مجرد من كل شيء إلا الإيمان بحقه.

اللهمَّ إنّ شعبنا ضعيف إلا من الإيمان بالنصر.

اللهمَّ امنحنا اليقين والرحمة والتسامح في صفوفنا ولا تجعلنا حرباً على أنفسنا.

اللهم اجعل الدماء التي سالت نوراً ترشدنا وتهدينا وتشدّ عضدنا
ولا تجعلها وقوداً للكراهية والانتقام.

اللهم أعنا على عدونا لنعيّنه على نفسه.

اللهم هذه صلاتي لك ودعائي ... فاسمعه واستجب له وأهدنا سواء
السبيل.

نتائج الانتفاضة

كلّفت الانتفاضة إسرائيل أموالاً طائلة وانهارت سمعتها في العالم.
وبحلول أيار العام ١٩٨٨، أشارت التقديرات إلى أنّه في الأشهر الثلاثة
الأولى من الانتفاضة انخفضت الإيرادات الحكومية بنسبة ٣٠٪ بالمقارنة
مع الفترة المماثلة في العام الماضي، وارتفعت النفقات بشكل كبير للعمليات
العسكرية، وتراجعت السياحة والصادرات الإسرائيلية.^{٨٤}

بعد حرب الخليج الثانية العام ١٩٩٠، مارست الولايات المتحدة الأمريكية
ضغطاً على رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق شامير من أجل حضور
المؤتمر الدولي للسلام المنعقد في مدريد. كان الوفد الفلسطيني برئاسة
الدكتور حيدر عبد الشافي ضمن الوفد الأردني. وكان أداء الفريق مميزاً
على مدى ٢٢ شهراً. كان الفريق الإسرائيلي متوتراً في أدائه، وقرّرت
الحكومة الإسرائيلية أنه بإمكانها التوصل إلى اتفاق أفضل من وراء
الكواليس في محادثات مع "المعتدلين" من المنظمة في النرويج. محمود
عباس-أبو مازن وأحمد قريع-أبو العلاء أدارا المفاوضات السرية،
وأنهى الاتفاق في فترة سبعة أشهر (من شهر ١ إلى ٨ سنة ١٩٩٣).
ويشير عباس في كتابه إلى أنّ اتفاقات أوسلو شملت الأفكار التي قدمها
رابين إلى المنظمة في ١٢ / ٤ / ١٩٨٩ عن طريق عبد الوهاب دراوشة.^{٨٥}
ويشير عباس إلى أن بداية الطريق إلى أوسلو كانت من شمعون بيريس
عن طريق اثنين من رجاله اتصالاً بوفد المنظمة في لندن.^{٨٦}

حاولت إسرائيل الاستفادة من الانقسام الناشئ بين "فتح" و "حماس"،
ولكن الحركتين قامتا بالتوقيع على "ميثاق شرف" في ١٨ / ٩ / ١٩٩٠
(وَقَعَ الميثاق كل من فيصل الحسيني عن "فتح" والشيخ جميل حمامي

عن "حماس"). لكن الاتفاق لم يدم فترة طويلة، حيث اندلعت اشتباكات بين حركتي "فتح" و"حماس" في غزة العام ١٩٩١.^{٨٧} في منتصف أيلول العام ١٩٩٢، أي بعد ٥ سنوات من اندلاع الانتفاضة، اتخذ الزعيم الإسرائيلي إسحق رابين خطوة غير مسبقة بترحيل ٤١٦ فلسطينياً ينتمون إلى تيارات إسلامية إلى لبنان. صدر بيان مشترك من سري نسيية عن "فتح" والشيخ جميل حمامي عن حركة "حماس" بعد الترحيل، ودعا إلى ردٍّ قويٍّ وموحد.^{٨٨} كانت هذه التوجهات الموحدة مهمة للمقاومة الشعبية، ولكن منْهاج اتفاقات أوسلو يحتم إنهاء المقاومة، وكان قد بدأ يأخذ مفعوله.

بدأ التغيير في موقف المنظمة العام ١٩٧٤ بإشارات لقبول قرارات الأمم المتحدة والسير على طريق حل الدولتين. قام بسام أبو شريف مستشار الرئيس الراحل ياسر عرفات بكتابة بيان دعا إلى حل الدولتين، ووزع في القمة العربية التي عقدت في العاصمة الجزائرية (الجزائر) ما بين ٧-٩ حزيران العام ١٩٨٨. الرئيس الراحل ياسر عرفات سمح للفصائل المختلفة بمناقشة الورقة بجدية، وهي فكرة كانت موجودة بين العديد من مستشاري عرفات، بما في ذلك محمود عباس. قام العديد من هؤلاء بتقديم مفهوم إعلان الاستقلال الفلسطيني على أساس قرارات الأمم المتحدة مثل قرار الجمعية العامة رقم ١٨١ و١٩٤، وقراري مجلس الأمن الدولي رقم ٢٢٤ و٣٣٨ (وبالتالي الاعتراف بإسرائيل). بناءً على هذا، ووفق على الوثيقة الفلسطينية لإعلان الاستقلال في اجتماع المجلس الوطني الفلسطيني التاسع عشر، والمنعقد في الجزائر في ١٥ تشرين الثاني العام ١٩٨٨.

كان الأمل أن تُغيّر الولايات المتحدة الأمريكية موقفها العدائي، ولكن التراجع أدّى إلى المزيد من المطالب، وبخاصة في موضوع نبذ المقاومة (ما وصفته بالإرهاب). رفض وزير الخارجية الأمريكي شولتز السماح لعرفات بالذهاب إلى الولايات المتحدة الأمريكية لحضور اجتماع الجمعية العامة للأمم المتحدة. صوّتت الجمعية العامة بـ ١٥٤ صوتاً مقابل صوتين (الولايات المتحدة وإسرائيل) لعقد اجتماع خاص في جنيف، وكان هذا الاجتماع الأوّل من نوعه الذي يعقد خارج المقر الرئيسي في مدينة نيويورك. قام عرفات بإلقاء كلمته المشهورة في الاجتماع في

١٣/١٢/١٩٨٨، حيث صرّح بأن جميع الأطراف يجب أن تعيش في أمن وسلام "بما في ذلك دولة فلسطين وإسرائيل وغيرها من الدول المجاورة". مع هذا الاعتراف بإسرائيل والتخلي عن "الإرهاب"، وافقت الولايات المتحدة الأمريكية على إجراء محادثات مع منظمة التحرير الفلسطينية. عُقد أول اجتماع في تونس مع السفير الأمريكي روبرت بلليثرو في ١٦ كانون الأول العام ١٩٨٨. وعقد اجتماع ثانٍ في ٢٢ آذار العام ١٩٨٩.

في آذار ١٩٨٩، التقى مبارك عوض مع جين شارب وآخرين، وقاموا بإلقاء محاضرات لكبار المسؤولين في م ت ف في تونس حول المقاومة الشعبية. أثارت المحاضرات نقاشات مختلفة، ولكن بقيت الأمور كما هي، لأن ياسر عرفات كان يمسك بزمام الأمور. كان أسلوبه دائماً أن يجمع بين الاختلافات، وبالتالي فقد أيد مؤتمر فتح الخامس المنعقد في تونس في آب العام ١٩٨٩ لفظياً كلاً من الكفاح المسلح و"كافة أشكال النضال". مع ذلك، فإن حركة "فتح" التزمت على الأرض بعدم استخدام العنف في الانتفاضة. صرّح صلاح خلف (أبو إياد) في أواخر العام ١٩٩٠ أنه "لقد كنا واضحين جداً حول الحاجة إلى الالتزام بسياسة عدم التسلح في سياق الانتفاضة".^{٨٩}

كانت الصعوبة داخل منظمة التحرير الفلسطينية وخارجها في أن يكون للفصائل موقفٌ موحدٌ إما بالانتهاء من الانتفاضة والانخراط في مفاوضات، وإما مواصلة النضال لتقوية القضية قبل المفاوضات المباشرة. وافق بعض أعضاء الكنيست الإسرائيلي على العمل من أجل تحقيق السلام وأهميّة التحدث إلى منظمة التحرير الفلسطينية. لذلك، زار بعض الفلسطينيين القدس الغربية واجتمعوا مع أعضاء في الكنيست في كانون الثاني العام ١٩٩٠. كان من هؤلاء الفلسطينيين فيصل الحسيني، وحنان عشراوي، ورضوان أبو عياش، وزياد أبو زايد، وغسان الخطيب. بعد أن قام إسرائيلي بقتل ٧ عمال فلسطينيين، وقتل جيش الاحتلال ١٥ فلسطينياً آخر، شارك ٤٤ فلسطينياً بارزاً في إضراب عن الطعام.^{٩٠} تم إلغاء الإضراب بعد انفجار قنبلة ومقتل إسرائيلي ومحاولة التسلل إلى تل أبيب من قبل مجموعة فلسطينية صغيرة منسقة.^{٩١} استغلّت إسرائيل الأمور لتُضعف الموقف الفلسطيني أمام الجمهور الإسرائيلي والمجتمع العالمي.

أدرك بعض الناس أنَّ مكاسب الانتفاضة، وبخاصة الإعلامية، أتت من ضبط النفس، وبخاصة من رفض استخدام الأسلحة. آخرون انتقدوا تهميش القضية الفلسطينية (وبخاصة بعد بدء حرب الخليج)، ورأوا في هذا دليلاً على فشل النضال الشعبي والحاجة للعودة إلى الكفاح المسلح (موقف "حماس" مثلاً). تبلل الوضع العام ١٩٩٠، وأصبح إرسال البيانات والرسائل المتضاربة إلى السكان أكثر شيوعاً. قبل حرب الخليج، كانت هناك قيادة محلية موحدة إلى حد ما، وكان هدفها الرئيسي هو الاحتلال الإسرائيلي مع المقاومة الشعبية الجماهيرية كأداتها الرئيسية. خلال حرب الخليج، تم فرض حظر تجول شامل، كما قام العديد من الفلسطينيين بتعليق أنشطتهم بانتظار رؤية النتيجة. بعد حرب الخليج، عادت المقاومة الشعبية ولكن -للأسف- كثف التدخل من قبل تونس، وتدخلت عناصر سياسية أخرى داخلية وخارجية. عدم وجود إستراتيجية موحدة على الوسائل والأهداف أدى إلى انشقاق في قيادة الانتفاضة والمزيد من التصرفات الفردية، ولم يعد هناك انضباط. واتخذ شباب ملثمون قرارات خاصة قاموا بتنفيذها، ما أثار في بعض الأحيان غضب الناشطين الرئيسيين. كما تبدد الشعور بالوحدة وخفت حدة الانتفاضة.

أهداف النضال الشعبي المذكورة في كتيب مبارك عوض العام ١٩٨٣ تم تحقيقها في انتفاضة ١٩٨٧-١٩٩١. الهدف الوحيد الذي لم يتم تحقيقه هو إزالة الذعر والخوف داخل المجتمع الإسرائيلي الذي استمر في التقليل من جميع الأعمال اللاعنافية الفلسطينية، أو أسوأ من ذلك وصف مثل هذه المقاومة الشعبية بأنها نوع جديد من التهديد، أو مجرد غطاء لعمل عنيف. لا أعتقد أن هذا يمكن تفسيره بذكر الأعمال العنيفة المتفرقة والنادرة بين العامين ١٩٨٧-١٩٩٠. أعتقد أنَّ النظام التعليمي الصهيوني من مرحلة الطفولة المبكرة حول فكرة اضطهاد اليهود من قبل غير اليهود (الغوييم) منذ زمن بعيد، لم ولن يسمح لهم بالتجاوب مع المقاومة الشعبية هنا كما تجاوبت بريطانيا مع المقاومة الشعبية في الهند مثلاً.

كانت النتائج لهذه الفترة في التاريخ الفلسطيني مختلطة. من الناحية الإيجابية استطاعت الانتفاضة تحقيق مكاسب كبيرة، منها:

- عزّزت الهوية الوطنية والتلاحم بين الفلسطينيين.
- أعطت القوة المعنوية والدعم لمواقف منظمة التحرير الفلسطينية في العديد من المجالات (مثلاً في لبنان بالمساعدة على كسر الحصار المفروض على المخيمات). العشرات من الدول وافقت على إعلان قيام الدولة الفلسطينية في ١٥/١١/١٩٨٨.
- انتهى المشروع الأمريكي الإسرائيلي لإحياء الخيار الأردني، ونقد حق تقرير المصير.
- تم تطوير المؤسسات المحليّة، ومنها اللجان الشعبيّة لفرض الاستقلاليّة الفلسطينيّة على الرغم من وجود الاحتلال.
- تم تطوير القيادات المحلية التي حوّلت ثقل النشاط من خارج فلسطين إلى داخلها.
- أجبرت المجتمع على التخلّي عن العادات الثقافية الهدّامة والرجعية (بما في ذلك التقاليد في التبذير في الإنفاق على الأعراس والجنازات).
- أكّدت على أنّ القضية الفلسطينية هي القضية المركزية في العالمين العربي والإسلامي. بعد هذه الانتفاضة أصبح واضحاً أنّه لن يكون سلام في الشرق الأوسط دون تحقيق العدالة للفلسطينيين.
- كلّفت الاقتصاد الإسرائيلي أكثر من ملياري دولار، وأجبرت الكثير من الإسرائيليين إلى إعادة تقييم ما إذا كان من الممكن الاستمرار في احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة.
- من النواحي السلبية، تسبّب دعم عرفات والكثير من الفلسطينيين لصدّام حسين في خسائر كبيرة من الدعم العربي. بعد الحرب، طرد مئات الآلاف من الفلسطينيين من الكويت ودول الخليج الأخرى. تبخّر حوالي الثلثين من مجموع إيرادات منظمة التحرير الفلسطينية في سنة واحدة فقط. انتهت الانتفاضة في هذه الفترة لهذه الأسباب، ولوجود الانقسامات المذكورة سابقاً، والتوجّه نحو مدريد. وعد جورج بوش الأب معالجة الصراع الفلسطيني الإسرائيلي بعد حرب الخليج، وسعى جاهداً إلى عقد مؤتمر دولي، ولكن دون دعوة منظمة التحرير الفلسطينية

رسمياً. ولكن كان من الواضح أنَّ الوفد الفلسطيني كانت تصله تعليمات مباشرة من منظمة التحرير الفلسطينية، وإن كان يعمل تحت مظلة الوفد الأردني، وذلك في مدريد في تشرين الأول العام ١٩٩١. كانت إدارة بوش ترغب في المضي قدماً، وأدركت أنَّ المستوطنات تشكل عبء كبيراً، ولكن اللوبي الصهيوني كان قوياً. خلال مؤتمر صحفي كان الرئيس الأمريكي صريحاً بالقول: ”سمعت اليوم أنَّه كان هناك ما يشبه الآلاف من اللوبيين في الكونغرس يعملون على الجانب الآخر من هذه المسألة. ولدينا رجل واحد هنا يعمل بالمقابل.“^{٩٢} لم تكن حكومة اليمين الإسرائيلية مهتمة في تجميد الاستيطان أو في تحريك عملية السلام إلى الأمام، ولكن كانت مهتمة فقط في سحق الانتفاضة. تغيرت الأمور قليلاً بانتخاب حزب العمل. بيرييس ورايين رأيا أنَّ فريق المفاوضات الفلسطيني برئاسة حيدر عبد الشافي في مدريد وواشنطن يظهر إسرائيل بأنها دولة فاسدة متمردة لا ترغب في السلام. ولذلك قرَّرا اتخاذ خطوة للوصول مباشرة إلى منظمة التحرير الفلسطينية الضعيفة في تونس لإجراء مفاوضات مباشرة وسريّة بناء على مفاهيم قدّمها بيرييس للمنظمة سنة ١٩٨٩. أنهت العملية السياسية، والأمل في مسار أوصلو، ما قد تبقى من انتفاضة الحجارة.

الفصل الثاني عشر

مدريد وأوسلو وإنتفاضة الأقصى

”يجب أن تنتقل الانتفاضة من مرحلة المقاومة إلى مرحلة الإنجاز. والطريقة الوحيدة للقيام بذلك هي تنويع الأعمال والإجراءات التي يجب القيام بها خلال الانتفاضة، وإعادة الجماهير إلى أرض المعركة، ومواجهة هيكلية الاحتلال كالمستوطنات، والقواعد العسكرية، ونقاط التفتيش، من خلال مقاومة واسعة وغير عنفية“.

غسان أنضوني، أحد أساتذة جامعة بيرزيت^١

مدريد تقود إلى النرويج

كما ذكرت هدأت الانتفاضة بسبب حرب الخليج والوعد بانفراج دبلوماسي. مثل هذا الانفراج كان بالإمكان حدوثه لو كانت المفاوضات التي بدأت في مدريد في العام ١٩٩١ تُدار بشكل صحيح. بعد أن وجدت الحكومة الإسرائيلية الجديدة أن الفلسطينيين متشددون في مسار مدريد، حاولت مسار النرويج. سعى ياسر عرفات، ومن ورائه منظمة التحرير الفلسطينية، إلى الاعتراف أكثر من أي شيء. قامت إسرائيل بالعمل مع مجموعة صغيرة من حركة فتح بعقد مفاوضات سرية في النرويج. تمت المفاوضات على عجل (١٣ جولة انتهت في سبعة أشهر) دون الكثير من التحضير والتشاور. كانت النتيجة وثيقة إعلان المبادئ التي كانت متحيزة بشكل كبير ضد المصالح الفلسطينية طويلة الأمد.^٢ بنيت المفاوضات السرية على مبدأ استبدال التحرير والعودة وحق تقرير المصير بمفاهيم الحكم ذاتي أو دولة صغيرة (مع أن البعض قال إن هذه المراحل انتقالية). قام كل من عزمي بشارة وإدوارد سعيد وغيرهما من المثقفين بانتقاد هذا المنحدر الزلق.^٣ وفقاً لباروخ كيمرلينغ، فإن السبب

الرئيسي وراء فشل مفاوضات أوسلو، هو "هيكلية الحوافز المشوّهة التي أعطت إسرائيل فوائد مباشرة ولللسطينيين وعوداً متأخرة".^٥ أقرت الأستاذة الجامعية الإسرائيلية تانيا راينهات أنه: "في مقابل الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية وعرفات، تتوقع إسرائيل من السلطة الفلسطينية بقيادة حركة فتح احتواء مشاعر الإحباط لدى شعبها وضمان سلامة المستوطنين، في حين تواصل إسرائيل بناء مستوطنات جديدة، والاستيلاء على المزيد من الأراضي الفلسطينية".^٦

بالفعل، قامت محادثات النرويج واتفاقاتها بإخماد المقاومة في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكان لها أثرٌ سلبيٌّ على الفلسطينيين الذين يحملون الجنسية الإسرائيلية، حيث استبعدت الاتفاقيات النظر في قضيتهم، وفتحت الباب لمزيد من التفرقة العنصرية. تم تسريع الاستيطان وتقديم عدد من مشاريع القوانين في الكنيس، بما فيها تهميش الفلسطينيين والتّهويد.^٦ وجرأت عملية أوسلو الفلسطينيين: في المنفى، في القدس، في باقي الضفة الغربية، في قطاع غزة، في داخل الخط الأخضر. كما أنها زادت من حدة الانقسامات في وجهات النظر بين الفلسطينيين؛ بين أولئك الذين قبلوا أوسلو، وأولئك الذين رفضوها. كلا الطرفين بحث المضي قدماً في واقع جديد. حصلت انقسامات حتى داخل الفصائل؛ مثلاً بين من قرّر الانتقال إلى الوظائف والسلطة التي تعمل في ظل اتفاقيات أوسلو، ومن قرّر البقاء خارج فلسطين. من بين الذين قرّروا البقاء خارج فلسطين فاروق القدومي أحد مؤسسي حركة فتح، ومدير الشؤون الخارجية في منظمة التحرير الفلسطينية.

تسببت اتفاقيات أوسلو في تغييرات دراماتيكية في الضفة الغربية وقطاع غزة. أجريت الانتخابات العام ١٩٩٤ لسلطة الحكم الذاتي. كان الكثيرون يأملون أن تتحوّل السلطة الفلسطينية إلى حكومة دولة في الفترة الانتقالية للمفاوضات التي تمتد إلى خمس سنوات. كما كان متوقعاً في انتخابات الرئاسة، فاز ياسر عرفات بمنافسة شبه رمزية. أمّا انتخابات المجلس التشريعي، فقد كانت حادة، مع أن "حماس" و"الجهاد الإسلامي" وآخرين لم يشاركوا. كانت الانتخابات في ٢٠/١/١٩٩٦ ديمقراطية وشفافية. كان هناك ما مجموعه ٦٧٢ مرشحاً لـ ٨٨ مقعداً في المجلس التشريعي للسلطة. العديد من القادة الكبار في السن من

حركة فتح والفصائل الأخرى لم يفوزوا في تلك الانتخابات. تمت مكافأة الأجيال الشابة من الناشطين، وكان الكثير منهم قد قضوا سنوات طويلة في السجون الإسرائيلية. ترشحت عشرون امرأة لانتخابات المجلس التشريعي، وفازت خمسٌ منهن.^٧ ناضلت المرأة الفلسطينية لكي يكون لها تمثيل كامل في مجتمع لا يزال عشائرياً. وبالطبع، أصبحت العديد من النساء بارزات في حركة التحرير مثل انتصار الوزير (أم جهاد) التي ترأست لجنة الرعاية الاجتماعية التابعة لمنظمة التحرير الفلسطينية، وأصبحَ يحظيَ باحترام كبير، ومعتزفاً بهن في أوساط الجماهير.^٨ في الآونة الأخيرة، تم تعيين الدكتورة حنان عشراوي في اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية.

مصاعب المقاومة في عهد السلطة الفلسطينية

انشغلت القيادات الفلسطينية بتوزيع المناصب والمهام وبناء إطار سلطة محلية تهتم بأمور الحياة العادية وراحة المواطن من النواحي التعليمية والصحية وغيرها. لكن إسرائيل استغلت الفرصة، وبالغطاء القانوني لأوسلو للتوسع الاستيطاني. تضاعف عدد المستوطنين من ٢٠٠ ألف إلى أكثر من ٤٠٠ ألف بين عامي ١٩٩٣ و ٢٠٠٠. وكانت هناك أيضاً زيادة في القيود على حركة الفلسطينيين وزيادة في مصادرة الأراضي والقمع ضد الفلسطينيين. وأعفت السلطة الفلسطينية قوات الاحتلال من إدارة الحياة اليومية للفلسطينيين، مثل المدارس، والمرافق الصحية، والخدمات الطبية، وقللت بذلك مصاريف إدارة الاحتلال. وبالعكس زادت أرباح إسرائيل من الاحتلال بسبب الملحقات الاقتصادية، بما فيها سوق فلسطيني سجين للبضائع الإسرائيلية. طبعاً استفاد بعض الأغنياء الفلسطينيين من فرص استثمار فتحت لهم، ولكن الثمن كان زيادة الفساد وازدياد الفجوة بين الأغنياء والفقراء.

أصرّت إسرائيل والولايات المتحدة على أن تضع السلطة الفلسطينية سياسات استبدادية وديكتاتورية، بما في ذلك الاعتقالات، وقمع حرية الصحافة، من أجل إسكات جميع أشكال المقاومة ضد الاحتلال. وُضع الرئيس عرفات في موقف محاولة إرضاء هذه القوى الخارجية، وأن يحافظ على الدعم الشعبي. هذا التناقض صعب في ظل ظروف عادية،

ومستحيل في ظل حكم استعماري. اتفاقيات أوسلو أدت إلى زيادة الفساد في سلطة فلسطينية محصورة بين الشعب الفلسطيني وسلطات الاحتلال الإسرائيلي. تم توقيف المحررين والصحافيين الفلسطينيين من قبل الشرطة الفلسطينية.^٩ اعترف لي عضو في المجلس الثوري في "فتح" بأن هناك الكثير من الفساد، وأضاف أن حركة فتح هي كبرى الفصائل الفلسطينية، وبذلك جمعت كل الفلسطينيين، ومنهم السيئ والحسن. في تشرين الثاني ١٩٩٩، وقّعت عريضة من قبل عشرين شخصية فلسطينية بارزة ينتقدون فيه الاتجاه الذي تم تجسيده بعد اتفاقيات أوسلو، وبخاصة الفساد والحكم الديكتاتوري. ألقى القبض على ١١ منهم، ووضعوا تحت الإقامة الجبرية، وأصيب أحدهم بعيار ناري في ساقه.^{١٠}

من الناحية الإيجابية، ركّز الفلسطينيون على بناء مؤسسات الحكم المحلي والخدمات، ويمكن للمرء أن يرى علامات التنمية والتطور في كل مكان بتمويل وصل إلى مليارات الدولارات من المساعدات الخارجية. نمت البنية التحتية، والتعليم، والرعاية الصحية، وغيرها من الخدمات الأساسية. مع ذلك، فقد كان الإنفاق الرئيسي على الأجهزة الأمنية كما تطلبت الاتفاقات. بحلول العام ٢٠٠٨، أصبحت الأجهزة الأمنية تستهلك الثلث من ميزانية السلطة الفلسطينية وحدها (وحياناً أكثر من ٤٠٪). قدّمت السلطة الفلسطينية المساعدة لإسرائيل في المحافظة على "الأمن"، بما فيها قمع المعارضة والمقاومة. سمحت اتفاقية أوسلو لعشرات الآلاف من أعضاء منظمة التحرير الفلسطينية في المنفى بالعودة، ليس إلى ديارهم وأراضيهم، ولكن إلى المناطق التي تديرها السلطة الفلسطينية (وهي بالتحديد ٧٪ من أراضي الضفة الغربية، التي تعرف بمنطقة أ). يُقدّر العدد الذي تعيله السلطة بربع مليون فلسطيني. معظم الرجال يعملون في أجهزة السلطة الرسمية، بما في ذلك الأمن والدوائر الرسمية ومعظمهم لم ينه الدراسة الثانوية، ويجب أن تُوافق عليه الأجهزة الاستخبارية الإسرائيلية. أحد الأشياء المتوقعة أن مصالح هؤلاء الشخصية - باستمرار الدخل - تتناقض في أحيان مع المصلحة العامة، وهي مقاومة الاحتلال. لذا، رفضت السلطة أية ظواهر للمقاومة من جانب القوى الإسلامية وغيرها من الفصائل التي رفضت اتفاقية

أوسلو، بما فيها المقاومة الشعبية عندما تؤدي إلى احتكاك مع القوات الإسرائيلية. ومع ذلك، كانت قوات الاحتلال الإسرائيلي ولا تزال تدخل إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة المصنفة (أ) لتقوم باعتقال الفلسطينيين وقتلهم حتى بدون التنسيق مع السلطة.

الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني لم تأخذ موقفاً مؤيداً أو معادياً للسلطة، ولكنها تراقب وتنتظر. كانت أعمال المقاومة الشعبية مستمرة بين الأعوام ١٩٩٣-١٩٩٩. ولكن مرّت السنوات وكان ينبغي على الفترة الانتقالية الممتدة لـ ٥ سنوات أن تسفر عن اتفاق نهائي للسلام يضمن الاستقلال الفلسطيني، ولكن الفلسطينيين وجدوا احتلالاً أكثر رسوخاً من ذي قبل. بحلول العام ١٩٩٩، لاحظ الفلسطينيون أنّ حريتهم في التنقل أصبحت مقيدة بشدة، وأنّ الاستيطان تضاعف. لم يكن يُسمح لهم حتى بدخول القدس إلا بتصاريح خاصة تعطى في المناسبات الدينية، ولكن ليست للجميع، بل تكون انتقائية. كانت هناك المئات من نقاط التفتيش المنتشرة في الأراضي الفلسطينية المحتلة، وكانت درجة الإحباط قد وصلت إلى أعلى مستوياتها، وفي نهاية المطاف أدت إلى انتفاضة العام ٢٠٠٠.

بالإمكان أن أقوم بذكر بضعة أمثلة على العمل الناجح خلال المرحلة الأولى من السلطة الفلسطينية. مثلاً قام اللاجئون وغيرهم من الفلسطينيين المنتشرين في الشتات بدور فعال في منع الانزلاق الخطير بعد اتفاقيات أوسلو المتمثل في تصفية حقوق اللاجئين.^{١١} وفي ١٢/٦/١٩٩٨ (وخلال زيارة الرئيس كلينتون) شارك ما يزيد على ٢٠٠٠ من السجناء السياسيين في إضراب عن الطعام للضغط من أجل الإفراج عنهم. وكانت رسالتهم موجهة إلى القيادة الإسرائيلية والقيادة الفلسطينية على حد سواء، بأنه لا تفاوض على قضايا وحتى أجندة لا تضمن الإفراج عنهم.^{١٢}

المقاومة داخل الخط الأخضر بعد أوسلو

حدثت كثير من التغيرات داخل الخط الأخضر. كان عدد مؤسسات المجتمع المدني العربي التي أنشئت في إسرائيل ٤٥ مؤسسة فقط في

الفترة بين العام ١٩٤٨-١٩٨٠، ولكن هذا العدد قفز ليصل إلى ١١٣٥ مؤسسة بحلول العام ٢٠٠٤. هذا التزايد يُعزى مباشرة إلى احتياجات الفلسطينيين الذين كانوا معزولين عن إخوانهم وزملائهم الفلسطينيين بعد تنفيذ اتفاقية أوسلو التي لم تأخذهم بالحسبان.^{١٣} كانت مشاركة الأحزاب الفلسطينية في السياسة الإسرائيلية ذات نتائج محدودة. بشكل عام، رفض النظام الصهيوني إشراك العرب في أية مناصب حكومية رئيسية، أو في أي لجان تقرّر القضايا الرئيسية التي تتعلق بمستقبلهم. عندما حدثت الانتخابات المباشرة لمنصب رئيس الوزراء للاختيار بين إيهود باراك وأريئيل شارون في شباط العام ٢٠٠١، قام ٨٢٪ من فلسطيني الداخل بمقاطعة هذه الانتخابات.^{١٤} وانخفضت نسبة العرب الذين يصوّتون لأحزاب بقيادة يهود من ٥٣,٣٪ في ١٩٩٢ إلى ١٨,١٪ في ٢٠٠٩، وقرّر ٤٨٪ من الناخبين العرب المؤهلين مقاطعة انتخابات العام ٢٠٠٩.^{١٥}

أما بالنسبة للفلسطينيين الذين لا يزالون يشاركون في الانتخابات، فقد قاموا بإنشاء أحزاب بقيادة فلسطينيين، وحاولوا زيادة التصويت لصالحها. في العام ١٩٩٥، قامت الأحزاب القومية داخل الخط الأخضر بتشكيل التجمّع الوطني الديمقراطي الذي وُحد جماعات مثل أبناء البلد، والحزب التقدمي الاشتراكي (الذي بدأ نشاطه في المغار في منطقة الجليل) وجماعة الأنصار (التي بدأت نشاطاتها في بلدة أم الفحم) وجميع الموافقين على فكرة تحويل إسرائيل إلى دولة لمواطنيها، والحفاظ على الهوية الوطنية الفلسطينية. حصل التجمّع على مقاعد عديدة في الكنيست بداية من العام ١٩٩٦.^{١٦}

انتُخب الدكتور عزمي بشارة العام ١٩٩٦ ممثلاً للتجمّع الوطني الديمقراطي، ولكن الخلافات السياسية أدّت إلى خروج حركة أبناء البلد من الانتخابات العام ١٩٩٨، وواصلت موقفها التاريخي بمقاطعة الكنيست. رفضت حركة أبناء البلد دعوة عزمي بشارة للحصول على المواطنة المتساوية للفلسطينيين في إسرائيل ("تحويل إسرائيل إلى دولة لجميع مواطنيها")، لأنّ الحركة اعتقدت أنه من الضروري عدم الفصل بين قضايا الفلسطينيين داخل الخط الأخضر وبقيّة الفلسطينيين (بما في ذلك حق اللاجئين في العودة، وتقرير المصير). ظهر انقسام

مواز في الحركة الإسلامية داخل الخط الأخضر العام ١٩٩٦ بين أولئك الذين أيدوا المشاركة في انتخابات الكنيست (أمثال الشيخ عبد الله نمر درويش، ولاحقاً الشيخ إبراهيم عبد الله) وأولئك الذين لم يؤيدوا المشاركة في انتخابات الكنيست (أمثال الشيخ رائد صلاح، والشيخ كمال الخطيب).^{١٧}

جعلت اتفاقيات أوسلو أيضاً السياسة الإسرائيلية والفلسطينية أكثر تعقيداً. طرح بعض الفلسطينيين فكرة إعلان الدولة في نهاية الفترة الانتقالية في ٤ أيار العام ١٩٩٩. ولكن كانت الانتخابات الإسرائيلية على وشك الحدوث. بعد ذلك بأسبوعين، ووفقاً لكبير المفاوضين الفلسطينيين أحمد قريع (أبو علاء)، فقد تقرر عدم القيام بذلك حتى يتم جلب وجه أكثر اعتدالاً للحكومة الإسرائيلية (حزب العمل برئاسة إيهود باراك مقارنة بنتنياهو من حزب اليمين المتطرف). لكن قريع نفسه اعترف بأن إيهود باراك لم يكن أفضل من بنيامين نتنياهو، حيث استمرت عمليات توسيع المستوطنات الاستعمارية اليهودية، وهدم المنازل الفلسطينية بلا هوادة. واستمرت إسرائيل في رفض تنفيذ التزاماتها بشأن الانسحاب من الأراضي المحتلة، وإطلاق سراح السجناء، وإجراء مفاوضات جادة، وما إلى ذلك. حتى إيهود باراك تراجع عن تنفيذ اتفاقيات واي ريفر التي وقعت عليها حكومة نتنياهو اليمينية.^{١٨}

تم انتخاب رئيس الوزراء الإسرائيلي إيهود باراك من قبل الجمهور الإسرائيلي لأنه وعد بدفع عملية السلام قدماً. الواقع أن باراك جنرال عسكري لا يملك الكثير من الاهتمام بالتسوية أو التوصل إلى السلام، وكان يعتقد أن بإمكانه استغلال الفرصة للتوقيع على اتفاق من شأنه أن يؤسس كيانا فلسطينياً سيكون له اسم "دولة فلسطينية"، ولكن خالية من عناصر السيادة. وبعبارة أخرى، سينشأ حكم ذاتي في مسائل معينة، ولكن ستحتفظ إسرائيل بالسيطرة على القدس والمجال الجوي والموارد الطبيعية والدخول والخروج وغيرها. هذا فحوى مهزلة كامب ديفيد في تموز العام ٢٠٠٠. بينما كان بيل كلينتون يختتم ٨ سنوات في منصبه كرئيس للولايات المتحدة الأمريكية دفعت كل من الحكومة الإسرائيلية والحكومة الأميركية القيادة الفلسطينية للحضور إلى الاجتماع من أجل إجبار ياسر عرفات على توقيع يلغي الحقوق

الأساسية للفلسطينيين. رفض عرفات ذلك، واستمرت المفاوضات حتى انسحبت إسرائيل منها في كانون الثاني العام ٢٠٠١ في طابا.

انتفاضة الأقصى

كانت السياسات الإسرائيلية في تسعينيات القرن الماضي تقوم على استغلال المفاوضات لتعزيز الموقف الدولي، وبخاصة كسر آية عزلة، في حين تقوم بخلق الحقائق على أرض الواقع. وكانت نشاطات القيادة الفلسطينية تركز على تعزيز النظام القائم وضبط الأسلحة ومتطلبات أخرى من اتفاقيات أوسلو. لم تخلج الحركة الصهيونية من أي نشاط استيطاني أو تعسفي آخر يؤكد للفلسطينيين أنهم سيقون دائماً مهزومين ومهزومين. من الصعب وصف ازدياد الانقسام بين الشعب والسلطة، ولكن ما هو واضح أن الغضب والإحباط بين الشعب الفلسطيني ازداد، وكانت القشة التي قصمت الظهر -والتي أدت إلى بدء الانتفاضة الجديدة- زيارة إلى الأقصى قام بها السفاح أرئيل شارون وهو محاط بـ ١٠٠٠ من الإسرائيليين المسلحين في ٢٨/٩/٢٠٠٠. أدى القمع الإسرائيلي الوحشي للمظاهرة السلمية التي خرجت في اليوم التالي للتنديد بالزيارة إلى استشهاد ستة مدنيين فلسطينيين. في الأسبوع الأول من انتفاضة الأقصى قُتل ٧٦ فلسطينياً نصفهم من الأطفال.^{١٩} ولم يقتل أي مدني إسرائيلي في الأسابيع الأولى من الانتفاضة عندما تجاوزت الوحشية الإسرائيلية كل الحدود. قال جنرال إسرائيلي لصحيفة هآرتس الإسرائيلية إنه تم استخدام مليون رصاصة في الأسبوعين الأولين من الانتفاضة فقط. أظهر تقرير صادر عن منظمة العفو الدولية أن معظم الفلسطينيين الذين قتلهم الجيش الإسرائيلي هم من المدنيين.^{٢٠} كان الجيش الإسرائيلي على ما يبدو مصمماً على قمع الانتفاضة، بحيث يضع حداً نهائياً لطموح الشعب الفلسطيني في التحرر وتقرير المصير. بعد تلك الزيارة الاستفزازية والمصيرية للأقصى، أطلقت إسرائيل العنان لجيشها لهدم معظم ما تم بناؤه منذ اتفاق أوسلو. وكتب نايجل بارسونز عن ذلك:

”أدى الاستعمار الصهيوني المتسارع والفشل في تحقيق مشروع وطني فلسطيني مقبول إلى انهيار الأساس الاجتماعي والسياسي

لحكم السلطة الفلسطينية. تهاوت اتفاقيات أوسلو في دخول الألفية الجديدة عامها الأول. بعد ذلك، قامت القوة الاستعمارية بإلحاق تدمير واسع النطاق في السلطة الفلسطينية بسبب فشلها في قمع الانتفاضة والعقاب الجماعي على المجتمع الفلسطيني لتقديم الدعم للانتفاضة. تحوّلت المؤسّسات الفلسطينية إلى أنقاض وتم القضاء على القيادة المحلية، وتفكير المجتمعات المحلية^{٢١}.

قال حارس الحدود تال إيتلينغر إنّه تم قتل العشرات من المواطنين الفلسطينيين العزل في بلدة أم الفحم على يد القناصة على الرغم من أنّ المظاهرة كانت أقلّ عنفاً بكثير من أعمال شغب قام بها يهود مثلاً في طبريا. وصرح بأنّ أعمال الشغب اليهودية بشكل مختلف، فإننا نعرف مسبقاً أنّ نأتي بدون أسلحة... هذه هي الأوامر التي نتسلّمها من القيادة العليا ونحن نستخدم الغاز فقط^{٢٢}. أصدرت منظمة هيومن رايتس ووتش تقريراً حول الفضائع التي ارتكبتها الجنود الإسرائيليون في جنين بالقول: "قتل المدنيون في جنين عمداً، وبصورة غير مشروعة، من قبل الجيش الإسرائيلي الذي قام باستخدام المدنيين الفلسطينيين "دروعاً بشرية"، وقام باستخدام القوة المفرطة والعشوائية... إنّ الانتهاكات التي وثّقناها في مدينة جنين هي خطيرة للغاية، وفي بعض الحالات يبدو أنّها جرائم حرب"^{٢٣}.

عمليات هدم المنازل

قال الناشط الإسرائيلي جف هالبر: "ما دفعني إلى ترك الصهيونية وإلى مكان أكثر حساسية وشائك هو هدم منزل سليم... بسبب مقاومته لعملية الهدم، تعرّض للضرب، وتم تكبيل يديه ورميه خارج المنزل... قامت زوجته وتُدعى عربية بإغلاق الباب، وبقيت هي وأطفالها الستة في الداخل. وصلت فوراً بعد أن قام الجنود بإلقاء قنابل الغاز المسيل للدموع من خلال نوافذ المنزل من أجل إجبار عربية والأطفال للخروج من المنزل وقاموا بكسر باب المنزل. رأيت عربية تغيب عن الوعي... رميت بنفسي أمام [الجرفاة] لوقف عملية الهدم... شاهدت وجهه سليم يتلوّى ألماً ولا يصدق ما تراه عيناه. ظل يقول "لكنني لم أفعل

أي شيء خطأ“ ... قمت بمسح العرق عن وجهه المتألم في محاولة للعثور على كلمات المواسة ووعدته بأن يسمع العالم قصته. ذلك اليوم وأنا ملقى على الأرض تحت تهديد السلاح مع فلسطيني لم يرتكب أي ذنب، كان من أكثر التجارب المؤلمة التي يجب أبداً ألا تحدث لشخص ما هنا. وجدت نفسي في عالم آخر ... هنا بين أولئك الأشخاص الذين كانوا من المفترض أن يكونوا أعداءً لي، والذين تقاسموا معاناتهم معي على يد ما يمكن أن يسمى إرهاب دولة إسرائيل^{٢٤}.

أسس هالبر لجنة إسرائيلية ضد هدم المنزل (ICAHN)، وثم ترك حياته الأكاديمية كأستاذ جامعي للتفرغ لهذا العمل. تمت إعادة بناء منزل سليم بمساعدة متطوعين، ولكن تمّ هدمه ثلاث مرات أخرى، وأخيراً أعيد بناؤه كمركز للسلام. تم هدم أكثر من ٣٠,٠٠٠ منزل في المناطق المحتلة منذ العام ١٩٦٧. أما بالنسبة للمناطق التي احتلت العام ١٩٤٨، فقد تم هدم أكثر من ٥٠٠ من القرى والبلدات. ويستمر التهديم داخل الخط الأخضر كما رأينا حديثاً بتدمير قرية العراقيب في النقب تسع مرات.

في ١٠/١/٢٠٠٠، قامت القوات الإسرائيلية باستهداف مظاهرة غير عنفية قام بها الفلسطينيون في الداخل وبابل من الذخيرة الحية، ما أسفر عن استشهاد ١٢ فلسطينياً. أدّى ذلك في الأيام القليلة القادمة إلى خروج مظاهرات حاشدة في جميع أنحاء فلسطين (على جانبي الخط الأخضر) وإلى زيادة الغضب، وساعد على تعبئة الفلسطينيين، ما دفع الحكومة إلى فتح تحقيق، ولكن لم يتم تنفيذ نتائج البحث الصادرة عن لجنة ”أور“ أبداً.^{٢٥}

قام الطلاب والمدرّسون بتطوير أو إنشاء علاقات صداقة وشراكة خلال الأشهر الصعبة للانتفاضة. فعلى سبيل المثال، ساعد المعلمون في مدرسة القديس يوسف في مدينة بيت لحم الطلاب على التعامل مع الصدمة التي مروا بها، من خلال وسائل تعليمية وإبداعية، مثل: (١) مشروع التاريخ الشفوي، حيث قام الطلاب بتسجيل قصص أسرهم. (٢) مشروع كتابة اليوميات الذي بدأ في تشرين الثاني العام ٢٠٠٠.^{٢٦}

حركة التضامن الدولية

تأسّس المركز الفلسطيني للتقارب بين الشعوب خلال الانتفاضة الأولى في نيسان ١٩٨٨ على يد مجموعة من الفلسطينيين من بيت ساحور، بهدف "سد الفجوة القائمة بين الفلسطينيين والشعوب الأخرى في جميع أنحاء العالم، وإعلام الجمهور حول الواقع في فلسطين، وتمكين المجتمع المحلي من القيام بمقاومة شعبية من أجل تحقيق السلام والعدالة". انخرط أولئك الذين أسّسوا مركز التقارب بين الشعوب في لجان الأحياء المحلية التي انتشرت في تلك الانتفاضة، وكان للمركز دورٌ أساسيٌّ في ثورة الضرائب العام ١٩٨٩، وبخاصة في عملية حشد الدعم الدولي لكسر الحصار وفك حظر التجول الذي استمرّ لمدة ٤٢ يوماً خلال تلك الحلقة من المقاومة (انظر الفصل السابق).

اتّخذ المركز المزيد من الإجراءات التي تعزّز الصمود بعد نجاح هذا النوع من التعبئة للأجانب. وتولّى المركز دوراً قيادياً في المقاومة الشعبية في التسعينيات، ومنها خيمة الاعتصام للاحتجاج على بناء مستوطنة هار حوما الاستعمارية على منطقة جبل أبو غنيم ما بين (١٩٩٦-١٩٩٧). ضمّت الخيمة فلسطينيين وأجانب على مدار الساعة ولمدة أشهر. وقام المركز بالتنسيق لعشرات من الزيارات التضامنية والمظاهرات في مختلف المناطق، وكان رائداً في محاولات وقف الجرافات. كانت هذه التجارب ناجحة جزئياً مع أنها فشلت في تحقيق هدفها الفوري في وقف بناء المستوطنة، ولكنها أعطت دروساً ثمينة للغير عندما اندلعت انتفاضة الأقصى. استمرّت المقاومة في مواقع عدّة، ومنها ضد القاعدة العسكرية في عش غراب في بيت ساحور في ١٨/١٢/٢٠٠٠ وبشكلٍ مغاير:

"في يوم الخميس الثامن عشر من كانون الأول خرج المئات من الفلسطينيين والإسرائيليين والدوليين في مسيرة مطالبين بالإخلاء الفوري وتفكيك القاعدة العسكرية في عش غراب. قام بتنظيم تلك المسيرة كل من بلدية بيت ساحور، ولجنة طوارئ بيت ساحور، ومركز التقارب بين الشعوب. شارك فيها إسرائيليون من جماعة غوش شالوم، ولجنة أوقفوا الاحتلال، ومركز التقارب-القدس الغربية، وإيطاليون من جمعية نساء ذات الرداء الأسود، والاتحاد العام لحزب العمال، وجمعية السلام الإيطالية، وفرنسيون من رابطة

فرنسا- فلسطين، والكثير من الأجانب الآخرين، جنباً إلى جنب مع الفلسطينيين من بيت ساحور، مطالبين الحكومة الإسرائيلية بتفكيك القاعدة العسكرية وإخلائها على الفور... بدأت المسيرة من حقل الرعاة في البلدة، ووصلت إلى القاعدة العسكرية حيث دخل المشاركون من البوابة الرئيسية للقاعدة، وطلبوا من الجنود مغادرة القاعدة... كانت المسيرة سلمية وغير عنفية، ورفعت يافطات باللغة الإنجليزية والعربية والعبرية، وأوصلوا طلباً لضابط القاعدة العسكرية بهذا الخصوص. وانتهت المسيرة برفع العلم الفلسطيني فوق برج المراقبة، وكانت الحشود تهتف وتصفق، وبعد ذلك قام الجميع بزيارة المنازل التي دمرها القصف الإسرائيلي من هذه القاعدة العسكرية.^{٢٧}

نظم المركز الفلسطيني للتقارب بين الشعوب العديد من التظاهرات الأخرى في ربيع العام ٢٠٠١، ضمت أجنب، وهكذا ولدت حركة التضامن الدولية (ISM). وكان المبادرون الرئيسيون لهذه الحركة من مركز التقارب هم غسان أنضوني، وجورج رشماوي، وبمساعدة نتا غولان، ولويزا مورغانتين، وهويدا عراف.^{٢٨} دهمت سلطات الاحتلال مكاتب مركز التقارب الضام للحركة في بيت ساحور يوم ٢٠٠٣/٥/٩ وصادرت أجهزة الكمبيوتر وأقراص البيانات والوثائق، وتم اعتقال زائر اثنين من المتطوعين.^{٢٩}

تُعرّف حركة التضامن الدولية نفسها بأنها "حركة بقيادة فلسطينية ملتزمة بمقاومة الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية باستخدام أساليب ومبادئ اللاعنّف والعمل المباشر".^{٣٠} قامت كل من حركة التضامن الدولية والحركة الجماهيرية الدولية لحماية الشعب الفلسطيني بنشاطات خلال الفترة من العام ٢٠٠١ وحتى اليوم.^{٣١}

كثفت إسرائيل استخدام العقاب الجماعي ضد السكان لقمع المقاومة العنيفة أو غير العنيفة. ومن الأمثلة في ١١ شباط العام ٢٠٠١ أن ردت إسرائيل على طلقة من بندقية من خان يونس بوابل من القصف المدفعي الإسرائيلي، الذي خلف مئات المشردين. وقامت إسرائيل في اليوم التالي بإطلاق غاز غير معروف في كل من بلدة خان يونس والمخيم الغربي للاجئين. كان الغاز ذا رائحة حلوة، ولكن بعد مرور ١٠-٣٠ دقيقة عانى الضحايا من تشنجات ومغص في المعدة وآلام في الصدر والتقيؤ

والغيوبية. قامت إسرائيل باستخدام هذا النوع من الغاز لمدة ستة أشهر تقريباً. وتدلّ المؤشرات على أنّ الغاز كان نوعاً محرّماً دولياً.^{٣٢} كمثال آخر في ١٨/٤/٢٠٠١، خرجت مظاهرة في قرية بديا من أجل إزالة حاجز على الطريق، وهنا ما جاء في التقرير الذي أعدّه مركز التقارب:

”انضمّ نحو ٣٠٠ شخص (فلسطينيين وإسرائيليين وأجانب) إلى المظاهرة، وبذلنا قصارى جهدنا من أجل إزالة الحاجز. في البداية لم يتدخل الجنود في عملنا، حيث تمكّنّا من إزالة اثنين من الصخور الكبيرة من الحاجز، ولكن مع وصول المزيد من الجنود والشرطة، وعندما أوشكنا على إتمام ما جئنا من أجله، تدخل الجنود مجبرين المشاركين بالرجوع إلى الوراء، وقاموا باعتقال ١٦ شخصاً. انتظرنا جميعاً حتى تم إطلاق سراح المجموعة التي ألقي القبض عليها، وبعد ذلك عدنا أدرجنا. ومع ذلك فإنه لم يكن من السهل بالنسبة للمجموعة التي تقطن في منطقة بيت لحم الوصول إلى منازلهم، وبخاصة أنّ بيت لحم وبيت ساحور والخضر وبيت جالا كانت تتعرّض لقصف شديد. لم يتم السماح أيضاً للحافلة التي كانت تقل المتضامنين الإسرائيليين بالدخول إلى المنطقة “أ”. لذا، كان علينا ترك الحافلة في مكان ما، والعثور على سيارات أجرة من أجل الوصول إلى مدينة بيت لحم. وجدنا اثنين من سائقي الشاحنات الصغيرة كانا على استعداد لنقلنا إلى بيت لحم، ولكن لم يتمكنّا من ذلك. ولهذا، فقد أنزلنا على بُعد مائتي متر من نقطة التفتيش في بيت لحم، وفي اللحظة التي خرجنا بها من السيارة تم إطلاق قذيفة دبابة على بلدة بيت جالا من مستعمرة جيلو. ثم بعد ذلك اضطررنا إلى السير على الأقدام من نقطة التفتيش في الحقول لتجنّب المرور عبر الحاجز، حتى وصلنا إلى الطريق الرئيسي. وصلنا إلى بلدة بيت ساحور وكانت الساعة ١:٣٠ صباحاً.”^{٣٣}

في ١٣/٨/٢٠٠١، كانت هناك مسيرة احتجاج من قبل الفلسطينيين والأجانب خارج بيت الشرق في القدس الذي أغلقته إسرائيل، ضاربة بعرض الحائط التزاماتها بالاتفاقيات المبرمة، وواصل المقدسيون مقاومتهم: ”تمكن الفلسطينيون في القدس الشرقية من تطوير شبكة اجتماعية وسياسية لمواجهة رفض إسرائيل تلبية احتياجاتهم اليومية، وفي الوقت نفسه لمقاومة السياسات التوسعية أو سياسات الضم التي تسعى إلى تمييع حقوقهم الوطنية.. أدّت كل هذه الجهود إلى شكل من أشكال استقلال القدس الشرقية عن إسرائيل.”^{٣٤}

تمكّن حوالي أربعين أجنبياً من دخول المقاطعة المحاصرة في مدينة رام الله من أجل البقاء مع الرئيس الفلسطيني ياسر عرفات في نهاية شهر آذار ومطلع نيسان من العام ٢٠٠٢. بينما كانت الدبابات وقوات المشاة الإسرائيلية تقصف وتطلق النار على المقاطعة، عرّض هؤلاء حياتهم للخطر، وربما نجحوا في المساعدة بالضغط على حكوماتهم التي بدورها مارست ضغوطاً على إسرائيل بعدم الاستمرار في هذه الحملة التي بدا أنّها تهدف إلى قتل واعتقال كل الذين كانوا داخل المقاطعة، بمن فيهم الرئيس ياسر عرفات. واستخدمت الحركة أساليب إبداعية في ٢١ نيسان العام ٢٠٠٢ عندما اقترب فريق من الجهة الأمامية، في حين دخل فريق ثانٍ من الخلف خلال الضجة والفوضى التي قام بها الفريق الأول.^{٣٥} وعندما تم التوصل إلى اتفاق لرفع الحصار، كان هناك تقدير وشكر للناشطين الذين قدموا المساعدة.^{٣٦}

وساعدت حركة التضامن الدولية في إنهاء الحصار والهجوم العنيف على كنيسة المهد:

”في الساعة الخامسة وأربعين دقيقة بعد الظهر [٢٠٠٢/٥/٢]، نجحت جماعة من نشطاء السلام الأجنبي من حركة التضامن الدولية في خداع الدوريات العسكرية الإسرائيلية ودخلت كنيسة المهد في بيت لحم. وكانت هذه هي المرة الثانية التي تمّ فيها اختراق الحصار على هذه الكنيسة المقدّسة من أجل إدخال المساعدات الغذائية إلى أكثر من ١٠٠ من الفلسطينيين لجأوا إلى أقدس المقدسات المسيحية... كان الهدف الرئيسي من وراء هذا الاختراق الثاني للطوق العسكري حول الكنيسة، هو وضع نشطاء السلام الدوليين داخل هذا المكان، لكي يؤكّدوا للمجتمع الدولي خطورة الأوضاع هناك، وعدم شرعية الاحتلال العسكري الإسرائيلي لمدينة بيت لحم.“^{٣٧}

وهنا تقرير عن تحدي حظر التجول في نابلس:

”لقد كان يوم أمس [٢٨ حزيران ٢٠٠٢] يوماً لا يصدّق، إذ خرجنا في مظاهرة كبيرة كانت مؤلفة من حوالي ١٠٠ شخص - ٣٠ أجنبياً و ٧٠ فلسطينياً. مشينا على الشارع الرئيسي داخل نابلس القديمة وفي الساحة الرئيسية في تحدٍّ لحظر التجول. تمت تغطية الحدث على شبكة سي إن إن الإخبارية [الدولية]، وبي بي سي، والجزيرة،

والصحف، ومحطات التلفزة المحلية. كان الجميع هناك مسرورين جداً ... وكانت المسيرة غير عنفية على الإطلاق ... كان نصراً كاملاً لكسر حظر التجول. وفي وقت لاحق من اليوم نفسه، ذهبنا إلى أحد المباني السكنية التي تم الاستيلاء عليها من قبل الجنود الإسرائيليين، حيث قاموا بطرد السكان المقيمين في الشقة التي على سطح البناية، وقاموا بوضع ٦ أسر (٢٥ طفلاً و١٨ بالغاً) تحت الإقامة الجبرية ... كنا نحاول مساعدتهم على التفاوض على الأمور الأساسية مع الجنود، ولكن كان همهم الرئيسي هو إخراج الجنود من البناية. لقد كان دفء السكان هناك وكرمهم أفضل من أي شيء رأيته في حياتي. إذ سيكون من الصعب مغادرة المكان في غضون أيام قليلة. لقد كان الناس هنا يقدرون جهودنا، حيث قالوا إن مشاركتنا تساعد على تعزيز الروح المعنوية والتضامن مع بعضهم البعض.^{٢٨}

قامت غيلا سفيرسكي بوصف نشاط فلسطيني إسرائيلي مشترك في ١٤ نيسان ٢٠٠١: ^{٢٩}

بدأ الحدث برعاية مركز التقارب بين الشعوب، وهو منظمة فلسطينية للسلام في بيت ساحور، ليس بعيداً عن مدينة بيت لحم. على الجانب الإسرائيلي كان الراعون تحالف النساء من أجل السلام العادل، وغوش شالوم، ومركز التقارب، واللجنة الإسرائيلية ضد هدم البيوت. وانقسم الأجانب ليكونوا على كلا الجانبين. كان من بينهم أشخاص من إيطاليا وألمانيا والولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وفرنسا، وربما الكثير من بلدان أخرى. كنا حوالي ٢٠٠ شخص على كل جانب. كما كان متفقاً عليه. بدأ الفلسطينيون بالانطلاق من منطقة الفردوس في مدينة بيت لحم التي عانت الكثير من جراء القصف الشديد في الأسابيع الأخيرة. هذا وبدأ الإسرائيليون من دير مار إلياس في الجانب الإسرائيلي. وفي مرحلة ما، مشى كلا الفريقين في آن واحد باتجاه الحاجز الذي يفصل بيت لحم عن القدس ... ومنع الجنود الفلسطينيون من الاستمرار على طول الطريق الرئيسي، ولكنهم سلكوا شوارع جانبية، وقاموا أخيراً بالتوقف على بعد نحو ١٠٠ متر من نقطة التفتيش. أما الإسرائيليون، فقد سلكوا الطريق الرئيسي حتى وصلوا إلى نقطة التفتيش، حيث كان الجنود قد شكلوا طوقاً لمنعنا من المرور. أبرز الجنود أمراً أن هذه المنطقة هي "منطقة عسكرية مغلقة". وبعد المفاوضات معهم وافقوا على السماح "لوفد

صغير“ بالمرور. وكان وفدنا الصغير يتكوّن من ثلاثين شخصاً، وقام المزيد من الناس بالتملّص من بين الجنود وساروا على الطريق، وكان بإمكاننا رؤية الفلسطينيين في الطرف الآخر في انتظارنا، حيث بدأنا في الهتاف ”نعم للسلام! لا للاحتلال!“. وعندما وصلنا حيث الفلسطينيين بانتظارنا، قمنا بعناق بعضنا البعض على الرغم من أنّ معظمنا بالكاد يعرف الآخر.

وفي تلك اللحظة بدأت المجموعة من تلقاء نفسها بالسير معاً باتجاه نقطة التفتيش، على الرغم من أنّ الجنود كانوا قد شكّلوا جداراً صلباً من الرجال المسلّحين لعرقلة تحركنا. شبكنا أيدينا ومشينا نحو الجنود وبدأنا ندفعهم. ولحسن الحظ لم يرفع الجنود أسلحتهم، ولكنهم قاموا بإغلاق الطريق أمامنا من خلال تشبيك أيديهم، كان يملؤنا إحساسٌ قويٌّ بفعل الشيء الصحيح. كنا ندفع الجنود وهم يدفعوننا إلى الخلف حيث كان وعلى ما يبدو أنّه ستكون هناك مواجهة، قال الجندي الذي دفعني: ”لا يوجد لديك إمكانية ضدنا“، وسمعت نفسي أقول ”ليس لديك أدنى فكرة عن مدى القوة الأخلاقية، وكيف يمكن أن تكون“. كان على ما يبدو أنّ أحدنا على حق لأنه سرعان ما شعرت بأنهم بدأوا بالابتعاد عن الطريق، وكانت مجموعتنا تدفعهم إلى الوراء، وكنا نمضي قدماً. تفرّق الجنود ومن ثم أعادوا تنظيم صفوفهم ومرة أخرى بدأنا لعبة الدفع، واستمررنا على هذا النحو حوالي نصف ساعة، حتى أنّهم لم يتمكنوا من احتواء هذه المجموعة القوية، وأخيراً اجتزنا الطوق العسكري وأكملنا طريقنا نحو المجموعة المكوّنة من الإسرائيليين الذين كانوا بانتظارنا عند نقطة التفتيش والذين كانوا يهتفون ويهللون لنا.

لقد كان اجتماع كلا الفريقين أفضل لحظة. كان الناس يصفقون ويصفرون ويعانقون بعضهم بعضاً كما تبادلوا التحيات. اجتمع الأصدقاء القدامى، وتم صنع صداقات جديدة. شعرت في تلك اللحظة بشعور لا يُوصف.

في أيلول العام ٢٠٠٢، قام الآلاف من سكان رام الله بقرع الطبول وتزميز الأبواق على مدار أسبوع احتجاجاً على فرض حظر التجول على المدينة.^{٤٠} أفادت سوزان باركلي:

”يصادف اليوم مرور ١٠٤ أيام فرض حظر التجول، حيث تم حبس ٢٠٠،٠٠٠ فلسطيني لمدة ١٠٤ أيام؛ أي أكثر من ثلاثة شهور في منازلهم، هذا وقد تم رفع حظر التجول طوال هذه الفترة مدة ٧٠ ساعة فقط. كان سكان مدينة نابلس يخرقون حظر التجول بشكل جماعي، لاسيما منذ بداية السنة الدراسية، مؤكدين رفضهم الانصياع لممارسات الجيش الإسرائيلي اللاإنسانية الذي يعاقب ويضطهد جميع السكان المدنيين. ردًا على ذلك، استخدم الجيش الإسرائيلي المزيد من العنف الجسدي والنفسي لفرض حظر التجول في محاولة لإبقاء السكان مسجونين في منازلهم مثل الحيوانات ... وعلى الرغم من الدبابات، والغاز المسيل للدموع، والإصابات، والرصاص، والإذلال، وسيارات الجيب العسكرية، ونقاط التفتيش، فإن سكان نابلس كانوا مصممين على الاستمرار في العيش والصمود.“^{٤١}

مقاومة جدار الفصل العنصري

قرّرت الحكومة الإسرائيلية العام ٢٠٠٢ زيادة انتهاكاتها للقانون الدولي من خلال بناء جدار الفصل العنصري الذي يحيط بالمجتمعات الفلسطينية، ويعزل المواطنين عن أراضيهم ومدارسهم ومستشفياتهم وأماكن عملهم. احتجّ الفلسطينيون لسنوات على مصادرة الأراضي يساندتهم بعض الإسرائيليين والأجانب كما حدث في أيلول العام ٢٠٠٢، حيث انضمّ أجانب وأعضاء إسرائيليون أمثال يوناتان بولاك إلى الفلسطينيين من قرية جيوس احتجاجاً على المساحات الواسعة التي صودرت من أراضي القرية لصالح المشروع الاستيطاني.^{٤٢} ولكنّ النضال ضد نظام الفصل العنصري الإسرائيلي قفز قفزة عملاقة إلى الأمام عندما بدأ بناء الجدار. شبكة المنظمات الأهلية الفلسطينية وتدعى (PNGO)، نظمت برنامجاً لمقاومة الجدار وتطوّر ليصبح اللجنة الوطنية الفلسطينية ضد جدار الفصل العنصري في ٢ تشرين الأول العام ٢٠٠٢. تشكلت لجان محلية من أجل مقاومة الجدار في مناطق مهددة. في ٩ تشرين الثاني العام ٢٠٠٢، قامت نساء من بلدة سلفيت وهي المنطقة التي تقع فيها قرية الزاوية بتشكيل مجموعة تحمل اسم ”نساء ضد الجدار“، من أجل تنسيق جهود المرأة ضد الجدار. (يوجد الكثير من المستوطنات الإسرائيلية في منطقة سلفيت، حيث يستولي الجدار في قرية الزاوية على ٨٠٪ منها).^{٤٣}

بين العامين ٢٠٠٥ و ٢٠٠٩، أصيب ما لا يقل عن ١٥٦٦ فلسطينياً في المظاهرات الأسبوعية التي جرت في أربع قرى احتجاجاً على بناء جدار الفصل العنصري: بلعين، نعلين، المعصرة، جيوس.^{٤٩} دعت الحملة الشعبية الفلسطينية لمقاومة جدار الفصل العنصري إلى اعتبار الأسبوع من ٩-١٣/١١/٢٠٠٣ أسبوعاً لمناهضة الجدار. اعتمدت شبكة التنسيق الدولية حول فلسطين (ICNP) هذا الأسبوع خلال المؤتمر السنوي للمجتمع المدني التابع للجنة الأمم المتحدة في نيويورك. خرجت المظاهرات خلال ذلك الأسبوع في العديد من المدن الفلسطينية، وفي حوالي ٣٠ مدينة في مختلف أنحاء العالم.

ووجهت مظاهرة سلمية خرجت في عيد الفصح في بلدة بيت جالا بالذخيرة الحية. وكان من بين الجرحى ثلاثة بريطانيين وهم (ليليان بيتزيكيني، وكونلي إيبيدون، وكريس دنهام) ونساء يابانيات وأستراليات ورجل أمريكي كبير في السن.^{٥٠} ركب متطوعون دوليون ومحليون سيارات الإسعاف لحماية السائقين والمسافرين الفلسطينيين من الاعتداءات والمضايقات والتأخيرات التي تمنعهم من توصيل المرضى، بما في ذلك الأمهات إلى المستشفيات.^{٥١}

الإحسان وسط المأساة

”وقعت أكثر القصص المؤثرة المنبثقة عن الأعمال النضالية لإنهاء الاحتلال خلال الانتفاضة عندما أصيب صيدلي فلسطيني من بلدة شعفاط وعمره ثلاثة وثلاثون عاماً، ويدعى مازن الجولاني، بعيار ناري في رأسه أدى إلى استشهاده بينما كان جالساً في أحد المقاهي في القدس الشرقية. وفقاً لوكالة الأخبار أسوشيتد برس، يشتبه بأن من قام بإطلاق النار مستوطن إسرائيلي كان يمر بسيارة مسرعة. أرادت عائلة الشاب التي تؤمن بعملية السلام أن يتم فعل أي شيء من أجل إحداث تغيير. كانت هذه ليست المأساة الأولى التي تصيب هذه العائلة، ففي العام ١٩٩٨ قتل ابن عمه من مخيم عابدة للاجئين في بيت لحم برصاص جنود جيش الدفاع الإسرائيلي، وتبرعت عائلته بثلاثة أعضاء للإسرائيليين. والآن، وعلى الرغم من تصاعد العنف بين الإسرائيليين والفلسطينيين، أعلنت العائلة مرة أخرى بأنها سوف تتبرع بأعضاء

الشاب الفلسطيني الذي قتل في مقهى بالقدس الشرقية من أجل عمليات زرع الأعضاء. كان قراراً صعباً بالنسبة لنا كمسلمين. مع ذلك، فقد تمّ التبرع بخمسة أعضاء، بما في ذلك قلبه لإنقاذ حياة الآخرين بغض النظر عن جنسياتهم. وقال الوالد الكبير في السن ويدعى لطفي جولاني "لا يحرم الإسلام التبرع بالأعضاء لإنقاذ حياة شخص آخر". لذلك قمنا بالتبرع بالأعضاء لإنقاذ حياة الآخرين، ولا يهم إذا كانوا من اليهود أو المسيحيين أو المسلمين. واتّضح فيما بعد أن أربعة أعضاء ذهبت إلى إسرائيليين، وعضو واحد إلى فلسطيني. واليوم هناك خمسة أشخاص ينعمون أو يعيشون حياة أفضل بسبب هذه الهدية.

قال الوالد الإسرائيلي الشاب، وهو أب لاثنتين، إنّ ابنه ويدعى يغال كوهين كان من شأنه أن يموت لو لم يتم عملية زرع القلب المأخوذ من الجولاني. وأضاف "إن هذا التصرف النبيل أثر فينا كثيراً. لقد دهشنا جدا البارحة لمعرفة هوية المتبرّع"، هذا ما صرّح به والد كوهين ويدعى ديفيد لراديو إذاعة إسرائيل ... إنّ هذه الأسرة المسلمة تابعت السير في طريق اللاعنّف. إنّ ما قدّموه لا يمكن إلا أن يساعد على إيقاظ ضمير الشعب الإسرائيلي والشعوب في جميع أنحاء العالم".^{٤٧}

التصعيد الإسرائيلي العام ٢٠٠٣

شهد ربيع ٢٠٠٣ زيادة كبيرة في العنف الموجّه ضد المدنيين الفلسطينيين والأجانب في الأراضي المحتلة. ولم يكن هذا من قبيل الصدفة، لأنّ الحكومة الإسرائيلية قدّرت أنّ وسائل الإعلام ستركّز على الهجوم الأمريكي على العراق. لم يكن من قبيل الصدفة أنّ تمّ قتل راشيل كوري على يد جندي إسرائيلي يقود جرافة مصفّحة في ١٦/٣/٢٠٠٣، بينما كانت تحاول حماية منزل يعود لصيدلي فلسطيني من أن يدمّر. كانت راشيل والبالغة من العمر (٢٣ عاماً) طالبة في كلية إفرغرين في أولمبيا في ولاية واشنطن. جاءت إلى فلسطين مثل الآلاف من الأجانب، لكن كانت لا تعرف مدى عمق الظلم أو مستوى الوحشية التي يمكن لإسرائيل العنصرية أن تنخرط فيه. كانت راشيل ترتدي سترة برتقالية فسفورية وتتحدث مع سائق الجرافة التي تزن ٦٠ طناً الذي رآها بشكل واضح، ولكنه قرّر أنّ هدم منزل أحد الفلسطينيين أكثر أهميّة من حياتها أو أن يعطي عبّرة.

نجحت راشيل وأعضاء حركة التضامن الدولية في الحيلولة دون هدم العديد من المنازل، وفي بعض الحالات تأخير الهدم لأشهر.^{٤٨} كتبت راشيل في رسالتها إلى والدتها بتاريخ ٢٧/٢/٢٠٠٣:

”عندما أعود من فلسطين على الأرجح سأعاني الكوابيس باستمرار، وأشعر بالذنب لعدم وجودي هنا، ولكن يمكنني أن أكرس ذلك إلى مزيد من العمل. كان مجيئي هنا هو واحد من أفضل الأشياء التي فعلتها في حياتي. وعندما أبدو كمجنونة أو إذا ترك الجيش الإسرائيلي نزعتي العنصرية بعدم جرح أو إصابة الأشخاص البيض، فأرجو أن تحددي السبب في كوني في وسط إبادة جماعية، وأنا نقدم الدعم بشكل غير مباشر من حكومتي المسؤولة عن هذه (الإبادة) إلى حد كبير.“^{٤٩}

استمرت المجزرة، حيث تم قتل أكثر من ٢٠٠ فلسطيني في آذار ونيسان ٢٠٠٣، كما تم قتل أو جرح العديد من الأجانب الآخرين. في ٦/٤/٢٠٠٣، أصيب زميلي بريان أفيري من ولاية كارولينا الشمالية بعيار ناري في وجهه خلال مواجهة في جنين، كما أصيب البريطاني توم هيرندال في الرأس بعد مكوته ستة أيام في مدينة رفح، ودخل في غيبوبة، وتوفي في ١٤/١/٢٠٠٤. قُتلت أيضاً متطوعة بريطانية في الأمم المتحدة وتدعى إيان هوك في جنين، وأصيب كوامهي باترلي بجروح. لن ينسى الفلسطينيون أبداً راشيل أو الناشطين الآخرين الذين أصيبوا أو قتلوا. وفي الذكرى الرابعة لوفاة راشيل، قام أطفال رفح بنصب تذكاراتهم:

”أحيا أطفال البرلمان الفلسطيني المصغر الذكرى الرابعة لفقدان ناشطة التضامن الأمريكية راشيل كوري من خلال عقد معرض دائم لها، تضمن صورها وأمتعنها الشخصية في موقع البرلمان في وسط محافظة رفح. وتضمن المعرض الذي حضره عدد كبير من الأطفال وغيرهم من الجهات المعنية صوراً لراشيل، والبيانات والوثائق الأخرى التي تم إصدارها بعد وفاتها، وكذلك بعض المتعلقات الشخصية ونعشا رمزياً مغطى بالعلم الفلسطيني. قام الأطفال بتعليق لافتات تحمل شعارات كان من بينها: ”لن ننساك يا راشيل“، و”نحن بحاجة إليك يا راشيل“، و”توفيت راشيل كوري كفلسطينية“ ... بعد وضع صورة كبيرة لراشيل على جدار المعرض تقدم الطفل أمير بركة (البالغ من العمر ١٤ عاماً) بضع خطوات نحو نعش راشيل

الرمزي، وقام بوضع بعض الزهور، ثم تأمل صورتها لفترة طويلة من الزمن ودموعه تنهمر على خديه. وقال "على الرغم من مرور وقتٍ طويل لا تزال راشيل في ذهني وأتذكر ابتسامتها العريضة كل يوم عندما كانت تأتي إلى هذا البرلمان تجلس معنا وتحدث إلينا وتعطينا الألعاب والهدايا والملابس".^{٥٠}

سياسة إسرائيل تقوم على قمع المقاومة، ولكن كان ردّ السكان المحليين والدوليين على الضغوط ليس من خلال التراجع والتنازل، ولكن من خلال تسريع وتوسيع نطاق أعمالهم. انتشرت المقاومة في جميع الأماكن على الرغم من تهديد أرواح الفلسطينيين وسبل عيشهم من قبل قوات الاحتلال. كانت قرية بدرس التي يبلغ عدد سكانها ١٤٠٠ نسمة أول قرية تنظم مظاهرة أسبوعية (بدأت في ٢٠٠٣/١١/٩) وتبعتها قرى أخرى بعد ذلك. أقيم مخيم ضد الجدار في قرية مسحة من قبل الناشطين المحليين أمثال نزيه شلبي، وتيسير عز الدين، ورائد عامر، ورزق أبو ناصر. استمرّ المخيم لمدة أربعة أشهر على مدار الساعة بوجود الفلسطينيين والإسرائيليين والدوليين.^{٥١} بدأت أيضاً دعوة الفلسطينيين للدعم الدولي تتردّد بشكل أعمق حتى داخل المجتمع الإسرائيلي. عُقد اجتماع في مكاتب غوش شالوم في مدينة تل أبيب في ٢٠٠٣/٣/١٢ لمناقشة دعوة الفلسطينيين للدعم. وتلا ذلك المزيد من المناقشات في قائمة الكمبيوتر الخاصة بتحالف النساء من أجل سلام عادل. وأسفرت تلك النقاشات عن ضرورة وجود دولي، بما في ذلك الإسرائيلي، في قرية مسحة التي فقدت الكثير من أراضيها.^{٥٢}

خرجت مظاهرة غير عنفية في مسحة في يوم ٢٦/١٢/٢٠٠٣، وأصيب الناشط الإسرائيلي غيل نعماتي البالغ من العمر (٢٢) عاماً بعيارين ناريتين في ساقيه، وكانت إصابته خطيرة، وكان يحمل الجنسية الأمريكية أيضاً.^{٥٣} وفي ٢٩ كانون الأول العام ٢٠٠٣، أرسل يونتان بولاك نداءً عاجلاً لمساعدة القرويين في بدرس، وعقد اجتماع في ٣١ كانون الأول العام ٢٠٠٣ ضمّ مجموعة من الإسرائيليين تحت اسم (Anarchists Against The Wall).^{٥٤} تلت ذلك أشكال أخرى من العصيان المدني والمقاومة؛ كإزالة الحواجز التي تم وضعها من قبل الجيش الإسرائيلي في قرى مثل برقين في ربيع العام ٢٠٠٣.^{٥٥}

قرارات المحكمة الدولية والمقاومة

في أواخر حزيران ومطلع تموز العام ٢٠٠٤، بلغت المحاولات الإسرائيلية لبناء الجدار وسرقة الأراضي ذروتها. وكانت الجمعية العامة للأمم المتحدة قد طلبت من محكمة العدل الدولية إبداء رأيها حول شرعية جدار الفصل العنصري. جاء القرار ٩/٧/٢٠٠٤ بصورة أقوى من المتوقع، حيث كان فحواه: تأكيد صلاحية المحكمة في النظر بالقضية، وعدم شرعية الجدار والاستيطان بحسب القوانين الدولية، والتزامات الحكومات بالعمل على إزالة الجدار والمستوطنات، وتعويض الفلسطينيين على الأضرار الملحقه. للأسف، فإن الحكومات المعنية لم تتابع الموضوع. وفي ما يلي ملخص ما جاء في الحكم:

”مدينة لاهاي، ٩ تموز العام ٢٠٠٤. أصدرت محكمة العدل الدولية اليوم ممثلةً بجهازها القضائي الرئيسي التابع للأمم المتحدة حكمها في القضية التي تتعلق بالتبعات القانونية الناتجة عن تشييد جدار في الأراضي الفلسطينية المحتلة (طلب الفتوى). حسب رأي المحكمة، فقد وجدت وبالإجماع أنها ذات اختصاص لإصدار الفتوى التي طلبتها الجمعية العامة التابعة للأمم المتحدة، وتقرّر بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل صوت واحد للامتنثال لهذا الطلب.

جاء رد المحكمة على هذه المسألة على النحو التالي:

أ. بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل صوت واحد، إن تشييد الجدار الذي تقوم ببنائه دولة إسرائيل السلطة المحتلة في الأرض الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية، وحولها، والنظام المرتبط بها، يتعارض مع القانون الدولي؛

ب. بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل صوت واحد، إسرائيل ملزمة بوضع حد لانتهاكات القانون الدولي، بل وملزمة أيضاً بالوقف الفوري في أعمال تشييد الجدار الذي تقوم ببنائه في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية وما حولها، وأن تفكك على الفور الهيكل الإنشائي القائم هناك، وتقوم وعلى الفور بإلغاء، أو إبطال مفعول جميع القوانين التشريعية واللوائح التنظيمية المتصلة به، وذلك وفقاً للمادة ١٥١ من هذا الحكم؛

”ت. بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل صوت واحد، إسرائيل ملزمة بالتعويض عن جميع الأضرار الناتجة عن تشييد الجدار في الأراضي الفلسطينية المحتلة، بما في ذلك القدس الشرقية وما حولها“؛

”ث. بأغلبية ثلاثة عشر صوتاً مقابل اثنين، جميع الدول ملزمة بعدم الاعتراف بالوضع غير القانوني الناتج عن تشييد الجدار، وعدم تقديم العون أو المساعدة في الإبقاء على الوضع الناتج عن تشييد هذا الجدار؛ وجميع الدول الأطراف ملزمة باتفاقية جنيف الرابعة المتعلقة بحماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب المؤرخة في ١٢ آب العام ١٩٤٩، بالإضافة إلى الالتزام باحترامها لميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي، لضمان امتثال إسرائيل للقانون الإنساني الدولي على النحو الوارد في تلك الاتفاقية“؛

”ج. بأغلبية أربعة عشر صوتاً مقابل صوت واحد، ينبغي على الأمم المتحدة، وخصوصاً الجمعية العامة ومجلس الأمن، النظر في ما يلزم من إجراءات أخرى لإنهاء الوضع غير القانوني الناتج عن تشييد الجدار والنظام المرتبط به، مع المراعاة الواجبة لهذا الحكم“.^{٥٦}

إنَّ الحكم لا يعلن بأنَّ الجدار غير قانوني وفقاً للقانون الدولي فقط، ولكن أيضاً جميع النشاطات الاستيطانية في المناطق المحتلة غير شرعية ويجب وقفها والتراجع عنها، ويجب على السلطات الإسرائيلية تعويض الفلسطينيين عن الأضرار.^{٥٧}

كثير من الفلسطينيين والمتضامنين شعروا أنَّ السلطة الفلسطينية تحت الضغط تركت فرصة ذهبية تفلت ولم تتابع هذا الحكم من خلال الطلب بفرض عقوبات دولية. ولذا، أخذت المقاومة الشعبية على عاتقها المتابعة وتنظيم حملات للمقاطعة وسحب الاستثمار وفرض العقوبات (انظر الفصل ١٣). هذا وقد خرجت تظاهرات حاشدة قبل إصدار الحكم وخلالها وبعده دعماً له.^{٥٨}

نصب الدكتور عزمي بشارة خيمة للاحتجاج على جدار الفصل العنصري في الرام. وخطط لإضراب عن الطعام مع كل من الأرشمنديت عطا الله حنا (لاحقاً أصبح أسقف الكنيسة الأرثوذكسية)، والشيخ تيسير

التميمي (قاضي قضاة المحكمة الإسلامية)، ومايكل وارشافسكي (ناشط سلام إسرائيلي)، وفلسطينيين بارزين من فصائل سياسية مختلفة.^{٩٩} في الوقت نفسه في ٤/٧/٢٠٠٤، حاول فلسطينيون وأجانب منع جرافات إسرائيلية من تسوية الأراضي لبناء الجدار على أراضي لحول وبيت أمر. كان قد تم بناء جزء من مستعمرة كيرمي تسور الاستعمارية وغير القانونية على أراضي هذه القرى. قام الجنود الإسرائيليون بكسر ساق عوض الله صبارنة أحد أصحاب الأرض المتظاهرين سلمياً.

استمرت المواجهات على طول مسار الجدار. في قرية بدرس، وعلى خلاف ما حدث في مسحة، انضمت حركة فتح مع الفصائل الأخرى لهذا النشاط، ولكن أحد المنظمين الرئيسيين عايد مرار شكا من ضعف المشاركة، أو حتى الدعم المعنوي من قبل السلطة الفلسطينية.^{١٠٠} انتشر النضال من قرية بدرس إلى قرية بدو، ومن ثم إلى الجنوب. أخذت قرية بدو مساراً قانونياً للعمل والضغط من قبل المظاهرات التي قام بها القرويون، والتي أجبرت المحكمة الإسرائيلية العليا على إصدار قرار في ٣٠/٦/٢٠٠٤ جاء فيه أنه ينبغي على دولة إسرائيل تعديل ٣٠ كيلومتراً من مسار الجدار العنصري في هذه المنطقة. تحسباً لصدور حكم من محكمة العدل الدولية، كانت المحكمة الإسرائيلية العليا تحاول إضافة الشرعية على الجدار بالقول إنه يمكن تعديل مسار الجدار مع الأخذ بعين الاعتبار معاناة الشعب، بينما نقوم بحماية أمن الإسرائيليين (المستوطنين).

بعد مرور حوالي أسبوع من قرار المحكمة الدولية، وفي ١٧/٧/٢٠٠٤، نظم القرويون من عزبة الطيب بالقرب من قلقيلية واللجان الشعبية ضد الجدار مسيرة ومظاهرة ضد تصنيفها منطقة "ج"، وضد الجدار ومن أجل الحرية.^{١٠١} وبعد مرور شهرين على حكم المحكمة، خرج المئات من الأطفال الفلسطينيين في مظاهرة في موقع الجدار في بلدة الرام تحت شعار "دعونا نتعلم" وجرى تفريق المظاهرة غير العنيفة بعنف من قبل الشرطة الإسرائيلية وحرس الحدود.^{١٠٢}

جرى تفريق العديد من المظاهرات في النصف الثاني من العام ٢٠٠٤ باستخدام الأسلحة الفتاكة بين الذخائر الحية والرصاص المطاطي.

حتى الغاز الذي استخدمته إسرائيل كان فتاكاً. على سبيل المثال في ١٠/٦/٢٠٠٤، قامت العيادات المحلية في قرية الزاوية بمعالجة ١٣٠ مريض نتيجة أعراض حادة من جراء استنشاق الغاز، وشملت هذه الأعراض النوبات القلبية والتشنجات والصدمة وأعراضاً أخرى.^{٦٣}

في ٢٦/٨/٢٠٠٤، قام أرون غاندي حفيد المهاتما غاندي بتوجيه خطاب للمسيرات المنعقدة في رام الله، وأبو ديس، وبيت لحم.^{٦٤}

مسيرة الحرية

خرج الفلسطينيون والمتضامنون الدوليون والإسرائيليون بمسيرة على طول مسار جدار الفصل العنصري الذي يتم تشييده. بدأت المسيرة يوم الجمعة في ٣٠/٧/٢٠٠٤، من قرية زبوبا في محافظة جنين، مرورا بالمدن والبلدات والقرى المتضررة من الجدار على طول الطريق إلى مدينة القدس، ووصلوا إلى مدينة القدس بعد ثلاثة أسابيع من بدء المسيرة، وقد جوبهوا بعددٍ من العقبات على الطريق. وهنا جزء مما كتب عن المسيرة:

”اليوم السادس: الرابع من آب

تأثير الجدار على قرية جبارة: انضم إلى مسيرة الحرية ما بين ٣٠-٤٠ من النساء الفلسطينيات من منطقة طولكرم، حيث رافقن المسيرة لجزء من الطريق. خلال السفر إلى الجنوب من طولكرم مرّت مسيرة الحرية من قرية جبارة، وهي قرية صغيرة تمت إحاطتها بشكل كامل بجدار الفصل العنصري. لا توجد للقرية سوى بوابتين للدخول والخروج منها: بوابة من جهة الشمال للقرية، والأخرى في الجهة الجنوبية. يمكن لسكان قرية جبارة فقط الخروج والدخول عبر البوابة، وذلك فقط عن طريق الحصول على تصريح من الجيش الإسرائيلي. ولا يسمح للفلسطينيين في المناطق المحيطة بالدخول إليها، كما لا يمكنهم الحصول على تصاريح. يجب على أطفال قرية جبارة التي لا تزيد أعمارهم على سنة واحدة الحصول على تصريح للخروج أو إعادة الدخول إلى القرية. بالإضافة إلى ذلك، يجب أن يكون لكل مركبة تدخل وتخرج من القرية تصريح للقيام بذلك.

اليوم الثامن: السادس من آب

مسيرة الحرية تحتج على سياسة حظر الإسرائيليين: تمّ توقيف مسيرة الحرية في قلقيلية يوم الجمعة في وقت متأخر من بعد الظهر من قبل قوات الجيش الإسرائيلي عندما اقتربت من المدينة. طالب الجيش كل متظاهر بتسليم بطاقة الهوية وجوازات السفر من أجل تحديد أي شخص يحمل الجنسية الإسرائيلية (الإسرائيليون ممنوعون من دخول مناطق (أ) في جميع أنحاء الضفة الغربية).

قرر متظاهرو مسيرة الحرية الاحتجاج على سياسة عدم السماح للإسرائيليين للدخول إلى المنطقة (أ) في الضفة الغربية، ورفضوا تسليم جوازات سفرهم وبطاقات الهوية. لهذه السياسة عواقب عديدة، فالإسرائيليون غير قادرين على الإطلاع على أحوال الفلسطينيين الذين يعيشون تحت الاحتلال العسكري، والمعاناة التي فرضت نتيجة لبناء جدار الفصل العنصري. وبالإضافة إلى ذلك، فإنّ الفلسطينيين الذين يعيشون داخل حدود ٤٨ منفصلون عن أسرهم وأصدقائهم، وغير قادرين على زيارة ذويهم وأحبائهم، كما لا يمكن نقل السلع والبضائع والخدمات بين المناطق.

اليوم العاشر: الثامن من آب

احتجاج للفلسطينيين المحتجزين؛ إلقاء القبض على أحد الناشطين: غادرت مسيرة الحرية قلقيلية حوالي الساعة ١٠:٠٠ صباحاً، حيث انضمّ للفلسطينيين ما يقرب من ثلاثين متضامناً دولياً إضافياً بعد قضاء يوم السبت في قلقيلية والقرى المحيطة بها. وفي حوالي الساعة ٦:٠٠ مساءً، وصلت مسيرة الحرية عند بوابة في الجزء المكون من السياج لجدار الفصل العنصري، الذي يعمل أيضاً بمثابة حاجز بين قرية عزون عتمة وبيت أمين؟ واحتجز ما بين ١٥ - ٢٠ من الشبان الفلسطينيين من قبل قوات الجيش الإسرائيلي.

طالب المتظاهرون بالإفراج عن المحتجزين ورفضوا المغادرة حتى يتم إطلاق سراحهم. جلسوا في الطريق وبدأوا يرددون الهتافات. وكانوا محاطين من ثماني سيارات عسكرية ... وبعد مرور خمس دقائق حاول

الجنود الإسرائيليون جر الأجانب بعيداً. وعلى الرغم من محاولة متظاهري مسيرة الحرية حماية بعضهم البعض، إنَّ الجنود اعتقلوا كارل البالغ من العمر ٢٣ عاماً، وهو ناشط من أجل السلام من نيويورك. ويعتقد المتظاهرون أنه مُستهدف لأنه كان قد قاد المفاوضات مع الجنود فضلاً عن الهتافات أثناء احتجاجهم على المحتجزين من الفلسطينيين من قبل. اقتيد كارل إلى مقر الشرطة في مستعمرة أرئيل في تمام الساعة ١٠:٠٠ مساءً. بعد أن قام المتظاهرون بالاحتجاج على احتجازهم، تم إطلاق سراحهم جميعاً باستثناء أربعة شبان فلسطينيين محتجزين عند نقطة التفتيش، ثم أطلق سراح اثنين من الفلسطينيين في تمام الساعة ٩:٣٠ مساءً، حيث أخبر المتظاهرون في مسيرة الحرية بأنهم كانوا محتجزين على الحاجز لأكثر من ٢٤ ساعة^{٥٦}.

وصل عدد المشاركين في مسيرة الحرية إلى ١٠٠٠ متظاهر يوم الثلاثاء ١٠/٨/٢٠٠٤، عندما شارك سكان قرى دير بلوط والزاوية والقيري بالمسيرة من قرية مسحة إلى الأراضي المحيطة بالزاوية. أدهش عدد المتظاهرين الجيش الإسرائيلي وشرطة الحدود، وبقي المتظاهرون ثابتين ومصممين على موقفهم^{٥٦}.

ويستمر النضال

احتج نحو ٥٠٠ فلسطيني من سكان مدينة بيت لحم بعد ظهر يوم الأحد الموافق ٢٠٠٦/٣/٥ بالقرب من كنيسة المهدي على الهجوم الذي نُفذ على يد عائلة إسرائيلية متطرفة ضد كنيسة البشارة في الناصرة. في ١٩/٥/٢٠٠٦، حاول فلسطينيون من مخيم شعفاط الوصول إلى القدس لأداء صلاة الجمعة، لكنهم هوجموا بعنف، وكان الوضع يمكن أن يكون أسوأ بكثير لو لم يكن هناك دعم دولي. تعرّض فلسطينيان وإسرائيلي وصحافي إنجليزي للضرب والاعتقال، وأفاد الصحافي الإنجليزي: "كانت المظاهرة سلمية تماماً حتى قام الجنود بمهاجمتنا دون أي استفزاز. كان هناك طفلان غير مشاركين في المظاهرة رميا حجارة. هرع الجنود الإسرائيليون بعد لحظات قليلة لإلقاء القبض عليهما، إلا أنَّ الطفلين نجحا في الهرب. وحاول الجنود إجبار مواطن -على تقييد يديه وضربه على رأسه- لمنع الطفلين من التوقف عن إلقاء الحجارة.

ذهبت من أجل تصوير ما كانوا يقومون به والتوقف عن ضربه، ولأنهم لا يحبون أن يكون هناك شاهد على وحشيتهم اعتدوا عليّ أنا بالضرب أيضاً، ووضعوني في سيارة عسكرية مع ثلاثة آخرين.^{٦٦}

في منطقة جبلية جنوبي مدينة الخليل حدثت اعتداءات متكررة من قبل المستوطنين والجيش. أصبح من الشائع رؤية تدمير المنازل والاعتداء على رعاة الأغنام وحرمان السكان من وصول أراضيهم أو مدارسهم. في ١١/١/٢٠٠٢، نُظم احتجاج شارك فيه أكثر من ٥٠ سيارة تمثل أكثر من ٢٥٠ ناشطاً من مختلف الخلفيات، حيث قاموا بتسليم البطانيات ووقفوا دفاعاً عن سكان الكهوف في التلال جنوب الخليل.^{٦٧} يحاول الفلسطينيون في تل الرميّة ومناطق أخرى في محافظة الخليل البقاء على قيد الحياة على الرغم من المخاطر التي لا تصدق والمحاولات الرامية إلى طردهم من أراضيهم، ولاقى المواطنون مساعدة من فرق صانعي السلام المسيحية.^{٦٨}

قرية بلعين*

انخرط السكان في بلعين بالقرب من مدينة رام الله، البالغ عدد سكانها ١٣٠٠ نسمة في مظاهرة سلمية أسبوعية وغيرها من الأعمال الإبداعية لسنوات عدة. تجمع المظاهرة الأسبوعية التي تخرج بعد صلاة الجمعة الناس من مختلف أنحاء العالم. روح الابتكار والثورة الرائعة لديهم تعني أنه كانت هناك مظاهرات ذات طابع مختلف أسبوعياً. يواصل الجيش الإسرائيلي تجربة أساليب مختلفة باستخدام العنف المفرط من أجل كسر روح المقاومة. هنا مجرد أمثلة قليلة لبعض أيام الجمعة في بلعين:

- ٣/٣/٢٠٠٦: يرتبطون كسلسلة بشرية مع الجدار. ينهال الجنود الإسرائيليون بالضرب على المتظاهرين بالهراوات وأعقاب البنادق.
- ٧/٤/٢٠٠٦: تكريم إياد طه سلامة طه البالغ من العمر ٢٨ عاماً من سكان بلدة بيت عنان، الذي غرق في الفيضانات الناجمة عن الجدار.
- ٢٣/٤/٢٠٠٦: حرق المنتجات الإسرائيلية.

* الرابط الخاص بالقرية <http://www.bilin-village.org>

- ٥/٥/٢٠٠٦: قام نشطاء إسرائيليون ودوليون مع صور القادة الغربيين الملتصقة على صدورهم بحمل قفص من الأسلاك الشائكة، حيث يوجد بداخله فلسطيني يرتدي ثياباً بألوان العلم الفلسطيني يمثل الشعب المحاصر بشكل رمزي. وكان هذا للدلالة على حقيقة أن الإسرائيليين جعلوا فلسطين سجناً أنشأتها الدولة الإسرائيلية وموله الغربيون.^{٦٩}
- ١٢/٥/٢٠٠٦: قامت القوات الإسرائيلية باستخدام الرصاص المعدني المغلف بالمطاط، ما أسفر عن إصابة ٧ فلسطينيين واثنين من الأجانب (واحد دانمركي وآخر أسترالي) في الرأس.^{٧٠}
- ٢/٦/٢٠٠٦: دعوة سياسيين من كل من الكنيسة الإسرائيلية، والمجلس التشريعي الفلسطيني للانضمام لإحياء ذكرى الاحتلال العام ١٩٦٧.^{٧١}
- ٢٤/٦/٢٠٠٦: ليس أعلام الدول المشاركة في كأس العالم، وحمل بالون ضخيم يمثل كرة القدم وصندوق خشبي كبير يرمز إلى تابوت.
- ٣٠/٦/٢٠٠٦: يرتدي المتظاهرون ملابس برتقالية اللون تشبه ملابس السجناء.
- ١٨/٨/٢٠٠٦، استخدم الجيش الإسرائيلي مياهاً مخلوطة بمادة كيميائية زرقاء مجهولة ضد المتظاهرين.^{٧٢}
- ١٥/٩/٢٠٠٦: الجلوس في الشوارع في وجه الهراوات والقوات الإسرائيلية المدرعة.^{٧٣}
- ١/٩/٢٠٠٦: استخدم الجنود الإسرائيليون رصاصاً مطاطياً جديداً، ما أسفر عن إصابة العديد من المتظاهرين.^{٧٤}
- ٢٠/٤/٢٠٠٧: أطلقت قوات الاحتلال النار على الفائزة بجائزة نوبل للسلام ميريد كوريغان وإصابتها في ساقها برصاصة فولاذية مغطاة بالمطاط.^{٧٥}

- ٢٠٠٨/٦/٦، إصابة نائبة رئيس البرلمان الأوروبي لويزا مورغانيني بجروح.
- ٢٠٠٨/١٢/١٩: حمل المتظاهرون صوراً للرئيس الأمريكي وأطلقوا هتافات ضده. حملوا أحذيتهم بمثابة رفض رمزي للاحتلال الإسرائيلي.
- ٢٠٠٩/٤/١٧: استخدمت قنابل غاز مسيلة للدموع على شكل مقذوفات عالية السرعة من قبل جيش الاحتلال، إحداها اخترقت صدر باسم إبراهيم أبو رحمة واستشهد.
- ٢٠٠٩/٨/٧: قامت القوات الإسرائيلية برش القرويين المحتجين بالمياه المخلوطة مع الروث/البراز.
- ٢٠٠٩/٨/٢١: خرج أطفال بلعين في مسيرة للاحتجاج على المدهامات الليلية والاعتقالات العديدة بحق الصبية في القرية. حملوا لافتات وردّدوا هتافات مثل "نريد أن ننام"، و"لا مزيد من المدهامات الليلية"، و"دعونا نعيش"، و"نريد السلام" ... وهلمّ جرّاً. قاد الأطفال المظاهرة باتجاه جدار الفصل العنصري، ولحق بهم القرويون والنشطاء الفلسطينيون والدوليون.
- ٢٠٠٩/١٠/١٦: حملت موازين عملاقة تمثّل الحاجة إلى العدالة والمساءلة، وذلك لتصويت مجلس حقوق الإنسان التابع للأمم المتحدة بتأييد التقرير حول جرائم الحرب التي ارتكبت خلال الهجوم الإسرائيلي على قطاع غزة.
- كانون الأول العام ٢٠٠٩: إلقاء القبض على عبد الله أبو رحمة منسق اللجنة الشعبية المحلية ضد الجدار، ووجّهت إليه تهمة "حيازة أسلحة" لأنّه كان قد عرض للزوار الأجانب وغيرهم قذائف الجيش الفارغة والرصاص المطاطي والقنابل الارتجاجية الفارغة وعبوات الغاز التي استخدمها الجيش الإسرائيلي لقمع المقاومة الشعبية وسجن فعلياً أشهراً عدة.
- ٢٠١٠/١٢/٣١ جراء استنشاق الغاز، استشهدت جواهر أبو رحمة بعد ساعات، وكانت بذلك أول شهيدة صباح أول يوم في العام ٢٠١١.

كان لوسائل الإعلام والاهتمام الدولي أثرٌ كبيرٌ في ٤ / ٩ / ٢٠٠٧، حيث طالبت المحكمة الإسرائيلية العليا من الدولة تعديل مسار الجدار، لأن المسار الحالي له كان "يلحق ضرراً كبيراً بالقرويين". في اليوم حكمت المحكمة نفسها بإضفاء الشرعية على المستوطنة الإسرائيلية ماتياهو إيسيت التي تم بناؤها على أراضي بلعين.^{٧٦} توعدت القرية بمواصلة الاحتجاجات الأسبوعية. قال إيثان برونر:

"إنها واحدة من أطول وأفضل المسيرات الاحتجاجية المنظمة في تاريخ الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، وإنها حوّلت هذه القرية الزراعية المجهولة إلى رمز للعصيان المدني الفلسطيني، وهذا نموذج يودُّ العديد من مؤيدي القضية الفلسطينية أن ينتشر ويزدهر".^{٧٧}

المقاومة في قرى أخرى

ازداد عدد القرى المشاركة في المقاومة الشعبية زيادة كبيرة العام ٢٠٠٦. فإلى جانب المظاهرات في جيوس وبلعين، فقد رأينا في النصف الثاني من العام ٢٠٠٦ التظاهرات والفعاليات في ما لا يقل عن اثني عشر موقعاً آخر. فيما يلي بعض الأمثلة:

- في ٤ / ٦ / ٢٠٠٦ خرج الطلاب ومؤيدوهم في مظاهرة عند حاجز عطارة على الطريق المؤدّي إلى جامعة بيرزيت احتجاجاً على منع قوات الاحتلال الإسرائيلي الطلاب من الوصول إلى جامعاتهم ومدارسهم. وانضمّ المتضامون الأجانب وعرب الداخل إلى الطلاب الفلسطينيين.^{٧٨}
- اعتقل محمد منصور، وهو أب لخمسة أطفال من قرية بدو في ٢٦ / ٦ / ٢٠٠٤ خلال مظاهرة ضد جدار الفصل العنصري في منطقة الرام. ورفض دفع الغرامة، والكف عن المشاركة في المظاهرات. ونتيجة لذلك استمرّت قضيته لمدة عامين.^{٧٩}
- إصابة ستة أشخاص بجروح بينما كانوا يحاولون منع الجرافات التي يجميها الجيش الإسرائيلي من تدمير الأشجار وتسوية الأراضي بالقرب من قرية أم سلمونة في ٢٦ كانون الأول العام ٢٠٠٦.^{٨٠}

● ناشد عوض أبو صوي وغيرهم من القرويين من سكان قرية أرطاس القريبة من مدينة بيت لحم، الفلسطينيين والمتضامنين الدوليين، الانضمام إليهم في محاولة لمنع مصادرة أراضيهم. تم نصب الخيام، ونام النشطاء على الأراضي المهدة بالمصادرة. وبعد مرور ليلتين في الموقع في ٢٠/٥/٢٠٠٧، وفي تمام الساعة ٥,٣٠ صباحاً، اقتحم الجنود الإسرائيليون المدججون بالسلاح الموقع وقاموا بإزالة الخيام ودفعوا النشطاء بعيداً، بل وحتى ألقوا بهم من فوق جدار إلى حقل مجاور، ثم اقتلعوا جميع أشجار الزيتون القديمة، ولكن عوض صرخ في وجه الجنود: "أعدكم بأننا سوف نقوم بإعادة زراعة هذه الأشجار".^{٨١}

● فقد سكان قرية الخضر بالقرب من مدينة بيت لحم أكثر من ٢٠ ألف دونم من الأراضي الزراعية الخصبة لصالح جدار الفصل العنصري. قاموا بالاحتجاج ابتداء من ١٢ و ١٩ حزيران العام ٢٠٠٩ (شارك في كل هذه الاحتجاجات حوالي ٣٠٠ شخص) واستمرت المظاهرات الأسبوعية شهوراً.^{٨٢}

● في قرية الولجة، حدثت نشاطات قام بها السكان المحليون والدوليون في تلك القرية الصغيرة التي كانت معزولة في خط التماس بين جدار الفصل العنصري والخط الأخضر. ذكر جوشوا ميتنيك:

"كان هناك عشرة فلسطينيين يهتفون ويحاولون إزالة صخرة كبيرة تغلق الطريق، ولكنهم لم يفلحوا في إزالتها، وفتح الحاجز الإسرائيلي الطبيعي الذي كان يفصل القرية الفلسطينية الصغيرة عن مدينة بيت لحم. وبعد ذلك، وباستعمال عتلات كبيرة، قام محتج إسرائيلي ورجل ياباني ومجموعة من السكان، بإزاحة الحجر الضخم جانباً حيث تم فتح الطريق للمرة الأولى منذ ثلاث سنوات. "غداً سوف يحضرون جرافة ويرجعونه مكانه مرة أخرى"، هذا ما قالته شيرين الأعرج، وهي إحدى سكان القرية والمنظمين للمظاهرة. وأضافت: "سنعود الأسبوع المقبل مرة أخرى للاحتجاج".^{٨٣}

مع أنها مكلفة، كانت هذه المظاهرات ضد جدار الفصل العنصري عفوية ونتائجها مشجعة. أحياناً كان القرويون يتظاهرون ضد الفئات الأخرى

بعيداً عن قراهم. فعلى سبيل المثال، عندما سقطت قذائف البحرية الإسرائيلية وقتلت ٨ أفراد من عائلة واحدة كانت تتنزه على شاطئ البحر في قطاع غزة، قام الناشطون الفلسطينيون المناهضون لحدار الفصل العنصري بتنظيم مظاهرة (بعد يومين في ١١/٦/٢٠٠٦) شارك فيها مئات الأشخاص، كان بعضهم يرتدي قمصانا بيضاء مع حروف حمراء دلالة على الدم.^{٨٤} وفي يوم ١٩/١١/٢٠٠٦، خرج الفلسطينيون والمؤيدون الدوليون بمظاهرة غير عنفية عند نقطة تفتيش قلندية قرب مدينة رام الله احتجاجاً على الهجمات الإسرائيلية المستمرة على قطاع غزة، وضد مجزرة بيت حانون، ونفذوا "اعتصاماً" مع المحتجين الذين كانوا يرتدون قمصانا بيضاء ملطخة بالدماء لإظهار مدى بشاعة الهجمات الإسرائيلية على قطاع غزة.^{٨٥}

قطف الزيتون

ساعد الأجانب السكان المحليين في قطف الزيتون، وهذا شكل آخر من أشكال المقاومة الشعبية في ظل الاحتلال الاستعماري الذي يحاول تدمير كل سبل العيش للفلسطينيين. يعتبر شجر الزيتون الدعامة الأساسية للاقتصاد الزراعي الفلسطيني. تم اقتلاع مئات الآلاف من أشجار الزيتون الفلسطينية، أو تم إتلافها من أجل النشاطات الاستعمارية. يوجد هناك عشرات الآلاف من أشجار الزيتون في المناطق القريبة من المستوطنات الاستعمارية، وبعضها في منطقة التماس بين جدار الفصل العنصري والخط الأخضر. حصاد وجني ثمار هذه الأشجار يعني تعريض حياة الناس للخطر، حيث يقوم المستوطنون وحتى تحت حماية قوات الجيش بالاعتداء على المزارعين الذين يحاولون حصاد أشجارهم. في ٤/١١/٢٠٠٢ أعُتدِي على كل من آدم كيلر (إسرائيلي في أواخر الأربعينيات من عمره)، وتوم دايل (بريطاني يبلغ من العمر ١٨ عاماً)، وإميلي وينكستين (أمريكية بالغة من العمر ٢٧ عاماً)، وهايدي نيجيمان (وهي من ألمانيا وتبلغ من العمر ٢٩ عاماً)، ودان أوريلي (أسترالي أمريكي يبلغ من العمر ٢٥ عاماً) من قبل المستوطنين ومقاولين من القطاع الخاص، بينما كانوا يحاولون منع اقتلاع الأشجار.^{٨٦} في ٢٧/٣/٢٠٠٣، هوجم العديد من الدوليين بشكل

وحشي بينما كانوا يقومون بتوفير الحماية للمزارعين في قرية اليامون قرب مدينة نابلس. وكان من بين الجرحى جيمس ديلاين (من الولايات المتحدة، ويبلغ من العمر ٧٤ عاماً)، وناري هيوز تومبسون (أمريكي بريطاني ويبلغ من العمر ٦٨ عاماً)، وروبن كيلى (أيرلندي ويبلغ من العمر ٣٣ عاماً)، وعمر علون (وهو من فلسطيني ١٩٤٨ ويبلغ من العمر ٢٤ عاماً)، كما سرقت أموال وجوازات سفر الأجانب.^{٨٧}

كتب غسان أنضوني عن أهمية موسم قطف الزيتون:

”على الرغم من الوحشية والتخويف والتهديد والاعتداءات البدنية ومواصلة الاستفزازات، فإنّ القرويين الفلسطينيين والنشطاء الأجانب والمحليين من حركة التضامن الدولية يستمرّون في موسم قطف الزيتون. تم جني ثمار الزيتون في الكثير من بساتين الزيتون التي كانت بعيدة عن متناول القرويين لسنوات طويلة. لأول مرة منذ سنوات، اضطرّ جيش الاحتلال والمستوطنون الإسرائيليون إلى استيعاب وفهم العزم والإرادة القوية للقرويين الفلسطينيين والنشطاء الدوليين. لأول مرة أيضاً أثبت أولئك الأشخاص السلميون والعزل أنّ القوة والعدوانية والترهيب لها حدود، وأنّ المحتل لا يستطيع دائماً أن يملّي قواعد اللعبة. هذه اللحظة التي اكتشف فيها الناس أن القوة التي تمكن في كونهم سلميين وذوي عزم وإصرار هي التي تخرجهم من قوقعتهم ومخاوفهم وممارسة حقوقهم الطبيعية ضد إرادة المحتل. هو الوقت الذي فاز فيه هؤلاء الناس الذين ليس في أيديهم حيلة إلا النفوس الفخورة. فازوا ضد البنّادق والاحتلال والعنف. إنّ الوقت الذي سار فيه السلم والعدالة قدماً وتراجع وتقهقر الطمع والعدوان. لقد كانت الأيام الأولى من الحملة صعبة، فقد استخدم المستوطنون والجنود الإسرائيليون كل الوسائل القمعية المتاحة من أجل القضاء على رغبة الشعب. أحرق المستوطنون بساتين الزيتون في المزرعة الشرقية قرب رام الله، وقاموا بدخول بساتين الزيتون الفلسطينية مع العمال الأجانب، وسرقوا الزيتون في قرية جيوس؛ كما قاموا بالاعتداء على الناس الذين كانوا يقطفون الزيتون من خلال إطلاق النار عليهم، وإلقاء الحجارة أيضاً (تقريباً في كل مكان من الضفة الغربية)، كما منع الجيش الإسرائيلي الناس من الوصول إلى حقولهم، وطردوا الفلسطينيين من حقولهم؛ وأطلقوا الغاز المسيل للدموع والقنابل الصوتية والمدافع الرشاشة ضد حملة قطف الزيتون السلمية. تم

إلقاء القبض على العديد، وأصيب آخرون بجروح. كل هذا لم يوقف الفلسطينيين من العودة مراراً وتكراراً إلى حقولهم لقصف الزيتون. قال ضابط في الجيش في قرية ياسوف "اليوم فشلنا وأنتم فزتم".

فزنا اليوم لأننا كنّا ذوي عزيمة وإصرار كاملين، لأننا كنّا سلميين، لأننا كنّا نسيطر على مشاعر غضبنا ولم نستجب لتهريبهم وتهديداتهم. فزنا لأننا ناضلنا من أجل الحياة. فزنا اليوم لأن لا أحد يمكن أن يخفي الاحتلال أو يمكن أن يحوّل هذه القضية إلى حرب وجودية أو حرب ضد الإرهاب. لقد فزنا لأن هناك المئات من القرويين الفلسطينيين الذين أصبحوا سباقين في الدفاع عن حقوقهم، ولأنّ أعظم قادة المجتمع المحلي أظهروا مستوى عالياً من القيادة والقدرة المميزة في قيادة الحملة. فزنا لأنّ ما كان حلمًا هو في طريقه ليصبح حقيقة. فزنا لأننا نقاتل من منطلق الأمل فينا، وليس من منطلق اليأس. وهذا هو مجد فلسطين؛ إذ ما زالت بذور الأمل من الممكن زرعها في خضم اليأس العارم.

نحن نعرف أننا ننتصر في حملة، ولكننا نعرف أنها ليست سوى خطوة في الطريق لإنهاء الاحتلال. وهناك عمل ضخم لا يزال أمامنا جميعاً. ونحن بحاجة إلى الوقوف في وجه الوحش الموجود، وبخاصة أيضاً إلى تفكيك شبكة حواجز الطرق ونقاط التفتيش اللاإنسانية، ونحن بأمرس الحاجة أيضاً لحماية الأرض من المستوطنين الجشع. نحن بحاجة إلى أن نجرّد الاحتلال من أدواته في السيطرة القمعية وإلى قطع مخالب الاحتلال. نحن بحاجة إلى إجبار المحتلين للتكيف مع احتياجات المقاومة الشعبية النشطة. مع هذه الحملة، نكون قد اتخذنا الخطوات الأولى على طريق طويل. وبمزيد من التصميم والعمل المنظم والواسع النطاق سنكون قادرين على التحرك بثبات نحو السلام والعدالة".^{٨٨}

تم ترشيح كل من غسان أنضوني وجيف هالبر من اللجنة الإسرائيلية ضد عمليات هدم المنازل لجائزة نوبل للسلام في العام ٢٠٠٦.^{٨٩}

الأسرى

كما ذكرنا عبر التاريخ، قتل وسجن آلاف الفلسطينيين لمقاومتهم الاحتلال (بغض النظر عن طريقة المقاومة) وأيضاً مئات آخرين فقط كونهم فلسطينيين. خلال الانتفاضة الأولى ما بين ١٩٨٧-١٩٩١، تم تغريم المتظاهرين السلميين بمبلغ يتراوح ما بين ٥٠٠-١٠٠٠ شيكل

(أي حوالي ٢٠٠-٤٠٠ دولار أمريكي، وهو ما يقرب أجرة عام في ذلك الوقت) والسجن أيضاً لمدة تتراوح من ٨-١٢ شهراً.^{٩٠} في أيلول العام ١٩٨٨، صرّح الجيش الإسرائيلي بأن عدد المعتقلين وصل إلى ٢٣٦٠٠ سجين، وباستخدام التعذيب بحق السجناء.^{٩١} تم إطلاق سراح الآلاف من السجناء الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية بعد اتفاقيات أوسلو، ولكن سُجن آلاف آخرين في انتفاضة الأقصى التي بدأت العام ٢٠٠٠. هناك أكثر من ٧٠٠ ألف فلسطيني قضاوا أوقاتاً في السجون الإسرائيلية عبر العقود الأربعة الماضية، وكان في بعض الأحيان ما يقرب من ٢٠٪ من السجناء السياسيين هم من القاصرين/الأطفال.^{٩٢}

شارك الأسرى السياسيون في السجون الإسرائيلية في المقاومة الشعبية داخل السجون في كثير من المناسبات. نقل راديو إسرائيل العام ١٩٨٧ تقريراً حول إضراب مفتوح عن الطعام لسجناء معسكرات في جنين ورام الله ونابلس طالبوا بتحسين ظروفهم الاعتقالية المؤسفة.^{٩٣} السجناء في سجن الأنصار في جنوب لبنان أيضاً تمرّدوا. كان هذا السجن يضم الآلاف من السجناء الفلسطينيين واللبنانيين. أظهروا أعمالاً رائعة للمقاومة والصمود بدءاً من الإضراب عن الطعام إلى رفض إطاعة الأوامر والتمرد.^{٩٤}

انخرط آلاف من الأسرى الفلسطينيين في الإضراب عن الطعام الذي استمرّ من ١٥ آب إلى ٢ أيلول العام ٢٠٠٤. خلال هذه الفترة قامت السلطات الإسرائيلية بتجربة طرق مختلفة من الإقناع والتهديدات والضرب من أجل كسر الإضراب، وأُعريت ١٣ وكالة تابعة للأمم المتحدة العاملة في المناطق المحتلة عن القلق حيال هذا الأمر.^{٩٥}

أما خارج السجون، فقد احتجّ الفلسطينيون والمتضامنون وعملوا بجدّ لنشر الرسالة حول مطالب الأسرى ومحتنهم. عادة بدأت هذه النشاطات مع أسر السجناء والكثير منهم انضموا إلى الإضراب عن الطعام. اجتمعت الحشود في ١٦/٨/٢٠٠٤ خارج المكاتب المحلية للصليب الأحمر، ومن ثمّ اتّجهوا نحو مقر الوكالة التابع للأمم المتحدة في قطاع غزة، حيث سلموا رسالة موجهة إلى الأمين العام للأمم المتحدة كوفي عنان تطالب بممارسة ضغط على إسرائيل، وتحسين الظروف المعيشية للسجناء. تظاهر الآلاف من الفلسطينيين مرة أخرى بعد مرور يومين

على ذلك.^{٩٦} دعت كل من السلطة الوطنية الفلسطينية والفلسطينيون داخل الخط الأخضر وحركة التضامن الدولية إلى إضراب عن الطعام خارج السجون من أجل دعم وتأييد مطالب السجناء.^{٩٧} اكتسب الإضراب القوة ببطء على الرغم من التدابير القمعية.^{٩٨} وصرّح بعد ذلك وزير الأمن العام الإسرائيلي تساحي هنجبي: "أن إسرائيل لن ترضخ لمطالبهم، يمكنهم أن يضربوا عن الطعام لمدة يوم أو شهر أو حتى الإضراب عن الطعام حتى الموت، وهذا شيء لا أقلق حياله".^{٩٩} ولكن إسرائيل رضخت في نهاية المطاف، وأعطت بعض الحقوق الإنسانية الأساسية التي هي من حق هؤلاء السجناء.

تعرّضت الأسيرات الفلسطينيات في سجن تلمود لمعاملة سيئة، وفي ٢٨/١١/٢٠٠٤، تعرّضت المتحدثة باسمهم -التي تذرّت من سوء المعاملة لهن- للضرب. عندما تذرّت الأخريات عوقب الجميع، ولكنهن شاركن في إضراب عن الطعام.^{١٠٠}

استمرّ الأسرى في الإضراب عن الطعام احتجاجاً على سوء المعاملة، ومن أجل لفت الانتباه إلى محتجهم. في ١٦/٢/٢٠٠٦ توفي جمال السراحين البالغ من العمر ٣٧ عاماً وهو في السجن. كان جمال معتقلاً إدارياً لمدة ٨ أشهر، وعومل معاملة سيئة، ونتيجة لذلك أعلن السجناء إضراباً عن الطعام ليوم واحد.^{١٠١}

في ١١/٣/٢٠٠٦، تم تنظيم اعتصام أمام مقر اللجنة الدولية للصليب الأحمر في مدينة الخليل للمطالبة بتحسين معاملة الأسرى. في ٢٧/٦/٢٠٠٦، بدأ ١٢٠٠ سجين سياسي فلسطيني في صحراء النقب إضراباً عن الطعام احتجاجاً على الممارسات التعسفية والقمعية لإدارة السجن.

أظهرت الإحصاءات الأخيرة أنّ ما زال ١١٠٠٠ فلسطيني محتجزين وفقاً لجمعية الأسير الفلسطيني (صامدون) في سجون الاحتلال.^{١٠٢} اليوم نجد أنّ الفلسطينيين في السجون الإسرائيلية حقّقوا عدداً من النجاحات من خلال الكفاح السلمي والعصيان المدني، بما في ذلك ارتداء الملابس العادية (وليس الزي البرتقالي)، والوصول إلى الأخبار، وحقوق الزيارة المعقولة، وتحسين فرص الحصول على الرعاية

الصحية. ولكن لا تزال إدارة السجون تعمل على التخلص من تلك الحقوق ومنعها عن سجناء القطاع.^{١٠٢} للأسف، فإن السلطة الوطنية الفلسطينية مضطرة لتعويض إسرائيل عن التكلفة التي تدفعها من أجل الحفاظ على السجناء الفلسطينيين.

يكنّ المجتمع الفلسطيني الكثير من الاحترام لمن يدخل السجون بسبب المقاومة، ويعتبر السجن وسام شرف. السجون أيضاً تعمل على صقل الشخصيات. صرّح سجين سابق: ”مثل أي مجتمع بشري هناك تناقضات، ولكن هناك خيطاً مشتركاً في الخبرة في السجن التي تمنحنا القوة والهدف والغاية المشتركة. نجتمع معا في هذه الفترة من النضال، لذا تجعل تجاربنا المشتركة أقوى“.^{١٠٤}

المقاومة تستمر بأشكال مختلفة

نجح الفلسطينيون في وقف الهجمات الإسرائيلية على المنازل المستهدفة من خلال تشكيل درع بشري واق. وفي ما يلي وصف لحادثة وقعت في بلدة بيت لاهيا في ١٩/١١/٢٠٠٦:

”قامت الطائرات الحربية الإسرائيلية بتدمير أكثر من ٦٠ منزلاً تعود لنشطاء من الفصائل الفلسطينية في جميع أنحاء قطاع غزة، وذلك باستخدام الأسلوب نفسه، وهو أمر المقيمين من خلال مكالمات هاتفية وفي وقت قصير لكي يخلوا منازلهم قبل قصفها. وبدأت هذه الظاهرة الجديدة [للدروع البشرية] عندما تلقى محمد بارود البالغ من العمر ٢٩ عاماً، وهو قائد في لجان المقاومة الشعبية [PRC] مكالمات تحذيرية في تمام الساعة ٨ مساءً من أجهزة المخابرات الإسرائيلية، حيث أمرته بإخلاء منزله خلال ١٠ دقائق، لأنّ سلاح الجو الإسرائيلي سيقوم بتدمير المنزل، ولكنه تجاهل هذا التهديد ورد قائلاً: ”لن نغادر منزلنا“. رنّ هاتف محمد مرة أخرى، ولكنه تجاهل التحذير بعد ذلك، قال محمد: ”ذهبت أنا ومحمد إلى سطح منزلنا وبدأنا نرعد هتافات ”الموت لإسرائيل! الموت لأمريكا!“ ... وكتب يوسف الحلو من بيت لاهيا مقالاً جاء فيه ”لقد غصّ العالم الطرف عنا، وفشل في حمايتنا من الاعتداءات الإسرائيلية المتواصلة. ينبغي علينا أن نفعل شيئاً، لذلك نحن نواجه تهديدات طائرات أف ١٦ الإسرائيلية. ونحن

مستعدون أن نُقتل ونُستشهد في سبيل الله والحرية. لا نخاف من الإسرائيليين، ونحن لسنا أفضل من الأطفال في بيت حانون الذين نحبوا بينما كانوا نائمين في أحدث المجازر الإسرائيلية“.^{١٠٠}

المقاومة اللاعنفية الجميلة

بقلم الدكتور عبد الفتاح أبو سرور*

”كل دولة في هذا العالم تتطلع إلى العيش بحرية وأمان ونشر وإظهار صورة رائعة عن ثقافتها وتقاليدها وحضارتها لكي تكون محل تقدير واحترام الدول الأخرى. فلسطين التي تعاني من الاحتلال الإسرائيلي منذ العام ١٩٤٨، ومن الدعاية السيئة التي تنتشر بشكل كبير من قبل وسائل الإعلام الدولية، والتي تصوّر المظلوم والمطروود من أرضه -ولا يزال يخضع تحت الاحتلال- لا يزال شعبها يُصوّر باعتباره شعباً معتدياً ومجرماً وإرهابياً.

يقول مهاتما غاندي: ”إذا أردنا أن ندرّس السلام الحقيقي في هذا العالم، وإذا أردنا الاستمرار في صراع حقيقي ضد الحرب، يجب علينا أن نبدأ بالأطفال“.

لقد بدأت بالعمل التطوعي في مخيم عايدة حيث ولدت، وحيث يعيش نحو ٥٠٠٠ نسمة قَدِموا من ٤١ قرية مختلفة دمرها الاحتلال الإسرائيلي العام ١٩٤٨. (حوالي ٦٦٪ من السكان تحت سن ١٨ عاماً). يقع مخيم عايدة للاجئين الفلسطينيين إلى الشمال من مدينة بيت لحم، وهو محاط بالقواعد العسكرية والمستعمرات الإسرائيلية، وعرضة للاجتياحات المتكررة وحظر التجول. في الوقت نفسه لا يوجد في المخيم مساحات خضراء أو ملاعب للأطفال، ومنذ العام ٢٠٠٥، تمت محاصرته وإغلاقه بسبب الجدار العازل غير القانوني الذي يرتفع إلى ٩ أمتار على طول جهته الشمالية. وفي العام ٢٠٠٦، حوَصِر المخيم أيضاً من جهته الشرقية بسبب الجدار العازل العنصري. ومع الاجتياحات العسكرية المتكررة للمخيم، فإنّ الأطفال تقريباً في مواجهة يومية مع الجنود الإسرائيليين.

* كتبت بشكل حصري لهذا الكتاب.

لا نريد لأطفالنا أن تتم إضافة أسمائهم إلى قوائم الشهداء والمعاقين لبقية حياتهم أو يموتون في السجون. ولا نريد الصور نفسها التي نراها دائماً في وسائل الإعلام. يستخدم الفنانون في مركز الرواد المسرح والفنون والتراث الثقافي والتعليم كوسيلة للإصلاح والدفاع عن إنسانيتنا. نحن بشر ونحن شركاء على قدم المساواة لخلق تغيير إيجابي وطويل الأمد. كل واحد منا هو صانع التغيير، وكل واحد يتحمل المسؤولية لخلق تغيير إيجابي، وأن يكون نموذجاً يحتذى به بالنسبة للأطفال والأجيال القادمة.

لقد بدأ مركز الرواد نشاطه مع مجموعة من الأصدقاء كمركز للتدريب المسرحي والثقافي العام ١٩٩٨. إنَّ الفنون بشكل عام والمسرح على نحو أكثر تحديداً هي وسائل قوية جداً للتعبير والأساليب الفعالة للتغيير على المستوى الفردي والمجتمعي. الأطفال أنفسهم هم الممثلون والفنانون. بادر المركز إلى القيام ببرامج تعليمية داعمة ومتابعة نفسية واجتماعية للأطفال الذين يعانون من صعوبات. وأنشأ أيضاً برنامج تدريب أول مهني للتصوير الفوتوغرافي/الفيديو في المخيم. وأنشأ كذلك أول برنامج لياقة بدنية للنساء، وأقام أول مهرجان للأفلام في الهواء الطلق في فلسطين، وأنشأ شراكة مع الآخرين لإقامة أول مهرجان للحكايات الشعبية الفلسطينية في فلسطين.

لقد كان للعروض التي قدّمها مركز الرواد في أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية ومصر وفلسطين تأثير كبير. من جانب واحد رأت الجماهير صورة أخرى عن الإنسانية الفلسطينية والجمال والثقافة والكثير. منهم قال إنهم عندما يشاهدون الأخبار الآن فإنهم يتابعونها بأذان وعيون مختلفة. على صعيد آخر، فقد أتاحَت هذه الجولات لأبنائنا أن يروا الناس الآخرين والبلدان الأخرى، وأن يجربوا العيش في بلد حر دون حواجز أو غاز مسيل للدموع أو جنود احتلال، ودون وجود لجدار الفصل العنصري. ومكنتهم هذه الجولات من اللقاء مع الآخرين وكسر السلوك النمطي عن هؤلاء الآخرين مهما كان أصلهم. نحن جميعاً بشر، ونحن شركاء على قدم المساواة من أجل بناء مستقبل أفضل لأنفسنا وللأجيال المقبلة. ينبغي علينا جميعاً أن نعمل، بحيث يكون المستقبل أكثر جمالاً من الوضع الحالي الذي يطوّق حياتنا.

تحدّى المزارعون الفلسطينيون السلطات الإسرائيلية بصورة منتظمة من أجل بيع منتجاتهم في شوارع القدس المحتلة على الرغم من الجدران والحواجز والقيود الأخرى.^{١٠٦} قام المزارعون وبمساعدة الأجانب في تفريغ صناديق العنب على الطريق الرئيسي رقم ٦٠ الذي يمر عبر الضفة الغربية. كان عنب الفلسطينين يسوّق في جميع أنحاء فلسطين والبلدان المجاورة، والآن أصبح غير قابل للتسويق بسبب الجدران والحواجز والقيود. اعتدى الجنود الإسرائيليون على المتظاهرين بشكل وحشي، واعتقلوا ستة أشخاص من بينهم إسرائيليون وأجانب قبل أن يصلوا إلى نقطة التفتيش المؤدية إلى الطريق بالقرب من الخضر.^{١٠٧}

وفي ٨/٥/٢٠٠٨، فرّقت القوات الإسرائيلية مظاهرة كانت قد نُظمت في ذكرى النكبة في قرية صفورية الفلسطينية المهجرة والمدمّرة.^{١٠٨} وفي ١٥ أيار من العام نفسه حوّل الفلسطينيون السماء فوق مدينة القدس إلى اللون الأسود عن طريق إطلاق ٢١٩١٥ بالوناً لإحياء ذكرى النكبة - كل بالون يمثل يوماً منذ نكبتنا.^{١٠٩}

خرجت المظاهرة السلمية الأسبوعية في نعلين (والبالغ عدد سكانها ٤٦٠٠ نسمة) للتدبير بالمجازر على شعبنا في غزة في ٢٨/١٢/٢٠٠٨، فجرح جيش الاحتلال الإسرائيلي العديد من المدنيين، واستشهد عرفات راتب خواجا البالغ من العمر ٢٠ عاماً.^{١١٠} ولكن هذه القرية نفسها قامت بعد كل هذا بتنظيم ذكرى في ٢٧/١٢/٢٠٠٩ تزامناً مع إعلان الأمم المتحدة اليوم العالمي لإحياء ذكرى المحرقة، واستعملوا صوراً فوتوغرافية تم شراؤها بمساعدة المعهد العربي للتعليم والبحوث للمحرقة، ومقره في الناصرة.^{١١١} وفي مناسبة الذكرى السنوية العشرين لسقوط جدار برلين في ٦/١١/٢٠٠٩، أطاح ٣٠٠ من القرويين من قرية نعلين والأجانب بجزء من جدار الفصل العنصري الذي يفصل القرية عن جزء من أراضيها.^{١١٢}

الوضع في القدس يزداد خطورة منذ أن قامت إسرائيل بضم القدس الشرقية بصورة غير قانونية بعد احتلالها العام ١٩٦٧. وازداد الوضع خطورة العام ٢٠٠٩، فقد ازدادت المحاولات الإسرائيلية لاستعمار الأحياء الفلسطينية مثل حي الشيخ جراح، وسلوان، ولكن المقاومة الفلسطينية لتلك المخططات لا تزال قويّة وفعّالة.^{١١٣}

غزة الصامدة

قامت إسرائيل بمهاجمة قطاع غزة المحاصر بقصف عنيف من الأرض والبحر والجو لمدة ثلاثة أسابيع في أواخر كانون الأول العام ٢٠٠٨ وكانون الثاني العام ٢٠٠٩. تم قتل ١٤٤٠ فلسطينياً معظمهم من المدنيين (من بينهم ٤٢٠ طفلاً). هنا جزء من شهادة للكاهن الكاثوليكي في مدينة غزة الأب مانويل مسلم يصف بها الأسبوعين الأولين للهجوم:

”إخواني وأخواتي في المسيحية ما ترون وتسمعون على شاشات التلفاز ليست هي الحقيقة المؤلة كاملة حول ما يمرُّ به شعبنا في قطاع غزة. إنَّ معاناتهم منتشرة على نطاق واسع على أرضنا التي لا يمكن لتلفاز أو إذاعة نقل الحقيقة كاملة حولها. إنَّ الحصار الوحشي على قطاع غزة هو عاصفة تتصاعد في كل ساعة، وإنها ليست فقط جريمة حرب، ولكن جريمة ضد الإنسانية أيضاً. اليوم الأشخاص الذين يعانون في قطاع غزة يناشدون كل إنسان له ضمير وحسن النية... أود أن أقصَّ عليكم قصة قصيرة عن شيء ما حدث في مستشفى لعائلة عبد اللطيف. اختفى أحد الأطفال أثناء الهجوم الأول، وقضى والداه في اليومين الأولين للحرب وهما يبحثان عنه بلا جدوى. في اليوم الثالث، وبينما كانت العائلة تتجول في المستشفى وجدوا بعض الناس من عائلة جرادة قد تجمعوا حول صبي مصاب بتشوهات وكانت رجله مقطوعة. كان وجهه مشوَّها بسبب الهجمة التي تعرض لها من طائرة أف ١٦، وبسبب الزجاج الذي سقط على وجهه عندما تعرَّض جزءٌ من المستشفى للهجوم. اقتربت عائلة عبد اللطيف من عائلة جرادة لتقديم المواساة لهم، ولكنَّ العائلة فوجئت أنَّ الصبي المجروح ما هو إلا ابنها وليس ابن عائلة جرادة. وتجادلت العائلتان مع بعضهما البعض حول هذه القضية، وانتظرتا حتى يستيقظ الصبي ويخبرهما من هو حتى يمكن لأهله أن يأخذوه“^{١١٤}.

تم تنظيم مظاهرات وغيرها من أعمال المقاومة الشعبية في جميع أنحاء العالم ضد الهجوم على غزة. ألقت الشرطة الإسرائيلية القبض على تسعين شخصاً في القدس في ٢٩/١٢/٢٠٠٨ على ما أبدوه من تضامن مع سكان قطاع غزة الذين كانوا يتعرَّضون للهجوم.^{١١٥} هنا في منطقة بيت لحم، نظم مركز التقارب ست مظاهرات، وكان هناك اعتصام ليلي في بيت ساحور استمر ٢٢ ليلة. قام أعضاء من الأمن

الوطني الفلسطيني بالاعتداء على المجتمعين في رام الله، واعتقلت القوى ١١ من الشباب الذين شاركوا في مظاهرة بيت لحم، وأطلق سراحهم بعد بضع ساعات.

فرضت إسرائيل حصاراً كاملاً على القطاع. في كانون الثاني ٢٠٠٨ دمر أهل غزة الجدار بينهم وبين سيناء، وتدفقوا بعشرات الآلاف وشراء المواد الغذائية وزيارة الأقارب. ما أدهش الجميع أن هذا النشاط الشعبي انتهى بعودتهم إلى أرض الوطن.^{١١٦} هذه الحركة العفوية أعطت الإلهام للكثير من النشاط لمحاولة كسر الحصار من الخارج. حاولت حركة غزة الحرة ونجحت في بعض المناسبات لكسر الحصار المفروض على قطاع غزة عن طريق الرحلات في القوارب. تتكوّن الحركة من فلسطينيين وإسرائيليين وأجانب. نظمت الحركة في ٢٣ آب العام ٢٠٠٨ سفينتين ("غزة حرة" و"الحرية")، ووصلتا إلى شاطئ غزة تقلالن عشرات الأشخاص وبعض الأدوية والمساعدات الإنسانية. في ٢٩/١٠/٢٠٠٨ دخل ٢٧ من النشاط من ١٣ دولة إلى غزة على متن سفينة الكرامة (SS Dignity)، وكانت تحمل على متنها ركاباً بارزين مثل ميريد ماغواير الفائزة بجائزة نوبل العام ١٩٧٦. وصفت الأمم المتحدة الوضع في قطاع غزة بالكارثي. توفي أكثر من ٣٠٠ شخص مريض نتيجة لهذا الحصار في عامين، ولا يزال العدد في ازدياد. لقد حاولت السفينة الخامسة التابعة لحركة غزة حرة أن تصل إلى قطاع غزة وعلى متنها أدوية ومؤن في ١٩/١٢/٢٠٠٨ (المؤن تبرعت بها دولة قطر)، ولكنها تعرّضت للهجوم، وكان عليها إلغاء مهمتها. وعلى الرغم من ذلك، فإنّ حركة غزة حرة حققت نجاحات كبيرة.^{١١٧} وأوضح أحد الأعضاء قائلاً:

"في ٣٠/٦/٢٠٠٩، صعدت قوات الاحتلال الإسرائيلي إلى أحد القوارب المتجهة إلى غزة لفك الحصار الذي يسمّى روح الإنسانية، وقاموا باختطاف ٢١ من العاملين في مجال حقوق الإنسان وصحافيين، الذين كانوا في طريقهم لتسليم الإمدادات الإنسانية والمواد لإعادة الإعمار إلى قطاع غزة المحاصر. وكان من بين المعتقلين ميريد ماغواير الحائزة على جائزة نوبل للسلام، وعضو الكونغرس الأميركي السابق سينثيا ماكينى. تم حجزهم في السجن لمدة أسبوع قبل أن يتمّ ترحيلهم. ونحن وإن كنا قد توقفنا في هذه الرحلة،

لكنّ ذلك لم يكن "فشلاً". في الشهر الذي تم فيه اختطاف زورقنا، كتب أكثر من ١٠٠ ألف من القصص الإخبارية والمقالات والمذكرات الإلكترونية والتحذيرات في الإذاعات والتلفزيونات حول الرد الإسرائيلي العنيف عليّ مهمتنا. إنّه من الحقيقي أنّ هذه المحنة التي عانى منها ٢١ متطوّعا تتضاءل بالمقارنة مع محنة ١١ ألف سجين سياسي فلسطيني محتجزين في السجون الإسرائيلية. إنّ الاستيلاء على شحنتنا الصغيرة والمكوّنة من ٣ أطنان من المساعدات الطبية ومستلزمات إعادة الإعمار غير مهمة في ضوء الـ ٤ مليارات دولار من المساعدات الموعودة لغزة - إنّها المساعدات التي لم ولن يتم تسليمها بسبب الحصار الإسرائيلي^{١١٨}.

رافق الأعضاء الأجانب من حركة غزة الحرة صيادي غزة في رحلات صيدهم في مياه غزة. في حين أنّ المعاهدات الدولية تؤيّد حق الصيادين في صيد الأسماك على سواحلهم، إلا أنّ الزوارق البحرية الإسرائيلية تضايق وتطلق النار على هؤلاء الصيادين. عندما يكون هناك أجنب على متن القارب، تستخدم البحرية الإسرائيلية خراطيم المياه أحيانا^{١١٩}. لقد تصرّفت البحرية الإسرائيلية مثل القراصنة في عملية اختطاف السفن التابعة لحركة غزة الحرة، بما سُمي أسطول الحرية صيف ٢٠١٠ في المياه الدولية، وبخاصّة عندما ارتكبت البحرية الإسرائيلية مجزرة راح ضحيتها تسعة ناشطين أترك، وأدى هذا إلى تدهور العلاقات الإسرائيلية التركية. من الـ ٧٠٠ شخص الذين اختطفتهم البحرية الإسرائيلية كان الشيخ رائد صلاح والنائبه حنين زعبي والناشطة لبنى مصاروة.

اعتقل تسعون شخصاً في القدس الشرقية نتيجة الاحتجاجات التضامنية مع غزة عن طريق التخويف والتهديد في ٢١/١٢/٢٠٠٨. وبمناسبة الذكرى السنوية لعملية "الرصاص المصبوب" على قطاع غزة التي استشهد فيها ١٤٣٤ فلسطينياً، فقد حاول ما يقرب من ١٤٠٠ من الأجانب والفلسطينيين العبور إلى قطاع غزة عن طريق مصر، إلا أنّهم منعوا من الدخول من قبل السلطات المصرية التي سمحت لـ ٩٠ شخصاً رمزياً بالدخول^{١٢٠}. وبعد كفاح طويل مع السلطات المصرية، نجحت قافلة شريان الحياة التي تتكوّن من المركبات والإمدادات من الدخول في آن واحد إلى قطاع غزة في ٦/١/٢٠١٠. قامت مصر

بطرده جورج غالاوي الذي قاد قافلة إغاثة، وأعلنت أنه لا مزيد من قوافل الإغاثة الدولية سيسمح لها بالمرور عبر الأراضي المصرية إلى قطاع غزة. وقامت حكومة الطاغية مبارك ببناء جدار فولاذي تحت الأرض من أجل منع تهريب المواد الغذائية والأدوية عبر الأنفاق إلى قطاع غزة.

هذا ووعدت كل من الحملة الفلسطينية من أجل غزة الحرة (<http://www.end-gaza-siege.ps>) وحركة غزة الحرة (<http://www.freegaza.org>) و"تحيا فلسطين"، وغيرها من المنظمات، بمواصلة الجهود لكسر الحصار. سقط نظام حسني مبارك بمقاومة شعبية مشرفة شملت ملايين المصريين. وحاولت السلطات في رام الله وغزة منع المسيرات التضامنية مع الشعب المصري. ولكن الشعوب العربية من المحيط إلى الخليج تنثور. كما لا يزال النضال مستمراً داخل الخط الأخضر وخارجه وفي المنفى أيضاً. في النهاية الاستسلام ليس خياراً في الصراعات المصيرية. هذا الشعب الذي قاوم وصمد لن يُقهَر.

الفصل الثالث عشر

حملات المقاطعة وسحب الإستثمارات وفرض العقوبات

”إن العمل المتمثل في حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات ما هو إلا ترياق مُعدّ ضد العنف. وهو عمل من التضامن والشراسة والتقدم المشترك. مثل هذه الأعمال تعمل، وبطريقة غير عنفية، لتفادي المقاومة العنيفة، التي تهدف إلى تحقيق الأهداف نفسها المتمثلة في العدالة، والسلام، والمساواة“.

الفنان وصانع الأفلام الإسرائيلي أودي ألوني^١

أوضحت في الفصل الثاني من هذا الكتاب ما تصوّره الفلسطينيون في المستقبل للاستجابة إلى وضعهم الصعب الذي يعيشون فيه. وصف الكتاب الإسرائيليون التحدي الذي نواجهه على أنه نظام تدمير سياسي (politicide)^٢، وبرنامج تطهير عرقي^٣، ونظام إثنوقراطي^٤، ونظام فصل عنصري^٥. يتطلب استمرار مثل هذا النظام من الاستعمار موارد نقدية ومادية وإعلامية ودبلوماسية. يأتي المال من مبيعات الأسلحة والنظم الأمنية الإسرائيلية، ومن الدعم الأجنبي مثلاً من الولايات المتحدة الأمريكية، ومن بيع المنتجات للشعب المحتل (٣ مليارات دولار). تتطلب إسرائيل أيضاً دعماً خارجياً غير مادي من أجل البقاء. إن دور الحكومات خارج فلسطين في الصراع سواء الحكومات العربية، أو الحكومات الغربية، أو الأمم المتحدة، هو تاريخ حافل بالتخاذل والتواطؤ. كتبت الصحافية عميرة هاس في صحيفة هآرتس الإسرائيلية:

”تصدر بعض الهيئات الدولية كل بضعة أسابيع تقريراً يربط بشكل مباشر سياسة الحركة المقيّدة التي تفرضها إسرائيل على الأراضي الفلسطينية المحتلة وعن حالة التدهور الاقتصادي هناك ... لكن البلدان التي تصدر تلك التحذيرات تستمر في شراء الأسلحة ومنتجات

أخرى لها علاقة بالأمن مصنّعة في إسرائيل. ويستضيفون أيضاً ضباط جيش لهم يد مباشرة في قتل المئات من المواطنين الفلسطينيين، وأولئك الذين يعملون على فرض سياسة الحصار. كما يقومون بدعوة وزراء إسرائيليين يتحمّلون مسؤولية كبيرة في تراجع النمو الاقتصادي والاجتماعي لشعب بأكمله^٦.

كتب نهيما ستيسلر في صحيفة هآرتس الإسرائيلية في ذروة الفظائع التي كانت ترتكبها إسرائيل خلال انتفاضة ١٩٨٧-١٩٩١:

”إنّ اعتماد إسرائيل على الولايات المتحدة الأمريكية هو أكبر بكثير مما يشير إليه المبلغ المكوّن من ٣ مليارات دولار. يعتمد وجود إسرائيل على الأميركيين من الناحيتين العسكرية والسياسية. دون أمريكا، فإننا لن نكون مجهّزين بأحدث الطائرات المقاتلة وغيرها من الأسلحة المتطورة. دون وجود حق النقض (الفيتو) الأمريكي، لكان قد تمّ طردنا منذ فترة طويلة من كل المنظمات الدولية، ناهيك عن الحديث عن الأمم المتحدة التي كانت من الممكن أن تفرض علينا عقوبات من شأنها أن تشلّ تجارة إسرائيل الدوليّة تماماً، لأننا لا يمكن أن نكون موجودين دون استيراد المواد الخام“^٧.

أشرت في الفصول القليلة السابقة إلى أمثلة عديدة حول حملات المقاطعة وفرض العقوبات، وسحب الاستثمارات. وشمل ذلك عدم التعاون اقتصادياً مع المستعمرات الصهيونية في ثمانينيات وتسعينيات القرن التاسع عشر. شرحت عن الممثلين الفلسطينيين في البرلمان العثماني الذين احتجّوا ضد عمليات الاستعمار الجارية، وطالبوا بفرض عقوبات (وأحياناً نجحوا في وقف تدفق الصهاينة). وقدمت تفصيلاً عن حملات المقاطعة، وفرض العقوبات، وسحب الاستثمارات التي كانت منتشرة على نطاق واسع في العام ١٩٣٠، والتي شملت الإضرابات وحملات المقاطعة الموجهة ضد كل من المصالح البريطانية والصهيونية. بعد قيام دولة إسرائيل الذي تزامن مع حدوث النكبة الفلسطينية، شارك العالم العربي في فرض العقوبات على إسرائيل، وعلى الشركات التجارية المتعاملة معها. ولكن ضمن اللوبي الإسرائيلي أنّ القوانين الأمريكية حاولت منع أي ضغط على إسرائيل من أجل الامتنثال لأحكام القانون الدولي، وبدلاً من ذلك دعمت إسرائيل دبلوماسياً واقتصادياً

لقمع الفلسطينيين. تم تحقيق ذروة هذا الأسلوب عندما قامت البلدان المنتجة للنفط المتعاطفة مع محنة الفلسطينيين بتطبيق حظر شامل على تصدير النفط إلى الولايات المتحدة الأمريكية والبلدان الأخرى التي موّلت ودعمت الاحتلال الإسرائيلي مادياً. من ١٩٧٣-١٩٧٤، كان هناك انخفاض في تأثير وفعالية العقوبات الرسمية التي تم تقويضها من خلال التطبيق بسبب عيوب هيكلية في عملية صنع القرار والتنفيذ في الأنظمة العربية. كثير من الحكام العرب اعتمدوا، وبشكل سرّي، على الدعم الغربي ووكالات الاستخبارات للبقاء في السلطة.^٩ هناك مشاكل في حملة المقاطعة التي قامت بها الجامعة العربية بالمقارنة مع حملات المقاطعة الشعبية:

”الإكراه والقوة الاقتصادية لهما القليل من الحجج الأخلاقية أو المعنوية التي عادة ما تميّز العمل التضامني، وهذا أدّى إلى ضعف المقاطعة في مواجهة هجمات اللوبي المؤيد لإسرائيل. علاوة على ذلك، فقد تفاقمت هذه المشكلة لأنّ دعاة المقاطعة مثلوا أنظمة وحكومات استبدادية، حيث ظهر الفساد في مثل هذه الحالات. في إطار هذه الظروف، فشل صدّى حملات المقاطعة لدى العديد من الجماعات وحركات التضامن مع الفلسطينيين“.^٩

بالتالي، فقد اضطرّ الفلسطينيون مراراً وتكراراً إلى العودة إلى طرق مختلفة للاعتماد على أنفسهم من أجل إحداث تغيير في ظروفهم عن طريق استخدام أساليب المقاومة الشعبية، التي من بينها حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات. انتفاضة ١٩٨٧-١٩٩١ كانت جوهرية في تفعيل هذا النوع من المقاومة منذ البيان الثالث للقيادة الموحدة للانتفاضة في ١٨/١/١٩٨٨.^{١٠} وكان لهذه الانتفاضة أثرٌ سلبيٌّ كبيرٌ على الاقتصاد الإسرائيلي في مجالات الزراعة، والسياحة، والتشييد أو البناء، والنفقات العسكرية.^{١١}

بما أنّني تحدثت عن أساليب النضال في الفصول السابقة، فقد أردت أن أسلط الضوء هنا على المزيد من النمو للحركات الشعبية التي لها صلة بحملات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات في السنوات العشر الأخيرة، وبخاصة حول ردّ المجتمع الدولي الإيجابي للدعاء الفلسطينية منذ بداية انتفاضة الأقصى العام ٢٠٠٠.

انضمت أول منظمة إسرائيلية للحملة الفلسطينية الهادفة لمقاطعة المنتجات الإسرائيلية عندما وضعت منظمة غوش شالوم إعلانات مدفوعة في صحيفة هآرتس الإسرائيلية في ٢٦ أيلول و٤ تشرين الأول العام ١٩٩٧، تدعو إلى مقاطعة جميع منتجات المستوطنات^{١٢} وقامت بنشر قائمة بأسماء هذه المنتجات.^{١٣} كانت هذه الخطوة المتواضعة مهمة لأنها سمحت للمفوضية الأوروبية أن تدعو إلى مقاطعة جميع المنتجات المستوردة من المستوطنات اليهودية في ١٣/٥/١٩٩٨. ردًا على ذلك، هدّدت وزارة الزراعة الإسرائيلية بإلغاء جميع الامتيازات التجارية الممنوحة لتسويق المنتجات الزراعية الفلسطينية داخل إسرائيل، وبعد مرور أسبوع هدّد رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو بإطلاق النار على العمال الفلسطينيين، واستبعاد أوروبا من جهود السلام إذا اتخذ الاتحاد الأوروبي أية إجراءات لمقاطعة منتجات المستوطنات اليهودية.^{١٤}

في نيسان العام ٢٠٠١، دعا ٣٥ إسرائيليًا، المجتمع الدولي، إلى "تنظيم ومقاطعة السلع والصادرات الصناعية والزراعية الإسرائيلية، بالإضافة إلى السياحة الترفيهية، على أمل أنه سيكون له النتيجة الإيجابية نفسها كما أثّرت المقاطعة على نظام التمييز العنصري في جنوب أفريقيا". قام بتنظيم كل ذلك "ماتسبون" الإسرائيلية (وتعني بالعبرية ضمير)، وتم التوقيع عليها في وقت لاحق من قبل ما يقرب من ألف شخص.^{١٥} وفي أيلول العام ٢٠٠١، عقد اجتماع المنظمات غير الحكومية في إطار المؤتمر العالمي لمناهضة العنصرية التابع للأمم المتحدة في مدينة ديربان في جنوب أفريقيا. جاء الاجتماع في أعقاب الهجمات الإسرائيلية الوحشية على المدنيين الفلسطينيين، ومنح المؤتمر تأييداً ساحقاً للدعاءات الفلسطينية للمقاطعة.^{١٦}

أنا بدأت مع نشطاء آخرين حملة في الولايات المتحدة الأمريكية لجمع توقيعات لمقاطعة أكاديمية على إسرائيل في نيسان العام ٢٠٠٢. وبحلول تموز، جمعنا أكثر من ٥٠٠ توقيع (وتضاعف العدد في وقت لاحق)، وقمنا أيضاً بإنشاء صفحة على الإنترنت "أكاديميين من أجل العدالة". في حين لم يتم تحديث الصفحة الإلكترونية، واصلت الشبكة العمل كمنتدى للذين وقّعوا على تنظيم حملات للمقاطعة الأكاديمية ودعم

الأكاديميين الذين تم تهديدهم. أثبتت القائمة جدواها مثلاً بحماية الأكاديميين في جامعة سنترال كونيكتيك الحكومية، الذين نظموا برنامجاً تعليمياً حول الإسلام والشرق الأوسط، وهددتهم الحركة الصهيونية.^{١٧} وأطلقت حملات لمساندة وتأييد المقاطعة في إنجلترا بقيادة ستيفن وهيلاري روزن، اللذين بدأ عملهما من خلال نشر رسالة موقعة من قبل ١١٥ من المثقفين البارزين في صحيفة الجارديان البريطانية في ٦ نيسان العام ٢٠٠٢، جاء فيها:

”على الرغم من الإدانة الدولية الواسعة لسياسة إسرائيل في عمليات القمع العنيف ضد الشعب الفلسطيني في الأراضي المحتلة، فإن الحكومة الإسرائيلية بدت مستعصية للاستجابة للنداءات الأخلاقية من قبل زعماء العالم ... لقد كان المصدر الرئيسي المحتمل للانتقادات الفعالة هو الولايات المتحدة، ولكن على ما يبدو كانت مترددة في فعل أي شيء. مع ذلك، فإن هناك طرقاً لممارسة الضغط من داخل أوروبا. الغريب في الأمر، أن العديد من مؤسسات البحوث والثقافة الأوروبية والوطنية، وبالتحديد تلك المؤسسات الممولة من الاتحاد الأوروبي والمؤسسة الأوروبية للعلوم، اعتبرت إسرائيل دولة أوروبية لأغراض تقديم المنح والعقود. لذلك، فإنه من المناسب على الصعيدين الوطني والأوروبي وقف هذا التأييد حتى تلتزم إسرائيل بقرارات الأمم المتحدة، وأن تبدأ مفاوضات سلام جدية مع الفلسطينيين، على غرار ما هو مقترح في العديد من خطط السلام، بما في ذلك المبادرة التي رعتها كل من المملكة العربية السعودية وجامعة الدول العربية في الآونة الأخيرة“.^{١٨}

بدأنا حملة لمقاطعة البضائع والخدمات الإسرائيلية في الولايات المتحدة الأمريكية بعد ورشة عمل في جامعة ييل في ٢٣/٢/٢٠٠٢ حضرها نشطاء، وتحذرت فيها زفيكا هافكين من مؤسسة ماتسبون. أرسلنا أول نداء في ٢٨/٢/٢٠٠٢، طلبنا فيه من الشعب الأمريكي مقاطعة البضائع الإسرائيلية والسياحة وغيرها. كخطوة أولى محددة دعونا للعمل على مقاطعة منتج واحد شهرياً، وبدأنا بنجاح بالطلب من أسواق محلية أمريكية عدم بيع بندورة إسرائيلية. لا يزال هناك المئات من النشطاء الذين شاركوا في المحفل الرئيسي يعملون من أجل نشر الأخبار والنداءات لحملات المقاطعة وسحب الاستثمارات

وفرض العقوبات.^{١٩} وفي آذار العام ٢٠٠٤، نشر ما يقرب من ٣٠٠ من الأكاديميين رسالة مفتوحة دعت القادة الأكاديميين الإسرائيليين باتخاذ موقف ضد سياسيات الحكومة الإسرائيلية الجنائية، أو مواجهة المقاطعة الأكاديمية لهم.^{٢٠}

الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل ثقافياً وأكاديمياً

أطلقت الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل ثقافياً وأكاديمياً في نيسان العام ٢٠٠٤ في أعقاب بيان أصدره الأكاديميون والمفكرون الفلسطينيون في تشرين الأول العام ٢٠٠٣.^{٢١} وضّحت الحملة الفلسطينية الرؤية والاتجاه للحركة في بيان عام في ٧ تموز العام ٢٠٠٤:^{٢٢}

يمكن تلخيص فحوى مضمون الاضطهاد الاستعماري الإسرائيلي للشعب الفلسطيني، الذي يستند إلى الأيديولوجية الصهيونية إلى ما يلي: إنكار مسؤوليتها عن النكبة - وبخاصة موجات التطهير العرقي والطرده التي خلقت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين - وبالتالي رفض قبول الحقوق غير القابلة للتصرف للاجئين والمشردين المنصوص عليها، والتي يحميها القانون ... إن النظام الراسخ للتمييز العنصري والتفرقة ضد المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل، يشبه نظام الفصل العنصري البائد (المنحل) في جنوب إفريقيا.

مبادئ توجيهية مقترحة

بما أنّ المؤسسات الأكاديمية الإسرائيلية (ومعظمها تسيطر عليها الدولة) والغالبية العظمى من المفكرين والأكاديميين الإسرائيليين ساهمت، بشكل مباشر، في الحفاظ والدفاع عن أشكال القمع التي تم ذكرها آنفاً، أو تورّطوا في مثل هذه الأعمال من خلال صمتهم، وبالنظر إلى أنّ جميع أشكال التدخل الدولي فشلت حتى الآن في إجبار إسرائيل على الامتثال للقانون الدولي، أو لوضع حد لقمعها ضد الفلسطينيين، الذي تجلّى في أشكال عديدة منها الحصار، والقتل العشوائي، والتدمير الوحشي للغاشم، وجدار الاستعمار العنصري، وفي ضوء حقيقة أنّ أصحاب الضمير في المجتمع الدولي من العلماء

والمفكرين الذين حملوا على عاتقهم على مرّ التاريخ المسؤولية الأخلاقية لمحاربة الظلم، كما حدث في كفاحهم من أجل إلغاء نظام التمييز العنصري في جنوب إفريقيا، من خلال أشكال مختلفة من المقاطعة، ومن منطلق معرفتنا بأن تنامي حركة المقاطعة الدولية ضد إسرائيل تحتاج إلى إطار مرجعي فلسطيني يحدّد المبادئ التوجيهية، وفي روح من التضامن الدولي، والانسجام الأخلاقي لمقاومة الظلم والقهر، فإننا، نحن الأكاديميين والمثقفين الفلسطينيين، ندعو زملائنا في المجتمع الدولي إلى مقاطعة جميع المؤسسات الأكاديمية والثقافية الإسرائيلية بشكل شامل ودائم، كمساهمة في الكفاح من أجل إنهاء الاحتلال والاستعمار ونظام الفصل العنصري الإسرائيلي، عن طريق تطبيق ما يلي:

١ الامتناع عن المشاركة في أي شكل من أشكال التعاون الأكاديمي والثقافي، أو أي تعاون أو مشاريع مشتركة مع المؤسسات الإسرائيلية.

٢ الدعوة إلى مقاطعة شاملة للمؤسسات الإسرائيلية على الصعيدين الوطني والدولي، بما في ذلك وقف جميع أشكال الدعم والتمويل لهذه المؤسسات.

٣ تعزيز سحب الاستثمارات ورفض الاستثمار في إسرائيل من قبل المؤسسات الأكاديمية الدولية.

٤ لا تشمل هذه المقاطعة المفكرين والأكاديميين الإسرائيليين ذوي الضمائر الحية الذين عارضوا سياسة دولهم الاستعمارية والعنصرية [تم حذفه لاحقاً].

٥ العمل على إدانة السياسات الإسرائيلية بالضغط لاعتماد قرارات من قبل الجمعيات والمنظمات الأكاديمية والمهنية والثقافية.

٦ دعم المؤسسات الأكاديمية والثقافية الفلسطينية بشكل مباشر، دون الحاجة إلى شريك مع نظرائهم الإسرائيليين كشرط صريح أو ضمني لمثل هذا الدعم.

قرار المحكمة الدولية يدفع الجهود إلى مراحل أعلى

تلقت جهود حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات دفعة كبيرة بعد قرار المحكمة العليا الدوليّة العام ٢٠٠٤ بعدم شرعية جدار الفصل/ التمييز العنصري الإسرائيليّ المقام على الأراضي الفلسطينية. وفي العام ٢٠٠٥، دعا المجتمع المدني الفلسطيني شعوب العالم لاتخاذ إجراءات حازمة (انظر الإطار رقم ١، الفصل ٢). تم توقيعها في البداية من قبل ١٧١ من المنظمات غير الحكومية في فلسطين. ومنذ ذلك الحين تم إقرارها من قبل المئات محلياً، وأكثر من ألف على المستوى العالمي. أدّى هذا النداء إلى تغيير جذري في جوانب النضال الشعبي. لقد كان هذا النداء مبادرة فيما أصبح يعرف باسم اللجنة الوطنية الفلسطينية لحملات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، وتضم هذه اللجنة ممثلين عن:^{٢٣}

- شبكة المنظمات الأهلية الفلسطينية (PNGO).
- مبادرة الدفاع عن الأراضي المحتلة (الأراضي الفلسطينية والجولان المحتل) (OPGAI).
- الحملة الشعبية الفلسطينية المناهضة لجدار الفصل العنصري (أوقفوا الجدار).
- الحملة الفلسطينية للمقاطعة الثقافية والأكاديمية لإسرائيل (PACBI).
- مجلس القوى الإسلامية والوطنية في فلسطين.
- الاتحاد العام لنقابات عمال فلسطين (PGFTU).
- الاتحاد العام لعمال فلسطين.
- الائتلاف العالمي الفلسطيني لحق العودة.
- الاتحاد العام للجامعات الفلسطينية من الأساتذة والموظفين.
- الاتحاد العام للمرأة الفلسطينية (GUPW).

- اتحاد المؤسسات الخيرية.
- الاتحاد المستقل لنقابات العمال – فلسطين (IFU).
- اتحاد المزارعين الفلسطينيين (PFU).
- اللجنة الوطنية لإحياء ذكرى النكبة.
- التحالف المدني للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس.
- الائتلاف من أجل القدس.
- اتحاد المؤسسات الخيرية الفلسطينية.
- اتحاد مراكز الأنشطة الشبابية – مخيمات اللاجئين الفلسطينيين (UYAC).

جاءت الدعوة في أعقاب دعوة مبكرة في وقت سابق من آب العام ٢٠٠٢ بعنوان ”مقاطعة إسرائيل من أجل الضغط عليها لاحترام وتنفيذ القانون الدولي وحقوق الإنسان وقرارات الأمم المتحدة“، وجاء فيها:

”في أيلول العام ٢٠٠١، بعد مرور عام على فشل كل الجهود الدولية الرامية إلى وقف القمع العسكري الإسرائيلي العنيف للانتفاضة الفلسطينية الثانية في الضفة الغربية المحتلة وقطاع غزة، قامت حوالي ٣٠٠٠ منظمة مجتمع مدني من جميع أنحاء العالم، بالاجتماع في المؤتمر العالمي الثالث لمناهضة العنصرية المنعقد في مدينة ديربان في جنوب إفريقيا. وافق المجتمعون على إعلان للمنظمات غير الحكومية وبرنامج العمل. جاءت الوثائق لهذه المنظمات غير الحكومية من أجل التصدي للعنصرية التي لها صلة مع الأسباب الجذرية للصراع الإسرائيلي الفلسطيني، بما في ذلك الاحتلال العسكري وإنكار حق العودة للاجئين الفلسطينيين والمشردين في الداخل إلى ديارهم وممتلكاتهم.

وبالفعل، فقد كان الممثلون عن ٣٠٠٠ منظمة مجتمع مدني في مدينة ديربان من جميع أنحاء العالم متّحدين في دعوتهم للمقاطعة العالمية وفرض العقوبات على إسرائيل. ومن بين أمور أخرى، فقد شمل برنامج عمل المنظمات غير الحكومية النداء التالي:

● الدعوة لإطلاق حركة دولية مناهضة للفصل العنصري الإسرائيلي مثلما تم تنفيذه ضد العنصرية في جنوب إفريقيا، من خلال شبكة تضامن عالمية للمجتمع المدني الدولي، والهيئات والوكالات التابعة للأمم المتحدة، والمؤسسات التجارية، والمجتمعات المحلية، من أجل وضع حد لمؤامرة الصمت بين الدول، ولاسيما الاتحاد الأوروبي، والولايات المتحدة الأمريكية (المادة ٤٢٤).

● دعوة المجتمع الدولي لفرض سياسة العزلة التامة والكاملة على إسرائيل، على أنها دولة فصل وتمييز عنصري، كما كان الحال في جنوب إفريقيا، وهو ما يعني فرض عقوبات إلزامية وشاملة، والحظر والوقف الكامل لجميع الروابط مثل الدبلوماسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والمساعدات، والتعاون، والتدريب العسكري بين إسرائيل وجميع الدول (المادة ٤٢٥).

بعد مرور عام على اجتماع ديربان، قامت إسرائيل بتدمير المجتمع المدني الفلسطيني وقيادته السياسية، وأعادت إخضاع الضفة الغربية وقطاع غزة تحت سيطرة احتلال عسكري مباشر. كانت إسرائيل وفي أكثر من أي وقت مضى محمية من قبل الولايات المتحدة، ومن التساهل من جانب الاتحاد الأوروبي في انتهاكها للقانون الدولي وحقوق الإنسان وقرارات الأمم المتحدة، لذلك نحن كأعضاء في المجتمع المدني الفلسطيني، نرحب بكل المبادرات التي اتخذت مؤخراً لمقاطعة إسرائيل، والتي تم إطلاقها في أجزاء كثيرة من العالم. من أجل الحرية والعدالة في فلسطين والعالم، فإننا ندعو حركة التضامن والمنظمات غير الحكومية والمؤسسات الأكاديمية والثقافية والشركات التجارية والأحزاب السياسية والنقابات، وكذلك الأفراد المعنيين لتعزيز وتوسيع نطاق الحملة العالمية لمقاطعة إسرائيل. "إسرائيل تقاطع القانون الدولي وحقوق الإنسان - ونحن نقاطع إسرائيل!"^{٢٤}

لقد كان دعم الأكاديميين والناشطين الإسرائيليين أمثال نعومي كلاين، وراشيل غيورا، وتانيا راينهارت، وإيلان بابه مهماً.^{٢٥} وبدأت مجموعة جديدة تدعى (BOYCOT) أو المقاطعة! داخل إسرائيل من أجل دعم دعوة اللجنة الوطنية للمقاطعة العام ٢٠٠٥، وتؤكد ما يلي:

”يتعين علينا نحن الفلسطينيين واليهود مواطني إسرائيل، الانضمام إلى الدعوة الفلسطينية لحملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات ضد إسرائيل، مستلهمين بذلك نضال شعب جنوب إفريقيا ضد نظام التمييز العنصري. كما أننا ندعو الآخرين أن يحدوا حذونا ... نحن نعارض قرار المجتمع الدولي الداعي إلى مقاطعة الفلسطينيين في الأراضي الفلسطينية المحتلة، فهذا يثير الاستياء نظراً لدعم المجتمع الدولي منذ فترات طويلة للفصل العنصري الذي تمارسه إسرائيل، وللانتهكات اليومية للقانون الدولي“.^{٢٦}

وتلقت حركة المقاطعة دعماً قوياً من قادة جنوب إفريقيا مثل روني كاسريل، ورئيس الأساقفة ديزموند توتو، وغيرهم من المناهضين لنظام الفصل العنصري.^{٢٧} تبني المجتمع الدولي نداءات الفلسطينيين للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات. ويمكن الاستشهاد بالمئات من الأمثلة في السنوات العشر الماضية. فيما يلي قائمة جزئية لبعضها:^{٢٨}

- ٢٦ آب ١٩٩٩: بعد أشهر من ممارسة الضغوط، أمرت شركة برغر كينغ فروعها في إسرائيل بإغلاق الفرع الذي تم فتحه في مستوطنة معاليه أدوميم.
- نيسان ٢٠٠١: قامت مجموعة اشتراكيي إسرائيل، وتدعى ماتسبون، بإصدار دعوة للمقاطعة.
- نيسان ٢٠٠١: يدعو طلاب جامعة كونكورديا إلى المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات.
- أيار ٢٠٠١: يدعو مجلس الميثودية المتحدة للأساقفة إلى فرض العقوبات.
- ٤ تموز ٢٠٠١: قامت حملة التضامن الفلسطينية بإطلاق حملة في مجلس العموم البريطاني.
- آب ٢٠٠١: دعت الكنيسة اللوثرية الحكومة الأمريكية إلى ”قطع جميع المساعدات الاقتصادية والعسكرية لإسرائيل، حتى تعمل على تحسين الظروف بالنسبة للفلسطينيين“.

- نيسان ٢٠٠٢: بدء الحملات من أجل المقاطعة الأكاديمية في أمريكا الشمالية وإنجلترا وفرنسا وأستراليا.
- ٢٠٠٢: تعلن المكتبة الداخلية في جامعة أكسفورد فرض حظر على الناشرين الإسرائيليين وترفض تخزين كتبهم أيضاً.
- ٢٠٠٢: تدعو النقابات العمالية الدنمركية إلى حملات المقاطعة.
- ٢٠٠٢: تقوم أستاذة في جامعة مانشستر للعلوم والتكنولوجيا (المملكة المتحدة) بإقضاء إسرائيليين من هيئة تحرير المجلات العلمية التي تمتلكها والتي تقوم بتحريرها.
- ٢٠٠٢: ترفض شركة جازلايت برودكشينز مديري المشاركة في مهرجان حيفا السينمائي الدولي.
- تشرين الثاني العام ٢٠٠٢: أطلقت جامعة كولومبيا حملة لسحب الاستثمارات.
- ٢٧/١/٢٠٠٣: دعا مجلس إدارة جامعة ماري كوري-باريس السادس، إلى إنهاء التعاون والشاركة في ١٦ كانون الأول العام ٢٠٠٢، وقام بتأكيد قراره من جديد بعد تزايد الضغوط.
- ٢٠٠٣: انطلاق حملة ضد شركة كاتر بيلر.
- ٢٠٠٣: يقوم الصوت اليهودي من أجل السلام بدعم حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات.
- ١١ نيسان العام ٢٠٠٤: أصدر مجلس الطلبة في جامعة واين ستيت الحكومية في الولايات المتحدة الأمريكية أول قرار للجامعة لسحب الاستثمارات.
- نيسان ٢٠٠٤: انطلاق الحملة الفلسطينية للمقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل (PACBI). وبحلول تموز ٢٠٠٥، قامت ١٧٠ منظمة بإطلاق الحملة العالمية.

- نيسان العام ٢٠٠٤: تأسست حركة "عمال من أجل فلسطين" في مدينة نيويورك، لتنظيم حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات، وغيرها من أشكال الدعم بين النقابات العمالية.
- ٢٠٠٤: انطلاق حملات المقاطعة الإيطالية والفرنسية والنرويجية.
- تموز ٢٠٠٤: تبنت الجمعية العامة في الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة الأمريكية (PCUSA) قراراً يدعو إلى بدء "عملية لسحب الاستثمارات على مراحل في الشركات متعددة الجنسيات العاملة في إسرائيل، وفقاً لسياسة الجمعية العامة بشأن الاستثمار الاجتماعي".
- تشرين الأول ٢٠٠٤: نقابة المحامين الوطنية الأمريكية (NLG) تدعم حملة المقاطعة.
- تشرين الأول ٢٠٠٤: مؤتمر نقابات عمال جنوب إفريقيا (COSATU) يدعم حملة المقاطعة.
- تشرين الأول ٢٠٠٤: الكنيسة الأسقفية في الولايات المتحدة الأمريكية تنظر في سحب الاستثمارات.
- تشرين الثاني ٢٠٠٤: الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة الأمريكية (PCUSA) تستهدف شركات كاتر بيلر وموتورولا وسيتي غروب وإي تي تي.
- كانون الأول ٢٠٠٤: جامعة ويسكونسن تطلق حملة سحب الاستثمارات.
- كانون الثاني ٢٠٠٥: اللجنة الإسرائيلية ضد هدم البيوت (ICAHN) تدعو إلى فرض العقوبات.
- شباط ٢٠٠٥: نيو بروفایل (حركة إسرائيلية).
- شباط ٢٠٠٥: قاطع نشطاء مباراة لكرة السلة في مدينة برشلونة لاشتراك فريق مكابي تل أبيب.

- ١٥ آذار ٢٠٠٥: عائلة الشهيدة راشيل كوري ترفع دعوى ضد شركة كاتر بيلر.
- نيسان ٢٠٠٥: سينود يورك وهال الميثودية، إنجلترا.
- نيسان ٢٠٠٥: رابطة أساتذة الجامعات (AUT) في المملكة المتحدة تدعم الحملة.
- نيسان ٢٠٠٥: أصدرت رابطة جامعة ويسكونسن للمهنيين (TAUWP) قراراً لسحب استثماراتها من الشركات الداعمة لإسرائيل.
- نيسان ٢٠٠٥: صوّت الحزب الشيوعي الهندي (CPI) والحزب الشيوعي الهندي-م (الماركسي) لصالح فرض عقوبات وإنهاء الاتفاقيات العسكرية والعلاقات مع إسرائيل.
- ٢٠٠٥: يهود أوروبا من أجل سلام عادل (EJJP).
- أيار ٢٠٠٥: مجلس جنوب أفريقيا للكنائس (SACC).
- ٢٠٠٥: الحملة الأمريكية من أجل إنهاء الاحتلال الإسرائيلي تأخذ حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات والعقوبات كأولوية لها.
- ربيع العام ٢٠٠٥: أصدر أصدقاء السبيل ومقرّه في أمريكا الشمالية نداءً من أجل استثمار مسؤول أخلاقياً: الاستجابة اللاعنافية ضد الاحتلال.
- حزيران ٢٠٠٥: الميثوديون في نيو إنغلاند يوافقون على قرار سحب الاستثمارات.
- حزيران ٢٠٠٥: الكنيسة الميثودية المتحدة، ولاية فرجينيا.
- حزيران ٢٠٠٥: نشطاء أيرلنديون يحتشدون ضد لعبة لكرة القدم يشارك فيها فريق إسرائيلي.
- ٢٠٠٥: مجلس الكنائس العالمي يحث ٣٤٠ عضواً من الكنائس إلى النظر في التدابير الاقتصادية غير العنفية، مثل سحب الاستثمارات

من الشركات الدولية مثل شركة كاتربيلار ومن الشركات التي تدعم الاحتلال وانتهاكات حقوق الإنسان.

- ٢٠٠٥: المجلس الإقليمي سورترونديلاغ في النرويج (٢٧٠ ألف نسمة) يدعو لمقاطعة البضائع الإسرائيلية ويتبعها بحملة توعية في جميع أنحاء المنطقة.

- تموز ٢٠٠٥: نداء المجتمع المدني الفلسطيني للمجتمع الدولي للمقاطعة.

- تموز ٢٠٠٥: المؤتمر الدولي للمجتمع المدني التابع للأمم المتحدة.

- تموز ٢٠٠٥: الكنيسة الإنجليكانية في كينيا تقرّر سحب استثماراتها من الشركات التي تعمل في توريد السلع إلى الاحتلال الإسرائيلي.

- تموز ٢٠٠٥: كنيسة المسيح المتحدة في الولايات المتحدة الأمريكية تتبنى قراراً بإجراء "ضغوط اقتصادية"، وتطالب إسرائيل بهدم الجدار.

- آب ٢٠٠٥: قدامى المحاربين من أجل السلام.

- آب ٢٠٠٥: مؤسسة جلو بال أكسشينج/ التبادل العالمي.

- آب ٢٠٠٥: الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في أميركا تتبنى سياسة سحب الاستثمارات من إسرائيل.

- أيلول ٢٠٠٥: يقدّم محامون بريطانيون أمراً قضائياً بالقبض على قائد إسرائيلي يدعى آلوغ، الذي ألغى رحلته بسبب ذلك.

- تشرين الأول ٢٠٠٥: المجلس التنفيذي للأسقفية (الولايات المتحدة الأمريكية).

- تشرين الثاني ٢٠٠٥: حزب الخضر، الولايات المتحدة الأمريكية.

- تشرين الثاني ٢٠٠٥: الكنيسة الإنجليكانية كندا.

- تشرين الثاني ٢٠٠٥: أربيزو في بلاد الباسك تصدر قراراً يحظر التواطؤ والدعم للاحتلال الإسرائيلي.

- كانون الأول ٢٠٠٥: التحالف من أجل العدالة والسلام في فلسطين، كيبك، كندا.
- كانون الأول ٢٠٠٥: الرابطة النسائية الدولية للسلام والحرية (WILPF)، الفرع الكندي.
- شباط ٢٠٠٦: الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا "تسحب استثماراتها من شركات تستفيد من الاحتلال غير المشروع".
- شباط ٢٠٠٦: يعلن المهندسون والمخططون البريطانيون من أجل العدالة في فلسطين عن خطط لمقاطعة شركات المقاولات المشاركة في بناء جدار الفصل العنصري الإسرائيلي.
- شباط ٢٠٠٦: تكوين مجموعة الأديان من أجل استثمار مسؤول أخلاقياً (IMRI) في المملكة المتحدة.
- شباط ٢٠٠٦: (OISM) الإيطالية تقاطع أعمال دورة الألعاب الأولمبية في ميلانو.
- شباط ٢٠٠٦: باسفك للخدمات والتصنيع (PSM)، واشنطن.
- آذار ٢٠٠٦: كوليكثيف إيرجنس فلسطين (CUP) (سويسرا).
- نيسان ٢٠٠٦: مؤسسة راشيل كوري من أجل السلام والعدالة.
- نيسان ٢٠٠٦: روجر ووترز، الشهير باسم بينك فلويد يلقي حفلة له في تل أبيب.
- أيار ٢٠٠٦: الاتحاد الكندي لموظفي القطاع العام (CUPE).
- أيار ٢٠٠٦: الكنيسة المشيخية في اسكتلندا.
- أيار ٢٠٠٦: الرابطة الوطنية للمعلمين في قطاع التعليم العالي (NATFHE) في المملكة المتحدة، تندمج مع رابطة المعلمين الجامعيين لتشكيل اتحاد جديد سمي باسم إتحاد محاضرين الجامعات والكليات (UCU).

- حزيران ٢٠٠٦: الاتحاد الكندي لموظفي القطاع العام (CUPE)- فرع إنتاريو يصدر مذكرة لدعم حملة المقاطعة.
- حزيران ٢٠٠٦: أكبر اتحاد وطني عمالي في بريطانيا (UNISON).
- حزيران ٢٠٠٦: الكنيسة المشيخية في الولايات المتحدة الأمريكية، الجمعية العامة العام ٢٠٠٦.
- ١٩ حزيران ٢٠٠٦: كوليكتيف إيرجنس فلسطين والتنسيق الأوروبي من أجل فلسطين (ECCP) في جنيف يؤيد دعوة حملة المقاطعة.
- حزيران ٢٠٠٦: السنترال الموحد للعمال (CUT) في البرازيل والنقابات المهنية الأخرى في أمريكا الجنوبية تنضم للحشد الذي يمنع التوقيع على اتفاقية التجارة الحرة بين دول ميركوسور (دول أمريكا الجنوبية الموقعة على اتفاقية التجارة الإقليمية وتدعى السوق الجنوبية المشتركة) وإسرائيل.
- تموز ٢٠٠٦: اتحاد الخدمات الصناعية والمهنية والتقنية في أيرلندا يدعو إلى فرض عقوبات على إسرائيل، ووقف فوري لاتفاقية الشراكة الأورومتوسطية مع إسرائيل.
- تموز ٢٠٠٦: حركة باكس كريستي الكاثوليكية الدولية للسلام.
- تموز ٢٠٠٦: تخلق المنظمون لمهرجان لوكارنو السينمائي الدولي المنعقد في سويسرا عن وزارة الخارجية الإسرائيلية كراعية للمهرجان بعد الدعوة من قبل السينمائيين الفلسطينيين.
- تموز ٢٠٠٦: طلب ٨٦ عضواً برلمانياً من مختلف الأحزاب البريطانية من الحكومة بالوقف الفوري لعمليات شراء الأسلحة من إسرائيل والسعي إلى فرض عقوبات دولية ضدها.
- تموز ٢٠٠٦: نقابة المعلمين في جامعة غزة تدعو إلى المقاطعة الأكاديمية والثقافية لإسرائيل.

- آب العام ٢٠٠٦: جمعية الأصدقاء الدينية (الكويكرز): اجتماع أتلانتا (عاصمة ولاية جورجيا)؛ ٦/٧، واجتماع أولبيا (عاصمة ولاية واشنطن).
- آب ٢٠٠٦: الكنيسة المتحدة في كندا (والكنيسة المشيخية والميثودية، وكنيسة المسيح المتحدة).
- خريف العام ٢٠٠٦: جامعة ستانفورد.
- آب ٢٠٠٦: اليهود من أجل سلام عادل، مدينة فانكوفر، كندا.
- آب ٢٠٠٦: نظام الترام في دبلن.
- آب ٢٠٠٦: سينمائيون فلسطينيون وفنانون وثقافيون يدعون إلى المقاطعة الثقافية.
- آب ٢٠٠٦: مهرجان أدنبرة السينمائي الدولي يقاطع الأفلام الإسرائيلية.
- آب ٢٠٠٦: فنزويلا تسحب سفيرها من إسرائيل احتجاجاً على تصاعد جرائم الحرب الإسرائيلية في قطاع غزة ولبنان.
- آب ٢٠٠٦: مركز التصوير السينمائي اليوناني (GCC) يسحب جميع الأفلام اليونانية من مهرجان حيفا السينمائي.
- أيلول ٢٠٠٦: شركة (U2U) البلجيكية للتكنولوجيا الحديثة، ترفض استخدام الأدوات العسكرية المصنوعة في إسرائيل.
- أيلول ٢٠٠٦: مؤتمر الأمم المتحدة الدولي للمجتمع المدني لدعم السلام في الشرق الأوسط.
- يول ٢٠٠٦: أكبر نقابة عمالية في جنوب إفريقيا (COSATU)، تصدر قراراً بالإجماع مقدّم من قبل الاتحاد الوطني لعمال المعادن (NUMSA) يدعو لفرض عقوبات على إسرائيل.
- تشرين الأول ٢٠٠٦: الكنيسة الإنجليكانية في بريطانيا ودائرة المياه في فرجينيا وأبرشية غيلدفورد.

- تشرين الثاني ٢٠٠٦: حملة التضامن مع فلسطين في أيرلندا تدعو إلى مقاطعة الماس الإسرائيلي.
- تشرين الثاني ٢٠٠٦: بنك إيه إس إن (ASN) في هولندا.
- تشرين الثاني ٢٠٠٦: حملة التضامن مع فلسطين في أيرلندا (IPSC) تنجح في مقاطعة المنتجات الإسرائيلية.
- في العام ٢٠٠٦ و ٢٠٠٧: حملة سحب الاستثمارات في مدينة سومرفيل في ولاية ماساتشوسيتس تعمل بدأب من أجل تثقيف سكان البلدة حول عملية سحب الاستثمارات، ونجحت في وضع الموضوع على ورقة الاقتراع.
- كانون الثاني ٢٠٠٧: اتحاد عمال الأغذية والأعمال الحليفة في جنوب أفريقيا (FAWU).
- كانون الثاني ٢٠٠٧: تحالف فرض العقوبات ضد إسرائيل - فرع جنوب أفريقيا.
- كانون الثاني ٢٠٠٧: حملة التضامن العالمي مع فلسطين (GPS) تشمل الماس المصنّع في إسرائيل.
- شباط ٢٠٠٧: منظمة نساء بالزي الأسود، تقاطع جمعية موسيقية إسرائيلية في لوس أنجلوس الأمريكية.
- العام ٢٠٠٧: يدعو اليهود البريطانيون إلى مقاطعة إسرائيل.
- العام ٢٠٠٧: يطلق مواطنو إسرائيل حملة منظمة لدعم المقاطعة.
- أيار ٢٠٠٧: يدعو ١٣٠ من الأطباء البريطانيين إلى مقاطعة الجمعية الطبية الإسرائيلية وطردها من الرابطة الطبية العالمية.
- أيار ٢٠٠٧: الاتحاد الوطني للصحافيين في المملكة المتحدة.
- العام ٢٠٠٧: أكبر النقابات العمالية في أيرلندا الشمالية (NIPSA).

- حزيران ٢٠٠٧: الشركة التعاونية للأغذية في مدينة آن آربر في ولاية ميتشيغن الأمريكية.
- حزيران ٢٠٠٧: مؤتمر نيو إنغلاند للكنيسة الميثودية المتحدة يصدر توصيات لسحب الاستثمارات.
- تموز ٢٠٠٧: اتحاد العمال والنقل العام (TGWU).
- تموز ٢٠٠٧: مؤتمر نقابات العمال الأيرلندي (ICTU).
- آب ٢٠٠٧: الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في أميركا (ELCA).
- ٢٠٠٧: اتحاد الجامعات والكليات (UCU) في بريطانيا، يؤكّد دعمه لحملات المقاطعة ضد إسرائيل.
- كانون الثاني ٢٠٠٩: دعا الاتحاد الكندي لعمال البريد (CUPW) الحكومة الكندية "لاعتماد برنامج المقاطعة، حتى تعترف إسرائيل بحق الشعب الفلسطيني في حق تقرير المصير والامتثال للقانون الدولي، بما في ذلك حقوق اللاجئين الفلسطينيين في العودة إلى ديارهم، كما هو منصوص عليه في قرار الأمم المتحدة رقم ١٩٤".
- شباط ٢٠٠٩: أعلنت كنيسة إنجلترا بأنها قامت بسحب استثماراتها من شركة كاتربيلر.
- شباط ٢٠٠٩: أصبحت كلية هامبشاير أول كلية في الولايات المتحدة الأمريكية تسحب استثماراتها من الشركات التي تستفيد من الاحتلال الإسرائيلي.
- آذار ٢٠٠٩: قامت العديد من الجامعات في أمريكا الشمالية وأوروبا وفي أكثر من ٤٠ مدينة باستضافة أسبوع حول الفصل والتمييز العنصري الإسرائيلي.
- آذار ٢٠٠٩: انطلاق حملة مقاطعة ضد شركة موتورولا في مدينة نيويورك الأمريكية.

- نيسان ٢٠٠٩: مؤتمر اتحاد العامل الاسكتلندي ممثلاً عن جميع النقابات العمالية الاسكتلندية يدعم حملات المقاطعة.
- أيار ٢٠٠٩: أصدر اتحاد الجامعات والكليات (UCU) ممثلاً عن ما يزيد على ١٠٠ ألف من الأكاديميين والموظفين في الكليات والجامعات البريطانية قرارات من أجل ممارسة ضغط فعال على إسرائيل وتحملها المسؤولية عن سياساتها الاستعمارية والعنصرية.
- تموز ٢٠٠٩: ينسحب كل من أندي بيشلباوم ومايك بونانو مخرجي فيلم (YES MEN) من المشاركة في مهرجان القدس السينمائي.
- تموز ٢٠٠٩: حملة نيويورك لمقاطعة إسرائيل تشارك في حملة ضد شركة موتورولا.
- تموز ٢٠٠٩: نجحت الحركة البريطانية لوقف تسليح إسرائيل (www.stoparmingisrael.org) جزئياً في إلغاء بيع بعض الأدوات العسكرية المرسلة من بريطانيا لإسرائيل.
- يوافق تحالف يضم ٣٠٠ منظمة للسلام على مقاطعة إسرائيل: نقطة تحوّل بالنسبة لحركة التضامن الأمريكية.
- أيلول ٢٠٠٩: الحكومة النرويجية تسحب استثماراتها من شركة إسرائيلية تدعى إلبت سيستمز.
- أيلول ٢٠٠٩: صندوق التقاعد الأمريكي العملاق (للأكاديميين) (TIAA)-(CREF) يسحب استثماراته من شركة إسرائيل - إفريقيا للاستثمار.
- أيلول ٢٠٠٩: البرلمان البرازيلي يدعو إلى تجميد عضوية إسرائيل في اتفاقية التجارة الحرة "ميركوسور".
- أيلول ٢٠٠٩: مؤتمر نقابات العمال البريطانية (TUC) ممثلاً عن أكثر من ستة ملايين عامل يتبنّى حملات المقاطعة.

- تشرين الثاني ٢٠٠٩: يستضيف طلاب من أجل العدالة في فلسطين في كلية هامبشاير، المؤتمر الطلابي الوطني لحملات المقاطعة.
 - تشرين الثاني ٢٠٠٩: يسحب ثاني أكبر صندوق للمعاشات التقاعدية الهولندية (PZFW) استثماراته من شركة أفريقيا - إسرائيل للاستثمار.
 - تشرين الثاني ٢٠٠٩: يلتزم الأكاديميون النرويجيون في تروندهايم بالمقاطعة الأكاديمية.
 - كانون الأول ٢٠٠٩: إطلاق حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات التركية.
 - كانون الأول ٢٠٠٩: يطلق الفلسطينيون المسيحيون وثيقة كايروس فلسطين تحت عنوان "وقفة حق" (<http://kairospalestine.ps>).
- كما يتبين من القائمة أعلاه، فإن عدد الإجراءات الفعلية (وليس مجرد خطوات من أجل اتخاذ إجراءات أو بيانات) قد زاد سنة بعد سنة، ولم تسعنا الأمور تلخيص ما حصل سنة ٢٠١٠، حيث المئات من الأمثلة التي دعت الحكومة الإسرائيلية إلى تشكيل لجنة وزارية وأيضاً إلى مناقشة الموضوع في الكنيست الإسرائيلي، إقرار قانون لمعاقبة الإسرائيليين "المحرضين" على المقاطعة.
- دعونا الآن نتحدث بإيجاز عن بعض الحالات من أجل استخلاص الدروس المستفادة. قال الرئيس والمدير التنفيذي لشركة إنتل ويدعى كريغ باريت في ١٨/٦/٢٠٠١ خلال زيارة لإسرائيل، إن شركة إنتل تعيد النظر في ما قيمته ٣ مليارات دولار لتوسيع مصنع الشركة في كريات غات (الذي بني على أراضي قرية عراق المنشية المهجرة)، مرجعاً ذلك إلى "المنافسة الاقتصادية الحالي وتباطؤ الصناعة" حسب صحيفة **جيزوراليم بوست**، ١٩ حزيران العام ٢٠٠٢.
- السبب في اعتقادي أنني قدت حملة كبيرة للاحتجاج على استثماراتها في إسرائيل، وبمساعدة في التوثيق من الدكتور سلمان أبو ستة.^{٢٩} ثم إرسال أكثر من ٢٠٠٠ رسالة إلى الشركة من النشطاء. بعد الإعلان

عن التأخير في عملية التوسع، عملت شركة إنتل مع الحكومة الأردنية لتسهيل إدخال الحاسب الآلي في مدارس المخيمات، وقامت أيضاً بتمويل مختبر حاسوب في قطاع غزة عن طريق الوكالة الأمريكية لإغاثة اللاجئين في الشرق الأدنى. استمرت الحملة رغم هذه المحاولات لشراء الصمت، وتم نشر المقالات والآراء في الصحف. ونُشرت أخبار عن حملتنا في الدستور (الأردن)، والوطن (قطر)، والحياة، والسفير (لبنان)، والقدس، والأيام (فلسطين)، والأهرام (القاهرة)، والوطن (الكويت)، والخليج (الإمارات العربية المتحدة). أدت التغطية الإعلامية إلى لفت نظر شركات أخرى (هذا ما علمنا به من المحادثات الخاصة مع المنافسين).

عندما نظم الطلاب أول مؤتمر حول سحب الاستثمارات في الولايات المتحدة الأمريكية العام ٢٠٠٢، كتبت صحيفة فايننشال تايمز قبل يوم واحد من عقد المؤتمر: "عندما يأتي النشاط من الطلاب من ٧٠ جامعة أمريكية إلى جامعة ميتشيغن لعقد مؤتمر غداً سوف تكون الشركات ومعهم المستثمرون يراقبون ذلك عن كثب... نجاح المتظاهرون في تسليط الضوء على القضية الفلسطينية".^{٢٠} تم انعقاد مؤتمرات أخرى ناجحة للغاية، وحاولت الحركة الصهيونية عبثاً منع كل مؤتمر من الانعقاد من خلال التهديد والتخويف.^{٢١} واستمرت حملة سحب الاستثمارات في الجامعات بالنمو. في شباط العام ٢٠٠٦، أصيب مواطن إسرائيلي يدعى ماتان كوهين ويبلغ من العمر ١٧ عاماً في عينه برصاصة مطاطية خلال مظاهرة سلمية في قرية بيت سيرا. التحق في وقت لاحق بكلية هامبشاير، وأصبح من أحد المنظمين البارزين لحملة المقاطعة التي نجحت في جعل جامعته تسحب استثماراتها من ست شركات تعمل في الأراضي الفلسطينية المحتلة.^{٢٢}

بدأت الكثير من الكنائس التي ورد ذكرها في القائمة أعلاه دراسة جدوى استثماراتها في الشركات التي تربح أو تستفيد من الاحتلال الإسرائيلي والاضطهاد للشعب الفلسطيني. تحرّك بعضها بشكل أسرع من غيرها من الناحية العملية، وليس فقط في إصدار البيانات. وكانت الكنيسة المشيخية على وجه الخصوص قد انتقلت إلى حد كبير نحو اتجاه إيجابي على الرغم من الضغوط التي مورست عليها.^{٢٣} وفي شباط العام ٢٠٠٥، دعا مجلس الكنائس العالمي أعضائه الـ ٣٤٠ كنيسة إلى النظر

في سحب استثماراتها من شركات دولية مثل شركة كاتربيلر، ومن الشركات الإسرائيلية التي تجني أرباحاً من الاحتلال وانتهاكات حقوق الإنسان. قامت بعض الكنائس مثل كنيسة إنجلترا بسحب استثماراتها من شركة كاتربيلر.^{٣٤} ولكن النجاح لم يكن شاملاً:

”رفضت الكنيسة الإنجيلية اللوثرية في أميركا القرار المؤيد لسحب الاستثمارات في العام ٢٠٠٥، كما رفض مجلس الأساقفة للكنيسة الأسقفية في الولايات المتحدة الأمريكية في اجتماعه المنعقد في ١٧/٧/٢٠٠٩ في مدينة أنهام في ولاية كاليفورنيا هذا القرار، ليس فقط القرار الذي يدعو إلى سحب الاستثمارات، ولكن أيضاً تلك التي تدعو إلى تفكيك الجدار، ووضع حد لمصادرة الأراضي الفلسطينية وإقامة الدولة الفلسطينية – كل ذلك بحجة أن القرارات لم تكن ”متوازنة“. ويشعر الكاثوليكيون بالقلق لأن بعض الجماعات الدينية والأيرشيات المحلية نشطة للغاية في حركة المقاطعة، وقام كل من الفاتيكان وأساقفة الولايات المتحدة الأمريكية بتجنب مسألة سحب الاستثمار“.^{٣٥}

هذا التردد بدأ يتغير بعد نشر وثيقة كايروس فلسطين في كانون الأول العام ٢٠٠٩. وقد كانت قد صدرت وثيقة تحمل الاسم نفسه من قبل المسيحيين في جنوب أفريقيا، وهنا تأتي وثيقة فلسطينية بعنوان وثيقة حق لتؤكد أن مسيحيي المنطقة يطلبون من العالم المسيحي وقفة قوية لا تتردد في المقاطعة.^{٣٦}

تعتبر الحملة ضد شركة فيوليا للنقل، وشركة ألتوم قصة نجاح لحملة المقاطعة. هذه الشركات كانت تساعد في بناء البنية التحتية للمستوطنات اليهودية في فلسطين المحتلة. بعد الكثير من العمل الشاق، وفي تشرين الثاني العام ٢٠٠٦، قام بنك (ASN) الهولندي بقطع علاقاته المالية مع شركة فيوليا بسبب العقد الذي حصلت عليه في القدس. ونشطت الحملة عندما قام مجلس مجتمع ستوكهولم يوم ٢٠ كانون الأول العام ٢٠٠٩، بالإعلان عن أنه لن يجدد عقده مع شركة فيوليا لتشغيل مترو الأنفاق (بقيمة ٤ مليارات دولار). وحذا حذوها الكثير في أماكن أخرى: ففي نيسان العام ٢٠٠٩، أعلنت الحكومة المحلية لمنطقة بورندو الكبرى في فرنسا أنها لن تمنح عقداً بقيمة مليار دولار لشركة فيوليا، كما طالب مجلس مقاطعة سليفو في أيرلندا مدير المقاطعة ”عدم التوقيع أو تجديد

آية عقود مع شركة فيوليا". وفي ٢ حزيران العام ٢٠٠٩، أعلنت حكومة ولاية فيكتوريا في أستراليا بعد أربعة أشهر من الترويج وتوزيع أكثر من ١٠٠ ألف نشرة أنها أقصت شركة فيوليا (التي تعمل تحت اسم كانكس) كمشغل لنظام القطار في مدينة ملبورن الأسترالية. وذكرت صحيفة ليومند يوم ٥ حزيران العام ٢٠٠٩ أن شركة فيوليا بدأت تفقد الكثير من المال نظراً لتورطها مع إسرائيل. ذكرت سائل الإعلام الإسرائيلية في ٨ حزيران العام ٢٠٠٩، أنه تم التخلي عن شركة فيوليا كمشغل لمشروع خط سكة حديد القدس، ولكن بعد ذلك أعلنت الشركة عن فتح باب فرص العمل للمشروع، فتمت مواصلة الحملة ضدها. وفي أواخر تموز من العام نفسه، خسرت شركة فيوليا عقداً بقيمة ٣,٥ مليار دولار لمشروع أسترالي لتحلية المياه.^{٣٧} كان هناك أيضاً نجاح مماثل ضد شركة مستحضرات التجميل "أهافا" الإسرائيلية العام ٢٠٠٩.^{٣٨}

لقد كانت النقابات العمالية البريطانية سبّاقة في دعم حركة المقاطعة، ولوحظ ذلك بحلول صيف العام ٢٠٠٩:

"أصدر كل من اتحاد القطاع العام (PCS)، واتحاد الجامعات والكليات (UCU)، واتحاد فرق الإطفاء، مذكرات بشكل علني تدعو فيها إلى وضع سياسة عامة لمقاطعة البضائع الإسرائيلية وسحب الاستثمارات من الشركات الإسرائيلية وفرض عقوبات حكومية ضد الدولة. أصدرت نقابات مثل اتحاد القطاع العام وأكبر اتحاد عمالي في بريطانيا، والإتحاد الوطني للمعلمين، واتحاد تحالف عمال المتاجر والموزعين (USDW)، ونقابات عمال الاتصالات (CWU)، خلال هذا الصيف، مذكرات تدعو فيها إلى حملة المقاطعة. تدعو تلك النقابات والاتحادات في العادة إلى مقاطعة بضائع المستوطنات أو مطالبة حكوماتها بوقف بيع الأسلحة إلى إسرائيل".^{٣٩}

ويبدو الآن أن الحركة العمالية في الولايات المتحدة الأمريكية ستلحق النقابات الأخرى.^{٤٠}

قدّمت المنظمات غير الحكومية الفلسطينية قضايا قانونية ضد الإسرائيليين بتهمة ارتكاب جرائم حرب، كما هو الحال عندما أسقط الجيش الإسرائيلي قنبلة تزن طناً على مبنى أدى إلى مقتل العديد من الأطفال. وبغض النظر عما إذا كانت الإجراءات القانونية في قضايا

معينة معروضة على المحاكم ناجحة أم لا، فمن المؤكد أنها وضعت مجرمي الحرب الإسرائيليين والحركة الصهيونية ككل في وضع دفاعي وقلصت سفر قادة إسرائيليين خارج البلاد.^{٤١}

في صيف ٢٠٠٩، قام العديد من صانعي الأفلام الكنديين بسحب أفلامهم من مهرجان تورونتو السينمائي الدولي بسبب تسليط المهرجان الضوء على مدينة تل أبيب، وتم دعمهم من قبل مئات الفنانين فيما بعد.^{٤٢} وفي الصيف نفسه، أزيلت شركة إسرائيلية تدعى "إلبيت" من صندوق الحكومة النرويجية للمعاشات التقاعدية.^{٤٣} ونجد الأسبوع الدولي الذي يصور نظام الفصل العنصري الإسرائيلي في عامه السادس الآن ويتزايد كل سنة مع مشاركة المزيد من المدن والبلدات في جميع أنحاء العالم، ويعتبر حركة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات نواته المركزية.^{٤٤}

إن أهم ميزة لحركة المقاطعة هي منع التطبيع مع نظام استعماري عنصري، وبالتالي وضع ذلك النظام تحت الضغط وفي مواقف دفاعية.^{٤٥} في نهاية المطاف، فإن الضغط المتدمج مع غيره من الضغوط اللازمة على أي نظام عنصري يؤدي إلى زيادة تكاليف الإبقاء على القمع إلى نقطة التخلي عن هذا النظام، وهذا هو ما حدث في جنوب أفريقيا. الحكومة الإسرائيلية تعتبر حملات المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات تهديداً بالغ الخطر، واتخذت إجراءات مكلفة وعقيمة لمواجهة التحدي.^{٤٦} رد فعل الحكومة الإسرائيلية المبالغ فيه، يدل على مدى أهمية هذه الحملات. اسمحو لي أن أذكر مثالا شخصياً واحداً فقط. لقد كتبت العديد من المقالات التي تتناول مواضيع حول حركة المقاطعة على مدى سنوات (وحتى تم نشر إحداها في مجلة تيكون اليهودية). لكن لم تلق أي من مقالاتي القدر من الاهتمام كما لقيت مقالة "قاطعو إسرائيل" في المجلة الرسمية "جلوبال أجندا" لمنتدى الاقتصاد العالمي (WEF) في كانون الثاني العام ٢٠٠٦. يجلب المنتدى الاقتصادي العالمي الآلاف من القادة السياسيين ورجال الأعمال في العالم إلى مدينة دافوس في سويسرا من أجل تبادل المعلومات. وبعد تلقي شكاوى من الذين لا يؤمنون بحرية التعبير (لأن الحقيقة في غير صالحهم)، اعتذر كلاوس شواب المؤسس والرئيس التنفيذي للمنتدى عن نشر مقالي.

كان قد تم نشر المقالة في المجلة اللامعة، ووزعت على آلاف الحضور، ونشرت أيضاً على موقعها على الإنترنت. وقد سحبت المقالة لاحقاً من الموقع، وسحبت المجلة، ولكن قمت بنشر المقال كاملاً على موقعي الإلكتروني الخاص.^{٤٧} قام بعد ذلك كلاوس شواب الذي تلقى شكاوى من الإسرائيليين والصهاينة بعقد مؤتمر صحافي من أجل "الاعتذار"، وطلب من الحضور أيضاً إرجاع المجلات (ولم يفعل ذلك أحد تقريباً)، ثم قرّر في وقت لاحق إلغاء المجلة للسنوات المقبلة (حيث لم يتم إصدار المجلة بعد ذلك). ولم يكن محررو المجلة راضين عن هذا. ومع ذلك، نتج عن كل من الإشاعة حول المهاجمة والرقابة الديكتاتورية والانسحاب من قبل شواب، كتابة عشرات القصص الإعلامية (من صحيفة هآرتس، وحتى صحيفة نيويورك تايمز)، ووصلت القصة إلى مئات الآلاف من الناس. تم تسليم الكثير من بين الـ ٥٠٠٠ من قادة العالم الذين حضروا المؤتمر المقالة الأصلية، ولكن لم يقرأوها إلى أن حصلت المشكلة. عملت الضجة الإعلامية عملاً لصالحنا. تلقيت مئات من رسائل التأييد بما فيها رسائل من كبار المسؤولين الحكوميين في أعقاب الحادث، وتلقيت أيضاً دعوة للقيام بجولة خطابية في إيطاليا ودول أخرى.

من المهم عدم المغالاة في التأكيد على دور المقاطعة، ولكن ذكرت في الفصول السابقة أمثلة عن أكثر من مائة من أساليب المقاومة الشعبية المختلفة الأخرى لمقاومة الاستعمار الإسرائيلي. ولذا "هذه الحملة تشكل عاملاً واحداً فقط في إحداث تغيير سياسي واجتماعي... إن لدى حملة المقاطعة دوراً مهماً لتعبه، ولكن يجب عدم التقليل من مساهمة الصراع الداخلي أو القوى العالمية، أو الأحداث التي تلعب أيضاً دوراً في تحديد التاريخ".^{٤٨}

في الوقت ذاته، يجب تشجيع شراء المنتجات الفلسطينية القليلة المتبقية. تعمّدت إسرائيل تدمير الاقتصاد الفلسطيني، وتركت عدداً قليلاً جداً من الخيارات المتاحة للمنتجات، ولكن حتى هنا فقد كان هناك نجاحات ملحوظة وجهود كبيرة للمقاومة الشعبية. لقد شاركت منظمات محلية مثل مركز بديل والحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل ثقافياً وأكاديمياً ومنظمة "أوقفوا الجدار" وغيرها في حملات منتظمة من أجل تشجيع شراء المنتجات المحلية. كانت آخر حملة على المستوى المحلي هي

حملة تثقيفية تدعى "إنتاجنا"، التي تمت برعاية عدد من المؤسسات والشركات المحلية مثل مركز التجارة الفلسطينية "بالتريد"، ومعهد أريج، ومنندى شارك، ومنندى سيدات الأعمال، واتحاد الصناعات في فلسطين، واتحاد لجان العمل الزراعي، والإغاثة الزراعية الفلسطينية. هنالك حركة لتوسيع تصدير المنتجات الفلسطينية من خلال الجمعيات التعاونية وجمعيات التجارة العادلة.^{٤٩}

الفصل الرابع عشر

الاستنتاجات والنظرة إلى المستقبل

”فقط إذا كنا نحترم أنفسنا كعرب، ونفهم الكرامة الحقيقية والعدالة لنضالنا، بعدها فقط يمكن لنا أن نقدر، ورغم أنفسنا، لماذا هناك الكثير من الناس في جميع أنحاء العالم بمن فيهم راشيل كوري، والشابان اللذان جرحا معها من حركة التضامن الدولية –توم هرنال وبريان أفيري– لماذا شعروا بأهمية التعبير عن تضامنهم معنا...؟ ألم يحن الوقت لنا للحاق بمكانتنا والتأكد من أن ممثلينا هنا وهناك يدركون، كخطوة أولى، أنهم يقاتلون من أجل قضية عادلة ونبيلة، وأنه ليس لديهم شيء للاعتذار عنه، أو أي شيء يشعرون بالحرَج حياله؟ على العكس من ذلك، ينبغي عليهم الافتخار بما فعله شعبهم، وأن يكونوا فخوريين أيضاً لتمثيلهم“.

إدوارد سعيد^١

في التاريخ عبرة لمن اعتبر

في حين أنه من الجيد أن ننظر إلى التجارب الناجحة لغاندي ومارتن لوتر كينغ في المقاومة اللاعنفية، فمن المستحسن أن نتذكر أن لكل مكان مجموعة من الفوارق الاجتماعية والسياسية والثقافية، حيث يتحتم علينا تطوير ردود جديدة ومناسبة.^٢ تظهر دراسة تاريخ المقاومة الفلسطينية أن المقاومة المسلحة جاءت في وقت متأخر؛ أي تقريباً بعد مرور ٥٠ عاماً على بداية الاستعمار الصهيوني. في الواقع، كانت المقاومة المسلحة محدودة نوعاً ما بالنظر إلى مستوى الظلم مقارنة بأماكن أخرى مثل جنوب أفريقيا والجزائر وفيتنام. وكما رأينا، فإن المقاومة الشعبية بالمقارنة مع الأماكن الأخرى، استغرقت وقتاً أطول (ما يقرب الآن من ١٣٠ عاماً)، وانطوت على استخدام أشكال طبيعية وفطرية ومبتكرة كانت فريدة من نوعها بالنسبة للتجربة الفلسطينية. في كل مرحلة من مراحل الظلم على شعبنا، قمت بتوثيق أعمال ملهمة

ومبتكرة للمقاومة الشعبية المحلية في هذا الكتاب. وشمل هذا فترات من الحكم العثماني، وخروجهم من فلسطين، وفي بداية العشرينيات من القرن الماضي في ظل حكم الصهيوني هربرت صموئيل، والثورة الكبرى، حيث تم تدمير مئات المنازل، بما في ذلك البلدة القديمة من مدينة يافا في أواخر الثلاثينيات، كما درسنا المقاومة خلال عمليات التطهير العرقي بحق ٥٣٠ من القرى والبلدات الفلسطينية بين العامين ١٩٤٧ و١٩٤٩. وأخذنا العبر من المراحل اللاحقة. لقد اتخذ الظلم ضد السكان الأصليين أشكالاً جديدة غريبة تتراوح بين الإرهاب في الأربعينيات مثل (الرسائل المفخخة، وتفجيرات الحافلات والأسواق)، إلى المجازر ومواكب من الضحايا خلال قيام دولة إسرائيل (مثل مذبح قرية دير ياسين)، وعمليات النهب الضخمة، وإطلاق النار على أي شخص يعود إلى المناطق التي تم تطهيرها عرقياً، والقتل والهدم وتكسير عظام المتظاهرين في أواخر الثمانينيات. من ١٩١٩ إلى ١٩٣٦ إلى ١٩٤٨ إلى ١٩٦٧ ومهاجمة المدنيين بالنابالم، إلى مذابح لبنان وغزة، وإلى استعمال الفسفور الأبيض في قطاع غزة، لقد كان استعمار فلسطين في الواقع ملطخاً بالكثير من الدماء.

تواصل الحركة العنصرية الصهيونية نهبها لفلسطين دون رادع من قبل الحكومات الغربية الضعيفة. ويرافق العنف الاستعماري دعاية فعّالة في وسائل الإعلام التي يؤثر عليها التيار الصهيوني تغلب حقيقة الصراع. وترسم المواطنين الأصليين وتصوّره وحوشاً جامحة، والمقاومة بالهمجية والإرهاب، وتجعل مرتكبي التطهير العرقي كما لو كانوا ضحايا أبرياء. هذه البروباغاندا ليست جديدة لأي استعمار. هكذا قال المستعمرون عن الهنود الحمر (السكان الأصليين في أمريكا) في أول ٢٠٠ سنة من الاستعمار الأوروبي. هكذا وصفوا المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألماني، أو المقاومة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي، أو مقاومة التمييز العنصري في جنوب أفريقيا. أول شيء يجب أن نعرفه عن المقاومة الفلسطينية هو أنها تفاعل طبيعي للاستعمار والتطهير العرقي. هناك أشكال مشروعة لمقاومة الظلم والاستعمار التي تمت الموافقة عليها وتشجيعها في ميثاق الأمم المتحدة والقانون الدولي. وهذه الأشكال من المقاومة يمكن أن تكون مسلحة أو سلمية.

أكثر من ثلثي الـ ١١ مليون فلسطيني في العالم لاجئون، أو نازحون، ولم يتركوا بلادهم طوعاً. المقاومة مشروعة ضد عنف الاستعمار، شأنها شأن جميع الحالات الأخرى المماثلة في التاريخ، كالجزائر، وجنوب أفريقيا. كانت عملية الطرد العنيفة للقرويين في ظل الحكم العثماني، ولاحقاً في ظل الانتداب البريطاني، وأخيراً في ظل السيادة الإسرائيلية، على مدى العقود الثلاثة عشر الماضية، ستسير بسرعة أكبر، وبالتأكيد كانت ستؤدي إلى قيام دولة يهودية أكثر تجانساً لو لم تكن هناك مقاومة فلسطينية.

لقد استعرضت في الفصل الخامس المقاومة في ظل الحكم العثماني التي نجحت جزئياً في فرض قيود على اقتناء الأراضي من قبل الحركة الصهيونية. ولكن ضعف الإمبراطورية العثمانية في القرن التاسع عشر ووجود صراعات في محيطها، سارعا في دخول القوى الغربية لفلسطين لصالح الصهاينة. قام المفكرون الفلسطينيون في تلك الحقبة بتقديم قيادة سياسية وعملية ملهمة لأجيال قادمة. ومع ذلك، فقد كانت المقاومة الفعالة مكبوحة بسبب عزلة النخبة الفلسطينية عن الجماهير، ومن ناحية أخرى المنافسة التركية العربية، والهيئات الإقطاعية التي حاولت مواجهة المنظمة الصهيونية العالمية المنظمة والممولة بشكل جيد. ولكن نجاحات الحركة الصهيونية في فلسطين قبل العام ١٩١٧ كانت صغيرة، وغير مهمة، وذلك بفضل المقاومة الشعبية الفلسطينية في وسط النظام العثماني الإسلامي المتعاطف.

كان هذا من شأنه أن يتغير بشكل دراماتيكي خلال الحكم البريطاني في فلسطين بين الأعوام ١٩١٧-١٩٤٨. لقد كان المجتمع الفلسطيني خلال فترة الانتداب البريطاني مثقلاً بالمشاكل، ولكنه استجاب بشكل جيد للهجمة الصهيونية والجهود البريطانية لتفكيكه، وتأسيس وطن قومي لليهود ليحل محله. إن التعمد على قرون من الحكم العثماني، ومن ثم التعامل مع الحكم البريطاني كان صدمة من تلقاء نفسها. إضافة إلى ذلك، قام التعاون البريطاني/الصهيوني من أجل تحويل البلاد إلى "وطن قومي لليهود"، بإضافة المزيد من الضغط على المجتمع المجزأ والضعيف. لقد كان تعيين الصهيوني هيربرت صموئيل رمزا لهذا العصر، ومفتاحاً للتقدم في المشروع الصهيوني في فلسطين، لقد

رأينا كيف أن المجتمع البريطاني كان لا يعرف عن الواقع وما يجري على الأرض، وهو حقبة ظلام وظلم. لقد كان هذا الظلام يَخترق في فترات وجيزة بفضل المقاومة الشعبية الفلسطينية. ردّت النخبة البريطانية بسياسيات ”فرّق تسد“، التي تم تطبيق بعضها للأسف عندما عمل بعض الفلسطينيين مع السلطات ضد القضية الوطنية. وكان أبرزها، إعاقة الكفاح من أجل الحرية من قبل المشاحنات بين فصائل الحسيني والنشاشيبي، وعزل النخب عن مصلحة المواطن الفلسطيني العادي.

لقد واجه الدعم للمشروع الصهيوني عقبة كبيرة عندما انخرط الفلسطينيون في المقاومة العنيفة وغير العنيفة الضخمة التي عطلت ومزّقت الحياة بين العامين ١٩٣٦ و١٩٣٩. كما في غيرها من الانتفاضات، بدأت الحركة الشعبية جاهدةً، ودون حماس، وانضم قادة النخبة السياسية لركوب موجة الانتفاضة كلما ارتفعت. نفّذت سلطات الاحتلال عقاباً جماعياً بحق الفلسطينيين، وكان البريطانيون يميّزون في معاملتهم المستوطنين اليهود، وقاموا بتسليحهم، ونقلوا ملكية سندات الأراضي، وتغيير الوضع القائم في الأماكن المقدسة مثل حائط المبكى، والأراضي الوقفية. ورفض الاحتلال احترام حقوق الإنسان الأساسية للسكان المحليين، بما في ذلك الحق في تقرير المصير. ولدت هذه السياسات مشاعر السخط والمقاومة. كانت السياسات البريطانية في ذلك الوقت مشابهة لتلك التي تم تنفيذها في أماكن أخرى من العالم الاستعماري البريطاني: كانت سياسات وحشية ومكر، وتحتّ على الانقسام والانشقاق. اعتقل الآلاف على مرّ السنين بسبب تعبيرهم عن معارضتهم لها، أو إنشاء الأحزاب السياسية التي تحدّت الحكم الاستعماري. وبالنسبة لأولئك الذين قاوموا بعنف، فقد تمت ملاحقتهم وقتلهم. كما كانت عمليات الشنق في الساحات شائعة في ذلك الوقت؛ أي أنّ السلسلة متصلة بين المستوطنين الصهاينة الاستعماريين والاحتلال البريطاني.

لقد كان هناك ثلاث فترات من التصعيد في المقاومة في ظل الانتداب البريطاني: فترة ١٩٢٠، هبة ١٩٢٩، ثورة ١٩٣٦-١٩٣٩. كل فترة لها ميزات وتحديات وفرصها الخاصة بها. تطوّرت المقاومة الفلسطينية في تلك الفترات لتواجه القمع والسياسات البريطانية وتكثيف الأنشطة الصهيونية. هنا وعلى الرغم من المشقات كان نمو المجتمع الفلسطيني

بالتعليم والتطوّر. وشهدت فترة الثلاثينيات قيام الفلسطينيين بتنظيم مقاتلي حرب العصابات الذين قاوموا بالأسلحة بشكل ممنهج. ولكن الثورة الفلسطينية الكبرى بين الأعوام ١٩٣٦-١٩٣٩ أيضاً نشطت أشكال المقاومة الشعبية من العرائض والاحتجاجات إلى العصيان الشعبي الكامل. الصهاينة والبريطانيون لم يكونوا مستعدين لهذا المزيج من المقاومة، لكنهم سرعان ما تكيفوا وتمكنوا من الاستفادة من اختلافات القادة السياسيين المتخاصمين والانتهازيين (الذين كانوا أنفسهم سعداء لتقبّل مكاسب أية ثورة). لقد كان سبب هزيمة ثورة العام ١٩٣٦-١٩٣٩ هو تلاقي المصالح من ثلاث مجموعات، وهي حسب غسان كنفاني: "القيادة الرجعية المحلية؛ الأنظمة في الدول العربية المجاورة لفلسطين؛ العدو الصهيوني الإمبريالي".^٣ في الواقع، لقد لاحظنا في الفصل السابع كم من العوامل التي لعبت دوراً في إضعاف وتقويض ربما أطول إضراب في التاريخ الفلسطيني (الإضراب الذي استمر ١٨٣ يوماً، وربما يعتبر رقماً قياسياً عالمياً). لقد ظهر الفلسطينيون ضعفاء سياسياً بعد أن تم سجن أو ترحيل معظم زعمائهم. حيث تلقى الاقتصاد المحلي الفلسطيني، والتماسك الاجتماعي، والقدرات التنظيمية، ضربة حادة جداً. وتم ملء الفراغ من قبل قوات أخرى بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك الدول العربية المستقلة حديثاً. واستغرق الأمر جيلاً آخر من أجل إعادة بناء صوت فلسطيني مستقل.

تم عزل الفلسطينيين المتبقين داخل الخط الأخضر ما بين الأعوام ١٩٤٩-١٩٦٦. ولم يكونوا فقط معزولين عن العالمين العربي والإسلامي، ولكنهم واجهوا حكماً عسكرياً متوحشاً، حاول أن يقضي عليهم وحتى إنهاء ما بدأته جنودها العام ١٩٤٨ بفصلهم عما تبقى من أراضيهم. واجه الفلسطينيون خارج الخط الأخضر (في قطاع غزة والضفة الغربية والمنفيين في بلدان أخرى) عكس هذه المشكلة. إذ لم يكن لديهم اتصال مباشر مع مضطهديهم وسلطتهم الاستعمارية، بل كان لديهم الكثير من التواصل والعمل في العالم العربي والإسلامي، حيث اضطروا إلى تطوير وسائل النضال والمواجهة التي لم يكن من الممكن تصورها قبل العام ١٩٤٨.

لقد غيّرت حرب العام ١٩٦٧ المشهد في كثير من النواحي الإيجابية والسلبية. سمح التفوق العسكري لإسرائيل باحتلال وفرض سيطرتها على مناطق عربية جديدة واسعة. ولكن الحرب أيضاً جعلت الناس يدركون أنّ القادة العرب كانوا عاجزين عن إجراء أي تغييرات. وبدأ الفلسطينيون في بناء مؤسساتهم التمثيلية من أجل تحدي أولئك الموالين للقادة العرب (على سبيل المثال، ضُغِف نفوذ الملك حسين في الضفة الغربية ببطء على الرغم من قيام السياسات الإسرائيلية والأردنية على حد سواء بتعزيز وتقوية أولئك الموالين التقليديين). وبحلول الفترة ما بين العام ١٩٧٣-١٩٧٤، هيمنت الاتجاهات القومية (مع أقلية صغيرة جداً تمثل الدعم الملكي والإسلامي. كما ازداد تقديم الدعم لمنظمة التحرير الفلسطينية، ونمو مؤسسات المجتمع المدني في المناطق المحتلة (على جانبي الخط الأخضر). لقد أنشئت مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية في أواخر الستينيات من القرن الماضي، وشملت العديد من الفروع التي كانت تعمل في أساليب المقاومة الشعبية داخل فلسطين وخارجها على حد سواء (مثل الاتحادات العامة للطلبة الفلسطينيين والمرأة الفلسطينية). فقد نمت هذه المؤسسات بالتوازي مع نمو المقاومة المسلحة. وجربت إسرائيل جميع التكتيكات التي في حوزتها للقضاء على هذه المشاعر القومية، فضلاً عن جميع أشكال المقاومة ولكن دون جدوى. وكلما كان القمع أشد قسوة، نمت المقاومة بشكل أقوى بأشكالها المختلفة (وربما هذا هو القانون الاجتماعي الذي لا يتغير حاله حال القوانين الفيزيائية). لقد كانت تجربة إسرائيل فاشلة على الرغم من المذابح التي ارتكبتها في لبنان ومحاولات القضاء على المقاومة عن طريق قتل رموزها ومؤسساتها خارج فلسطين (بما في ذلك قصف المستشفيات والمراكز الثقافية في مخيمات اللاجئين). وما نوته إسرائيل أنتج العكس في لبنان (مثلاً نشوء حزب الله).

لقد جاءت انتفاضة العام ١٩٨٧ بمثابة صدمة للنظام الإسرائيلي والمجتمع الدولي والعربي. حتى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية التقليدية، لم تتوقع ما حدث وتسارعت للتواصل مع الشعب في الداخل وجيل جديد من الناشطين. وبما أن "فتح" كبرى الفصائل، فقد كانت أعمال أعضائها حاسمة في تشكيل اتجاه انتفاضة العام ١٩٨٧ وقطف ثمارها السياسية (للأسف الثمار المتواضعة). ولكن أصبح من الواضح

أنَّ أعضاء حركة فتح في الداخل كانوا منقسمين، وبخاصة على امتداد خط الأجيال ”الرسمي“. أولئك من كبار السن رغبوا في تكوين علاقات وثيقة والتواصل مع قيادة حركة فتح الذين يقيمون خارج فلسطين. وكان النشاط الأصغر سنًا في الواجهة الأمامية يميلون إلى الابتعاد عن سلطة ”مجموعة تونس“، وإلى الابتكار والتمرّد في أعمالهم. أي كان هناك انقسام بين المحافظين والتقدميين في نواح كثيرة، وامتدّ هذا إلى الفصائل الأخرى. الأعمال على أرض الواقع واجهت بعض التدخل، بعضه تدخل ناجح من الخارج أو من الحرس القديم في الداخل. ولاحقًا سينمو ذلك الانقسام على نطاق أوسع، وأصبح الحرس القديم في قلق متزايد من تهميش قياداتهم وإمكانات القيادة الجديدة الشابة. أصبح البعض مهووسًا بأهمية منظمة التحرير الفلسطينية ممثلة بالخارج، وهذا ما أدّى إلى اتفاقيات أوسلو التي جلبت مجموعة تونس ووضعته لتكون مسؤولة عن السكان الفلسطينيين في الأراضي المحتلة، حيث اعترفت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية بإسرائيل، ونبتت العنف، وفي المقابل اعترفت كل من إسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي ووحيد للشعب الفلسطيني.

وحصل الكثير من التوتّر في المقام الأول بين أولئك الأعضاء الذين أتوا من الخارج والأعضاء الموجودين داخل فلسطين. وللأسف، حرّض بعض العائدين الجيل القديم من الزعماء التقليديين في الداخل ضد الأجيال الشابة. بالمقابل، شعر الكثير ممن في الأراضي المحتلة أنَّ القيادة التقليدية لمنظمة التحرير الفلسطينية حصدت ثمار عملها ودمها. وكان لهذا الاستياء مضاعفات كبيرة على مدى السنوات من العام ١٩٩٣ وحتى اليوم. قام سعيد أبو الريش بتلخيصها على النحو التالي:

”قبل سنوات، كانت منظمة التحرير الفلسطينية عبارة عن ميليشيات ميدانية تتناوش مع دوريات الحدود الإسرائيلية وتتعامل مع المشاكل لخلق وعي وطني فلسطيني. كانت منظمة التحرير الفلسطينية مثلها مثل الحركات الثورية في أماكن أخرى بحاجة إلى المقاتلين والمتقنين أكثر من أي شيء آخر. بالنسبة للجزء الأهم، كان المقاتلون والمفكّرون ينتمون إلى مخيمات اللاجئين والقرى، على الرغم من أنَّ الآخرين قد جاؤوا من أجواء مفتوحة من بيروت ومن الجامعات الغربية، ولكن في اللحظة التي تحوّلت فيها منظمة التحرير الفلسطينية إلى منظمة

محافظة من أجل التعامل مع الأنظمة العربية المحافظة التي قبلتها في وقت متأخر، عندها فقدت م.ت.ف. اندفاعها الثوري. لقد أراد شيوخ النفط المحافظين العمل مع زملاء فلسطينيين محافظين، وعبروا عن استيائهم من الفيلق الثوري لمنظمة التحرير الفلسطينية. لذلك، فقد تحولت منظمة التحرير الفلسطينية إلى البرجوازية الفلسطينية من أجل الوصول إلى مجندين جدد من أجل التعامل مع الأنظمة العربية. وفجأة، عادت أسماء فلسطينية قديمة إلى الظهور، وكانوا أولئك الذين فقدوا مصداقيتهم لفشلهم في توفير وطن للفلسطينيين في الثلاثينيات والأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي. لم يكونوا مقاتلين، وليس لديهم رغبة في تجريب المعاناة، ولكنهم كانوا رجال المال الذين يقومون بعلاقات مع شيوخ وأمرأء. وهم بمثابة سفراء في العواصم الأوروبية، ويتولون مناصب مثل مستشارين ومرشدين لياسر عرفات. لقد كانت عواقب هذا التحول جريمة لا تغتفر عند الشعب في الضفة الغربية. وكانوا يشيرون بمرارة إلى أن هؤلاء الناس لم يظهروا خلال السنوات الصعبة المتمثلة في النضال من أجل الحصول على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية، كما قاموا بتوجيه اتهامات بأن المؤسسة ستعتني دائماً بنفسها. أسماء فلسطينية قديمة مثل الحسيني، ونسيبة، والمصري، أخذت مناصب مهمة في المنظمة -إن لم يكن المنظمة بأكملها- ومؤهلات هؤلاء لم تكن فلسطينيتهم، بل كونهم محبوبين من قبل الملوك والرؤساء العرب^٤.

انتهت انتفاضة العام ١٩٨٧ - ١٩٩١ مثل انتهاء انتفاضة العام ١٩٣٦-١٩٣٩ بسبب ظروف خارجية مثل حرب قريبة، والضغوط الاجتماعية، والتحرّج الذي تم فرضه نتيجة تدخل من قيادة بعيدة (عملياً ومعنوياً)، والغدر والخيانة من قبل القادة العرب المتعاونين مع الأنظمة الغربية والحركة الصهيونية. في العام ١٩٣٩، تم تدخل الحكومات العربية وبداية الحرب العالمية الثانية، وإصدار "الكتاب الأبيض" من قبل البريطانيين. كلّها لعبت دوراً في إنهاء الثورة. كذلك انتهت انتفاضة الحجارة بعد: أ) بدء حرب الخليج الأولى التي شدّت انتباه العالم إلى جزء آخر من الشرق الأوسط، وتقسيم العالم العربي بين أولئك الذين يؤيدون حكّام الولايات المتحدة الأمريكية/ الكويتية، وأولئك الذين ساندوا وأيدوا الحكومة العراقية. ب) اجتماعات بين

الإدارة الأميركية وقيادة منظمة التحرير الفلسطينية. (ج) إطلاق مؤتمر مدريد لدفع "عملية السلام" إلى الأمام، حيث انضمت إليه منظمة التحرير الفلسطينية (وإن لم يكن رسمياً) الأمر الذي أدى في نهاية المطاف لاتفاقيات أوسلو.

إنّ اتفاقيات أوسلو معترف بها الآن عالمياً (بمن في ذلك العديد من الذين كانوا في البداية داعمين لها) على أنها كارثية، والتي أدت إلى: (أ) تجزئة الشعب والقضية الفلسطينية. (ب) تطبيع وتقبل إسرائيل كدولة يهودية في أكثر من ٦٠ بلداً والتوسع الكبير في القوة الاقتصادية الإسرائيلية. (ج) إضعاف وتهميش مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية لتحل محلها السلطة الوطنية الفلسطينية في رام الله. (د) إعطاء الحرية لإسرائيل لتفعل ما تراه مناسباً في المنطقة "ج" (أكثر من ٦٠٪ من الضفة الغربية وقطاع غزة)، حيث قامت بمضاعفة عدد المستوطنين هناك خلال ٧ سنوات، وتكريس نظام الفصل العنصري. وفي غضون ذلك، أصبحت "عملية السلام" هدفاً وليس وسيلة، ولتستخدمها إسرائيل لكسب الوقت للقيام بمزيد من عمليات الاستعمار. وكان لا بدّ لهذا النظام أن ينهار، وانهار بالفعل مع دخول العام الأول من الألفية الثالثة.

اندلعت انتفاضة الأقصى دون عنف، ولكن العنف تسلّل إليها كرد على الوحشية الإسرائيلية. وكانت مشاركة نشطاء التضامن الدولي (بما في ذلك الكثير من الإسرائيليين) تعتبر تحولاً كمياً ونوعياً بارزاً. لقد كان تأسيس حركة التضامن الدولية في بلدة بيت ساحور، والانتشار اللاحق لها، أمراً حاسماً من أجل تخفيف وطأة الهمجية الإسرائيلية. رأينا هذا في كسر الحصار على المقاطعة في رام الله، وعلى كنيسة المهدي في بيت لحم، وحديثاً محاولات لكسر الحصار على قطاع غزة. شهدت الانتفاضة الثانية (انتفاضة الأقصى) أيضاً استخدام الشبكة العنكبوتية، ليس من أجل التعبئة والحشد والتثقيف فحسب، ولكن أيضاً من أجل اقتحام مواقع إسرائيلية وفلسطينية. فقد استخدم خبراء الكمبيوتر الفلسطينيين معرفتهم من أجل تدمير المواقع الإسرائيلية، بما في ذلك موقع الكنيست، وموقع تابع للجيش الإسرائيلي°. استمر العمل الشعبي على الرغم من تدخلات السلطة.

ما الذي لم نقم بتغطيته أو التحدث عنه في هذا الكتاب؟

لقد أوردنا في هذا الكتاب المئات من الأمثلة (من أصل الملايين منها) حول المقاومة الشعبية الفلسطينية بدءاً من تقديم العرائض والاعتراضات إلى الإضرابات والمظاهرات والعصيان المدني إلى عدم التعاون وحملات المقاطعة ووسائل أخرى كثيرة. للأسف، لم تنشر هذه المعلومات خارج فلسطين إلا حديثاً. من في العالم سمع عن الحركة النسائية المشرفة في عشرينيات القرن الماضي ضد الاحتلال البريطاني ودعماً للصهيونية الاستعمارية؟ وكمن من الناس سمعوا عن الزعماء الدينيين المسيحيين والمسلمين الذين سجنوا العام ١٩٣٦ بسبب تعبيرهم عن آرائهم أن فلسطين يجب أن تبقى مجتمعاً متعدياً العراق والديانات؟ كم من الناس يعرفون عن كفاح ونضال الفلسطينيين داخل الخط الأخضر-عرب الداخل، حيث أن العديد من قراهم لا تزال غير معترف بها، ويعتبر حوالي الربع منهم "غائبين حاضرين" بموجب القانون الإسرائيلي؟ كم من الناس يعرفون عن يوم الأرض الذي بدأ العام ١٩٧٦ ويعتبر تاريخاً مهماً للمقاومة الشعبية للفلسطينيين في الوطن والشتات؟ كم من الناس يعرفون عن ثورة الضرائب التي حدثت العام ١٩٨٩؟ كم منا يعرف عن الطرق المبتكرة التي لا تصدق للمقاومة في قرى مثل جيوس وبلعين ونعلين والولجة والنبي موسى ومئات غيرها؟ وإذا سمح للشعوب في الغرب وفي بلاد العرب الاستماع لمثل هذه الأشياء، فهل سيضغطون على حكوماتهم لوقف دعمها للنظام الإسرائيلي العنصري مثلاً فعلت مع النظام العنصري في جنوب أفريقيا؟

كما أوضحت في المقدمة، إن موضوع المقاومة الشعبية واسع وكبير، ومن الواضح أننا لا نستطيع في هذه الدراسة القصيرة تقديم مسح كامل لجميع أشكال المقاومة. كان عليّ أن أختار وأركز على أمثلة من فترات مختلفة في تاريخ المقاومة (والاعتذار مرة أخرى عن التقصير -يمكن إضافة الكثير لتصبح موسوعة). لم أقم بتغطية الأعمال التي قام بها الفلسطينيون في الشتات/المنفى^١ ومن قبل المجتمع الدولي في دعم كفاح الشعب الفلسطيني إلا في الفصل الثالث عشر، حيث قمت بذكر، وبشكل موجز، بضعة أمثلة من أصل الآلاف من الحملات لدعم نداءات الفلسطينيين للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات.

إنَّ بعض هذه الحملات، بالطبع، عملت بشكل وثيق مع الفلسطينيين على مديّ عقود على المستوى المحلي في أشكال الدعم والتنمية التي هي شكل من أشكال المقاومة الشعبية مثل اللجنة المركزية المانوية، ولجنة خدمة الأصدقاء الأمريكيين (كويكرز).^٧ كما أنَّني لم أتحدث عن الفلسطينيين الذين ما زالوا خارج فلسطين، ولكنهم يستمرّون في دعم أسرهم والقضايا الخيرية داخل فلسطين، أو في مخيمات اللاجئين في مختلف أنحاء العالم العربي. إنَّ هذه جميعها هي شكل من أشكال المقاومة الشعبية. وهناك أيضاً الفلسطينيون الذين يتركون حياة الراحة في الشتات، ويعودون للعيش والنضال في فلسطين (عندما/أو إذا ما سُمح لهم بذلك).^٨

لقد ذكرت أمثلة قليلة جداً حول المقاومة باستعمال الفن، بما في ذلك جميع أشكال التعبير الثقافي من الديكيات الفولكلورية إلى اللباس التقليدي.^٩ لقد أسفرت رمزية وقوة الحطة/الكوفية في الثقافة الفلسطينية عن شن هجوم كبير على استخدامها. ووصل الأمر إلى الاستخدام المضلل لها من قبل عملاء سريين إسرائيليين.^{١٠} والآن هنالك محاولة لجعل حطات ملونة موضحة إسرائيلية لنزع الروح الوطنية منها. لم أتحدث عن أعمال المقاومة عن طريق كتابة الشعر حول المنفى والمقاومة والثبات والحب وغيرها الكثير.^{١١} لقد أعطيت أمثلة قليلة حول المقاومة عن طريق الكتابة والتحدث مثل تلك التي ذكرها الكتاب في مراجع هذا الكتاب في مذكراتهم، والأسلوب الكامل لأدب المقاومة الفلسطينية.^{١٢}

كان بإمكانني كتابة العديد من الكتب حول المقاومة في طرق العيش، والأكل، والتنفس في أرض أصبحت مطمعا للغزاة. فوجودنا مقاومة. حياتنا على هذه الأرض أو ما تبقى منها مقاومة. يقوم الفلسطينيون بأعمال المقاومة الشعبية عندما يأخذون أغنامهم إلى المراعي كما هو الحال مثلاً في الهضاب جنوب مدينة الخليل، حيث يقوم المستوطنون وبانتظام بالاعتداء والتحرش بالقرويين.^{١٣} يقوم الفلسطينيون بأعمال المقاومة الشعبية عندما يتزوَّجون ويفرحون وينجبون الأطفال ويدفنون أمواتهم. نحن نقاوم بمجرد الذهاب إلى المدرسة، وعن طريق زرع ما تبقى من أرضنا، ومن خلال العمل في ظل ظروف قاسية، والوقوع في الحب، والزواج، وإنجاب الأطفال. تشمل المقاومة الانتظار

على ما تبقى من أرضنا، والقيام بجميع الواجبات الدنيوية في محاولة للعيش (البقاء على قيد الحياة) في ما تبقى لنا من أرض فلسطين (التي أصبحت الآن ٨,٣٪ فقط من أرضنا التاريخية)، وعندما ظهر، وبكل وضوح، قولاً وفعلاً، أنه ليس مرحّب بنا للبقاء في أرضنا. هذا هو ما يسمى الصمود.

كان عليّ أن أكون انتقائياً للغاية في هذا الكتاب. يمكن أن يكتب الكثير حول مجموعات فرعية من المعلومات التي طرحتها. في اختياري لأمثلة من مختلف العصور، حاولت أن أنظر بعمق في طاقة وحيوية تلك الحقبة. ولكنني لم أود اختزال المقاومة الشعبية إلى تصرفات شخص أو عدد قليل من الناس. تنطوي المقاومة الشعبية بطبيعتها على حركات اجتماعية، وليس بالضرورة أن تكون بقيادة فصائل أو مؤسسات أو زعماء ذوي شخصيات قيادية. لقد كانت أشكال المقاومة الأكثر فعالية هي تلك التي تم القيام بها جماعياً. قمت بذكر بعض الناس الذين نفتخر بهم لأهمية إعطاء معلومات موجزة عن حياتهم الشخصية المهمة. الكثير من الكتب تروي قصصاً عن مثل هؤلاء الناس وعن تفكيرهم.^{١٤} وأعتقد أنه يمكن لكتب جيدة أيضاً أن تكون مكتوبة حول المقاومة الشعبية من قبل المرأة الفلسطينية (انظر ص ١٧٤)، ومن قبل الطلاب الفلسطينيين، ومن قبل رجال الدين. فإن جميع المجالات التي تطرّقت لها بإيجاز كان بسبب ضيق المجال في هذا الكتاب.

أصبح من الواضح أنّ مئات أشكال المقاومة ستستمر طالما لا تزال المسببات الكامنة موجودة. لقد انتهت المقاومة في جنوب أفريقيا (العنيفة وغير العنيفة على حد سواء) في اليوم الذي انتهى به النظام العنصري. في حين أنّها ليست نتيجة مثالية، فعلى الأقل فتحت باباً للمصالحة والنضالات المشتركة في مجالات أخرى من مجالات العدالة (مثل المساواة الاقتصادية). نحن في فترة يتم تشجيع الشعوب في الغرب على تعلّم المزيد من المعلومات حول ما يجري هنا، لأنه هو حق وعبرة، وأيضاً لأنها تؤثر على حياتهم، حيث تقوم الحكومات في كثير من هذه البلدان بتأييد الاضطهاد والظلم باسم شعوبها وضرائبهم.

الفرص والتحديات

لقد خلّقت الصهيونية في فلسطين نمطاً فريداً ومموّلاً جيداً وراسخاً للاستعمار الاستيطاني. كانت مصالحه الحصول على أكبر مساحة جغرافية (لنفسه) بأقل تكلفة ديموغرافية (السكان الأصليون الذين لا يزالون على الأراضي التي يطمعون بها). وكانت العوامل الحاسمة في نجاح هذا المشروع أنّه كان في المقام الأول مشروعاً غربياً بأموال وتنظيم ودعم غربي، وأنّ سكان البلاد الأصليين لديهم موارد قليلة لكي يحاولوا تحدي ذلك وأيضاً تخاذل وتواطؤ الأنظمة العربية. الصهاينة نجحوا جزئياً بالاعتماد على المهارات السياسية، وخبرة التعبئة السياسية، والخبرة الدبلوماسية، والتعليم، والمعرفة العلمية، والموارد المالية، وفهم النظم البيروقراطية الحديثة، وغيرها من عناصر الحضارة التي هيمنت على العالم في القرن التاسع عشر. وبكلمات أخرى، فإنّه يمكن للصهاينة الاستفادة من منتجات ٣٠٠ سنة من الثورة والإصلاح السياسي والتصنيع وزيادة للهيمنة العالمية للرأسمالية الغربية.

لقد كان لدى العرب الفلسطينيين على غرار الشعوب الأخرى في آسيا وإفريقيا وأستراليا والأمريكتين في أوقات سابقة مجتمع يؤدّي وظيفته جيداً بما فيه الكفاية الذاتية عندما كان وحده، ولكنّه كان غير ملائم أو لم يتكيف في مواجهة هجوم منظم من أوروبا. لقد تم تشتيت الفلسطينيين بعد العام ١٩٤٨ في مختلف أنحاء العالم، وترك جزء منهم في الداخل، وتم تقسيمهم. إن هذا التقسيم أمرٌ غير مألوف ومختلف عن نضالات الشعوب الأخرى ضد الحكم الاستعماري. ففي حالات أخرى مثل الجزائر حُرّم المواطنون الأصليون وعانوا إلا أنّهم ظلوا داخل البيئة الاجتماعية السياسية الموحدة نفسها.

أما اليوم، فإن الفلسطينيين منقسمون ومجزّؤون أكثر من أي وقت مضى، حيث يعيش ١,٥ مليون فلسطيني داخل الخط الأخضر كمواطنين بالاسم فقط، ولكن دون تحقيق المساواة الأساسية أو حقوق المواطنة. والكثير الكثير من قرانا مُستهدفة للتدمير (وهي ما تسمى بالقرى غير المعترف بها) كما حصل حديثاً في الغور والنقب (قرية العراقيب دُمرت ١٢ مرة وهذه مقاومة مشرفة). يعيش ويقاوم ٢٥٠ ألف فلسطيني مهمّشين ومهدّدين في القدس الشرقية. ويعيش ويقاوم ٢,٥ مليون

من الأهل في الضفة الجريحة بين جدران.^{١٥} ويعيش ويقاوم الملايين كلاجئين في البلدان المجاورة وبدرجات متفاوتة من (سوء) المعاملة. لقد أرادت إسرائيل الاستيلاء على الأرض وليس على الشعب ("أقصى حد من المنطقة الجغرافية مع أدنى حد من الديموغرافيا الفلسطينية"). يشعر الكثير من الفلسطينيين بأنه قد تم التخلي عنهم من قبل القيادة التي دعموها وأيدوها في كثير من الأحيان بدمائهم. الفلسطينيون في الضفة الغربية وقطاع غزة يشعرون بالفزع إزاء حالة الانقسام والبلبل. لذا أصبح الكثير من الفلسطينيين أكثر فردية وبدأوا ينسَوْن أحلامهم حول فلسطين. يعود ذلك بشكل مباشر إلى الانقسامات التي نجمت عن أوصلو.

لقد نشأ الهيكل الاجتماعي الفلسطيني في ظل ظروف صعبة للغاية، بحيث انتقل من حكم الإمبراطورية القديمة (الإمبراطورية العثمانية)، وثم وقع في المكائد والدسائس البريطانية، وثم الإمبريالية الأمريكية الداعمة للحركة الصهيونية العنصرية. من المفيد دراسة النسيج الاجتماعي الفلسطيني الذي أدى إلى النجاح والتعامل مع هذه التحديات والعقبات الهائلة.^{١٦} فيجب علينا أيضاً أن نتطور كشعب ونتعلم من تاريخنا. فقد لاحظنا أن التجزؤ السياسي الفلسطيني والمشاحنات قد كان لها إنجازات محدودة خلال الانتفاضات الفلسطينية (في الأعوام ١٩٢١، و١٩٢٩، و١٩٣٦، والسبعينيات، والعام ١٩٨٠، واليوم)، وكيف جاءت هذه الانتفاضات على الرغم من سلبات العشائرية والمحسوبية.^{١٧}

لقد زادت حدة المشاكل بين حركتي فتح وحماس في العامين ٢٠٠٧ و٢٠٠٨. وتتصرف "السلطان" (دون سلطة حقيقية) في قطاع غزة والضفة الغربية أقوى على بعضهم البعض وضعفاء في التعامل مع حراس السجون. كانت الانقسامات المؤسفة نتيجة الاختلافات الأيديولوجية، وأيضاً مُحَصَّلة إستراتيجية لأوصلو. عندما وقعت حركة "حماس" في الفخ نفسه وقرّرت دخول الانتخابات وحصلت على أغلبية في المجلس التشريعي العام ٢٠٠٦، قامت الأنظمة الغربية والعربية المتعاونة بفرض حصار على سكان الأراضي المحتلة على الرغم من دلائل الاعتدال من جانب الحركة.^{١٨}

لسوء الحظ، هنالك ضعف وتفكك اليسار الفلسطيني: لم يضع رؤية للمستقبل أو برنامجاً واضحاً للمقاومة، كما أنه فشل في اتخاذ خطوات جادة لإنهاء الانقسام بين حركتي حماس وفتح، أو حتى وضع برنامج منافس.^{١٩} ولكن أعتقد أيضاً أن يجب عدم المبالغة في تقدير أهمية التطورات المحزنة والمواقف المتصلبة من الذين يتنازعون لقيادة شعب محتل ومُستعمر. كما قال وليد سالم: لا نحتاج إلى إلقاء نظرة على الأداء السياسي في فلسطين بوصفها زجاجة إما نصفها ممتلئ وأما نصفها فارغ.^{٢٠} فقد كان لفلسطين وما زال مجتمعٌ ثائرٌ نابضٌ بالحياة ولا يخاف من التغيير. لا يوجد هناك أي فصيل أو تنظيم دائم في السياسة الفلسطينية. ونستطيع ببساطة العودة والنظر في تتابع حركة المنظمات في تاريخنا الذي يعود إلى عشرينيات القرن الماضي، الأمثلة كثيرة: الجمعيات المسيحية الإسلامية، اللجنة التنفيذية للمؤتمر العربي، حزب الاستقلال، حزب الدفاع، الكتلة، الإصلاح، اللجنة العربية العليا، الكف الأسود، الحزب العربي، حزب الشعب، عصبة التحرير الوطني، جيش الإنقاذ، الجهاد المقدس ... الخ. كما يجب علينا أيضاً أن نتذكر أنه كان هناك حكم ذاتي (وشرطة محلية) تحت الاحتلال البريطاني في عشرينيات القرن الماضي، وأنه تكونت حكومة فلسطينية لم تدم طويلاً في تشرين الأول ١٩٤٨. إن الشيء الوحيد الذي بقي ثابتاً خلال فترات الصعود والهبوط للمنظمات السياسية وخلال تأرجح صعود وهبوط المقاومة المسلحة هو المقاومة الشعبية. وينبع هذا من جذور عميقة ثقافية ولغوية واجتماعية تحدثنا عنها في البداية، ويمكن تلخيصها في حب فلسطين الوطن.

هذا وجاء التغيير الأكثر دراماتيكية وإيجابية في كفاحنا خلال العامين ١٩٨٨ - ١٩٨٧ عندما كانت فلسطين توضع فوق وقبل كل اعتبار فصائلي أو عشائري أو شخصي عند الأغلبية من شعبنا.^{٢١} منذ تلك الحقبة، شهدنا الكثير من الأمثلة حول العمل ضمن فريق، والتضحية، والمقاومة الباسلة، والعطف، والتضامن الذي جعل الحياة صعبة جداً بالنسبة للمستعمرين، وضمان عدم حصولهم على ما جاؤوا من أجله. وأعتقد أنا شخصياً أنه على الرغم من الصعوبات الناتجة عن اتفاقيات أوسلو، فإن التغييرات التي طرأت على مجتمعنا خلال تلك السنوات لا رجعة فيها، ولا سيما بشأن مسألة الاعتماد على الذات. وأجروا على القول

إنَّ أولئك الذين دعموا التحرك نحو العدالة الجزئية العام ١٩٨٨، وفي مدريد، ولاحقاً في أوصلو، كان معظمهم خائفين من تآكل ثقة الجمهور بهم. ولكن الإجراءات التي اتخذت لم تتمكن من استعادة ثقة الجمهور.

للحركة الصهيونية قوةٌ عسكريةٌ وماليةٌ مع دعم القوى العظمى لها (مثل بريطانيا، وفرنسا، والولايات، المتحدة الأمريكية)، إلا أنَّها تعاني من نقاط ضعف كبيرة في مواجهتنا. أولاً، وقبل كل شيء، فقد كان معظم الصهاينة على مدى الثمانية عقود الأولى من البرنامج الصهيوني (١٨٨٠ - خمسينيات القرن الماضي) أوروبيين، وليس لهم سوى اتصال ديني فقط مع فلسطين. كانت لهم فكرة متعصبة أن هذه الأرض ملكٌ "للشعب اليهودي". وكان موقفهم تجاه غير اليهود في البلد ببساطة أنَّ الفلسطينيين الأصليين لا ينتمون إلى "أرض إسرائيل". ولذلك، كان النقل/الترانسفير هو البرنامج السائد الذي شرعت به، وبخاصة بعد أن عين البريطانيون صهيونياً ليحكم فلسطين. ولكن هذا الموقف بحكم طبيعته ولد مقاومة تنمو مع كل عمل من أعمال الاستعمار.

بدأ البرنامج الصهيوني بإقناع اليهود بأنَّهم ليسوا آمنين، ما لم يكن لهم دولة خاصة بهم، وأنَّ الأرض يجب "استعادتها"، وأنَّ السكان الأصليين ما هم إلا "حشرات" تنتشر في هذه الأرض ويجب تطهيرها (نخسايون بالعبرية). وهذا لم يترك أي شك في ذهن الصهاينة الاستعماريين أو الفلسطينيين الأصليين بأنَّ الصراع "وجودي" (إما هم وإما نحن). بعد قيام دولة إسرائيل، أصبح الكثير من اليهود الإسرائيليين أنفسهم يدركون أنَّ هذا النظام غير مستدام، ولا يمكن للفلسطينيين الاختفاء من الوجود، وأنَّ ما قاله بن غوريون في بيانه حول الفلسطينيين "سيموت الكبار وسينسى الصغار" لم يكن سوى تضليل. وما يدل على ذلك هو النمو للحركات المناهضة للصهيونية، أو التي تعتبر نفسها "بعد الصهيونية".

كان هناك نموٌّ سريعٌ في الحركة الصهيونية على مدى العقود، أولاً كمجتمعات يهودية محصنة، وفي ما بعد كقلعة إسرائيل المدججة بالسلاح، ولا يمكن العيش إلا عن طريق السيف أو القبضة الحديدية، ولكن هذا خلق أيضاً مشاكلها في الاعتماد على الحروب من أجل إخضاع أية مقاومة والحفاظ على نظام الفصل العنصري. تطوّرت طبيعة الحرب، ولم تعد إسرائيل تواجه الجيوش النظامية،

ولكن كانت تواجه وبشكل متزايد مقاتلي المقاومة غير الثابتين في مكان واحد، بالإضافة إلى المقاومة الشعبية التي تمتد لوقت طويل وتستنزف الطاقات. لقد كانت الإستراتيجيات التي تبناها السياسيون الإسرائيليون لمواجهة هذه التحديات معقدة (الحديث عنها يتطلب كتاب آخر). كان تركيزي في هذا الكتاب على المقاومة الشعبية التي وقفت ضد العنجهية الإسرائيلية المتزايدة، بما فيها جميع أشكال القهر والظلم والاضطهاد. إن العنف المفرط لقمع المقاومة الفلسطينية خرج بنتائج عكسية في فترات كثيرة، حيث وجد الفلسطينيون أشكالاً جديدة من المقاومة ومزیداً من الهمة.^{٢٢} لقد بيّنت في هذا الكتاب أدلة واضحة لدعم ما ذكره جمال جمعة: "الاختيار الذي يكون كافياً لقلب وتغيير جميع المعادلات هو الشعب الفلسطيني".^{٢٣}

إسرائيل كدولة استعمارية واستيطانية هي عرضة للخطر مع وجود جيش يُعتبر رابع أو خامس أقوى جيش في العالم. ولا تزال الديموغرافيا الفلسطينية ضد الصهيونية العنصرية التي تدعو إلى الحفاظ على نسبة أعلى من ٧٠٪ يهوداً. أظهر الجيش قصوره في حل إشكاليات النظام، على سبيل المثال، ما حدث في لبنان وقطاع غزة في الآونة الأخيرة. وفي عالم مُعولم، فإن اقتصاد إسرائيل عرضة للضغط من الخارج والداخل وفقاً لطبيعة هيكلها غير الطبيعي.^{٢٤} قالت الحركة الفلسطينية للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات:

"إن ما تقوم به إسرائيل مشابه للاقتصاد العنصري في جنوب أفريقيا، وهو الاعتماد على أسواق التصدير والمصادر الثابتة للاستثمار والتمويل الأجنبي. كما تحتفظ إسرائيل أيضاً بالحرف الأساسية التي يمكن تحديدها، والتي قد تكون مُستهدفة. وعلاوة على ذلك، فإنها تعتمد على الدعم من حكومات بلدان شعوبها، متعاطفين مع القضية الفلسطينية، ويسمعون عن نداء المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات ... أما بالنسبة لإسرائيل، فإنه من الواضح أن النظام المغذّي لاستدامتها وإنتاجها سيضعف مع فرض عقوبات إلى استثمار رأس المال والانخفاض في الاستثمارات الأجنبية المباشرة وزعزعة ثقة المستثمرين، في حين كانت إسرائيل تتميز في السابق بعزلتها خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، وكانت تعتمد على التعويضات الألمانية والمساعدات الأميركية لإدارة

العجز. إلا أنها أصبحت اليوم ذات اقتصاد معولم للغاية، وعرضة لتحديات مماثلة لما واجهته جنوب أفريقيا في منتصف الثمانينيات من حركة عالمية جماهيرية تعمل على ترويج الدعوة للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات^{٢٥}.

قوى التطبيع في العالم العربي والخارج قوية، وتم تعزيزها بشكل بارز من قبل اتفاقيات كامب ديفيد العام ١٩٧٨-١٩٧٩، ومن قبل اتفاقيات أوسلو في الفترة ما بين ١٩٩٣-١٩٩٥. لقد قام هذان الحدثان بالتطبيع مع الاحتلال، وترك إسرائيل بتكلفة قليلة للاحتلال. وفي الواقع، استفادت إسرائيل مادياً من احتلال الضفة الغربية وقطاع غزة، ومن حرمان الحقوق الأساسية الأخرى للفلسطينيين، بما في ذلك حق العودة. ولكن أدت الغطرسة إلى زيادة المقاومة التي كانت السمة المميزة لمناهضة السياسات الصهيونية والإسرائيلية. ولكن التغييرات على الساحة العربية (مصر، وتونس، وغيرها) تتسارع بصورة تقلق إسرائيل.

هناك أسباب تدعونا للتفاؤل وليس فقط للتغييرات الإقليمية وعشوية قتل المقاومة بالأسلحة الحديثة^{٢٦}. وتكونت جماعات للمقاومة الشعبية في عشرات القرى والمدن (كما رأينا في الفصل ١٢). من الجدير بالذكر، أن المزيد من التركيز على القيادة الجماعية وتقليل الاعتماد على القادة حدث فقط في السنوات التسع التي مضت. القيادة في الحقوق المدنية أو حركة المقاومة الشعبية غير محصورة في القادة الفرديين الكاريزميين، ولكن في القيادة الجماعية كما رأينا في ثورة مصر، وبالتالي سيتم الحفاظ على حركة شعبية حقيقية^{٢٧}.

حاولت إسرائيل حديثاً سحق المقاومة الشعبية بشكل مكثف، لأنه لم يكن هناك شكل آخر منظم للمقاومة، وإذ دل هذا على شيء فهو يدل على أهمية هذه المقاومة^{٢٨}. فقد علقت الفصائل الفلسطينية المقاومة المسلحة منذ قرّرت حركة "حماس" الدخول في الانتخابات السياسية العام ٢٠٠٦. أظهرت دروس الماضي أنه عندما زادت المقاومة الشعبية كلفة الاحتلال، وأزالت بعضاً من فوائده، وخلقت انقسامات داخل المجتمع الإسرائيلي، وعززت سعينا لتحقيق السلام مع العدالة. حدث ذلك بشكل فعال أكثر ما بين الأعوام ١٩٨٧-١٩٩١. في حين قوّضت اتفاقيات أوسلو هذه التكتيكات، وعملت على إرجاع هذه الإنجازات،

وتعزيز وحدة المجتمع الإسرائيلي فيما يتعلق بإمكاناتهم للوصول إلى "صفقات" تلغي حقوق الشعب الفلسطيني، وتحافظ على السيطرة والتوسع الإسرائيلي في الأراضي المحتلة.

هناك عامل آخر لعب دوراً، ألا وهو أنّ هذا الصراع كان مدوّلاً/معوّلاً أكثر من أي صراع آخر. لم يتم إدارة هذا الصراع فقط من قبل المواطنين والمستعمرين، إنما اشتركت جهات فاعلة قوية منها بريطانيا وفرنسا في الجزء الأول من القرن العشرين، والولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفييتي بعد العام ١٩٤٨، وبطبيعة الحال من قبل البلدان العربية، ومن الجاليات اليهودية في أنحاء العالم. تسببت معظم هذه الجهات بأضرار كبيرة لفلسطين. ولكن التدويل سيف ذو حدين كما رأينا مع وعد بلفور ومع حركة التضامن الدولية.

وجود إستراتيجية سياسية قبل الانخراط في المقاومة اللاعنفية مهمٌ. جميع الانتفاضات (في العام ١٩٢٠ و ١٩٢٩، و ١٩٣٦ ... الخ) بدأت من تلقاء نفسها ودون توجيه أو إستراتيجية ما عدا إقدام الفصائل السياسية في فترات لاحقة أخذ زمام الأمور (عادة لمصالح ضيقة). إنّ التقدّم في المقاومة الشعبية دون وجود إستراتيجية أو توجيه، يعرضها للفشل حتى في أمور صغيرة. ومثال على ذلك عندما طلب حنا سنيورة من سكان القدس الشرقية العربية المشاركة في الانتخابات البلدية، وكان معظمهم مقتنعين بأنّ مثل هذه المشاركة ستضفي شرعية على نظام الضم الإسرائيلي غير القانوني.^{٢٩} دون إستراتيجية واضحة، انقسم المقدسيون وضاعت فرص التعبئة لمقاومة فعّالة.

يتطلّب الكفاح من أجل الحرية، سواء بالوسائل العنيفة أو غير العنيفة، اتصالاً واضحاً داخل الجماعة المضطهدة وخارجها على حد سواء. خلال النضال اللاعنفي، يجب علينا الاتصال بشعبنا، بأولئك الذين اختاروا أن يعيشوا معنا، ومع العالم الخارجي. أيضاً تتطلب القيم الأخلاقية والحكمة بتقييم أساليب المقاومة ووضع أهداف واضحة ومعقولة للمدنيين القريب والبعيد، فبالنسبة لقضية فلسطين، يجب أن تضمن المقاومة في المدى البعيد حق العودة إلى بيوتنا وأراضيها، والحق في العيش في مساواة، والحق في تقرير المصير. هذه أهداف معقولة ومنطقية يمكن شرحها للصديق والعدو. والطريقة للوصول إليها

مهمة، فالغايات لا تبرّر كل الوسائل، والوسائل ترتبط ارتباطاً دقيقاً بهذه النتيجة، لأننا جميعاً يمكن لنا العيش مع بعضنا البعض كبشر. في العام ٢٠٠٥، دعت مؤسسات المجتمع المدني الفلسطيني إلى العمل الذي وُضِحَ مطالب الفلسطينيين العادلة، وطلبت من المجتمع الدولي التضامن والدعم على المنوال نفسه مثلما حدث في النضال ضد الفصل العنصري في جنوب إفريقيا (انظر الفصل الثاني).

ملخص للدروس التي تمت الاستفادة منها

يمكننا أن نستخلص من دراسة تاريخ المقاومة الشعبية في فلسطين وغيرها وبشكل عام ما يلي:

أ- إنّ الأعمال الاستعمارية بطبيعتها تنطوي على استخدام العنف ضد السكان الأصليين، وبخاصة أولئك الناس الذين يتم تجريدهم من أراضيهم وديارهم. وإنّ مثل هذه الحالات الاستعمارية تولد المقاومة التي أصبحت معترفاً بها ومشروعة من قبل القانون الدولي. إنّ تلك المقاومة هي بشكل منحنى التوزيع المعتدل في الرياضيات، الذي يشبه شكل جرس. هناك جزء صغير يُمثل التعاون (الطلب بشكل لطيف وقبول كل ما يتم إعطاؤه لك) وحتى العمالة مع العدو. معظم هذه المقاومة هي شعبية في الوسط. وبعضها عنيف وبعضها عنيف جداً.

ب- يقتل المستعمرون دائماً من السكان الأصليين أكثر من العكس. فعلى سبيل المثال، كان معدل المدنيين الذي لقوا حتفهم في الصراع الفلسطيني الإسرائيلي ١٠ فلسطينيين مقابل إسرائيلي واحد.

ت- لقد حاول بعض المنظرين تصوير الفلسطينيين بأنهم إما أولئك الذين يؤيدون المقاومة العنيفة وإما أولئك الذين يؤيدون اللاعنف، ولكن تشير استطلاعات الرأي إلى أنّ الغالبية من الفلسطينيين يؤيدون الاثنين معاً.^{٣٠} ومنهم من يغير نظرتهم. في عقود من النضال ضد الصهيونية، ظهر التطور الكلاسيكي للمقاومة بأشكالها، كتلك التي شوهدت في الجزائر ضد الفرنسيين، أو في جنوب أفريقيا ضد نظام التمييز العنصري. ربما شاهدنا تنوعاً أكثر بكثير للتكتيكات

الفلسطينية عن تلك الأماكن الأخرى (انظر وصفاً للعشرات من الجماعات والتنظيمات الفلسطينية التي تشكّلت من أجل مقاومة الاستعمار الصهيوني).^{٢١}

ث- كانت المقاومة الشعبية فعّالة جداً في انتزاع الاعتراف بالحقوق الفلسطينية، حتى ولو كان هذا بشكل جزئي في بعض الفترات من التاريخ (كما حدث العام ١٩٣٩، وبعد انتفاضة العام ١٩٨٧).

ج- يقاوم الفلسطينيون من خلال العيش في منازلهم، والذهاب إلى المدرسة، والأكل، والمعيشة. ذلك لأن هذا الاحتلال الاستعماري يريد من جميع الفلسطينيين الاستسلام ومغادرة بلدنا لإعطاء إسرائيل أقصى حد من المساحة الجغرافية، مع إبقاء على أدنى حد لديموغرافيا السكان الأصليين. هي مقاومة عندما يستمر الرعاة الفلسطينيون في قرية عطواني قضاء الخليل مثلاً في الذهاب إلى حقولهم على الرغم من الهجمات المتكررة من قبل المستوطنين، وحتى محاولة تسميم أغنامهم. هي مقاومة في تل الرميّة عندما يمشي الطلاب إلى المدرسة، في حين يتمّ البصق عليهم ويتعرضون للركل والضرب على أيدي المستوطنين والجنود الإسرائيليين. هي مقاومة عندما يقضي الفلسطينيون ساعات عند نقاط التفتيش أو يتخطونها للوصول إلى المستشفيات أو أراضيهم الزراعية، أو عملهم، أو مدارسهم، أو حتى لزيارة أصدقائهم. لقد قاوم الفلسطينيون من خلال العديد من الوسائل الأخرى التي لا حصر لها، والتي ذكرنا منها أمثلة في هذا الكتاب.

ح- إنّ الغالبية العظمى من المقاومة الشعبية تنبع من القاعدة الشعبية. الأحزاب والفصائل والقيادات السياسية عادة لا تتوقع انتفاضة جديدة. وقد تحاول هذه الأطراف استقطاب أو احتواء اللجان الشعبية المقاومة. وبالمقابل، قد تتطوّر حركات المقاومة إلى مبادرات سياسية.

خ- لقد كان هناك منذ البداية صراع بين التيارات التي فضّلت التعاون (وقد يقول البعض التواطؤ) مع المحتل على أمل الحصول على شيء، وتيارات الذين يفضّلون المواجهة وعدم التعاون مع

المحتل. كانت التيارات في إحدى الفترات عشائرية (مثل عائلات النشاشيبي، والدجاني، والحسيني، وعبد الهادي، في عشرينيات القرن الماضي) وأخرى أيديولوجية (مثل الفصائل في أوائل القرن الحادي والعشرين). تعتبر هذه ظاهرة طبيعية للمقاومة ضد الحكم الاستعماري ومحاولة إنهائه. لم يكن هنالك اتجاه تعاون ١٠٠٪، أو عدم التعاون ١٠٠٪ مع المحتل. وكانت هنالك ديناميكية مهمة، وبخاصة بين بعض الفصائل المؤمنة بالبراغماتية، فقد "يحتاج الفلسطينيون إلى [وبالفعل احتجاجاً] القيام بفعل ضمن مواضع مختلفة للسلطة (القائمة حالياً أو التي لم تشكل بعد) من أجل التحقق من قوة قيادتهم السياسية الخاصة والحفاظ على زخم النضال".^{٣٢}

د- لقد كانت هناك دائماً مقاومة شعبية في فلسطين، ولكن في بعض الأحيان كانت تزداد حدة وفي بعض الوقت تضعف بسبب عوامل خارجية وداخلية. ونجد فترات المد والجزر متباعدة من ٩-١٥ سنة كحد متوسط. لقد نجحت هذه الانتفاضات في إحباط الكثير (وليس جميع) البرامج الصهيونية التي تهدف إلى تحويل فلسطين إلى دولة يهودية على حساب الشعب الأصلي.

ذ- على نحو متزايد، وبخاصة في السنوات العشرين الماضية أشركت المقاومة الشعبية الفلسطينية الأجانب بمن فيهم الإسرائيليون في نضالهم.^{٣٣}

ر- لقد تنامت حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات بشكل لوغاريثمي على مدى السنوات القليلة الماضية، وأعطت دلالات كبيرة بالنسبة للمستقبل (الفصل ١٣).

ز- إنّه من غير المفيد وعظ الناس حول التكتيكات والإستراتيجيات، بل إنّه من الأفضل بكثير القدوم والانخراط بالعمل مع حركة المقاومة الشعبية المتزايدة من أجل المساعدة في تعجيل التغيرات التي تحدث بالفعل.

س- يمكن للأفراد تغيير وتبني نمط حياة غير عنفية حتى بعد قضاء سنوات عدة في الانخراط في الكفاح المسلح.^{٣٤}

ش- تتطوّر المجتمعات البشرية نحو اتجاه جعل المواجهة العسكرية أقلّ قبولاً. أصبح الكثير من الناس يعترفون بأنّ القوة لا يمكن أن تستخدم لتحقيق الهيمنة والسيطرة. وأصبحت تكلفة الحرب أيضاً غير مقبولة في عصر وجود القنابل التي تزن طنين، والأسلحة النووية والبيولوجية والكيميائية. إضافة إلى ذلك، فقد أصبح التفوّق العسكري أقلّ احتمالاً لتحقيق النتائج المرجوة من جانب الزعماء السياسيين. ويمكن أخذ المستنقع الذي وقعت فيه الولايات المتحدة الأمريكية في العراق وأفغانستان أو فشل الهجوم الإسرائيلي المكثف على لبنان في صيف العام ٢٠٠٦، وعلى قطاع غزة في كانون الأول ٢٠٠٨، أمثلة على ذلك.

التطلّع إلى الأمام

يظهر التاريخ المذكور أعلاه (والروابط والموارد الملحقّة في نهاية هذا الفصل) أنّ المقاومة الشعبية الفلسطينية تواصل تطورها وتكيفها على الرغم من عقود من القمع العنيف والتطهير العرقي وعقود من التجاهل أو التشهير في وسائل الإعلام الغربية. دراسة التاريخ تفيدنا بالتطلع إلى الأمام ونرى أنّه:

أ) يجب الإعداد الكافي للناشطين: ينبغي توفير الخلفية المعلوماتية الأساسية لجميع المشاركين الرئيسيين. بالتأكيد، فإن قراءة جيدة لتاريخ المقاومة الشعبية تقدّم أمثلة ملهمة تعطي النشاط نظرة أكثر تفاؤلاً. هناك قول مأثور قديم يقول "إنّ المعلومات هي القوة"، واليوم أصبح تبادل المعلومات سهل جداً في عصر الإنترنت.

ب) يجب وضع أهداف واضحة وقابلة للتحقيق: إنّ عدم فهم ما نهدف له، أو وجود أهداف متعارضة داخل مجموعة النشاط، يمكن أن يحبط العمل. ويمكن تجنّب ذلك من خلال الإعداد المبكر والنقاش الهادئ المفيد، لكن في بعض الأحيان لا يمكن تجنّب التجربة والخطأ، إذ يسمح التعرف على أهداف محدّدة لتحقيق النجاح شبه الكامل، وكذلك ضبط وتحسين إنتاجية العمل في الحدث الذي سيأتي. ولا بدّ من النظر في هذه الأحداث باعتبارها لبنات بناء للمستقبل، وأجزاء

من حملة واسعة النطاق. وبالتالي، تكون هناك حاجة لتعريف كل من الأهداف قصيرة المدى والأهداف طويلة الأجل (مثل المساواة، وعودة اللاجئين، وإلغاء القوانين الجائرة) من أجل أن يتفهمها الناشطون الرئيسيون.

(ت) تحديد لمن يتم توجيه العمل: ينبغي على النشاط مناقشة أهدافهم في ما يتعلق بمن هو الجمهور الذي سيتم التحدث إليه. يمكن لجمهور المظاهرات أن يكونوا من المارة أو "السلطات" (بمن فيهم الجنود والشرطة) أو وسائل الإعلام، أو المشاركين في الحدث، أو مزيج منهم جميعهم.

(ث) المحافظة على المنظور المفتوح والسلمي: إن هدفنا هو الإقناع بأن هناك طريقة أخرى لأولئك الذين يعيشون معنا، وأولئك الذين يظلمون غيرهم، والذين يؤيدون الظلم، والذين لا يبالون. هذه ليست مباراة دون تحقيق أي هدف أو لـ "نفس غلنا". هدفنا هو أن ننجح في مقاومتنا بالطرق الإيجابية.^{٣٥}

(ج) الاستعداد للتضحية هو أمر مهم جداً. كما قال عوض: "إن نجح الفلسطينيون بتحرير أنفسهم من الخوف، وقبلوا بجرأة المعاناة والاضطهاد دون خوف أو مرارة أو حتى الرد على ذلك - نجحوا في تحقيق أعظم انتصار للجميع. لقد غزوا أنفسهم، وستكون البقية أسهل بكثير ليتم تحقيقها".^{٣٦}

لا تزال الكلمات التي كتبها جورج أنطونيوس منذ ٧٠ عاماً صحيحة حول الطريق إلى الأمام:

"لا يوجد هناك حل دائم لمشكلة فلسطين كما هو مأمول حتى تتم إزاحة الظلم. إن العنف؛ سواء أكان مادياً أم معنوياً، لا يمكن أن يقدم حلاً ... فهو أيضاً يجعل التفاهم بين العرب والبريطانيين واليهود صعب التحقيق. ومن خلال اللجوء إلى ذلك، فإنه من المؤكد أن العرب جذبوا اهتماماً جدياً لتظلماتهم، حيث فشلت كافة محاولاتهم السلمية في القدس، ولندن، وجنيف على مدى العشرين عاماً للقيام بذلك. ولكن العنف يهزم غاياته الخاصة، وأي مكاسب فورية تنتج عن العنف تضيع جزاء الضرر الذي لا يمكن فصله عن ذلك. ولا شيء

ينتج عن العنف المشتعل في فلسطين غير الضرر الذي لا ينفصل عنه. الطريقة الحكيمة لوضع حد لذلك، هو إزالة الأسباب التي أدت إلى العنف. ويجب أن تواجه الحقيقة بأنّ عنف العرب هو نتيجة طبيعية للعنف الذي تعرّضوا له، وأنّه ليس من المرجح أن يتوقّف مهما كانت وحشية القمع، إلا إذا توقف العنف المعنوي نفسه. بالنسبة لأولئك الذين يتطلعون إلى الأمام خلف ضبابية دخان الخرافات والبروباغندا، فالطريق إلى الحل واضح: إنه يكمن في مسار المنطق السليم العادي والعدالة. ليس هناك مكان لأمة ثانية في بلاد مأهولة بالسكان، أناس يتمتعون بصحة كامل الوعي الوطني، وبحب لمنازلهم وأريافهم لا يقهر“ [التشديد لي].^{٣٧}

بعض الفلسطينيين يقومون باستغلال القضية لمصالح شخصية. ولكن يواصل النشطاء العمل بجد من أجل مستقبل سلمي وعادل وراء الأضواء، وعلى الرغم من ”ضبابية دخان الخرافات والبروباغندا“. كان لي الشرف بالمشاركة مع مئات من هؤلاء الأبطال المجهولين على أرض الواقع، وأراقب توضّحاتهم التي قدّموها، وتواضعهم، وفوق كل ذلك إصرارهم على المضي قدماً على الرغم من كل الصعاب والتحديات. وخسرت البعض منهم الذين استشهدوا مثل صديقنا باسم أبو رحمة. لا يزال إياد برنات وزملاؤه من بلعين يخرجون كل أسبوع للتظاهر ضد جدار الفصل العنصري المقام على أراضيهم. وعلى الرغم من اعتقاله وإصابته بجروح مرات عدة، فإنّه لا يتكلم عن نفسه. وعندما نسأل كيف يمكننا أن نقدّم مساعدة، يقوم بذكر أسماء الأشخاص الذين جرحوا أو سجنوا في الماضي وعائلاتهم التي قد تكون بحاجة للمساعدة، أو ناشط مع ابنه في المستشفى، أو تقديم الدعم في نشر المعلومات. يعمل جورج نمر رشمواوي من بلدة بيت ساحور بجديّة على مبادئ حيث رفض أمام عيني عرضاً مباشراً يبلغ قيمته ٢٠ ألف دولار أمريكي كمساعدات مقدمة من (USAID) للمركز الذي يديره (تقاطعها مؤسساننا لقانون أمريكي مجحف بحقنا). في الاجتماعات، يكون مشغولاً بكتابة التقارير حول المقاومة اللاعنفية لنشرها إلى العالم أجمع من خلال الموقع الإلكتروني (IMEMC.net) بينما يكون منخرطاً في المحادثة والنقاش المنتج. وسألته عما إذا كان قد قضى وقتاً في السجن، فأجاب قائلاً ”لا شيء“ (وجدت أنه أمضى أربعة أشهر في السجن واكتشفت لاحقاً أنه كان لا يزال قاصراً

آنذاك). كما رأيت بأمر عيني سامي عوض يعامل بخشونة، وتم اعتقاله عندما كنا نحتج بشكل سلمي على محاولات المستوطنين الاستيلاء على عش غراب في بيت ساحور. وبعد إطلاق سراحه، وبابتسامة عريضة على وجهه، تحدّث ببساطة عن الخطط المستقبلية لمؤسسة هولي لاند ترست. ويعمل سائد أبو حجلة ليلاً ونهاراً من أجل فلسطين من خلال استخدام تكتيكات عديدة للمقاومة الشعبية، على الرغم من الألم الذي يمرّ به نتيجة فقدانه أمه التي استشهدت برصاص جنود إسرائيليين وهي في منزلها في مدينة نابلس. وتم إطلاق النار عليه واعتقاله، وأصيب بجروح خطيرة، وتعرّض للتعذيب والإذلال على أيدي المحتلّين الاستعماريين. وعندما سُئل كيف يحافظ على اتّزانه وإدراكه مع كلّ المصاعب التي يواجهها، كان يضحك ويحجب عن السؤال بروحه الجيدة وبدعابة بالقول "من قال إننا غير مجانيين". وتحدّثت مروي الشريف من دورا الخليل بأمانة وصدق لمراسل أجنبي يهودي أننا ببساطة نريد حريتنا ونريد السلام، وذلك بعد أن تمت إزالة رصاصة إسرائيلية من دماغها عندما كانت تبلغ من العمر ١١ عاماً. وهناك شجاعة وثقة لبنى مصاروة من كفر قرع، والنائبة حنين زغبى، وكنا آخر من أفرج عنهما من أسطول الحرية.

يمكن للمرء أن يكتب العديد من الكتب من أجل إدراج بعض المئات والآلاف من هذه القصص للأبطال المجهولين في فلسطين. نذكر جمال انتفاضة العام ١٩٨٧، حيث كانت انتفاضة شعبية لا رجعة فيها في القرى والبلدات في جميع أنحاء فلسطين. قدم الفلسطينيون كشعب يرفض أن يموت الملايين من الأبطال والآلاف من الشهداء. ويستمد النشاط على الأرض قوتهم من الدعم من قبل الآلاف من الأفراد في جميع أنحاء العالم. وبطبيعة الحال، كما قال ديزموند توتو:

"أعلم أنّ قول الحقيقة صعب وله عواقب وخيمة على حياة المرء وسمعته. إنّ قول الحقيقة يوسّع آفاق الإيمان عند المرء، ويقوم أيضاً باختبار قدرته على الحب ... لا أحد يأخذ هذا العمل كنزوة مندفة للخير، إنه ليس خياراً، بل يشعر المرء أنّه مضطر إلى ذلك، وليس العمل لبعض الوقت وإنما مدى الحياة - وحتى أكثر من العمر. إنه مشروع أكبر من حياة أي شخص. إنّ هذه النظرة الطويلة هي مصدر تشجيع ومثابرة. إذ أنّ المعرفة بأنّ العمل سبقنا، وسيستمر بعد ذهابنا يعطينا ينبوعاً من الفرح العميق لا يمكن أن تغيّره الظروف".^{٣٨}

في حين أعطي قرّاء هذا الكتاب تاريخاً حول المقاومة الشعبية، إلا أنّه ليس سوى لمحة موجزة في موضوع معقّد وطويل. في نهاية المطاف ومن أجل الشعور بالمقاومة الشعبية في فلسطين، لا بد من تجربتها. تذوّق عشرات الآلاف من الأجانب طعم المقاومة وما يصحبها من مصاعب ومن أتراح وأفراح، وعندها شعروا في ما انخرط فيه الملايين من الفلسطينيين. توجد دائماً أسبقية للتجربة على المعرفة. كما قال شخص حكيم ذات مرة: "المعرفة بلا عمل تعتبر عقيمة". إذا كنّا نعتقد أنّه يجب علينا انتظار الآخرين أن يفعلوا شيئاً لنا، إذن سيكون محكوماً علينا بالفشل كبشر (وليس "كفلسطينيين" و"إسرائيليين" و"أمريكيين"). يمكننا أن نجد بعض الإرشادات المفيدة في خلفياتنا وفلسفتنا وديننا وتقاليدنا الثقافية المختلفة. جاء في الدين الإسلامي، قال تعالى "لا يغيّر الله ما بقوم حتى يغيّروا ما في أنفسهم". يمكننا أن نستلهم بما قام به الملايين من الفلسطينيين على مدى ١٣٠ سنة الماضية والتحدّي الناجح والتصدي للمشروع الصهيوني. وإنّ هذا المشروع الصهيوني الذي يقوم على تحويل فلسطين من مجتمع متعدّد الأعراق والأديان إلى "دولة يهودية" محكوم عليه بالفشل، ليس بسبب هذه المقاومة فحسب، ولكن بسبب تناقضاته الداخلية وعنصريته الواضحة والمتزايدة. لن يكون التاريخ لطيفاً لأي أحد منّا إذا لم نفعل كل ما بوسعنا لتسريع وصول العدالة التي لا مفرّ منها، والتي تحمل في طياتها الثمار الحلوة للسلام.

"أنت تعطي القليل عندما تعطي من ممتلكاتك؛ إنّ ما تعطيه من نفسك هو ما تعطيه حقاً. ألم يكن الحفاظ على أموالك وأغراضك مجرد خوف من أن تحتاج إليها في الغد، وأليس الخوف من العازة هو العازة نفسها" (جبران خليل جبران).

الهوامش

هوامش الفصل الاول

- ¹ Sr. Jesse L. Jackson. *An Open Letter to Yasser Arafat*. National Council of Churches, 05/19/2002 (<http://www.nccusa.org/news/02news50.html>). (Checked September 19, 2009).
- ² http://www.whitehouse.gov/the_press_office/Remarks-by-the-President-at-Cairo-University-6-04-09/ (Checked 23 Dec. 2009).
- ³ See as examples Uri Dan. *To the Promised Land: the Birth of Israel*. New York: Doubleday, 1988; Benjamin Netanyahu. *A Place Among the Nations: Israel and the World*. New York: Bantam Books, 1993; Yaacov Lozowick, *Right to Exist: A Moral Defense of Israel's Wars*. New York: Doubleday, 2003; Howard M Sachar, *A History of Israel: From the Rise of Zionism to Our Time*. New York: Alfred A. Knopf, 2007.
- ⁴ See as examples Philip Khuri Hitti. *History of Syria: Including Lebanon and Palestine*. New Jersey: Georgias Press, 2002; Albert Habib Hourani. *A History of the Arab Peoples*. Cambridge, Massachusetts: Belknap Press of Harvard University Press, 2003; Edward Said. *The Question of Palestine*. London: Vintage Press, 1992; مصطفى مراد الدباغ. ١٩٦٥ (أصلاً ١٩٤٧) *بلادنا فلسطين*. الجزء الأول، بيروت: دار الطليعة القسم الأول. Agustín Velloso de Santistibán. "One Hundred Years of Conflict: A Bibliographical View". *Palestine-Israel Journal*, vol 4, numbers 3/4, 1997.
- ⁵ Johan Galtung. *Nonviolence and Israel/Palestine*. Honolulu: Institute for Peace, University of Hawaii, 1989.
- ⁶ Phil Ackerman, and James Duvall. *A Force More Powerful: A Century of Nonviolence Conflict*. New York: St. Martin's Press, 2000.
- ⁷ Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007.
- ⁸ Joost Hiltermann. "Limitations of Ideology: Review of A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance". *Journal of Palestine Studies*, Jan. 2008, 37(2):pp.108-109.

- ⁹ Heribert Adam and Kogila Moodley. *Seeking Mandela: Peacemaking Between Israelis and Palestinians*. London: UCL Press, 2005.
- ¹⁰ Ruth Margolies Beitler. *The Path to Mass Rebellion: An Analysis of Two Intifadas*. Maryland: Lexington Books, 2004.
- ¹¹ Aimee Ginsburg. "Gandhi's of Olive Country". *Outlook India*, 17 March 2008, pp. 22-28. <http://www.outlookindia.com/article.aspx?236980> (Checked on September 20, 2009).
- ¹² Abdul Jawad Saleh. "The Palestinian Nonviolent Resistance Movement". in Nancy Stohlman and Laurieann Aladin (eds). *Live from Palestine: International and Palestinian Direct Action Against the Israeli Occupation*. Cambridge, MA, South End Press, 2003, pp. 49-52.
- ¹³ حمادة محمد عمر. أعلام فلسطين من القرن الأول إلى الخامس عشر للهجرة، دمشق: دار كتيبة، 1985.
- ¹⁴ Peter Ackerman and Jack Duvall. *A Force More Powerful: A Century of Nonviolence Conflict*.
- ¹⁵ Howard Zinn. *A People's History of the United States*. New York: Harper Perennial, 2003. different than English.
- ¹⁶ Idelbar Avelar. *The Letter of Violence: Essays on Narrative, Ethics, and Politics*. New York: Palgrave Macmillan, 2004.
- ¹⁷ Dale Peterson and Richard Wrangham. *Demonic Males: Apes and the Origins of Human Violence*. New York: Mariner Books and Houghton Mifflin Harcourt, 1997. And compare with the chapters by Frans de Waal and Brian Ferguson in William L. Ury (ed). *Must We Fight?: From the Battlefield to the Schoolyard—A New Perspective on Violent Conflict and Its Prevention*. New York: John Wiley & Sons, 2001.
- ¹⁸ Avelar. *The Letter of Violence*, p. 10.
- ¹⁹ Ran HaCohen. *The Palestinian Gandhi*. Global Research, May 4, 2005, <http://www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=164> (checked 12-23-09).
- ²⁰ Jean-Marie Muller, "Stratégie de l'action non-violente". Translated by Mary Touq. *Harakat Huqook Alnas*, Beirut: Aljmiza, 1999, p. 21.
- ²¹ Stanford Prison Experiment www.prisonexp.org.
- ²² William J. Thomson. *The Case of the Palestinian Nonviolent Direct Action*. July 26, 2002. <https://qumsiyeh.org/thomsonnonnonviolence> (checked September 19, 2009).
- ²³ Paul Virilio. *Pure War: Interviews with Sylvere Lotinger*. New York: Semiotext, 1997, p. 28.
- ²⁴ Robert A. Pape. *Dying to Win: The Strategic Logic of Suicide Terrorism*. New York: Random House, 2005.
- ²⁵ خالد القشطيني. نحو اللاعنف: المقاومة المدنية عبر التاريخ، عمان: دار الكرمل، 1984، ص: 336.

²⁶ المصدر السابق، ص: 23.

²⁷ Munib Younan. *Witnessing for Peace: In Jerusalem and the World*. Minneapolis: Fortress Press, 2003, p. 42.

²⁸ Khalid Kishtainy. "Nonviolence and 'Civilian Jihad'". Common Ground News. <http://www.commongroundnews.org/article.php?id=21078&lan=en&sid=0&sp=1> (Checked September 20, 2009).

هوامش الفصل الثاني

¹ إعلان بابيه. التطهير العرقي في فلسطين. (ترجمة: أحمد خليفة)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٦.

² Hendrik Verwoerd, the architect of apartheid in South Africa stated that "Israel, like South Africa, is an apartheid state". *Rand Daily Mail*, 23 Nov 1961; Uri Davis. *Israel: An Apartheid State*. London: Zed Books, 1987; Marwan Bishara. *Palestine/Israel: Peace or Apartheid: Occupation, Terrorism and the Future*. London: Zed Books, 2002; Desmond Tutu. "Apartheid in the Holy Land". *The Guardian*, 29 April 2002 <http://www.guardian.co.uk/world/2002/apr/29/comment> (Checked September 20, 2009).

³ Letter from Martin Luther king Jr to Jimmy Bishai, 7 January 1957 posted at <http://qumsiyeh.org/martinlutherking> (Checked December 20, 2009).

⁴ Mohandas (Mahatma) Gandhi. "The Jews". *Harijan*, July 21, 1946 and "Palestine". *Harijan*, July 21, 1946 http://www.gandhiserve.org/information/writings_online/articles/gandhi_jews_palestine.html (Checked September 20, 2009).

⁵ David K Shipler. *Arab and Jew: Wounded Spirits in a Promised Land*. New York: Penguin Books, 2002, p. 216; "Former Israeli Army Chief Drowns". *BBC News*, 23 November, 2004. http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/4034765.stm. (checked 22-12-09).

⁶ Amnesty International. "Developing a Human Rights Agenda for Peace". 26 March 2001 <http://www.amnestyusa.org/document.php?id=F631E2C3C616E1FB80256A1C003D4C41&lang=e> Checked September 20, 2009.

⁷ "The Freedom Charter", Adopted at the *Congress of the People*, Kliptown, on 26 June 1955, <http://www.anc.org.za/ancdocs/history/charter.html>. Checked September 20, 2009.

⁸ Mazin Qumsiyeh. *Sharing the Land of Canaan: Human Rights and the Israeli-Palestinian Struggle*. London: Pluto Press, 2004; Mazin Qumsiyeh. "True Peace Based On Human Rights Versus The Endless 'Peace Process' Based On Lies". in Moises Salinas and Hazza Abu Rabia (eds). *Resolving the Israeli-Palestinian Conflict: Perspectives on the Peace Process*. New York: Cambria Press, 2009.

هوامش الفصل الثالث

- ¹ Francis Anthony Boyle. *Palestine, Palestinians and International Law*. Atlanta, GA: Clarity Press, 2003;
عز الدين فودي. الاحتلال الإسرائيلي والمقاومة الفلسطينية في ضوء القانون الدولي العام. بيروت: منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، آب ١٩٦٩.
- ² عز الدين فودي. المرجع نفسه، ص: ١٢٥.
- ³ Hans Lebrecht. *HaPalestinaim - Avar veHoveh (The Palestinians- Past and Present)*. Israel: Tel-Aviv University Publishers, 1987, in Hebrew, page 219, translated by himself and shared over the internet on a list serve of Israelis 3 April 2002 <http://peacepalestine.blogspot.com/2006/06/hans-lebrecht-right-to-resistance.html> (checked 22-12-09)
- ⁴ *Young India*, Quoted from, M. K. Gandhi. *The Collected Works of Mahatma Gandhi*, November 8, 1920, volume 21. New Delhi: Ministry of Information and Broadcasting, Government of India, p. 133-134, cited by Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada And Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 21.
- ⁵ Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada And Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 280.
- ⁶ <http://www.combatantsforpeace.org>, <http://www.refusersolidarity.net/> and <http://www.yeshgvul.org/> (websites checked 3 December 2009).
- ⁷ Henry David Thoreau. *On the Duty of Civil Disobedience*, (original title: *Resistance to Civil Government*, 1849) http://publicliterature.org/books/civil_disobedience/xaap.php (Checked 3 December 2009).
- ⁸ Jr Martin Luther King. *The Papers of Martin Luther King Jr, Volume II: Rediscovering Precious Values*. July 1951-November 1955 http://mlkpp01.stanford.edu/index.php/kingpapers/article/volume_ii_rediscovering_precious_values_july_1951_november_1955/(checked 22-12-09).
- ⁹ جين شارب. في سعد الدين إبراهيم (تحرير). *المقاومة المدنية في النضال السياسي، عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨، ص: ٩-٢٣*.
- ¹⁰ Jonathan Kuttat and Mubarak Awad. "Non-Violent Resistance in Palestine: Pursuing Alternative Strategies". *Information Brief* No. 29, Washington, DC: The Jerusalem Fund.
- ¹¹ خالد القشطيني. *نحو اللاعنف: المقاومة المدنية عبر التاريخ*. عمان: دار الكرمل، ١٩٨٤، ص: ٣٩.
- ¹² Basil H. Liddell Hart. *Defense of the West*. London: Greenwood Publish., 1950, p55.
(من كتاب خالد القشطيني. *نحو اللاعنف، ص: ٢٧*).
- ¹³ Ran Hacothen. "The Palestinian Gandhi". *Global Research*, May 4, 2005: <http://www.globalresearch.ca/index.php?context=va&aid=164> (Checked 22 December 2009).

- ¹⁴ <http://www.qumsiyeh.org/honorlist/> (Checked 3 December 2009).
- ¹⁵ Howard Zinn. *A People's History of the United States: 1492-Present*. New York, Harper Perennial, 2003.
- ¹⁶ "Analysis: Palestinian suicide attacks". *BBC News*, 29 January 2007. http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/3256858.stm (Checked 3 December 2009).

هوامش الفصل الرابع

- ¹ Baylis Thomas. *How Israel was Won: A Concise History of the Arab-Israeli Conflict*. Lanham, Maryland: Lexington Books, 1999, p 3.
- ² سعاد الدجاني. المقاومة المدنية في الضفة الغربية. في المقاومة المدنية في النضال السياسي. تحرير: سعد الدين إبراهيم. عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨، ص: ٨٩.
- ³ Munib Younan. *Witnessing for Peace: In Jerusalem and the World*. Minneapolis: Fortress Press, 2003, pp. 77-78.
- ⁴ محمد أبو النمر. اللاعنّف وصنع السلام في الإسلام، ترجمة: لميس اليحيى، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص: ٤٠.
- ⁵ المصدر السابق، ص: ٧٠.
- ⁶ صحيح مسلم، كتاب الإيمان. دار الوطن، ١٩٩٧. الكتاب الأول، حديث ٧٩.
- ⁷ Mubarak Awad and Dr. Abdul Aziz Said. "The Power of Non Violence". *Nonviolent Change Journal*, Vol. XVII, No.2 Winter, 2003.
- ⁸ أبو النمر، مصدر سبق ذكره، ص ٤٧.
- ⁹ المصدر السابق، ص: ٥٢.
- ¹⁰ Mohammed Abu-Nimer. "Non Violence in the Islamic Context". *Common Ground*, 1 January 2000. <http://www.commongroundnews.org/article.php?id=2095> checked 12-22-09.
- ¹¹ Eknath Easwaran. *A Man to Match His Mountains: Badshah Khan, Nonviolent Soldiers of Islam*. Petaluma, CA: Nilgiri Press, 1984.
- ¹² أبو النمر، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٨-٥٠.
- ¹³ المصدر السابق، ص ٥٠-٥١.
- ¹⁴ المصدر السابق، ص: ٢٣٤-٢٣٥.
- ¹⁵ المصدر السابق، ص: ٢٣٦.

هوامش الفصل الخامس

- ¹ جريدة فلسطين ٢٩ / ٤ / ١٩١٤. انظر أيضاً: عبد الوهاب الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠، ص: ٦٦-٦٧.
- ² Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal. *The Palestinian People: a History*. Cambridge: Harvard University Press, 2003, pp. 8-14.
- ³ Martin Sicker. *Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831-1922*. Westport, CT: Praeger Publishers, 1999, pp. 20-21.
- ⁴ Abd Al-Wahhab Kayyali. *Palestine: a Modern History*. English Version. London: Croom Helm Publishers, 1978, p. 11.
- ⁵ عبد الوهاب الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. جمع وتصنيف. سلسلة الوثائق العامة. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٠، ص: ٣٩.
- ⁶ Mazin Qumsiyeh. *Sharing the Land of Canaan: Human Rights and the Israeli Palestinian Struggle*. London: Pluto, 2004, p. 69.
- ⁷ عوني فرسخ. جذور التحدي والاستجابة في الصراع العربي الصهيوني .. الصراع وقوانينه الضابطة ١٧٩٩-١٩٤٩. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٨، ص: ٨٦-٨٨.
- ⁸ المصدر السابق، ص: ٩١-٩٤.
- ⁹ سلوى العمد. "ملاحم الوضع الاقتصادي والاجتماعي في فلسطين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى". شؤون فلسطينية. ١٩٨١، ص: ١١٤-١١٦.
- ¹⁰ فرسخ، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٣-٢٠٤.
- ¹¹ Martin Sicker. *Reshaping Palestine: From Muhammad Ali to the British Mandate, 1831-1922*. Westport, CT: Praeger Publishers, 1999, p. 29.
- ¹² Beshara Doumani. *Rediscovering Ottoman Palestine: Writing Palestinians into History*, pp.11-40. in Ilan Pappé (ed). *The Israel/Palestine Question*. London: Routledge Publishers, 1999, p. 19.
- ¹³ Rashid Khalidi. *Palestinian Identity: The Construction of Modern National Consciousness*. Columbia University Press, New York, 1997, pp.112-113.
- ¹⁴ مصطفى مراد الدباغ. بلادنا فلسطين. الجزء الأول، القسم الأول. بيروت: دار الطليعة. ١٩٦٥ (أصلاً ١٩٤٧)، ص: ٥١-٥٢.
- ¹⁵ Abdullah S. Schleifer. "The Life and Thought of 'Izz-id-Din al-Qassam: Preacher and Mujahid". *Islamic Quarterly*, 22(2): 61-81, 1979, p. 70.
- ¹⁶ Neville J. Mandel. *The Arabs and Zionism Before World War I*. Berkeley: University of California Press, 1976, pp. 35-37;
- عبد الوهاب الكيالي. مصدر سبق ذكره، ص: ٤١.
- ¹⁷ الكيالي. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٢.
- ¹⁸ Khalidi. *Palestinian Identity* 1997.

- ¹⁹ الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص: ١٨.
- ²⁰ إلياس شوفاني. *الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩)*، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦، ص: ٣٠١.
- ²¹ هنري لامانس. "اليهود في فلسطين ومستعمراتهم". المشرق، بيروت، السنة ٢. ١٨٩٩، ص: ١٠٨٨-١٠٩٤.
- ²² Rashid Khalidi. "Palestinian Peasant Resistance to Zionism before WWI". in Edward W. Said, Christopher Hitchens (eds). *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*. London: Verso, 2001 edition, original 1988, p. 217; and <http://www.palestinemonitor.org/spip/spip.php?article49> checked 12-27-09.
- ²³ Negib Azoury. *Le Reveil De La Nation Arabe dans l'Asie Turque* en présence des intérêts et des rivalités de puissances étrangères, de la curie romaine et du patriarcat oecuménique, parties asiatique de la question d'Orient et programme de La Ligue de la Partie Arabe. Paris: Plon-Nourrit et Cie. Cited in عوني فرسخ. *جذور التحدي والاستجابة في الصراع العربي الصهيوني الصراع وقوانينه الضابطة ١٧٩٩-١٩٤٩*. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ص: ٢٧.
- إلياس شوفاني. *الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩)*. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦، ص: ٣٠١.
- ²⁴ نصري صليبا. "بندلي الجوزي". *فلسطين الثورة ١١/٢/١٩٨٤* وقد أعيد نشره في *جريدة الاتحاد ٢/٣/١٩٨٤*
- ²⁵ Izzat Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine Under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988, pp. 21-23.
- ²⁶ Neville Barbour. *Nisi Dominus: A Survey of the Palestine Controversy*. Beirut: Institute of Palestine Studies, 1969, pp 41-52; cited by King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada And Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p.27.
- ²⁷ Adnan A. Musallam. "From Wars to Nakbeh: Developments in Bethlehem, Palestine, 1917-1949". *Al-Liqa' Journal* (Bethlehem / Jerusalem), Vol. 30 (July 2008). http://admusallam.bethlehem.edu/publications/From_Wars_to_Nakbeh.htm checked 12-27-09
- ²⁸ الكيالي، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٦-٤٧.
- ²⁹ إبراهيم نجم، أمين عقل، وعمر أبو النصر. *جهاد فلسطين العربية*. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٩، ص: ١٦١.
- ³⁰ Gershon Shafir. *Land, Labor and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict, 1882-1914*. Berkeley: University of California Press, 1996, p. 205;
- الكيالي. مصدر سبق ذكره، ص: ٥١-٥٢.
- ³¹ Abd Al-Wahhab Kayyali. *Palestine: a Modern History*. English translation. London: Croom Helm Publishers, 1978, p 22.

- ³² Shafir. *Land, Labor and the Origins of the Israeli-Palestinian Conflict, 1882-1914*, p. 207.
- ³³ شوفاني. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٠٢.
- ³⁴ قسطندي الشوملي. جريدة فلسطين ١٩١١-١٩٦٧: دراسة نقدية وفهرس تاريخي. مركز أبحاث القدس، ١٩٩٢.
- ³⁵ قسطندي الشوملي. جريدة الكرمل ١٩٠٨-١٩٤١: دراسة نقدية وفهرس تاريخي. القدس: مركز اللقاء للدراسات الدينية والتراثية في الأراضي المقدسة. ١٩٩٦، ص: ١١-١٣.
- ³⁶ المصدر السابق، ص: ٤٠.
- ³⁷ Kayyali. *Palestine: A Modern History*, p.24.
- ³⁸ الكيالي. مصدر سبق ذكره، ص: ٦٦-٦٨.
- ³⁹ Rashid Khalidi. "Palestinian Peasant Resistance to Zionism before WWI". in Edward W. Said, Christopher Hitchens (eds). *Blaming the Victims: Spurious Scholarship and the Palestinian Question*. London: Verso, 2001edn, pp. 220-222.
- ⁴⁰ Khalidi. "Palestinian Peasant Resistance" p.235.
- ⁴¹ Farsakh. *Juthoor AlTahaddi*, p. 218.
- ⁴² يوميات أكرم زعيتر (١٩٣٥-١٩٣٩)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٠، ص: ٣٨-٤٠.
- ⁴³ Farsakh. *Juthoor AlTahaddi*, p. 219.
- ⁴⁴ Neville J. Mandel. *Arabs and Zionism Before World War I*. University of California Press, 1976, p. 220.
- ⁴⁵ Khalidi. "Palestinian Peasant Resistance". p.155.
- ⁴⁶ Sarah Graham Brown. *Education, Repression, Liberation: The Palestinians*. WVS(UK), 1984, p.14.
- ⁴⁷ عبد المجيد حمدان. إطلالة على القضية الفلسطينية. رام الله: المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، ٢٠٠٩، ص: ١١٨.

هوامش الفصل السادس

- ¹ Edward Said. *The Question of Palestine*. New York: Vintage Books, 1992, p. 16.
- ² Donald Neff. 'It Happened in November: Britain Issues the Balfour Declaration'. *Washington Report on Middle East Affairs*, October/ November, 1995, pp. 81-82; Ronald Sanders. *The High Walls of Jerusalem: A History of the Balfour Declaration and the Birth of the British Mandate for Palestine*. New York: Holt, Rinehart and Winston, 1983; Samuel Landman, a noted British Zionist, also carefully articulated in 1936 the machination of the leading Zionists on this front <http://desip.igc.org/1939sLandman.htm> (checked 12-27-09).

- ³ Mazin Qumsiyeh. *Sharing the Land of Canaan: Human Rights and the Israeli-Palestinian Struggle*. London: Pluto Press, 2004, p. 146.
- ⁴ فيصل حوراني. جذور الرفض الفلسطيني. رام الله: مواطن؛ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية. ٢٠٠٣، ص: ٣٨. لصيغة هذه المعاهدات المشينة، انظر وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨-١٩٣٩. جمع وتصنيف عبد الوهاب الكيالي. سلسلة الوثائق العامة. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٦٨، ص: ٥-٧.
- ⁵ Izzat Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988, pp. 88-93.
- ⁶ بيان نويهض الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. سلسلة الدراسات ٥٧. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٨٣.
- ⁷ عوني فرسخ. جذور التحدي والاستجابة في الصراع العربي الصهيوني الصراع وقوانينه الضابطة ١٧٩٩-١٩٤٩. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية. ٢٠٠٨، ص: ٣٠١.
- ⁸ الحوت. مصدر سبق ذكره، ص: ٨٦-٨٧.
- ⁹ Weizmann's report cited by Kayyali. *Watha'iq Al-Muqawama Al-Falastiniya Dhid Al-Ihtilal Al-Biritani Wa Al-Sahyuniya 1918-1939 (Documents of the Palestinian Resistance Againsts the British Occupation)*, p. 107.
- انظر أيضاً: فرسخ. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٠٥.
- ¹⁰ الحوت. مصدر سبق ذكره، ص: ٨٠-٨١.
- ¹¹ عبد الوهاب الكيالي. جمع وتصنيف وثائق المقاومة الفلسطينية العربية ضد الاحتلال البريطاني والصهيونية ١٩١٨-١٩٣٩. مصدر سبق ذكره، ص: ٣-٤.
- ¹² Roselle Tekiner, Samir Abed-Rabbo and Norton Mezvinsky (eds). *Anti-Zionism: Analytical Reflections*. New York: Amana Books, 1988.
- ¹³ President Woodrow Wilson speech on Independence Day, July 4, 1918, text in Izzat Tannous, *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine Under British Mandate*, p. 72.
- ¹⁴ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ١١٠.
- ¹⁵ Adnan Musallam. "Turbulent Times in the Life of the Palestinian Arab Press: The British Era, 1917 -1948". *Al-Liqa' Journal*, Vol. 31 (December 2008). http://admusallam.bethlehem.edu/publications/Turbulent_Times.htm checked 12-27-09
- ¹⁶ Izzat Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988, pp.84-85.
- ¹⁷ Abd Al-Wahhab Kayyali. *Palestine: a Modern History*. English translation. London: Croom Helm Publishers, 1978, p. 75-76, p. 84; Yeheshua Porath. "The Emergence of the Palestinian-Arab National Movement". Vol. 1, 1918-1929, London: Frank Cass, 1974, p. 86, cited in Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p.31;
- انظر أيضاً: الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث، ص: ١٢١.

- ¹⁸ الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. مصدر سبق ذكره، ص: ١١٩-١٢٠.
- ¹⁹ المصدر السابق. ص: ١٢٠-١٢١. انظر أيضاً:
Akram Zueiter, p.65.
- ²⁰ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، ص: ٣١٤-٣١٨.
- ²¹ Herbert Samuel. *Memoires*. London: Crescent Press, 1945, p. 168; Cited in:
انظر أيضاً: فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سابق، ص: ٣٢٥.
- ²² فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سابق، ص: ٣٢٢.
- ²³ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث، مصدر سابق، ص: ٨٦. انظر أيضاً: فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سابق، ص: ٣٢٥. انظر أيضاً:
Ellen Fleischmann. *Jerusalem Women's Organizations During the British Mandate: 1920s-1930s*. Jerusalem: Palestinian Academic Society for the study of International Affairs- PASSIA, 1995, p.21.
- ²⁴ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، ص: ٣٢٦.
- ²⁵ المصدر السابق، ص: ٣٣٨-٣٣٥.
- ²⁶ King. *A Quiet Revolution*, p. 33.
- ²⁷ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سابق، ص: ٣٣.
- ²⁸ إبراهيم نجم، أمين عقل، وعمر أبو النصر (١٩٣٦). *جهاد فلسطين العربية*. أعيد نشره من قبل مؤسسة الدراسات الفلسطينية ٢٠٠٩، ص: ١٦٩. انظر أيضاً:
May Seikaly. *Haifa: Transformation of a Palestinian Arab Society, 1918-1939*. London: I. B. Taurus, 1995, pp. 163-164.
- ²⁹ Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal. *The Palestinian People: a History*. Cambridge: Harvard University Press, 2003, pp. 84-85.
- ³⁰ دافيد هيرست. *البندقية وغصن الزيتون: جذور العنف في الشرق الأوسط*. ترجمة: عبد الرحمن إياس. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ٢٠٠٣، ص: ١٤٣-١٤٤.
- ³¹ صالح مسعود بويصير. *جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن*. منشورات وزارة الثقافة الفلسطينية. ١٩٨٧، ص: ١٢٠. الكرمل، ٥/٤/١٩٢١، عدد ٧٠٤، ص: ١.
- ³² الكرمل، ٥/٤/١٩٢١، عدد ٧٠٤، ص: ٢.
- ³³ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ١٤٣.
- ³⁴ بويصير. *جهاد شعب فلسطين*، مصدر سبق ذكره، ص: ١٢١.
- ³⁵ الكرمل، ٥/٤/١٩٢١، عدد ٧١٢، ص: ٢.
- ³⁶ Izzat Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988, p. 117.
- ³⁷ الكرمل ١٨/٥/١٩٢١، عدد ٧١٦، ص: ٣.

³⁸ بويصير. جهاد شعب فلسطين. مصدر سبق ذكره، ص: ١٢٥. انظر أيضاً:

Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine under British Mandate*, p. 120.

³⁹ الكرمل، ١١/٦/١٩٢١، عدد ٧٢١، ص: ٢.

⁴⁰ الكرمل، ٢٣/٧/١٩٢١، عدد ٧٣٣، ص: ٣.

⁴¹ الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. مصدر سبق ذكره، ص: ١٤٨.

⁴² فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٨٥-٣٨٦. انظر أيضاً: إبراهيم نجم، أمين عقل، ... مصدر سبق ذكره، ص: ٧٩.

⁴³ هارون هاشم رشيد. أبو جلدة والعرميط ياما كسروا برانيط. عمان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، ٢٠٠٦.

⁴⁴ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٤٨.

⁴⁵ Chaim Weizmann. *Trial and Error: The Autobiography of Chaim Weizmann*. New York:Harper, 1949. p. 360.

⁴⁶ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٥٣-٣٦٨.

⁴⁷ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ١٦٦.

⁴⁸ الياس شوفاني. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي (منذ فجر التاريخ حتى سنة ١٩٤٩)، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٦، ص: ٥٢٥-٤٢٧. انظر أيضاً: Neil Caplan. "The Yishuv, Sir Herbert Samuel, and the Arab Question in Palestine 1921-25" in Elie Kedourie and Sylvia Kedourie (eds). *Zionism and Arabism in Palestine and Israel*. London:Frank Cass and Co., 1982, p. 37.

⁴⁹ شوفاني. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٢٧.

⁵⁰ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٧١.

⁵¹ انظر مقابلة شفيق الحوت مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية:

<http://www.palestine-studies.org/files/pdf/mdf/6338.pdf.in>

⁵² فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٨٠-٣٨٤.

⁵³ Yossi Schwartz. "Arabic-Jewish Joint Struggles Prior to the Partition of Palestine". http://www.marxist.com/MiddleEast/arab_jewish_struggles1.html, checked 12-27-09 <http://www.zen12064.zen.co.uk/books.htm>, checked 12-27-09

⁵⁴ Musa Budeiri. *The Palestine Communist Party 1919-1948*. London: Ithaca Press, 1979; "The Communist Movement in Palestine 1919-1949". Written: January 2003 modified April, 2007, http://321ignition.free.fr/imp/en/ana/pag_003/pag.htm checked 27-12-09

⁵⁵ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٢٧.

- ⁵⁶ Peel Commission Report, July 1937, p. 79. Available at <http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsourc/History/peel1.html>.
- ⁵⁷ Philip Mattar. *The Mufti of Jerusalem: Al-Haj Amin al-Hussaini and the Palestinian National Movement*. New York: Columbia University Press, 1988, p. 17.
- ⁵⁸ P. H. H Massy. *Eastern Mediterranean Lands: Twenty Years of Life, Sport, and Travel*. London: George Routledge and Son, 1928, p. 70 cited in King. *A Quiet Revolution*, p. 36.
- انظر أيضاً: شوفاني. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٣٠.
- ⁵⁹ الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨. مصدر سبق ذكره، ص: ٢١١.
- ⁶⁰ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٧٧-٣٧٨.
- ⁶¹ بويصير. جهاد شعب فلسطين. مصدر سبق ذكره، ص ١٤٩-١٥١. انظر أيضاً: علي محافظة. الفكر السياسي في فلسطين: من نهاية الحكم العثماني حتى نهاية الانتداب البريطاني ١٩١٨-١٩٤٨، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠.
- ⁶² الكيالي. وثائق المقاومة الفلسطينية العربية... مصدر سبق ذكره، ص: ٦٧-٦٨.
- ⁶³ فيصل حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية .. بحث في المؤتمر السنوي الثاني للمفاوضات والمقاومة: البحث عن مقاربة جديدة. رام الله: بدائل: المركز الفلسطيني للإعلام والأبحاث والدراسات، ٢٠٠٨.
- ⁶⁴ Freud's Letter to Dr. Chaim Koffler Keren HaYassod, Vienna: 26 February 1930; posted at the Freud Institute in UK website: <http://www.freud.org.uk/education/blog/40082/the-arab-israeli-conflict/>
- ⁶⁵ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٦.
- ⁶⁶ Vincent Sheean. *Personal History*. Garden City, New York: Doublday, Doran, and Coman Inc., 1935; Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*, p. 120.
- ⁶⁷ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٠٧.
- ⁶⁸ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ٢٠٦.
- ⁶⁹ فلسطين. ٩ آب ١٩٣٠ العدد ١٢٢-١٥٠٢، ص: ٣.
- ⁷⁰ فلسطين. ٢٧ آب ١٩٣٠ العدد ١٣٧-١٥١٧، ص: ٣.
- ⁷¹ Julie M. Peteet. *Gender in Crisis: Women and the Palestinian Resistance Movement*. New York: Columbia University Press, 1992, pp. 42-36. wrong -46.
- ⁷² Matiel E. T. Mogannam. *The Arab Women and the Palestine Problem*. London: Herbert Joseph Ltd., 1937.
- ⁷³ King. *A Quiet Revolution*, p. 89.
- ⁷⁴ إبراهيم نجم، أمين عقل. جهاد فلسطين العربية. مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٤-١٧٥.
- ⁷⁵ Mogannam. *The Arab Women and the Palestine Problem*, p. 76.

⁷⁶ King. *A Quiet Revolution*, p. 91.

⁷⁷ Mogannam. *The Arab Women and the Palestine Problem*, p 79, p. 83.

⁷⁸ شبطاي تفت. بن غوريون وعرب فلسطين. لندن: جامعة أكسفورد، ١٩٨٥. النسخة العربية ترجمة: غازي السعدي. عمان: دار الجليل. ١٩٨٧.

⁷⁹ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤١٨-٤٢٠. انظر أيضاً: بويصبر. جهاد شعب فلسطين. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٩٧.

⁸⁰ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ٢٢٤-٢٢٥. انظر أيضاً: Sir John Hope Simpson. "Palestine: Report on Immigration, Land Settlement and Development". Great Britain: *Parliament Publication*, Volume 3686 of Cmd Palestine, the British Mandate, H.M.S.O, London, 1930.

⁸¹ فيصل حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية. مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٦. انظر أيضاً:

Tannous, *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine*, p. 166.

⁸² فلسطين. ٢٩/٦/١٩٣٠، العدد ١٤٦٧-٨٧، ص: ٢٠.

⁸³ فيصل حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية. مصدر سبق ذكره، ص: ١١٣-١١٤.

⁸⁴ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٢٨. انظر أيضاً: بويصبر. جهاد شعب فلسطين، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٧.

⁸⁵ الكيالي. تاريخ فلسطين الحديث. مصدر سبق ذكره، ص: ٢٣٤-٢٣٥.

⁸⁶ محافظة. الفكر السياسي في فلسطين...، مصدر سبق ذكره، ص: ٦٠.

⁸⁷ Peel Commission Report, July 1937, p. 79. Available at <http://www.jewishvirtuallibrary.org/jsourc/History/peel1.html>

⁸⁸ محافظة. الفكر السياسي في فلسطين...، مصدر سبق ذكره، ص: ١٠٩.

⁸⁹ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٥٤.

⁹⁰ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine*, p. 170.

⁹¹ الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٨٣.

⁹² فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٥٥.

⁹³ الكيالي. وثائق المقاومة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٥٩-٢٦١.

⁹⁴ محافظة. الفكر السياسي في فلسطين...، مصدر سبق ذكره، ص: ٦٧.

⁹⁵ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٤٥-٤٤٦.

⁹⁶ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine*, pp. 172-173.

⁹⁷ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة. مصدر سبق ذكره، ص: ٤٥٧-٤٦٣.

⁹⁸ حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية. مصدر سبق ذكره، ص: ١٨٢.

هوامش الفصل السابع

- ¹ Nathan Weinstock. *Le Zionisme - Contra Israel*. Paris: Maspero. 1969 cited in Ghassan Kanafani. *The 1936-39 Revolt in Palestine*. New York: Committee for a Democratic Palestine, 1972 and London: Tricontinental Society, 1980. Kanafani's book is perhaps the best book on the conditions that led to the 1936-1939 revolt.
- ² عودة الأشهب. صفحات من الذاكرة الفلسطينية. رام الله: جامعة بيرزيت. ١٩٩٩، ص: ١٢.
- ³ بوبصير. جهاد شعب فلسطين خلال نصف قرن. مصدر سبق ذكره، ص: ١٩٨.
- ⁴ يوميات أكرم زعيتر، (١٩٣٥-١٩٣٩). بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية. ١٩٨٠، ص: ١٠٩.
- ⁵ فلسطين. ٢٣ أيار ١٩٣٠. العدد ١٤٤٤-٦٨، ص: ٣.
- ⁶ Susan Boyle. *The Betrayal of Palestine: The Story of George Antonius*. Boulder, Colorado: Westview Press, 2001.
- ⁷ George Antonius. *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. London: Intl Book Centre, 1938, reprinted 1985, p 406.
- ⁸ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٥٣٠-٥٣١.
- ⁹ المصدر السابق، ص: ٥٣١.
- ¹⁰ Kalkas. "Revolt of 1936", p.248, cited in Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 50.
- ¹¹ إبراهيم نجم، أمين عقل، وعمر أبو النصر. جهاد فلسطين العربية، مصدر سبق ذكره، ص: ١٨٩. انظر أيضاً: فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٥٣٣.
- ¹² المصدر السابق، ص: ١٨٦.
- ¹³ الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٤١-٣٤٢.
- ¹⁴ إبراهيم نجم. جهاد فلسطين العربية. مصدر سبق ذكره، ص: ١٨٩.
- ¹⁵ Edwin Black. *The Transfer Agreement: The Untold Story of the Secret Pact Between the Third Reich and Jewish Palestine*. New York: Macmillan, 1984; and Lenni Brenner. *51 Documents: History of the Nazi-Zionist Collaboration*. New York: Barricade Books, 2002.
- ¹⁶ Taysir Jbara. *Palestinian Leader, Hajj Amin al-Husayni, Mufti of Jerusalem*. Princeton, NJ: Kingston, 1985.
- ¹⁷ Zueiter. *Diaries of Akram Zueiter (1935-1939)*, p101.
- ¹⁸ إبراهيم نجم. جهاد فلسطين العربية، مصدر سبق ذكره، ص: ١٩٠.
- ¹⁹ المصدر السابق، ص: ١٩٧.
- ²⁰ المصدر السابق، ص: ٣٧٨.

- ²¹ Ted Swedenburg. *Memories of Revolt: The 1936-1939 Rebellion and the Palestinian National Past*. Little Rock: University of Arkansas Press, 2003, p. 18; Horani, p. 315-317;
- انظر أيضاً: سميح حمودة. الوعي و الثورة: دراسة في حياة وجهاد الشيخ عز الدين القسام. القدس: جمعية الدراسات العربية، ١٩٨٦.
- ²² إميل توما. ستون عاماً على الحركة القومية العربية الفلسطينية. بيروت: دار ابن رشد، ١٩٧٨، ص: ١٢٠-١٢١.
- ²³ فيصل حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية .. بحث في المؤتمر السنوي الثاني للمفاوضات والمقاومة: البحث عن مقاربة جديدة. رام الله: بدائل: المركز الفلسطيني للإعلام والأبحاث والدراسات. ٢٠٠٨، ص: ٣٣٥.
- ²⁴ حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية. مصدر سبق ذكره، ص: ٣٣٩-٣٤٠.
- ²⁵ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٦٢٩.
- ²⁶ المصدر السابق، ص: ٦٣٤.
- ²⁷ “France-Palestine 70 Years of Resistance”, <http://azls.over-blog.com/>, and Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine* p. 191.
- ²⁸ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٥٥٥-٥٥٦.
- ²⁹ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine*, p. 186.
- ³⁰ Ann Mosely Lesch. “Zionism and Its Impact”. 1 August 2001, <http://www.palestineremembered.com/Acre/Palestine-Remembered/Story452.html> checked 12-27-09.
- ³¹ Ann Mosely Lesch. *Arab Politics in Palestine, 1917-1939: The Frustration of a Nationalist Movement*. Ithaca and London: Cornell University Press, 1979, pp.217-221; Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine*, p. 233.
- ³² نضال محمد الهندي. أضواء على نضال المرأة الفلسطينية ١٩٠٣-١٩٩٢، عمان: دار الكرمل، ١٩٩٥، ص: ٢٤.
- ³³ Rashid Khalidi. “The Palestinians and 1948: The Underlying Causes of Failure”. pp. 12-36 in E. L. Rogan and A. Schlaim (eds). *The War for Palestine: Rewriting the History of 1948*. Cambridge, U.K.: Cambridge University Press. 2001.
- ³⁴ Hiba Lama. “Nonviolence is not a Synonym for Negotiation”. 2 Oct 2008 PNN http://english.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=3660&Itemid=27 checked 13 Aug 2009
- ³⁵ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٥٦٤-٥٦٥.
- ³⁶ عبد المجيد حمدان. إطلالة على القضية الفلسطينية المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، ٢٠٠٩، ص: ١٢٢.
- ³⁷ لأسباب ذكرها فيصل حوراني. قراءة نقدية لتاريخ المقاومة الفلسطينية. ٢٠٠٨، ص: ٣٦٩-٣٧٢.

- ³⁸ Jonathan Dimbleby. *The Palestinians*, Photographs by Donald McCullin, London: Quartet Books Limited, 1979, p. 82.
- ³⁹ Mohommed Fadhel Jamali, (Former Prime Minister of Iraq). "Experiences in Arab Affairs 1943-1958". Web published <http://physics.harvard.edu/~wilson/Fadhel.html> last checked 27 July 2009
- ⁴⁰ Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 57.
- ⁴¹ Ilan Pappé. *A History of Modern Palestine: One Land, Two Peoples*. Cambridge, U.K.: Cambridge University Press, 2006, p. 88.

هوامش الفصل الثامن

- ¹ Izzat Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History of Palestine under British Mandate*. New York: I.G.T. Company, 1988, p. 396.
- ² الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٦٩.
- ³ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٧٠٤.
- ⁴ حوراني. جذور الرفض الفلسطيني، مصدر سبق ذكره، ص: ٣٩٥-٣٩٠.
- ⁵ حمدان. إطلالة على القضية الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص: ٩٠.
- ⁶ Tannous. *The Palestinians*, p. 386.
- ⁷ PASSIA Palestinian Personalities http://www.passia.org/palestine_facts/personalities/alpha_a.htm checked 1 December 2009.
- ⁸ عماد غياظة. الحركة الطلابية الفلسطينية: الممارسة والفاعلية، رام الله: مواطن؛ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ٢٠٠٠، ص: ٢٤. انظر أيضاً: مهند مصطفى. الحركة الطلابية العربية الفلسطينية، أم الفحم: مركز الدراسات المعاصرة، ٢٠٠٢.
- ⁹ Baruch Kimmerling, Joel S. Migdal. *The Palestinian People: a History*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003, p. 35.
- ¹⁰ عودة الأشهب. صفحات من الذاكرة الفلسطينية، رام الله: جامعة بيرزيت، ١٩٩٩، ص: ١١٨.
- ¹¹ عدنان الصباح. "بصد ما ينبغي تعلمه". صوت الوطن. انظر أيضاً: موسى البديري. تطور الحركة العمالية في فلسطين، بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨١.
- ¹² الحوت. القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين ١٩١٧-١٩٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٨٠.
- ¹³ فرسخ. جذور التحدي والاستجابة، مصدر سبق ذكره، ص: ٧٨٣-٧٨٤.
- ¹⁴ محافظة. الفكر السياسي في فلسطين، مصدر سبق ذكره، ص: ٩٢-٩٩.

¹⁵ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*. pp. 387-388.

¹⁶ عبد الله التل. كارثة فلسطين – مذكرات عبد الله التل قائد معركة القدس، القاهرة: دار القلم للطباعة والنشر، ١٩٥٩.

¹⁷ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*, p. 431.

¹⁸ Mohommed Fadhel Jamali, Former Prime Minister of Iraq. "Experiences in Arab Affairs 1943-1958", Web published <http://physics.harvard.edu/~wilson/Fadhel.html> last checked 27 July 2009.

¹⁹ مذكرات المناضل بهجت أبو غربية .. من النكبة إلى الانتفاضة (١٩٤٩-٢٠٠٠)، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٥، ص: ١٤٥.

²⁰ إعلان بابه، التطهير العرقي في فلسطين، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٧.

²¹ Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*, p. 464.

²² A copy of the declaration is in Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*, p. 487.

²³ نضال محمد الهندي. أعضاء علي نضال المرأة الفلسطينية ١٩٩٢-١٩٠٣، مصدر سبق نشره، ص: ٣٤-٣٥.

²⁴ Joshua Landis. "Syria in the 1948 Palestine War: Fighting King Abdullah's Greater Syria Plan". in Eugene Rogan and Avi Shlaim (eds). *Rewriting the Palestine War: 1948 and the History of the Arab-Israeli Conflict*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001, pp. 178-205.

²⁵ Avi Shlaim. *Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement and the Partition of Palestine*. New York: Columbia University Press, 1988; Tannous. *The Palestinians: Eyewitness History*.

انظر أيضاً: عبد الله التل. كارثة فلسطين، مصدر سبق ذكره.

²⁶ <http://www.palestineremembered.com>

²⁷ Orayb Aref Najjar. "Portraits of Palestinian Women' Salt Lake City", 1992, p.30 quoted by Maria Holt. *Half the People: Women, History of the Palestinian Intifada*. Jerusalem: PASSIA, 1992, p.26.

²⁸ Avi Shlaim. *Collusion across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement and the Partition of Palestine*. New York: Columbia University Press, 1988;

انظر أيضاً: عبد الله التل. كارثة فلسطين، مصدر سبق ذكره.

هوامش الفصل التاسع

- ¹ See Nur Masalha. *Expulsion of the Palestinians: The Concept of "Transfer" in Zionist Political Thought, 1882-1948*. Washington, DC: Institute for Palestine Studies, 1992; Ilan Pappé. *The Ethnic Cleansing of Palestine*. Oxford, UK: Oneworld, 2006.
- ² Public Record office, FO 371104778/, General Glubb, "Note on Refugee Vagrancy", quoted in Benny Morris. *Israel's Border Wars 1949-1956*. London: Oxford University Press, 1997, p.37.
- ³ For example, see orders issued by Israel's southern command cited in Morris, *Israel's Border Wars*, pp. 125, 129, 132.
- ⁴ David McDowall. *The Palestinians: the Road to Nationhood*. London: Minority Rights Group Publications, 1995.
- ⁵ عارف العارف. النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود، بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر، ١٩٥٦.
- ⁶ Elia Zureik. *The Palestinians in Israel: A Study in Internal Colonialism*. London: Routledge and Megan Paul, 1979.
- ⁷ جبريل محمد، واصف نزال. فلسطينيو ٤٨: نضال مستمر ١٩٤٨-١٩٨٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٣.
- ⁸ صبري جريس. العرب في إسرائيل. دراسات فلسطينية ١٤، منظمة التحرير الفلسطينية - مركز الأبحاث، ١٩٦٧، ص: ١٤٣-١٤٥.
- ⁹ المصدر السابق، ص: ١٣٩.
- ¹⁰ المصدر السابق، ص: ٩٥.
- ¹¹ Sami Khalil Mar'i. *Arab Education in Israel*. New York: Syracuse University Press, 1978.
- ¹² Laurence Louër. *To be an Arab in Israel*. Revised edition by London: C. Hurst, 2007, p 48.
- ¹³ جبريل محمد، واصف نزال. فلسطينيو ٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٦.
- ¹⁴ قسطندي الشوملي. "مدخل إلى الأدب الفلسطيني في المثلث والجليل". في كتاب الأدب الفلسطيني في المثلث والجليل، بيت لحم: مركز الأبحاث. دائرة اللغة العربية. جامعة بيت لحم، ٢٠٠٧، ص: ١٤.
- ¹⁵ Elia Zureik. *The Palestinians in Israel: a Study in Internal Colonialism*. London: Routledge and Kegan Paul Ltd., 1979, p. 172.
- ¹⁶ جبريل محمد. واصف نزال. فلسطينيو ٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٥.
- ¹⁷ المصدر السابق، ص: ٥٠.
- ¹⁸ جريس. العرب في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص: ١٤٠.
- ¹⁹ جبريل محمد، واصف نزال. فلسطينيو ٤٨. مصدر سبق ذكره، ص: ٥٣.

²⁰ المصدر السابق، ص: ٥٥-٥٦.

²¹ Otesky-Lazar 1996. "Crystallization of Mutual Relations Between Arabs and Jews in the State of Israel in the first Decade 1948-1958". PhD thesis, University of Haifa (In Hebrew)

ذكر في: أسعد غانم. ومهند مصطفى. الفلسطينيون في إسرائيل .. سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية، رام الله: مدار؛ المركز الفلسطيني للدراسات الإسرائيلية. ٢٠٠٩، ص: ٣٢.

²² جريس. العرب في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص: ١٨٨.

²³ Zureik. *The Palestinians in Israel: a Study in Internal Colonialism*. p. 172.

²⁴ أسعد غانم، ومهند مصطفى. الفلسطينيون في إسرائيل .. سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية، مصدر سبق ذكره، ص: ١٥٥. انظر أيضاً: جبريل محمد. واصف نزال. فلسطينيو ٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٦.

²⁵ عودة الأشهب. صفحات من الذاكرة الفلسطينية، مصدر سبق ذكره، ص: ٢٦٥-٢٦٦.

²⁶ جريس. العرب في إسرائيل، مصدر سبق ذكره، ص: ٧٤-٧٥.

²⁷ جبريل محمد، واصف نزال. فلسطينيو ٤٨، مصدر سبق ذكره، ص: ٤٣.

²⁸ Ian Lustik, 1982. *Arabs in the Jewish State*. Austin:University of Texas Press, p. 127-128.

انظر أيضاً: مهند مصطفى. الحركة الطلابية العربية الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

²⁹ مهند مصطفى. الحركة الطلابية العربية الفلسطينية، مصدر سبق ذكره.

³⁰ David McDowall. *Palestine and Israel: the Uprising and Beyond*. London:IB Tauris, 1989, p. 127.

³¹ Zureik. *The Palestinians in Israel: a Study in Internal Colonialism*. p. 123.

³² Laurie A. Brand. *Palestinians in the Arab World: Institution Building and the Search for State*, New York:Columbia University Press, 1988 (Arabic Version, Beirut: Institute of Palestine Studies1991, pp. 71-72).

³³ شحادة موسى. "حول تجربة الإتحاد العام لطلبة فلسطين". شؤون فلسطينية، العدد ٥. تشرين الثاني، ١٩٧١، ص: ١٨١.

³⁴ المصدر السابق، ص: ١٨٢.

³⁵ Avi Shlaim. *Collusion Across the Jordan, King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*. New York: Columbia University Press, 1988, p. 139; Avi Shlaim. *The Politics of Partition: King Abdullah, the Zionist Movement, and Palestine*. Oxford: Oxford University Press, 1990.

³⁶ Avi Plascov. "The Palestinians of Jordan's Border". in Roger Owen (ed). *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*. Carbondale and Edwardsville: The Southern Illinois University Press, 1982. p. 203-242 and p.208-210.

³⁷ أحمد شقيري. أربعون عاماً في الحياة العربية والدولية. بيروت: دار النهار، ١٩٦٩: www.ahmad-alshukairy.org

هوامش الفصل العاشر

- ¹ Mubarak E. Awad. "Non-Violent Resistance: A Strategy for the Occupied Territories". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 13, No. 4, (Summer, 1984), pp. 22-36.
- ² Bob Hepburn. "Wiped off the Map: Park Funded by Canadian Jews Hides Ruins of Arab Villages". *Toronto Star*, Oct 6, 1991.
- ³ Stuart A. Cohen and Efraim Inbar. "A Taxonomy of Israel's Use of Force". *Comparative Strategy*, 1991, 10:129.
- ⁴ David Dean Shulman. *Dark Hope: Working for Peace in Israel and Palestine*. Chicago: The University of Chicago Press, 2007, p. 2.
- ⁵ Rashid Khalidi. *Palestinian Identity: The Construction of Common National Consciousness*. New York: Columbia University Press, 1998; Ramzi Suleiman. "On Marginal People: the Case of Palestinians in Israel". in John Bunzi and Nenjamin Beit-Halahmi (eds). *Psychoanalysis, Identity and Ideology*. Norwell, MA: Kluwer Academic Publishers, 2002. pp. 71-84.
- ⁶ جبريل محمد، واصف نزال. **فلسطينيو ٤٨: نضال مستمر ١٩٤٨-١٩٨٨**، مصدر سابق. ص: ٨٠، ١٢٨-١٣١.
- ⁷ المصدر السابق، ص: ٨٢.
- ⁸ أسعد غانم ومهند مصطفى. **الفلسطينيون في إسرائيل .. سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية**، مصدر سابق، ص: ١٥٨-١٥٩.
- ⁹ المصدر السابق، ص: ١٧٢-١٧٣. انظر أيضاً: جبريل محمد، واصف نزال، **فلسطينيو ٤٨**، مصدر سابق، ص: ١٣٣-١٣٤.
- ¹⁰ أسعد غانم ومهند مصطفى. **الفلسطينيون في إسرائيل**، مصدر سابق، ص: ١٦٦-١٦٨.
- ¹¹ سعيد جواد. **النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل ١٩٧٤-١٩٧٨**، بيروت: دار ابن خلدون، ١٩٨٢. انظر أيضاً: إميل توما. **ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية**، بيروت: دار ابن رشد، ١٩٧٨، ص: ٣١٠.
- ¹² Ahmad H. Sa'di. "The Koenig Report and Israeli Policy Towards the Palestinian Minority, 1965-1976: Old Wine in New Bottles". *Arab Studies Quarterly*, Summer, 2003.
- ¹³ جبريل محمد. **فلسطينيو ٤٨**، مصدر سابق، ص: ٨٦-٨٧، ١٠٨-١٠٩.
- ¹⁴ المصدر السابق، ص: ٨٣-٨٤.
- ¹⁵ المصدر السابق، ص: ٨٩.
- ¹⁶ المصدر السابق، ص: ٩٤-٩٥، ١٥٨-١٥٩.
- ¹⁷ المصدر السابق، ص: ٩٦-٩٧.

- ¹⁸ David McDowall. *Palestine and Israel: the Uprising and Beyond*. London: IB Tauris, 1989, p. 149.
- ¹⁹ Laurence Louër. *To be an Arab in Israel*. Revised edition by London: C. Hurst, 2007. p. 60.
- ²⁰ Louër. *To be an Arab in Israel*, p. 62.
- ²¹ Baruch Kimmerling, Joel S. Migdal. *The Palestinian People: A History*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2003, p. 203.
- ²² <http://www.palestineonly.net/vb/archive/index.php/t-2786.html> (Checked 31 Dec 2009).
- ²³ Hatim Kanaaneh. *A Doctor in Galilee: The Life and Struggle of a Palestinian in Israel*. United Kingdom: Pluto Press, 2008, p xiii.
- ²⁴ Susan Nathan. *The Other Side of Israel: My Journey Across the Jewish/Arab Divide*. Random House , 2005.
- ²⁵ Amir S. Cheshin, Bill Hutman, Avi Melamed. *Separate and Unequal: The Inside Story of Israeli Rule in East Jerusalem*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1999, p. 62;

انظر أيضاً:

- Meron Benvenisti. *Jerusalem: The Torn City*. Jerusalem: Books on Demand , 1976, pp. 216-217; Anne Latendresse. *Jerusalem: Palestinian Dynamics, Resistance, and Urban Change*. Jerusalem: Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, 1995, pp. 27-28; Meir Margalit. *Discrimination in the Heart of the Holy City*. International Peace and Cooperation Center, 2006, <http://ipcc-jerusalem.org>
- ²⁶ Anne Latendresse. *Jerusalem: Palestinian Dynamics, Resistance, and Urban Change*. Jerusalem: Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, 1995, p. 30.
- ²⁷ Meron Benvenisti. *Jerusalem: The Torn City*. Jerusalem: Books on Demand , 1976, p. 166.
- ²⁸ Michael Dumper. "Jerusalem's Infrastructure: Is Annexation Irreversible?". *Journal of Palestine Studies*, 1993, 22(3): pp.78-95.
- ²⁹ Ibrahim Dakkak. "Vivre a Jerusalem". *Revue D'etudes Palestiniennes*, 1983, pp. 87-122 Cited in Anne Latendresse. *Jerusalem: Palestinian Dynamics, Resistance, and Urban Change*. Jerusalem: Palestinian Academic Society for the Study of International Affairs, 1995, p. 34.

³⁰ جهاد أحمد دكور. المرأة الفلسطينية قبل النكبة، بيروت: مطبعة نيو برس، ٢٠٠٩.

³¹ نضال محمد الهندي. أضواء على نضال المرأة الفلسطينية، مصدر سابق، ص: ٤٤.

³² جيفري أرونسون. سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية وإسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة، مصدر سابق، ص: ٦٠.

- ³³ Eileen Kuttub and Nida Abu Awwad. "Developments in the Palestinian Women's Movement". pp. 55-64 in Yasser Akawi, Gabriel Angelone and Lisa Nesson(eds). *From Communal Strife to Global Struggle: Justice for the Palestinian People*. Alternative Information Center Publication. 2004
- ³⁴ نضال محمد الهندي. أضواء على نضال المرأة الفلسطينية، مصدر سابق، ص: ٣٢.
- ³⁵ أرونسون. سياسة الأمر الواقع، مصدر سابق، ص: ٦٣.
- ³⁶ Zahira Kamal. "Institution Building in the West Bank". in Suha Sabbagh. *Survey of the Literature of Palestinian Women*. Washington, D.C.: West Bank and Gaza Technical Support Project, 1994 ; Orayb Najjar and Kitty Warnock. *Portraits of Palestinian Women*. Salt Lake City: Salt Lake City University Press, 1992, Indiana University Press, 1995.
- ³⁷ وقائع المؤتمر السنوي الخامس لمؤسسة مواطن: الحركة النسائية الفلسطينية: إشكالية التحول الديمقراطي وإستراتيجيات مستقبلية، رام الله: مواطن؛ المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ١٩٩٩.
- ³⁸ Jerusalem Post 30 August, 1967 as cited by Ann Mosely Lesch. *Israel's Occupation of the West Bank: the First Two Years*. Advanced Research Projects Agency, 1970, p 50.
- انظر أيضاً: توماس سيمرلنغ. إمكانيات قيام حركة لاعنفية في الضفة الغربية في المقاومة المدنية في النضال السياسي، تحرير: سعد الدين إبراهيم. عمان: منتدى الفكر العربي، ١٩٨٨، ص: ١١٥.
- ³⁹ أرونسون. سياسة الأمر الواقع، مصدر سابق، ص: ٦٠.
- ⁴⁰ *Journal of Palestine Studies*, 9:187-189, Fall 1973.
- ⁴¹ Ghassan Kanafani. *Men in the Sun and Other Palestinian Stories*. London: Heinemann Educational Books, 1978.
- ⁴² Olga Kapeliouk. "The Palestinian Universities Under Occupation". *Arab Studies Quarterly*, 1985, 7:88-91; Emile F. Sahliyeh. *In Search of Leadership: West Bank Politics Since 1967*. Washington, DC :The Brookings Institution, 1988, pp. 133-135.
- ⁴³ Salim Tamari. "What the Uprising Means". in Zachary Lockman and Joel Beinin (eds). *Intifada: The Palestinian Uprising Against the Israeli Occupation*. Boston, MA: South End Press, 1989, p.131.
- ⁴⁴ Yusif A. Sayigh. "The Palestinian Economy Under Occupation: Dependency and Pauperization". *The Journal of Palestine Studies*, 1988, 15(4):52-58;
- انظر أيضاً: سعيد جواد. النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل ١٩٧٤-١٩٧٨، مصدر سابق، ص: ٩٠-٩١.
- ⁴⁵ سعيد جواد. النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل ١٩٧٤-١٩٧٨، مصدر سابق، ص: ١٢٠.
- ⁴⁶ محمد أبو النمر. اللاعنّف وصنّف السلام في الإسلام، ترجمة: لميس اليحيى، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧، ص: ١٨٦.

- ⁴⁷ سعيد جواد. النهوض الوطني الفلسطيني في الضفة وغزة والجليل ١٩٧٤-١٩٧٨، مصدر سابق، ص: ١٥٨-١٦٥.
- ⁴⁸ Seán MacBride. "International Commission to Enquire into Reported Violations of International Law By Israel During Its Invasion of the Lebanon 1983", in Robert Fisk. *Pity the Nation: The Abduction of Lebanon*, New York: Nation Books, 2002.
- ⁴⁹ McDowall. *Palestine and Israel: the Uprising and Beyond*, p. 103.
- ⁵⁰ ارونسون. سياسة الأمر الواقع، مصدر سابق، ص: ٢٠٤.
- ⁵¹ المصدر السابق، ص: ٢٠٧.
- ⁵² توماس سيمرلنغ. إمكانيات قيام حركة لاعنفية في الضفة الغربية، مصدر سابق، ص: ١١٥.
- ⁵³ يعقوب الأطرش. ٧٥ عاماً في قطار العمر. الجزء الأول، مطبعة الأندلس. ٢٠٠٨، ص: ٩٨-١٠٥.
- ⁵⁴ المصدر السابق، ص: ١١٤-١٢٢.
- ⁵⁵ Mustapha Barghouti. "Popular/Mass Movement in the Community". *Journal of Palestine Studies* 2 (1): 126, 1989 <http://www.pmr.ps.checked> 1209-28-
- ⁵⁶ سري نسبية الذي ألفه بالاشتراك مع ديفيد انتوني. في بلد ما: حياة فلسطيني. نيويورك: فارار، وستراوس، وجيرو، ٢٠٠٧، ص: ١٨٩-١٩٦.
- ⁵⁷ غابي بارامكي. "التعليم الجامعي الفلسطيني تحت الاحتلال". مجلة فلسطين-إسرائيل، المجلد ٣، العدد ١، ١٩٩٦.
- ⁵⁸ ارونسون. سياسة الأمر الواقع. مصدر سابق، ص: ٢١٠.
- ⁵⁹ أسعد عبد الرحمن، نواف الزرو. الانتفاضة: مقدمات .. وقائع .. تفاعلات .. وآفاق، مصدر سابق، ص: ٤٣.
- ⁶⁰ David McDowall. *Palestine and Israel: the Uprising and Beyond*. London: IB Tauris, 1989, p. 101.
- ⁶¹ نسبية. في بلد ما، مصدر سابق، ص: ١٩٧-١٩٩.
- ⁶² Said K. Aburish. *Cry Palestine: Inside the West Bank*. Colorado and Oxford: Westview Press, 1993
- ⁶³ Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada And Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007 p. 78-79.
- ⁶⁴ مجموعة من الباحثين. الانتفاضة مبادرة شعبية: دراسة لأدوار القوى الشعبية، مصدر سبق ذكره، ص: ٤١٣.
- ⁶⁵ Madiha Rashid Al Madfai. *Jordan, the United States, and the Middle East Peace Process, 1974-1991*. U.K: Cambridge University Press, Cambridge Middle east Library, 1993, p. 123.

- ⁶⁶ محمد خالد الأزعر. المقاومة الفلسطينية بين غزو لبنان والانتفاضة. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص: ٥٢.
- ⁶⁷ Peter Kandela. "Israel: Complaints about Treatment of Detainees". *The Lancet*, 29 Oct., 1988, p. 10121013-.
- ⁶⁸ Hillel Schenker. "Dialogue: Israelis and Palestinians in Jerusalem". *New Outlook*, Vol 27, May 1984.
- ⁶⁹ سيمرلنغ. إمكانيات قيام حركة لاعنفية في الضفة الغربية، مصدر سبق ذكره، ص: ١١٥.
- ⁷⁰ Shaul Ephraim Cohen. *The Politics of Planting: Israeli Palestinian Competition for Control of the Land in the Jerusalem Periphery*. Chicago: The University of Chicago Press, 1993, pp. 133-148..
- ⁷¹ Mubarak E. Awad. "Non-Violent Resistance: A Strategy for the Occupied Territories". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 13, No. 4, Summer 1984, pp. 22-36
- ⁷² King. *A Quiet Revolution*, p. 140.
- ⁷³ King. *A Quiet Revolution*, p. 137.
- ⁷⁴ King. *A Quiet Revolution*, p. 142-143.
- ⁷⁵ King. *A Quiet Revolution*, p. 146-147; Robert Hirschfield. "Practicing Nonviolence on the West Bank". *Christian Century*, 8 October, 1986, p. 853.
- ⁷⁶ Virginia Tilley. "Israel Authority Breaks a Promise: Uproots New Saplings". *Al-Fajr*, 31 January 1986.
- ⁷⁷ Victor Schonfeld and Jennifer Millstone (directors). *Shattered Dreams*. British Cinema and ITV, 1986, cited by King. *A Quiet Revolution*, pp. 151-152.
- ⁷⁸ Saida Hamad. "Families Demand Reunion". *AlFajr*, 21 June 1987.
- ⁷⁹ King. *A Quiet Revolution*, p. 145, pp. 156-157.
- ⁸⁰ Andy Court. "Landmark High Court Ruling: Award Deportation Is Legal". *Jerusalem Post*, June 6, 1988.
- ⁸¹ Robert Holmes. "Nonviolence and the Intifada". in Laurence F. Bove and Laura Duhan Kaplan (eds). *From the Eye of the Storm: Regional Conflicts and the Philosophy of Peace*, 1995. New York: Rodopi, 1995, pp. 209-248.
- ⁸² King. *A Quiet Revolution*, p. 160-161. see also Jonathan Kuttub and Mubarak Awad. "Non-Violent Resistance in Palestine: Pursuing Alternative Strategies". *Information Brief* No. 29, of the Jerusalem Fund, <http://www.thejerusalemfund.org/carryover/pubs/20020329ib.html>. reports cannot be found 12-28-09.
- ⁸³ سيمرلنغ. إمكانيات قيام حركة لاعنفية في الضفة الغربية. مصدر سبق ذكره، ص: ١١٤.
- ⁸⁴ الأزعر. المقاومة الفلسطينية بين غزو لبنان والانتفاضة. مصدر سبق ذكره، ص: ٥٥-٥٦.
- ⁸⁵ القدس. العدد ٦٢٣٨ / ١ / ١٩٨٧، ص: ٣.
- ⁸⁶ القدس. العدد ٦٢٣١ / ١ / ١٩٨٧، ص: ٤.

⁸⁷ القدس. العدد ٦٣١٠ / ٢٢ / ٣ / ١٩٨٧، ص: ٤.

⁸⁸ R. Scott Kennedy. "The Druze of the Golan: A Case of Nonviolent Resistance". *Journal of Palestine Studies*, 1984, 13(2): pp.48-64.

⁸⁹ القدس. العدد ٦٣١٤ / ٣١ / ٣ / ١٩٨٧، ص: ٧.

هوامش الفصل الحادي عشر

¹ Edward Said. "Intifada and Independence". in Zachary Lockman, Joel Beinin (eds). *Intifada: the Palestinian Uprising against Israeli Occupation*. Washington, Middle East Research and Information Project, 1989, p.20.

² Ghassan Andoni. "A Comparative Study of Intifada 1987 and Intifada 2000". in Roane Carey (ed). *The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid*. London and New York: Verso, 2001, p. 209; Helena Cobban. *The Palestinian Liberation Organization: People, Power, and Politics*. New York: Cambridge University Press, 1984, p. 257.

³ Report on "The Commission of Inquiry into the Methods of Interrogation of the Special Security Service in Regard to Hostile Terrorist Activity". October, 1987, Para 4.7.

⁴ Lisa Taraki. "Mass Mobilization in the West Bank", in Naseer Aruri (ed). *Occupation: Israel over Palestine*. Association of Arab-American University Graduates, 1989; Souad Dajani. *The Intifadah*. Amman, Center for Hebraic Studies, 1990, p.124; Ralph E Crow, Philip Grant, and Saad E. Ibrahim. *Arab Nonviolent Political Struggle in the Middle East*. L. Rienner Publishers, Boulder, 1990; Michael Hudson. *The Palestinians: New Directions*. Washington, DC: Georgetown University, Center for Contemporary Arab Studies, 1990, pp.268.; and references cited below.

⁵ أعمال مؤتمر عمان (١٥-١٨ تشرين الثاني ١٩٨٦) نشرت بعنوان: "المقاومة المدنية في النضال السياسي"، وحررها سعد الدين إبراهيم، صدرت عن منتدى الفكر العربي في عمان، ١٩٨٨.

⁶ Souad Dajani, "Civilian Resistance under the Israel Occupation: The West Bank". Paper Presented at the *Conference on Nonviolent Political Struggle*, November 15-17, 1986, Amman, Jordan.

انظر أيضاً: عبد الفتاح الجبوسي. فلسطين المحتلة ١٩٨٥-١٩٨٧: الصمود والتحدى، عمان: دار الكرمل، ١٩٨٨، ص: ١٢.

⁷ القدس. العدد ٦٥٠٢ / ٤ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.

⁸ القدس. العدد ٦٥٠٧ / ٩ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.

⁹ القدس. العدد ٦٥٠٩ / ١١ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.

¹⁰ القدس. العدد ٦٥١١ / ١٣ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.

¹¹ القدس. العدد ٦٥١٣ / ١٥ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.

- ¹² القدس. العدد ١٦٦٥ / ١٨ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ¹³ القدس. العدد ٢٧٦٥ / ٢٩ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ¹⁴ القدس. العدد ٢٨٦٥ / ٣٠ / ١٠ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ¹⁵ القدس. العدد ٥٩٦٥ / ٣٠ / ١١ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ¹⁶ القدس. العدد ٦١٦٥ / ٢ / ١٢ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ¹⁷ القدس. العدد ٦٩٦٥ / ١٠ / ١٢ / ١٩٨٧، ص: ١. انظر أيضاً:
Glenn Frankel. *Beyond the Promised Land: Jews and Arabs on a Hard Road to a New Israel*. New York: Touchstone Press, 1996 p. 42-44.
- ¹⁸ Patrick White. *Children of Bethlehem: Witnessing the Intifada*. Flower Wright Books, 1989, pp. 45-47.
- ¹⁹ Chris Wood. 'Where will the Revolt End'. *McClean's*, April 18, 1988, p. 23, in Mary E. King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 7.
- ²⁰ Al-Haq, Law in the Service of Man. *Punishing a Nation: Human Rights Violations During the Palestinian Uprising. December 1987-December 1988*. Boston, South End Press, 1990.
- ²¹ القدس. العدد ٧٥٦٥ / ١٧ / ١٢ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ²² القدس. العدد ٩١٦٥ / ١ / ١٩٨٨، ص: ١.
- ²³ *Maariv*, 22 December 1987 cited in:
القدس. العدد ٨٢٦٥ / ٢٣ / ١٢ / ١٩٨٧، ص: ٤.
- ²⁴ القدس. العدد ٨١٦٥ / ٢٢ / ١٢ / ١٩٨٧، ص: ١.
- ²⁵ جبريل محمد، واصف نزال. *فلسطينيو ٤٨: نضال مستمر ١٩٤٨-١٩٨٨*، مصدر سبق ذكره، ص: ١٧٩-١٨٠.
- ²⁶ مجموعة من الباحثين. *الانتفاضة مبادرة شعبية: دراسة لادوار القوى الاجتماعية*، نشرت بدون ناشر. مكتبة جامعة بيت لحم. ١٩٩٠، ص: ٤٣٠-٤٣١.
- ²⁷ عبد الجبار عدوان. *الانتفاضة على طريق الاستقلال الفلسطيني: أنياب الخروف*، لندن، ١٩٨٨، ص: ١١. انظر أيضاً: ربيعي المدهون. *الانتفاضة الفلسطينية: الهيكل التنظيمي وأساليب العمل*، عكا: مؤسسة الثقافة الفلسطينية، ١٩٨٩.
- ²⁸ Helena Cobban. "The PLO and the Intifada". in Robert Owen Freedman (ed). *The Intifada: It's Impact on Israel, the Arab World, and the Superpowers*. Gainesville: Florida International University Press, 1991, pp70-106.; Sari Nusseibeh. "A True Peoples' Revolution". *Middle East International*, 15 December, 1989, p. 15, interviews with Jad Ishaq, Sari Nusseibeh and others conducted 2009.
- ²⁹ Shaul Mishal, and Reuben Aharoni, 1994. *Speaking Stones: Communiques from the Intifada Underground*. Syracuse, NY: Syracuse University Press, p. 340; Jeffrey Aronson, 1990.

- ³⁰ King. *A Quiet Revolution*. based on interview with Muhammad Jadallah, p. 214.
- ³¹ King. *A Quiet Revolution*, p.216.
- ³² Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, p. 211.
- ³³ محمد خالد الأزعر. المقاومة الفلسطينية بين غزو لبنان والانتفاضة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٠، ص: ٣٤٠.
- ³⁴ White. *Children of Bethlehem*, p. 112.
- ³⁵ Amal Jamal. *The Palestinian National Movement: Politics of Contention: 1967-2005*. Bloomington, Indiana University Press, 2005, p. 75. (The Shabiba led activism as in other places around the world); Lonnie R. Sherrod. *Youth Activism: An International Encyclopedia*, Volume 2, Westport, CT, Greenwood Press , 2006, pp. 449-453.
- ³⁶ King. *A Quiet Revolution*, pp. 116-119.
- ³⁷ King. *A Quiet Revolution*, p. 118.
- ³⁸ Eric Goldstein. "Prison Conditions in Israel and the Occupied Territories". *Human Rights Watch*, 1991.
- ³⁹ Anthony Lewis. "When Silence Comes". *New York Times*, Sept 4, 1988.
- ⁴⁰ Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal. *The Palestinian People: a History*. Cambridge, MA:Harvard University Press, 2003, p. 366.
- ⁴¹ *AlQuds Newspaper*, issue 6595, 5 January 1988, p. 1.
- ⁴² "The Palestinians Fourteen Demands". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 17, No. 3, Spring, 1988, pp.63-65.
- ⁴³ جيفري ارونسون. سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية: إسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة. ترجمة: حسني زينة، بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ١٩٩٩، ص: ٣٤٤.
- ⁴⁴ عبد الجبار عدوان. الانتفاضة على طريق الاستقلال الفلسطيني: أنياب الخوف، مصدر سبق ذكره، ص: ٩٧.
- ⁴⁵ Patrick White. *Children of Bethlehem: Witnessing the Intifada*. Leomionster, UK: Gracewing, 1989, p. 89.
- ⁴⁶ Yossi Melman and Dan Raviv. *Behind the Uprising: Israelis, Jordanians, and Palestinians*. New York, Greenwood Press, 1989. p.238.
- ⁴⁷ Glenn Frankel. *Beyond the Promised Land: Jews and Arabs on a Hard Road to a New Israel*. New York: Simon and Shuster, 1994, pp. 52-53.
- ⁴⁸ Ghassan H. Andoni. "Non-Violent Tax-Resistance in Beit Sahour". Palestinian Center for Rapprochement between People. August 1993, pp 28; جبرائيل الشوملي. التجربة العصبانية في بيت ساحور. القدس: مركز الزهراء للدراسات والأبحاث، ١٩٩١ and interviews with the key people in the tax revolt including Elias Rishmawi, Ghssan Andoni, Jad Ishaq and others.

- ⁴⁹ Patrick White. *Children of Bethlehem: Witnessing the Intifada*. Leomionster, UK: Gracewing, 1989, p.66.
- ⁵⁰ أرشيف مركز التقارب بين الشعوب. بيت ساحور، ١٩٨٩.
- ⁵¹ Rapprochement Mass Activities, August 1993, The Palestinian Centre for Rapprochement Between People.
- ⁵² Ghassan H. Andoni. "Non-Violent Tax-Resistance In Beit Sahour". *Palestinian Center for Rapprochement Between People*. August 1993.
- ⁵³ "Israeli Bailiffs Enlisted to Crush Palestinian Tax Revolt: Refusal to Pay Rates Turns 'Christian Triangle' into Symbol of Resistance". *The Guardian*, 20/10/1989.
- ⁵⁴ "Envoys Turned Back on Road to Beit Sahour". *The Globe and Mail*, 7 October 1989, p. A9; "Israeli Troops Bar Western Envoys". *Los Angeles Times*, 6 October 1989, p. 1.
- ⁵⁵ مقابلة مع يعقوب الأطرش ١٩/١١/٢٠٠٨ ومع جاد اسحق وإلياس رشموي ٨/٢٠٠٩. ومراجع من الثورة البيضاء في المدينة المتمردة - حقل الرعاة، عزت دراغمة، ١٩٩٠.
- ⁵⁶ الشعب والقدس. ١٥/١٠/١٩٨٩.
- ⁵⁷ "U.S. Vetoes UN Resolution that Israel Return Property Seized in Tax Revolt". *The [Montreal] Gazette*. 8 November 1989, p. A14.
- ⁵⁸ عزت دراغمة. الثورة البيضاء في المدينة المتمردة - حقل الرعاة، ١٩٩٠.
- ⁵⁹ Elias Rishmawi speech at *Fifth International Conference on War Tax Resistance and Peace Tax Campaigns* - Hondaribia, Spain 1994 http://www.cpti.ws/conf/9494/pg/fri_aft.html checked 15 November 2008.
- ⁶⁰ Patrick White. *Children of Bethlehem: Witnessing the Intifada*. Leomionster, UK: Gracewing, 1989, pp. 64-66.
- ⁶¹ Martha Diase. "Profiles of Israelis and Palestinians". in Elizabeth Warnock Fernea and Mary Evelyn Hocking(eds). *Israelis & Palestinians: The Struggle for Peace*. Austin:University of Texas Press, 1992, pp. 210-211.
- ⁶² George Martin and James Manney. "Tax Strike for Justice: Report from Beit Sahour; Building Autonomy". *Commonweal*, 117, no 2, January 1990, p. 38.
- ⁶³ Anne Grace. "The Tax Resistance at Bayt Sahur". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 19, No. 2, Winter, 1990, pp. 99-107.
- ⁶⁴ Said K. Aburish. *Cry Palestine: Inside the West Bank*. Colorado and Oxford: Westview Press, 1993, p. 100.
- ⁶⁵ Said K. Aburish. "A licence to Visit Mr. Jesus". *The Forgotten Faithful: The Christians of the Holy Land*. London: Quartet Books, 1993, p. 31.
- ⁶⁶ Sami Khalil Mar'i. *Arab Education in Israel*. New York: Sracuse University Press, 1978, p. 10.

- ⁶⁷ World Universal Service, JMCC, 1989, "Palestinians: Education Denied". in Sami Khalil Mar'i (ed). *Arab Education in Israel*. New York: Syracuse University Press, 1978, p 9.
- ⁶⁸ Ian Black. "Confusion Spreads as West Bank Leaders Squabble Over Strike". *The Guardian*, 26 May 1988, p. 9.
- ⁶⁹ John B. Quigley. *Palestine and Israel: a Challenge to Justice*. North Carolina: Duke University Press, 1990, p. 203.
- ⁷⁰ Kenneth Kaplan. "Intifada Could go on Indefinitely". *Jerusalem Post*, 8/7/1988, انظر أيضاً: المدهون. الانتفاضة الفلسطينية: الهيكل التنظيمي وأساليب العمل، مصدر سابق، ص: ٥١.
- ⁷¹ Glenn Frankel. *Beyond the Promised Land: Jews and Arabs on a Hard Road to a New Israel*. New York: Simon and Schuster, 1994, p. 120.
- ⁷² Nada Abdel Samad. *Ayyam Al Hijara*. a book of transcripts of Sawt Alshaab radio interviews that included 50 Palestinian grassroot leaders, Beirut, Lebanon: Dar Al-Faraby, 1989, p. 118.
- ⁷³ Said K. Aburish. *Cry Palestine: Inside the West Bank*. Westview Press, 1993, p. 125.
- ⁷⁴ Dan Izenberg. "Israel Outlaws Arab Committees". *The Commercial Appeal*, 19 Aug. 1988.
- ⁷⁵ *Jerusalem Post*, 26/1/1988.
- ⁷⁶ Glenn Frankel. *Beyond the Promised Land: Jews and Arabs on a Hard Road to a New Israel*. p.75.
- ⁷⁷ "عامان من الانتفاضة في الإحصاءات الفلسطينية والإسرائيلية". دراسات فلسطينية. شتاء ١٩٩٠، ص: ١٧٣-١٧٧.
- ⁷⁸ Brian K. Barber. "Palestinian Children and Adolescents During and After the Intifada". *Palestine-Israel Journal*, 4(1), 1997, pp.23-33.
- ⁷⁹ John T. Duclge, M.D. "Seeing the Light: Unhealthy Occupation". *The Washington Report on Middle East Affairs*, July 1988, p. 28.
- ⁸⁰ King. *A Quiet Revolution*, p258.
- ⁸¹ أسعد عبد الرحمن، نواف الزرو. الانتفاضة: مقدمات .. وقائع .. وتفاعلات .. وآفاق. بيروت: مؤسسة الأبحاث العربية. ١٩٨٩، ص: ١٦٤-١٦٦.
- ⁸² Gila Svirsky. *Standing for Peace: A History of Women in Black in Israel*, 1996, Chapter 4 available on <http://www.gilasvirsky.com/wib4.html> available in Arabic here http://www.maaber.org/issue_november08/non_violence1_a.htm
- ⁸³ *Faisal Hussein Foundation* http://www.fhfpal.org/Faisal/fcull_e.htm; King, p165-175; Father Raed Awad Abusahlia. *Faysal el-Husseini: The Palestinian Gandhi*. published in Maaber, 7th issue, http://www.maaber.org/eighth_issue/el_huseyni_en.htm available in Arabic at http://www.maaber.org/eighth_issue/el_huseyni_ar.htm

- ⁸⁴ Levi Morai. "The Intifada: the True Cost". *Al Hamishmar*, quoted by: المدهون. الانتفاضة الفلسطينية: الهيكل التنظيمي وأساليب العمل، مرجع سابق، ص: ٨٣-٨٤.
- ⁸⁵ محمود عباس "أبو مازن". طريق أوسلو: موقع الاتفاق يروي الأسرار الحقيقية للمفاوضات، بيروت: شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ١٩٩٤، ص: ٨٧.
- ⁸⁶ المصدر السابق، ص: ١٥٢.
- ⁸⁷ King. *A Quiet Revolution*. p. 268.
- ⁸⁸ King. *A Quiet Revolution*. p. 269.
- ⁸⁹ Salah Khalaf (Abu Iyad), 1990. "Lowering the Sword". *Foreign Policy*, Issue 78, p. 104.
- ⁹⁰ Hanan Ashrawi. "This Side of Peace". *Touchstone*. 1996, p. 64-68.
- ⁹¹ Timothy Phelps. "Betrayal in their Hunger for Peace". *Newsday*, June 3, 1990, p.3.
- ⁹² Glenn Frankel. *Beyond the Promised Land: Jews and Arabs on a Hard Road to a New Israel*, p.304.

هوامش الفصل الثاني عشر

(All weblinks accessed 22 January 2010)

- ¹ Ghassan Andoni. "A Comparative Study of Intifada 1987 and Intifada 2000". in Roane Carey (ed). *The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid*. London and New York: Verso, 2001, pp. 209--218.
- ² Edward Said. *The End of the Peace Process: Oslo and After*. New York: Pantheon Books, 2001; Hanan Ashrawi. *This side of Peace: A Personal Story*. New York: Touchstone, 1996.
- ³ Azmi Bishara. "Palestine in the New Order". *Middle East Report*, Vol. 22, Issue 2, 1992, p. 4; Edward Said. *Peace and its Discontents: Gaza-Jericho 1993-1995*. New York: Vintage Books, 1995; Cheryl Rubenberg. *The Palestinians: In Search of a Just Peace*. Boulder, Colorado: Lynn Rienr Publishers, 2003.
- ⁴ Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal. *The Palestinian People: A History*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2003, p. 391.
- ⁵ Tanya Reinhart. *The Road Map to Nowhere: Israel/Palestine Since 2003*. New York: Verso, 2006, p. 147.
- ⁶ Alexander Bligh. "The Intifada and the New Political Role of the Israeli Arab Leadership". *Middle East Studies* Vol. 34, No. 1, 1999, pp.134--166 and Alexander Bligh. *The Israeli Palestinians: an Arab Minority in the Jewish State*. London: Frank Kass Publishers, 2003.
- ⁷ Helena Cobban. *The Palestinian Liberation Organization: People, Power, and Politics*. Cambridge: Cambridge University Press, 1984.

- ⁸ Amal Kavar. *Daughters of Palestine: Leading Women of the Palestinian National Movement*. New York: State University of New York Press, 1996.
- ⁹ Nigel Craig Parsons. *The Politics of the Palestinian Authority: from Oslo to al-Aqsa*. New York: Routledge Press, 2005, pp. 199-200; Edward Said. *Peace and its Discontents: Gaza-Jericho 1993-1995*. New York: Vintage Books, 1995.
- ¹⁰ Parsons. *Politics of the Palestinian Authority*, p. 185.
- ¹¹ Ghada Hashem Talhami. *Palestinian Refugees: Pawns to Political Actors*. New York: Nova Science Publishers, 2001, pp. 211-212.
- ¹² Patrick Cockburn. "2,000 Palestinian Prisoners on Hunger Strike as Clinton visits". *The Independent*, 7 December 1998.
- ¹³ أسعد غانم، ومهند مصطفى. *الفلسطينيون في إسرائيل .. سياسات الأقلية الأصلية في الدولة الإثنية*، مصدر سابق، ص: ٢٩٩-٣٠٠.
- ¹⁴ المصدر السابق، ص: ٢٠٩.
- ¹⁵ المصدر السابق، ص: ٢١٧، ٢٢٦.
- ¹⁶ المصدر السابق، ص: ١٧٥-١٧٦.
- ¹⁷ المصدر السابق، ص: ١٦٦-١٧٠.
- ¹⁸ أحمد قريع. *الرواية الفلسطينية الكاملة للمفاوضات من أوسلو إلى مفاوضات كامب ديفيد (طابا واستوكهولم) ١٩٩٥-٢٠٠٠*. بيروت: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠٥.
- ¹⁹ هارون هاشم رشيد. *انتفاضة الأقصى: عام من البطولة والاستشهاد*. بيروت: الدار المصرية اللبنانية، ٢٠٠٢، ص: ٢٣.
- ²⁰ Donald Macintyre. "Most Palestinians Killed in Israeli Raids were Civilians, Amnesty Says". *The Independent*, 24 May 2007 http://news.independent.co.uk/world/middle_east/article2578484.ece; See also Richard Falk. *Human Rights Situation in Palestine and other Occupied Arab Territories*. Report of the Special Rapporteur on the situation of human rights in the Palestinian territories occupied since 1967, UN Human Rights Council, 17 March 2009. [http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2009.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/SNAA-7QF9WC-full_report.pdf/\\$File/full_report.pdf](http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2009.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/SNAA-7QF9WC-full_report.pdf/$File/full_report.pdf)
- ²¹ Parsons. *Politics of the Palestinian Authority*, p. 282.
- ²² Yediot Aharonot, Hebrew Edition, 17 November 2000.
- ²³ Human Rights Watch, "Jenin", 2 May 2002, <http://www.hrw.org/en/reports/200202/05/jenin-0>.
- ²⁴ Jeff Halper. *An Israeli in Palestine: Resisting Dispossession, Redeeming Israel*. London: Pluto Press, 2008, pp. 18-20.
- ²⁵ Baruch Kimmerling and Joel S. Migdal. *Palestinian People*, p. 209; Adalah's Initial Response to the Ministerial Committee's Report Regarding the Implementation of the Or Commission Conclusions, 3 June 2004. http://www.adalah.org/eng/pressreleases/pr.php?file=04_06_031-

- 26 Susan Atallah. "The Power to Have an Impact". in Toine van Teefelen (ed). *Challenging the Wall: Towards a Pedagogy of Hope*. Bethlehem: Arab Educational Institute, 2007, pp. 97-104.
- 27 The Palestinian Center for Rapprochement between People documents.
- 28 Josie Sandercock, Radhika Sainath, Marissa McLaughlin et al. (eds). *Peace Under Fire: Israel/Palestine and the International Solidarity Movement*. London and New York: Verso, 2004; PCR archives; Per interview with Ghassan Andoni, conducted 19 December 2008, Huweida Arraf and Adam Shapiro joined assuring the others that they left the Seeds of Peace and agreeing to compromise on the issue of local versus International participation/leading.
- 29 ISM press release, posted at <http://www.theexperiment.org/?p=232>.
- 30 International Solidarity Movement <http://www.palsolidarity.org/>
- 31 GIPP, <http://www.nonviolentpeaceforce.org>.
- 32 James Brooks. "The Israeli Poison Gas Attacks: A Preliminary Investigation". 27 June 2004 http://www.vtjp.org/report/The_Israeli_Poison_Gas_Attacks_Project.htm
- 33 The Palestinian Center for Rapprochement between People documents.
- 34 Nazmi Jubeh. "East Jerusalem: 40 Years of Occupation". *Palestine Israel Journal of Politics, Economics, and Culture*, Vol. 14, No. 1, 2007, pp. 16-17.
- 35 Joel Greenberg. "Peace Advocates in Arafat Compound Hope to Deter Israeli Troops". *The New York Times*, 3 April 2002; Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*, pp. 60-61.
- 36 Doug Struck. "For Activists with Arafat, a Whiff of Relief: Deal to End Siege is hailed as Success for their Tactics". *Washington Post*, 1 May 2002; Josie Sandercock, et al. (eds). *Peace under Fire*, pp. 62-64.
- 37 Dennis B. Warner. "International Peacemakers Enter Bethlehem Church of the Nativity". in Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*, pp. 78-80.
- 38 Rae Levine. "Defying Curfew in Nablus". in Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*, p. 106.
- 39 Gila Svirsky. "The Israeli Peace Movement since The Al-Aqsa Intifada". in Roane Carey (ed). *The New Intifada: Resisting Israel's Apartheid*, pp. 324-330.
- 40 See "A Timeline of Palestinian Nonviolent Resistance". *Holy Land Trust*, http://www.holylandtrust.org/index.php?option=com_content&task=view&id=122&Itemid=96
- 41 Susan Barclay. "Report, 2 October 2002". in Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*, pp. 112-115.
- 42 Reinhart. *Road Map to Nowhere*, p. 177.
- 43 "Salfit Women Resist the Wall", <http://www.iwps-pal.org/en/articles/article.php?id=227>; Fatima Khaldi. "Women Against the Wall". *The Electronic Intifada*, 16 July 2004 <http://electronicintifada.net/v2/article2923.shtml>

- ⁴⁴ "Repression Allowed, Resistance Denied: Israel's Suppression of the Popular Movement Against the Apartheid Annexation Wall". Published by Palestinian Grassroot Anti-Apartheid Wall Campaign, 9 July 2009, <http://www.stopthewall.org/downloads/pdf/repress.pdf>
- ⁴⁵ Nicholas Blinco. "Under Fire in Bethlehem". *Guardian*, 3 April 2002; and Jeremy Hardy. "Four Days in Hell". *Guardian*, 15 April 2002.
- ⁴⁶ See for example "Tamara's letters: Births in Jenin" and 'Jenin Fever' of 15 July 2002, pp. 152-155, and Eric Levine's "No Foreseeable End to this Tour of Duty", 9 July 2002, pp. 156-157. in Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*.
- ⁴⁷ Munib Younan. *Witnessing for Peace: In Jerusalem and the World*. Minneapolis: Fortress Press, 2003, pp. 88-89.
- ⁴⁸ Sandercock et al (eds). *Peace Under Fire*, pp. 159-173
- ⁴⁹ Rachel's emails to her family were published by the Guardian in London <http://www.guardian.co.uk/world/2003/mar/18/usa.israel> and on a memorial site <http://www.rachelcorrie.org>
- ⁵⁰ الأيام، ١٦ / ٣ / ٢٠٠٦. انظر أيضاً: <http://www.rachelswords.org/200716/03//gaza-children-honor-rachel-corrie-on-fourth-anniversary-of-her-death/>
- ⁵¹ Reinhart. *Road Map to Nowhere*, pp. 184-185.
- ⁵² Reinhart. *Road Map to Nowhere*, p. 179.
- ⁵³ "Continued Non-Violent Resistance to Land Confiscation is Met with Violence". ISM press release, 31 December 2003.
- ⁵⁴ Ida Audeh. "A Village Mobilized: Lessons from Budrus". *The Electronic Intifada*, 13 June 2007 <http://electronicintifada.net/v2/article7005.shtml> ; PENGON. "The People in Budrus Continue their Struggle against the Wall". *Stop The Wall Campaign*, 4 January 2004 <http://stopthewall.org/latestnews/249.shtml>.
- ⁵⁵ Lasse Schmidt. "Locals and Internationals Remove Crippling Roadblock", message of 2 March 2003, in Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire* , pp. 140-141.
- ⁵⁶ International Court of Justice. "Legal Consequences of the Construction of a Wall in the Occupied Palestinian Territory, Advisory Opinion", 9 July 2004 <http://www.icj-cij.org/docket/index.php?pr=71&code=mwp&p1=3&p2=4&p3=6&case=131&k=5a>.
- ⁵⁷ Applied Research Institution-Jerusalem, "The International Court of Justice (ICJ) Advisory Opinion on the Legal Consequences of the Construction of a Wall in the Occupied Palestinian Territory: Where We Are 5 Years Later?" 8 July 2009 http://www.poica.org/editor/case_studies/view.php?recordID=2017.
- ⁵⁸ See for example <http://stopthewall.org/worldwideactivism/650.shtml>.
- ⁵⁹ Virginia Tilley. "A Line in the Sand: Azmi Bishara's Hunger Strike". *Counterpunch*, 4 July 2004 <http://www.counterpunch.org/tilley07072004.html>.

- 60 Mitch Potter. *Toronto Star*. 6 March 2004 cited in Reinhardt. *Road Map to Nowhere*, p. 200.
- 61 PENGON, "The People of Izbat At-Tabib's Call for Support against Occupation's Attempts to Expel Them", 14 July 2004 <http://stopthewall.org/latestnews/661.shtml>
- 62 "Palestinian Children's Fence Protest Ends in Clashes". *Haaretz*, 13 September 2004.
<http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=477405&contrassID=1&subContrassID=5&sbSubContrassID=0&listSrc=Y>.
- 63 James Brooks. "Dispersing Demonstrations - Or Chemical Warfare?". *The Electronic Intifada*, 12 July 2004, <http://electronicintifada.net/v2/article2900.shtml>.
- 64 Amira Hass. "Gandhi's Grandson to Kick off Unarmed Palestinian Campaign". *Haaretz*, 13 August 2004, <http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=464085&contrassID=1&subContrassID=1&sbSubContrassID=0&listSrc=Y>.
- 65 "Palestine Freedom Walk July 30-August 19, 2004"/ *The Scoop*, <http://www.scoop.co.nz/stories/WO0408/S00095.htm> ; "Freedom March Against the Wall: Hundreds March Against the Wall" 10 August 2004, http://bellacio.org/en/article.php?id_article=2577
- 66 "Israeli Occupation Forces Violently Suppress Peacefull Protest Over Right to Worship". *ISM* <http://palsolidarity.org/2006/05/1131>.
- 67 David Dean Shulman. *Dark Hope: Working for Peace in Israel and Palestine*. Chicago: The University of Chicago Press, 2007, pp. 14-20.
- 68 Gideon Levy. "Mean Streets of Tel Rumeida: In the Twilight Zone". *Counterpunch*, 12 September 2005, <http://www.counterpunch.org/levy09122005.html>.
- 69 "Bil'in: Un-cage Palestine!". *ISM Report*, 5 May 2006, <http://palsolidarity.org/2006/05/1083>
- 70 "Israeli Soldiers Shoot Two International Peace Activists In The Head at Bil'in". *ISM Report*, 12 May 2006 <http://palsolidarity.org/2006/05/1101>.
- 71 "Large Scale Unity Demonstration in Bil'in on Friday". *ISM Report*, 30 May 2006 <http://palsolidarity.org/2006/05/1196>.
- 72 "Bil'in Demonstration Against the Wall Turns Blue". *ISM Report*, 18 August 2006 <http://palsolidarity.org/2006/08/1480>.
- 73 "Non-violent Resistance in Bil'in Works". *ISM Report*, 15 September 2006 <http://www.palsolidarity.org/main/2006/09/15/bilin-15-09/>.
- 74 "Bil'in Demonstrators Attacked by Experimental Weapons". *ISM Report*, 1 September 2006 <http://palsolidarity.org/2006/09/1510>.
- 75 "Nobel Peace Laureate Corrigan Injured in Anti-fence Protest". *Ynet News*, 20 April 2007 <http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3390314,00.html>.
- 76 "High Court: Controversial Settlement Neighborhood to Remain in Place". *Ha'aretz*. 29 November 2007

- 77 Ethan Bronner. "Bil'in Journal: In Village, Palestinians See Model for Their Cause". *The New York Times*, 27 August 2009, <http://www.nytimes.com/2009/08/28/world/middleeast/28bilin.html?eta1>
- 78 "Students Unite Against Checkpoints". *ISM Report*, 3 June 2006 <http://www.palsolidarity.org/main/2006/06/03/students-unite-against-checkpoints/>.
- 79 "Non-Violence on Trial". *ISM Report*, 9 September 2006 <http://www.palsolidarity.org/main/2006/09/09/non-violence-on-trail/>.
- 80 "Palestinian Villagers to Hold Non-violent Protest against Israeli Ghettoization and Annexation", 15 November 2006, <http://www.palsolidarity.org/main/2006/11/15/azun-atme>
- 81 Anne Paq. "We Will Replant These Trees Again: Resisting the Ongoing Nakba: the Story of Artas". *Al Majdal*, Vol. 9, Issue 34, 2007.
- 82 "Al Khader Unites in Mounting Protests against Ghettoization". *Stop the Wall*, 16 June 2006 <http://stopthewall.org/latestnews/1196.shtml>; "Palestinians in Al Khader Village Nonviolently Resist the Israeli Wall, Despite Violent Response". *Palestine News Network*, 25 August 2006 http://english.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=393&Itemid=49.
- 83 Joshua Mitnick. "Nonviolent Protest gains in West Bank: A Supreme Court Decision in Favor of one Protesting Village has Inspired Others". *Christian Science Monitor*, September 24, 2007 <http://www.csmonitor.com/2007/0924/p06s02-wome.html> Translated to Arabic <http://www.commongroundnews.org/article.php?id=21800&lan=ar&sid=0&sp=0>.
- 84 "Protests against Gaza Beach Killing". *Al-Jazeera Net*, 11 June 2006 <http://palsolidarity.org/2006/06/1248>.
- 85 "Palestinians to hold Non-violent Demonstration at Qalandia Checkpoint against Israeli War Crimes in Gaza". *ISM Report*, 18 November 2006 <http://www.palsolidarity.org/main/2006/11/18/qalandia-beit-h/>.
- 86 Press release of *ISM*, pp. 184-185.; Eric Levine. "No Foreseeable End to this Tour of Duty". in Josie Sandercock, et al (eds). *Peace Under Fire*, pp. 156-157.
- 87 Press release of *ISM*, pp 181-182; Eric Levine. "No Foreseeable End". pp. 156-157.
- 88 Ghassan Andoni, 27 October 2002, circulated electronically.
- 89 "Jeff Halper & Ghassan Andoni: Nobel Peace Prize Nominees", *AFSC Press Release*, 9 February 2006, <http://electronicintifada.net/v2/article4474.shtml>
- 90 القدس. ٣١/٣/١٩٨٧. العدد ٦٣١٩، ص: ٣.
- 91 "Israel: Complaints about Treatment of Detainees". *The Lancet*, 29 October 1988, p1012-1013.
- 92 Catherine Cook, Adam Hanieh, Adah Kay. *Stolen Youth: The Politics of Israel's Detention of Palestinian Children*. London: Pluto Press, 2004.

- ⁹³ القدس. ٢٦/٣/١٩٨٧. العدد ٦٣١٤، ص: ٤. ومثلها حصل إضراب في سجن الأنصار ٢ في غزة. القدس. ١٧/٣/١٩٨٧. العدد ٦٣٠٥، ص: ١.
- ⁹⁴ Karim Marwa. *Al-Muqawama: Afkar LilNiqash wa Al-Tajrioba wa Al-Afaq* (Resistance: Ideas for Discussion, Experience, and Outlook). Beirut: Al-Fadi Publishing House, 1985, p. 46.
- انظر أيضاً: كريم مروة. المقاومة: أفكار للنقاش والتجربة والأفاق. بيروت: دار الفداي للنشر، ١٩٨٥، ص: ٤٦.
- ⁹⁵ "Prisons Service heads to discuss hunger strike by Palestinians". *Haaretz*, 13 August 2004 <http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=464103>; "Prisoners hunger strike 15 August 2004 - 2 September 2004" <http://www.palestinehistory.com/issues/prisoners/prisoners.htm>.
- ⁹⁶ "Thousands demonstrate in Gaza supporting Palestinian prisoners". *Xinhua*, 18 Aug 2004 http://news.xinhuanet.com/english/2004-08/18/content_1815128.htm.
- ⁹⁷ "PA, Israeli Arabs plan show of solidarity with hunger strikers". *Haaretz*, 17 Aug 2004 <http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=465531&contrassID=1&subContrassID=5&sbSubContrassID=0&listSrc=Y>.
- ⁹⁸ "Palestinian strike gains strength". *BBC*, 18 Aug 2004 http://news.bbc.co.uk/1/hi/world/middle_east/3575946.stm.
- ⁹⁹ "Hunger Strike". *Al-Ahram*, 19-25 August 2004, <http://weekly.ahram.org.eg/2004/704/re2.htm>.
- ¹⁰⁰ <http://www.dci-pal.org/english/Display.cfm?DocId=315&CategoryId=1>.
- ¹⁰¹ <http://english.wafa.ps/?action=detail&id=8994>.
- ¹⁰² Jon Elmer. "Prison Toughens Palestinian Women". *IPS News*, 7 August 2009 <http://www.ipsnews.net/news.asp?idnews=47998>.
- ¹⁰³ "New Israeli committee undermines achievements made by Palestinians through protest in Israeli jails". *Palestine News Network*, 25 July 2009, http://english.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=6269.
- ¹⁰⁴ Jon Elmer. "Prison Strengthens Palestinian Women". *The Electronic Intifada*, 11 August 2009 <http://electronicintifada.net/v2/article10702.shtml>.
- ¹⁰⁵ Yousef Alhelou. "Palestinian mass resistance blocks Israeli air strike". *Electronic Intifada*, 20 November 2006 <http://electronicintifada.net/v2/article6074.shtml>; see also "Protests Force Israel to Halt Airstrikes". *Washington Post*, 19 Nov 2006 <http://www.washingtonpost.com/wp-dyn/content/article/2006/11/19/AR2006111900210.html>.
- ¹⁰⁶ See for example "Nonviolent resistance: I sell grapes". *Palestine News Network*, 12 October 2006, http://english.pnn.ps/index.php?option=com_content&task=view&id=769&Itemid=1.
- ¹⁰⁷ "March of Grapes Brutally Attacked: 6 Arrested, Many Injured". 8 Oct 2006 <http://www.palsolidarity.org/main/2006/10/08/khadgrape>.
- ¹⁰⁸ See video posted at http://www.palestineremembered.com/GeoPoints/Nakba_Refugees_and_R_O_R_5366/Article_9586.html

- ¹⁰⁹ "60 Years of Nakba: 21,915 Black Balloons Over Jerusalem". *ISM Report*, 7 May 2008, <http://palsolidarity.org/2008/05/3095>.
- ¹¹⁰ "Israeli forces kill resident of Ni'lin and leave another in critical condition during demonstration of solidarity with Gaza". *ISM Report*, 28 December 2008, <http://palsolidarity.org/2008/12/3714> ; "Israeli forces shoot 2 cameramen with live ammunition in the West Bank village of Ni'lin". *ISM Report*, 4 September 2009 <http://palsolidarity.org/2009/09/8278>; On 13 March 2009, US citizen Tristan Anderson was critically injured in the head in a nonviolent demonstration in Ni'lin, "American citizen critically injured after being shot in the head by Israeli forces in Ni'lin", *ISM Report*, 13 March 2009, <http://palsolidarity.org/2009/03/5324> ; see also <http://justicefortristan.org/>.
- ¹¹¹ "Hundreds of West Bank Palestinians commemorate Holocaust". *Maan News*, 28 Jan 2009, <http://www.maannews.net/en/index.php?opr=ShowDetails&ID=35355>.
- ¹¹² Jonathan Pollak. "The Ongoing Repression of Palestinian Protesters". *Huffington Post*, 18 December 2009 http://www.huffingtonpost.com/jonathan-pollak/the-ongoing-repression-of_b_397132.html
- ¹¹³ see <http://palsolidarity.org/tag/jerusalem> ; "IR AMIM: Evictions and Settlement Plans in Sheikh Jarrah", Jerusalem, *Australians for Palestine background paper*, August 8, 2009, <http://australiansforpalestine.com/ir-amim-evictions-and-settlement-plans-in-sheikh-jarrah-july09-report>.
- ¹¹⁴ "Parish Priest Recounts Tragedy of Gaza: Testimony of Father Manuel Musallam", 19 January 2009, <http://www.zenit.org/article-24842?l=english>.
- ¹¹⁵ "Ninety people arrested in East Jerusalem as Israeli police look to prevent protests of solidarity with Gaza through intimidation". *ISM Report*, 31 December 2008, <http://palsolidarity.org/2008/12/3737>.
- ¹¹⁶ "Palestinians pour into Egypt after Rafah border wall destroyed". *Maan News*, 23 January 2008 <http://www.maannews.net/eng/ViewDetails.aspx?ID=20078>
- ¹¹⁷ التفاصيل في: <http://www.freegaza.org>
- ¹¹⁸ Ramzi Kysia. "On the Right of Resistance". *Al-Jazeera*, 31 July 2007 <http://www.aljazeera.com/news/full.php?newid=255575should>.
- ¹¹⁹ http://www.youtube.com/watch?v=87NrKNV_owM.
- ¹²⁰ <http://www.gazafreedommarch.com>.
- ¹²¹ <http://vivapalestina.org>.

هوامش الفصل الثالث عشر

- ¹ Filmmaker and artist Udi Aloni, *Ynet News*, 5 Jan 2010, <http://www.ynetnews.com/articles/0,7340,L-3829694,00.html>
- ² Baruch Kimmerling, *Politicide: Ariel Sharon's War Against the Palestinians*. London: Verso, 2003.
- ³ Ilan Pappé, *The Ethnic Cleansing of Palestine*. London: Oneworld Publications, 2006.
- ⁴ Oren Yiftachel, *Ethnocracy: Land and Identity Politics in Israel/Palestine*. Philadelphia: University of Pennsylvania Press, 2006.
- ⁵ Uri Davis, *Apartheid Israel: Possibilities for the Struggle Within*, London: Zed Books, 2003; Neve Gordon, "Boycott Israel: An Israeli Comes to the Painful Conclusion that it's the only Way to Save his Country". *Los Angeles Times*, 20 August 2009, <http://articles.latimes.com/2009/aug/20/opinion/oe-gordon20>; Naomi Klein, "Israel: Boycott, Divest, Sanction". *The Nation*, 7 January 2009, <http://www.thenation.com/doc/20090126/klein>; also B'Tselem used the term apartheid in their report "Land Grab: Israel's settlement Policy in the West Bank", Jerusalem, May 2002.
- ⁶ Amira Hass, "Words Instead of Actions". *Haaretz*, May 22, 2007, <http://www.haaretz.com/hasen/spages/861119.html>.
- ⁷ Nehemia Stessler, *Haaretz*, May 12, 1989.
- ⁸ Hossein Askari, *Economic Sanctions: Examining Their Philosophy and Efficacy*. New York: Praeger, 2003, p. 59.
- ⁹ "Towards a Global Movement: A Framework for Today's Anti-apartheid Activism, Grassroots Palestinian Anti-Apartheid Wall Campaign". June 2007, p. 34 <http://bdsmovement.net/files/bds%20report%20small.pdf>.
- ¹⁰ أرونسون. سياسة الأمر الواقع في الضفة الغربية: إسرائيل والفلسطينيون من حرب ١٩٦٧ إلى الانتفاضة، مصدر سابق، ص: ٣٤٤.
- ¹¹ Azmi Bishara, "The Uprising's Impact on Israel". pp. 231-249 in Zachary Lockman and Joel Beinin (eds). *Intifada: the Palestinian Uprising Against Israeli Occupation*. Washington: Middle East Research and Information Project, 1989, pp. 225-226; Howard Rosen, "Economic Consequences of the Intifada on Israel and the Administered Territories", pp. 370-396 in Robert Owen Freedman (ed). *The Intifada: Its Impact on Israel, the Arab World, and the Superpowers*. Miami, FL: Florida International University Press, 1991, p. 384; Avi Shlaim, *The Iron Wall; Israel and the Arab World*. New York: Penguin Books, 2000, p. 455.
- ¹² Paid ad in Ha'aretz on 26 September and 4 October 1997 <http://israelipalestinianpeace.org/issues/81toi.htm#Consumers>.
- ¹³ http://gush-shalom.org.toibillboard.info/boycott_eng.htm.
- ¹⁴ Najat Hirbawi, "Chronology of Events, April 1, 1998 - October 1, 1998". *Palestine-Israel Journal*, Vol.5, Nos. 3 & 4 (1998).

- ¹⁵ <http://www.matzpun.com/supporters.html>.
- ¹⁶ The follow-up conference in Geneva was structured to avoid reaffirming the decisions of Durban but in essence let them stand, see Nora Barrows-Friedman. "UN Protects Israel from Racism Charges". *Electronic Intifada*, 17 April 2009, <http://electronicintifada.net/v2/article10470.shtml>.
- ¹⁷ To subscribe to the list and view archives, email the author or simply send a message following instructions to introduce yourself to academicsforjustice-subscribe@yahoogroups.com.
- ¹⁸ Steven Rose and Hilary Rose. "The Choice is to do Nothing or Try to Bring About Change: Why We Launched the Boycott of Israeli Institutions". *Guardian*, 15 July 2002; Andy Becket and Ewin MacAskill. "British Academic Boycott of Israel Gathers Pace". *Guardian*, 12 December 2002; "More Pressure for Mid East Peace". *Guardian*, 6 April 2002.
- ¹⁹ To subscribe BoycottIsraeliGoods-subscribe@yahoogroups.com.
- ²⁰ Polly Curtis. "Academic Boycott of Israel Gathers Momentum". *Guardian*, 24 March 2004, <http://phrconline.org/articles.php?ArtID=808>.
- ²¹ <http://www.pacbi.org/etemplate.php?id=868>.
- ²² <http://right2edu.birzeit.edu/news/article178>; PACBI has since deleted item 4 listed here in a revision 28 January 2006 because it "has been misunderstood as a position condoning a boycott of individuals or supporting 'black-listing' or 'political tests', both of which are entirely incompatible with PACBI's position", <http://www.pacbi.org/etemplate.php?id=1051>.
- ²³ <http://www.pngo.net/default.asp?i=190>
- ²⁴ August 2002 Press Release from *Badil* and Signing Organizations, <http://www.badil.org/en/press-releases/55-press-releases-2002/330-press268-02>, Arabic <http://www.badil.org/ar/press-releases/117-press-releases-2002/1328-a-51-2002>.
- ²⁵ Tanya Reinhardt. "Academic Boycott: In Support of Paris VI". *Electronic Intifada*, 4 February 2003 http://www.monabaker.com/pMachine/more.php?id=96_0_1_12_M5; Rachel Giora. "Milestones in the History of the Israeli BDS Movement: A Brief Chronology". 18 January 2010 <http://www.bricup.org.uk/documents/history/IsraeliBDS.pdf>; Ilan Pappé. "To Boldly Go". *Guardian*, 20 April 2005, <http://www.guardian.co.uk/education/2005/apr/20/highereducation.uk3>; <http://www.haaretz.com/hasen/pages/ShArt.jhtml?itemNo=569361>; Naomi Klein. "Israel: Boycott, Divest, Sanction". *The Nation*, 26 January 2009.
- ²⁶ <http://boycottisrael.info/>.
- ²⁷ Desmond Tutu and Ian Urbina. "Against Israeli Apartheid". *The Nation*, 27 June 2002, <http://www.thenation.com/doc/20020715/tutu>; Ronnie Kasrils. *Guardian*, 25 May 2005; Hazem Jamjoum. "Not an Analogy: Israel and the Crime of Apartheid". *Electronic Intifada*, 3 April 2009, <http://electronicintifada.net/v2/article10440.shtml>; Anthony Lowstedt. *Apartheid: Ancient, Past, and Present: Systematic and Gross Human Rights Violations in Graeco-Roman Egypt, South Africa, and Israel/Palestine*. Vienna: Gesellschaft für Phenomenologie und kritische Anthropologie, 2007, 3rd Edition.

- 28 Information gathered from several sources primarily: <http://www.stopthewall.org/downloads/pdf/listBDS.pdf>; "Towards a Global Movement: A Framework for Today's Anti-apartheid Activism". *Grassroots Palestinian Anti-Apartheid Wall Campaign*, June 2007, p. 22, <http://bdsmovement.net/files/bds%20report%20small.pdf>; <http://www.pacbi.org/pdfs/PACBI%20Newsletter1-BDS-2009-Highlights-3-Jan-2010.pdf>; and "Boycott, Divestment, and Sanctions: A Survey of Diverse Approaches to Ethical Economic Engagement Adopted by Groups and Individuals Worldwide", August 2007, A Review by the Palestine-Israel Action Group (PIAG), a subcommittee of the Peace and Social Concerns Committee of Ann Arbor Friends Meeting.
- 29 See "'Is Intel Supporting an Apartheid Regime?'. *Media Monitors*, 26 June 2001, <http://www.mediamonitors.net/mazin7.html>; "Intel Chip Plant Located on Disputed Israeli land: Intel Could Face Political, Legal Problems with Chip Plant in Israel". *San Francisco Chronicle*, 8 July 2002, <http://www.sfgate.com/cgi-bin/article.cgi?file=/chronicle/archive/2002/07/08/BU162036.DTL&type=business>.
- 30 Victoria Griffith. "Insults Fly in Hallowed Halls as Students Oppose Israeli Links: A National Campaign by Student Activists Aimed at Academic Institutions Comes to a Head Tomorrow". *Financial Times*, 11 October 2002.
- 31 See <http://www.divestmentconference.com/>.
- 32 Joel Beinin. "Building a Different Middle East". *The Nation*, 15 January 2010, <http://www.thenation.com/doc/20100201/beinin>
- 33 See Chris McGreal. "Anglican Group calls for Israel Sanctions: Campaigners Inspired by Boycott of Apartheid South Africa". *Guardian*, 24 September 2004.
- 34 David Wildman. "Why Divestment and Why Now?". *The Link* (published by Americans for Middle East Understanding), Vol. 39, No. 3 (August-September 2006); http://www.palestinecampaign.org/Index7b.asp?m_id=1&l1_id=4&l2_id=25&Content_ID=376.
- 35 John Mahoney. "Ending Israel's Occupation". *The Link*, vol. 42, No. 4, September-October 2009.
- 36 <http://kairopalestine.ps>
- 37 Mahoney. "Ending Israel's Occupation".
- 38 "Boycott of Ahava Dead Sea Products makes an Impact". *Electronic Intifada*, 2 December 2009, <http://electronicintifada.net/v2/article10925.shtml>.
- 39 Asa Winstanley. "Boycott Movement takes hold in British Unions". *Electronic Intifada*, 14 August 2009, <http://electronicintifada.net/v2/article10711.shtml>; see also <http://www.tuc.org.uk/congress/tuc-16887-f4.cfm#tuc-16887-4>.
- 40 Paul Abowd. "Growing Labor Support for Palestine Faces Stiff Opposition in the U.S". 22 January 2010, <http://www.labornotes.org/201001/growing-labor-support-palestine-faces-stiff-opposition-us>.
- 41 Anne Herzberg. "Lawfare Against Israel". *Wall Street Journal*, Europe, 5 November 2008.

- ⁴² Tahel Frosh. "Filmmakers Protest Uncritical View of Tel Aviv at Toronto Film Festival". *Haaretz*, 28 August 2009, <http://www.haaretz.com/hasen/spages/1110750.html> and see also <http://www.bdsmovement.net/?q=node/535>.
- ⁴³ <http://www.norwatch.no/200909031329/english/fund/elbit-excluded-by-norwegian-goverment-pension-fund.html>
- ⁴⁴ See <http://apartheidweek.org>.
- ⁴⁵ انظر للمزيد: محسن عوض، ممدوح سالم، أحمد عبيد. **مقاومة التطبيع: ثلاثون عاماً من المواجهة**. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٧.
- ⁴⁶ Art Young. "Pro-Israel Lobby Alarmed by Growth of Boycott, Divestment Movement". *Zmagazine*, <http://www.zmag.org/znet/viewArticle/21807>.
- ⁴⁷ <http://qumsiyeh.org/boycottisrael/> see also <http://www.qumsiyeh.org/theworldconomicsforumcontroversy/>.
- ⁴⁸ "Towards a Global Movement: A Framework for Today's Anti-apartheid Activism". *Grassroots Palestinian Anti-Apartheid Wall Campaign*, June 2007, p. 12 <http://bdsmovement.net/files/bds%20report%20small.pdf>
- ⁴⁹ هنا بعض المواقع الإلكترونية لجمعيات التجارة العادلة وغيرها من شركات لبيع المنتجات الفلسطينية عبر الإنترنت: www.palestinefairtrade.org. www.canaanfairtrade.com. www.zatoun.com. www.palestineonlinestore.com

هوامش الفصل الرابع عشر

- ¹ Edward Said. "Arabs have nothing to apologize for: Of Dignity and Solidarity". *The Dawn*, 7 August 2003, <http://www.dawn.com/2003/08/07/op.htm>.
- ² Jean-Marie Muller. *Stratégie de L'action non-Violente*. Translated by Mary Touq. *Harakat Huqook Alnas*, Beirut: Aljmiza, 1999, p. 12.
- ³ Ghassan Kanafani. *The 1936-39 Revolt in Palestine*. New York, Committee for a Democratic Palestine, 1972 and London, Tricontinental Society, 1980.
- ⁴ Said K. Aburish. *Cry Palestine: Inside the West Bank*. Colorado and Oxford: Westview Press, 1993, p. 185.
- ⁵ Ahron Bregman. *Israel's Wars: a History since 1947*. London: Routledge, 2002, pp. 217-218.
- ⁶ see Juliane Hammer. *Palestinians Born in Exile: Diaspora and the Search for a Homeland*. University of Texas Press, 2005.
- ⁷ Alain Epp Weaver and Sonia K. Weaver. *Salt & Sign: Mennonite Central Committee in Palestine, 1949-1999*. Akron, PA: Mennonite Central Committee, 1999; Nancy Gallagher. *Quakers in the Israeli-Palestinian Conflict: The Dilemmas of NGO Humanitarian Activism*. Cairo: The American University in Cairo Press, 2007.
- ⁸ Staughton Lynd, Sam Bahour, and Alice Lynd. *Homeland: Oral History of Palestine and Palestinians*. New York: Olive Branch Press, 1994; Juliane Hammer. *Palestinians Born in Exile: Diaspora and the Search for a Homeland*. Austin, TX: University of Texas Press, 2005.

⁹ محمد دراغمة. "الفن واللاعنف: حياة تصعد من خراب"، مقال منشور في الحياة بتاريخ: 2003/07/27.

Samih K Farsoun. *Culture and Customs of the Palestinians*. Greenwood, 2004.

¹⁰ Ted Swedenburg. *Memories of Revolt: The 1936 Rebellion and the Palestinian National Past*. Minneapolis and London: University of Minnesota Press, 1995, pp. 208-209.

¹¹ see for example Muhammed Abdullah Atwat. *Al-Ittijahat Al-Wataniya Fi Al-Shi'r Al-Falastini Al-Mu'aser (Nationalist Directions in the Modern Palestinian Poetry)*. Beirut: Dar Al-Afaq Al-Jadida, 1998; Salma Khadra Jayyusi. *Modern Arabic Poetry: An Anthology*. New York: Columbia University Press, 1987; Izzat Ghazzawi. *Modern Palestinian Poetry in Translation*. Ramallah: The Palestinian Writers' Union, 1997.

انظر أيضاً: محمد عبد الله عطوات. *الاتجاهات الوطنية في الشعر الفلسطيني المعاصر من ١٩١٨-١٩٦٨*. بيروت: دار الآفاق الجديدة، ١٩٩٨.

¹² Barbara Harlow. *Resistance Literature*. New York: Methuen Inc., 1987; Salma Khadra Jayyusi. *Anthology of Modern Palestinian Literature*. New York: Columbia University Press, 1992; *Palestine and Palestinians: Guidebook*. Beit Sahour: Alternative Tourism Group, 2005 and see also Mazin Qumsiyeh. "Review of Palestine Guidebooks". *The Middle East Journal*, Vol. 59, No. 4, Autumn 2005, pp. 699-700; *Palestine: A guide*, By Mariam Shahin, Photography by George Azar, Interlink Publishing, Northampton, Massachusetts, 2005.

¹³ Joy Ellison. "Nonviolent Resistance in the South Hebron Hills". *Electronic Intifada*, 22 June 2009 <http://palsolidarity.org/2009/06/7293>.

¹⁴ one such book is edited by Maxine Kaufman-Lacusta. *Refusing to Be Enemies*. Reading, UK: Ithaca Press, 2010. It quotes at length from selected activists giving personal impressions. Analysis with a look forward based on personal experiences are provided in that book by Jeff Halper, Ghassan Andoni, Jonathan Kuttub, and Starhawk. I believe those personal reflections complement the historical analysis given in this book.

¹⁵ see <http://stopthewall.org>

¹⁶ Khalil Nakhleh and Elia Zureik (eds). *The Sociology of the Palestinians*. London: Croom Helm, Ltd, 1980; Majdi Malki. *Towards a Sociology of Civil Resistance: Palestinian Society During the Second Intifada*. Ramallah: Muwatina, 2004.

¹⁷ see also Salim Tamari. "Factionalism and Class Formation in Recent Palestinian History", p. 177-202 in Roger Owen (ed). *Studies in the Economic and Social History of Palestine in the Nineteenth and Twentieth Centuries*. Carbondale and Edwardsville: The Southern Illinois University Press, 1982, p. 208-210.

¹⁸ Are Knudson and Basem Ezbi. " Hamas and Palestinian Statehood", pp. 188-210 in Jamil Hilal (ed). *Where Now For Palestine?* London and New York: Zed Books, 2007. Many Palestinians called for unity e.g. see Prominent Palestinian figures appeal for national unity, *Maan News*, 28 January 2009 <http://www.maannews.net/en/index.php?opr=ShowDetails&ID=35356>; and "Mubadaret Nida' Al-Wihda Al-Falastinia". Quds Net, 28 /1/2009 "مبادرة نداء الوحدة الفلسطينية" <http://www.qudsnet.com/arabic/news.php?maa=View&id=92833>.

- 19 Nassar Ibrahim. "A Global Fight? What Ever Happened to the Palestinian Left?", pp. 72-77 in Yasser Akawi, Gabriel Angelone, Lisa Nesson (eds). *From Communal Strife to Global Struggle, Selected Presentations and Articles from 'A Middle East without Wars and Oppression is Possible: An International Seminar on the Palestinian Struggle and Globalization*. Alternative Information Center, 2004; Yasser Akkawi, Gabriel Angelone, and Lisa Nesson (eds), Alternative Information Center Publications, Jerusalem, 2004;
انظر أيضاً: نايف حواتمة. اليسار العربي: رؤيا النهوض الكبير. رام الله: مركز المسر للدراسات والنشر، ٢٠٠٩؛ جميل هلال. اليسار الفلسطيني إلى أين؟ رام الله: مؤسسة روزالوكسنبرغ، ٢٠٠٩.
- 20 Walid Salem. "Palestinian Contemporary Political Performance: A Bitter Harvest". *Palestine-Israel Journal*, vol 15, No. 1 & 2, 2008 <http://www.pij.org/details.php?id=1166>.
- 21 Ali Jarbawi, 'Palestinian Elites in the Occupied Territories: Stability and Change during the Intifada', in Jamal R. Nassar and Roger Heacock (eds). *Intifada: Palestine at the Crossroads*. New York: Praeger, 1990.
- 22 Neve Gordon. *Israel's Occupation*. Berkely and Los Angeles: University of California Press, 2008, p. 54-55.
- 23 جمال جمعة. "دروس المقاومة: بلعين نموذجاً". مؤتمر فلسطين، ٢٠٠٧: التحديات والفرص. رام الله: بدائل؛ المركز الفلسطيني للإعلام والأبحاث والدراسات، ص: ١٧٧.
- 24 Shir Hever. *The Economy of the Occupation Part 6: The Question of Sanctions and a Boycott against Israel*. Jerusalem: The Alternative Information Center, 2006 <http://www.alternativenews.org:80/publications/econoccupation.html>.
- 25 "Towards a Global Movement: A Framework for Today's Anti-apartheid Activism". *Grassroots Palestinian Anti-Apartheid Wall Campaign*, June 2007, p. 154 <http://bdsmovement.net/files/bds%20report%20small.pdf>.
- 26 Aimee Ginsburg, 'Gandhis in Olive Country'. *Outlook*. 17 March 2008, pp. 22-28.
- 27 Mousa Abu Maria and Bekah Wolf. "The Lost Lesson of the Civil Rights Movement". *Mondoweiss*, 19 January 2010. http://mondoweiss.net/201001/the-lost-lesson-of-the-civil-rights-movement.html?utm_source=feedburner&utm_medium=email&utm_campaign=Feed%3A+feedburner%2FWDBc+%28Mondoweiss%29&utm_content=Yahoo%21+Mail.
- 28 Ben Hubbard. "Israel Arrests Seen as Effort to Crush Dissent". *Associated Press*, Published in San Francisco Chronicle, January 20, 2010, <http://www.sfgate.com/cgi-bin/article.cgi?f=/c/a/2010/01/20/MN2P1BKASC.DTL>.
- 29 Mary Elizabeth King. *A Quiet Revolution: The First Palestinian Intifada and Nonviolent Resistance*. New York: Nation Books, 2007, p. 188.
- 30 e.g. survey done in 2002, posted here <http://www.sfcg.org/Documents/SFCGpoll.pdf>
- 31 علي بدوان. صفحات من تاريخ الكفاح الفلسطيني (التكوينات السياسية والفدائية والمصائر). دمشق: دار النشأة المعاصرة، ٢٠٠٨.

- ³² Souad R. Dajani. *Eyes without Country: Searching for a Palestinian Strategy of Liberation*. Philadelphia: Temple University Press, 1995, p. 125.
- ³³ see Chapters 10-13 and also Maxine Kaufman-Lacusta. "The Potential for Joint Struggle: An Examination of Present and Future Participation by Israelis in Palestinian Non-Violent Resistance to the Occupation". *Palestine-Israel Journal*, Vol.1516- No.3 2008.
- ³⁴ The Seville Statement on Violence was adopted by UNESCO at the 25th session of the UN general assembly on 16 November 1986. Drafted by eminent scientists, it lays out facts and debunks mythologies including myths that the human species which invented war cannot eliminate war. http://www.unesco.org/shs/human_rights/hrfv.htm This document lays out the foundations for a world without war and injustice. The few hundred examples of Palestinian popular resistance (among many more) inspire and mobilize us to seek a world without war and injustice.
- ³⁵ see also Jonathan Kuttub and Mubarak Awad. *Non-violent Resistance in Palestine: Pursuing Alternative Strategies*. Washington DC: Jerusalem Fund, Information Brief No. 90, 29 March 2002.
- ³⁶ Mubarak E. Awad. "Non-Violent Resistance: A Strategy for the Occupied Territories". *Journal of Palestine Studies*, Vol. 13, No. 4. (Summer, 1984), p. 35.
- ³⁷ George Antonius, *The Arab Awakening: The Story of the Arab National Movement*. London: International Book Centre, 1938, Reprint 1985, p 409.
- ³⁸ Desmond Tutu. "Realizing God's Dream for the Holy Land". *Boston Globe*, 26 October 2007 http://www.boston.com/news/globe/editorial_opinion/oped/articles/2007/10/26/realizing_gods_dream_for_the_holy_land/.

ملحق: مجموعات المقاومة الشعبية المحلية (مختارة)

هذا دليل لبعض الآلاف من الجماعات والمنظمات التي تدعم فلسطين من الخارج، وهي مدرجة في هذا الرابط. <http://www.palestinefreedom.org/organizations?country=af> هنا سنقوم بذكر ٧٠ من المجموعات والمنظمات من بين أكثر من ٢٠٠ منظمة انخرطت في المقاومة الشعبية داخل فلسطين:

– ”بديل“ المركز الفلسطيني لمصادر حقوق المواطنة واللاجئين
www.badil.org/

– الائتلاف الأهلي للدفاع عن حقوق الفلسطينيين في القدس
www.ccdprj.ps

– الائتلاف الفلسطيني لحق العودة www.rorcoalition.org/

– الائتلاف النسوي من أجل السلام
www.coalitionforpeace.org/

– الائتلاف من أجل القدس
coalitionforjerusalem.blogspot.com

– اتحاد لجان الإغاثة الطبية الفلسطينية www.upmrc.org/

– اتحاد لجان المرأة الفلسطينية

www.upwc.org/R_Home.htm

– اتحاد منظمات المجتمع العربي ”اتجاه“ www.ittijah.org

– آدم – كلية الديمقراطية والسلام على اسم إميل غرينتسفايغ

www.adaminstitute.org.il/

– أصوات www.aswat-palestiniangaywomen.org

– بيتسيلم www.btselem.org

– تحالف لإعادة البناء

<http://www.rebuildingalliance.org/>

– تعايش www.taayush.org

– جمعية المكتبة المتنقلة من أجل اللاعنّف والسلام

www.lownp.com

– جمعية حقوق المواطن في إسرائيل www.acri.org.il

– حاخميون من أجل حقوق الإنسان www.rhr.israel.net

– حركة التضامن الدولية www.palsolidarity.org

– الحركة الفلسطينية للمقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات

www.bdsmovement.net/

– حركة غزة الحرة www.freegaza.org

– حملة إسرائيل “ماتسبون” www.matzpun.com/

– حملة الحق في التعليم <http://right2edu.birzeit.edu>

– حملة الحق في التعليم جامعة بيرزيت

<http://right2edu.birzeit.edu>

– حملة الحق في الدخول إلى الأراضي الفلسطينية المحتلة

<http://www.righttoenter.ps>

– الحملة الشعبية الفلسطينية لمقاومة جدار الفصل العنصري (أوقفوا

بناء الجدار) www.stopthewall.org

- الحملة الفلسطينية لمقاطعة إسرائيل ثقافياً وأكاديمياً
<http://www.pacbi.org/>
- حملة فتح بيت لحم www.openbethlehem.org
- حملة فتح شارع الشهداء [openshuhadastreet.org](http://www.openshuhadastreet.org)
- حملة كسر الصمت <http://www.shovrimshtika.org>
- خيمة الأمم <http://www.tentofnations.org/>
- دار الندوة www.annadwa.org
- الرواد - مركز ثقافي وتدريب مسرحي
www.alrowwad.virtualactivism.net
- زوخروت (الذاكرة) <http://www.zochorot.org>
- السبيل - مركز علم التوحيد والتحرير المسكوني www.sabeel.org
- شباب ضد الاستيطان youthagainsettlements.org
- شبكة المقاطعة الشعبية <http://www.whyyusa.net/>
- شبكة المنظمات الأهلية الفلسطينية www.pngo.net/
- شبكة فلسطين الإخبارية www.palestinenet.org
- صوت العامل <http://www.laborers-voice.org/>
- الضمير لرعاية الأسير وحقوق الإنسان www.addameer.org
- عدالة - المركز القانوني لحقوق الأقليات العربية في إسرائيل
www.adalah.org
- غير عميم www.ir-amim.org.il/Eng
- غوش شالوم www.gushshalom.org

- فلسطينيون وإسرائيليون من أجل اللاعنف <http://pinv.org>
- فوضيون ضد الجدار www.awalls.org
- اللاعنف الدولية
(Nonviolence International) www.nonviolenceinternational.net
- لجنة إعمار الخليل www.hebronrc.org
- لجنة الأربعين www.assoc40.org
- اللجنة الإسرائيلية ضد عمليات هدم المنازل
www.icahd.org/eng/
- لجنة المقاومة الشعبية في قرية بلعين www.bilin-village.org
- لجنة تنسيق النضال الشعبي <http://popularstruggle.org/>
- مبادرة المناصرة المشتركة بين جمعية الشبان والشابات المسيحية
www.jai-pal.org
- مبادرة مناصرة الجولان وفلسطين المحتلة (OPGAL)
- مجلة الاحتلال www.kibush.co.il/
- مجموعة السياحة البديلة www.atg.ps
- المجموعة الفلسطينية لمراقبة حقوق الإنسان www.phrmg.org
- مركز التراث الفلسطيني
www.palestineheritagecenter.com
- المركز الفلسطيني لحقوق الإنسان www.pchrgaza.org
- المركز الفلسطيني لحل الصراعات ”وئام“
<http://www.alaslah.org>

- المركز الفلسطيني للتقارب بين الشعوب
www.rapprochement.org / www.PCR.pc
- مركز المرأة للإرشاد القانوني والاجتماعي
<http://www.wclac.org/>
- مركز المعلومات البديلة www.alternativenews.org
- مركز الميزان لحقوق الإنسان www.mezan.org
- مركز حقوق الإنسان والمساعدة القانونية في القدس (JLAC)
- معابر www.maaber.org
- معهد مانديلا لحقوق الإنسان www.mandela-palestine.org
- مقاتلون من أجل السلام www.combatantsforpeace.org/
- منتدى العائلة - حلقة الآباء - منتدى العائلات
<http://www.theparentscircle.com/>
- منظمة الحق www.ahhaq.org
- المواطنون الإسرائيليون لتأييد حملة المقاطعة وسحب الاستثمارات وفرض العقوبات boycott-occupation.mahost.org/
- موتشسوم وواتش (لا للحواجز) machsomwatch.org
- نادي الأسير الفلسطيني www.ppsmo.org/
- نيفي شالوم / واحة السلام <http://nswas.org/>
- هولي لاند ترست www.holylandtrust.org
- الهيئة المستقلة لحقوق الإنسان (ICHR)
- ييش غفول www.yesh-gvul.org

منشورات مواطن

سلسلة دراسات وأبحاث

دراسات في الثقافة والتراث والهوية

شريف كناعنة

العَتَبَة في فتح الإِستيم

إسماعيل ناشف

العمالة الفلسطينية في إسرائيل ومشروع الدولة الفلسطينية

ليلى فرسخ

مدخل في تاريخ الديمقراطية في أوروبا

عبد الرحمن عبد الغني

النساء والقضاة والقانونون : دراسة أنثروبولوجية للمحكمة الشرعية في غزة

نهضة يونس شحادة

نساء على تقاطع طرق : الحركة النسوية الفلسطينية بين الوطنية والعلمانية والهوية

الإسلامية

إصلاح جاد

في المسألة العربية : مقدمة لبيان ديمقراطي عربي

عزمي بشارة

تمكين الأجيال الفلسطينية : التعليم والتعلم تحت ظروف القاهرة

تفيدة جرباوي وخليل نخلة

«وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» : الإسلاميون والديمقراطية

رجا بهلول

فلسطين الى أين؟ تلاشي حل الدولتين (باللغة الإنجليزية)

تحرير جميل هلال

الطبقة الوسطى الفلسطينية ، بحث في فوضى الهوية والمرجعية والثقافة

جميل هلال

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو : دراسة تحليلية نقدية
(طبعة ثانية - مزيدة)
جميل هلال

نظريات الانتقال إلى الديمقراطية : إعادة نظر في براديغم التحول
جون عاصي

من التحرير إلى الدولة : تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية -١٩٤٨ ١٩٨٨
هلعى باومغرتن

تقاسيم زمار الحي - مقالات
فيصل حوراني

بروز النخبة الفلسطينية المعولة (باللغة الانجليزية والعربية)
ساري حنفي وليندا طبر

الحدائة المتقهقرة : طه حسين وأدونيس
فيصل دراج

صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧ - ١٩٤٨
مصطفى العباسي

بالتعاون مع مؤسسة الدراسات الفلسطينية والمقدسية

الجلب ضد البحر
سليم تماري

من يهودية الدولة حتى شارون : دراسة في تناقض الديمقراطية الإسرائيلية
عز مي بشارة

تشكل الدولة في فلسطين (باللغة الانجليزية)
تحرير : مشتاق خان ، جورج جقمان ، انج أمندسن

مستقبل النظام السياسي الفلسطيني والآفاق السياسية الممكنة
تحرير : وسام رفيدي

وقائع مؤتمر مؤسسة مواطن ، ومعهد ابراهيم ابو لغد ٢٠٠٤

التربية الديمقراطية ، تعلم وتعليم الديمقراطية من خلال الحالات
ماهر الحشوة

حركة معلمي المدارس الحكومية في الضفة الغربية ٢٠٠٠-١٩٦٧
عمر عساف

المجتمع الفلسطيني في مواجهة الاحتلال : سوسيولوجيا التكيف المقاوم خلال انتفاضة الأقصى

ميجدي المالكى وآخرون

أسطورة التنمية في فلسطين : الدعم السياسي والمراوغة المستديمة
خليل نخلة

جذور الرفض الفلسطيني ١٩١٨-١٩٤٨
فيصل حوراني

القطاع العام ضمن الاقتصاد الفلسطيني
نضال صبري

هنا وهناك نحو تحليل للعلاقة بين الشتات الفلسطيني والمركز
ساري حنفي

تكوين النخبة الفلسطينية
جميل هلال

الحركة الطلابية الفلسطينية : الممارسة والفاعلية
عماد غياظة

دولة الدين ، دولة الدنيا : حول العلاقة بين الديمقراطية والعلمانية
رجا بهلول

النساء الفلسطينيات والانتخابات ، دراسة تحليلية
نادر عزت سعيد

المرأة وأسس الديمقراطية
رجا بهلول

النظام السياسي الفلسطيني بعد اوسلو : دراسة تحليلية نقدية
جميل هلال

ما بعد اوسلو : حقائق جديدة (باللغة الانجليزية)
تحرير : جورج جقمان

ما بعد الازمة : التغييرات البنوية في الحياة السياسية الفلسطينية ، وآفاق العمل
وقائع مؤتمر مواطن ٩٨

التحرر، التحول الديمقراطي وبناء الدولة في العالم الثالث
وقائع مؤتمر مواطن ٩٧

اشكالية تعثر التحول الديمقراطي في الوطن العربي
وقائع مؤتمر مواطن ٩٦

العطب والدلالة في الثقافة والانسداد الديمقراطي
محمد حافظ يعقوب

رجال الاعمال الفلسطينيين في الشتات والكيان الفلسطيني
ساري حنفي

مساهمة في نقد المجتمع المدني
عزمي بشارة

حول الخيار الديمقراطي
دراسات نقدية

سلسلة رسائل الماجستير

الدبلوماسية العامة الفلسطينية بعد الانتخابات التشريعية الثانية
دلال باجس

الانتخابات والمعارضة في المغرب بين التحول الديمقراطي
واستمرارية النظام السلطوي (١٩٩٧-٢٠٠٧)
نشأت عبد الفتاح

عن النساء والمقاومة: الرواية الاستعمارية
أميرة محمد سلمي

التغيير السياسي من منظور حركات الإسلام السياسي: «عحماس» نموذجاً
بلال الشوبكي

المجتمع المدني عيّن الوصفي والمعياري: تفكيك إشكالية المفهوم وفوضى المعاني
ناديا أبو زاهر

النقد والثورة: دراسة في النقد الاجتماعي عند علي شريعتي
خالد عودة الله

حركة عفتح» والسلطة الفلسطينية : تداعيات أو سلو الانتفاضة الثانية
سامر إرشيد

سلسلة مداخلات واوراق نقدية

الإعلام الفلسطيني والإنقسام : مرارة التجربة وإمكانيات التحسين
تحرير : خالد الحروب وجمان قنيص

قبل وبعد عرفات : التحول السياسي خلال الانتفاضة الثانية
جورج جقمان

أن تكون عربياً في أيامنا
عزمي بشارة

المنهاج الفلسطيني اشكاليات الهوية والمواطنة
عبد الرحيم الشيخ (محرراً)

الحريات المتساوية حقوق المرأة بين الديمقراطية - الليبرالية وكتب التربية الإسلامية
وليد سالم وإيمان الرطوط

اليسار والخيار الاشتراكي قراءة في تجارب الماضي ، واحتمالات الحاضر
داود تلحمي

تهافت أحكام العلم في إحكام الإيمان
عزمي بشارة

الديمقراطية والانتخابات والحالة الفلسطينية
وليم نصار

إطار عام لعقيدة أمن قومي فلسطيني
حسين آغا وأحمد سامح الخالدي

نحو أمة جديدة : قراءة في العولمة/ مناهضة العولمة والتحرر الفلسطيني
علاء محمود العزة وتوفيق شارل حداد

التنظيمات والأحزاب السياسية الفلسطينية
جميل هلال

الأحزاب السياسية الفلسطينية والديمقراطية الداخلية
طالب عوض وسميح شبيب

الراهب الكوري . . سفر وأشياء أخرى
زكريا محمد

واقع التعليم الجامعي الفلسطيني : رؤية نقدية
ناجح شاهين

طروحات عن النهضة المعاصرة
عزمي بشارة

ديك المنارة
زكريا محمد

لثلا يفقد المعنى (مقالات من سنة الانتفاضة الاولى)
عزمي بشارة

في قضايا الثقافة الفلسطينية
زكريا محمد

ما بعد الاجتياح : في قضايا الاستراتيجية الوطنية الفلسطينية
عزمي بشارة

المسألة الوطنية الديمقراطية في فلسطين
وليد سالم

الحركة الطلابية الفلسطينية ومهمات المرحلة تجارب وآراء
تحرير مجدي المالكي

الحركة النسائية الفلسطينية اشكاليات التحول الديمقراطي واستراتيجيات مستقبلية
وقائع مؤتمر مواطن ٩٩

اليسار الفلسطيني : هزيمة الديمقراطية في فلسطين
علي جرادات

الخطاب السياسي المتطور ودراسات أخرى
عزمي بشارة

أزمة الحزب السياسي الفلسطيني
وقائع مؤتمر مواطن ٩٥

المجتمع المدني والتحول الديمقراطي في فلسطين
زياد ابو عمرو واخرون

الديمقراطية الفلسطينية
موسى البديري واخرون

المؤسسات الوطنية، الانتخابات والسلطة
اسامة حلبي واخرون

الصحافة الفلسطينية بين الحاضر والمستقبل
ربى الحصري واخرون

الدستور الذي نريد
وليم نصار

سلسلة اوراق بحثية

دراسات اعلامية ٢

تحرير: سميح شبيب

دراسات اعلامية

تحرير: سميح شبيب

الثقافة السياسية الفلسطينية

باسم الزبيدي

العيش بكرامة في ظل الاقتصاد العالمي
ملتون فيسك

الصحافة الفلسطينية المقروءة في الشتات ١٩٦٥-١٩٩٤

سميح شبيب

التحول المدني وبذور الانتماء للدولة في المجتمع العربي والاسلامي
خليل عثامنة

المساواة في التعليم اللامنهجي للطلبة والطالبات في فلسطين
خولة الشخشير

التجربة الديمقراطية للحركة الفلسطينية الاسيرة
خالد الهندي

التحولات الديمقراطية في الاردن
طالب عوض

النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين
محمد خالد الازعر

البنية القانونية والتحول الديمقراطي في فلسطين
علي الجرباوي

سلسلة التجربة الفلسطينية

المقاومة الشعبية في فلسطين تاريخ حافل بالأمل والإنجاز
مازن قمصية

شفيق الحوت
سميح شبيب (محرراً)

أنيس صايغ والمؤسسة الفلسطينية السياسات ، الممارسات ، الإنتاج
سميح شبيب (محرراً)

انتفاضة الأقصى : حقول الموت
محمد دراغمة

أحلام بالحرية (الطبعة الثانية)
عائشة عودة

الواقع التنظيمي للحركة الفلسطينية الأسيرة دراسة مقارنة ١٩٨٨-٢٠٠٤
اياذ الرياحي

مغدوشة : قصة الحرب على المخيمات في لبنان
ممدوح نوفل

يوميات المقاومة في مخيم جنين
وليد دقة

أحلام بالحرية
عائشة عودة

الجري الى الهزيمة
فيصل حوراني

أوراق شاهد حرب
زهير الجزائري

البحث عن الدولة
ممدوح نوفل

سلسلة مبادئ الديمقراطية

ما هي المواطنة؟	المحاسبة والمساءلة
فصل السلطات	الحريات المدنية
سيادة القانون	التعددية والتسامح
مبدأ الانتخابات وتطبيقاته	الثقافة السياسية
حرية التعبير	العمل النقابي
عملية التشريع	الاعلام والديمقراطية

سلسلة ركائز الديمقراطية

التربية والديمقراطية

رجا بهلول

حالات الطوارئ وضمانات حقوق الانسان

رزق شقير

الدولة والديمقراطية

جميل هلال

الديمقراطية وحقوق المرأة بين النظرية والتطبيق

منار شوربجي

سيادة القانون

اسامة حلبي

حقوق الانسان السياسية والممارسة الديمقراطية

فاتح عزام

الديمقراطية والعدالة الاجتماعية

حليم بركات

سلسلة تقارير دورية

واقع التمييز في سوق العمل الفلسطيني من منظور النوع الاجتماعي
صالح الكفري ، خديجة حسين نصر

نحو قانون ضمان إجتماعي لفلسطين

تطوير قواعد عمل المجلس التشريعي نحو قانون للسلطة التشريعية
إعداد : جهاد حرب اشراف : عزمي الشعبي

نحو نظام انتخابي لدولة فلسطين الديمقراطية
جميل هلال ، عزمي الشعبي وآخرون

الاعمال التشريعية الصادرة عن رئيس السلطة الوطنية الفلسطينية
سناء عبيدات

دراسة تحليلية حول أثر النظام الانتخابي على تركيبة المجلس التشريعي القادم
احمد مجدلاني ، طالب عوض

